نهر الذهب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تأليف

[illegible]

[illegible]

المجلد الثالث

دار المعرفة
بيروت - لبنان

Marfat.com

مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير ، والمؤرخ الجليل
أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المتوفى فى عام ٣٤٦ من الهجرة

بتحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد
عفا الله تعالى عنه !

الجزء الثالث

دار المعرفة
بيروت - لبنان

Marfat.com

جميع حق الطبع محفوظ للمحقق
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حَقَّ حَمْدِهِ ، وصلاته وَسَلاَمه على سيدنا محمد وآله وصحبه وَجُنْدِهِ

Marfat.com

ذكر خلافة الحسن بن على بن أبى طالب

رضى الله عنهما !

موجز ثم بويع الحسنُ بن على بن أبى طالب بالكوفة بعد وفاة علىّ أبيه بيومين ، فى شهر رمضان من سنة أربعين ، ووَجَّه عُمَّاله إلى السَّوَاد والجبل.

وَقَتَلَ الحسنُ عبدَ الرحمن بن مُلْجَم ، على حسب ما ذكرنا[1] ، ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن على ، لخمس بقين من شهر ربيع [الأول][2] فى سنة إحدى وأربعين .

وكانت وفاة الحسن — وهو يومئذ ابنُ خمسٍ وخمسين سنة — بالسم . ودُفن بالبقيع مع أمه فاطِمَةَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ولى التوفيق .

---

(١) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص ٤٢٦)

(٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ب

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره وسيره ، رضى الله عنهما !

حدثنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدّه علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، قال : دخل الحسين عَلَى عمى الحسن [بن على] لما سقى[1] السم ، فقام لحاجة الإنسان ثم رَجَع ، فقال : لقد سقيت السم عدة مرار فما سقيت مثل هذه ، لقد لفظت طائفة من كبدى فرأيتنى أقلبه بعود فى يدى ، فقال له الحسين : يا أخى ، مَنْ سَقَاكَ ؟ قال : وما تريد بذلك ؟ فإن كان الذى أظنه فالله حسيبه ، وإن كان غيره فما أحِبُّ أن يؤخذ بى برىء[2] ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى توفى ، رضى الله عنه .

سم الحسن رضى الله عنه

وذكر أن امرأته جَعْدة بنت الأشعث بن قيس الكندى سقته السم ، وقد كان معاوية دسَّ إليها : إنك إن احتلْتِ فى قتل الحسن وَجَّهت إليك بمائة ألف درهم ، وزوَّجتك [من] يزيد ، فكان ذلك الذى بعثها على سَمّه ، فلما مات وَفَى لها معاوية بالمال ، وأرسل إليها : إنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

ذكر الذى سمه

وذكر أن الحسن قال عند موته : لقد حَاقَتْ شربته[3] ، وبلغ أمنيته ، والله لا وَفَى[4] [لها] بما وَعَدَ ، ولا صدق فيما قال .

وفى فعل جَعْدة يقول النَّجَاشِىُّ الشاعر ، وكان من شِيعَةِ علىّ ، فى شعر له طويل :

جَعْدَةُ بَكِّيهِ ولا تسأمى بَعْدَ بُكاء المُعْوِلِ الثاكل
لم يُسْبَلِ الستر عَلَى مثله فى الأرض من حَافٍ وَمِنْ ناعل
[كان إذا شُبَّتْ لَهُ ناره يرفعها بالسند الغاتل][5]

(١) فى ا « حين سقى السم » .
(٢) فى ا « أن يؤخذ فى دمى » وما هنا عن ب أحسن .
(٣) فى ا « وقد غلبت شربته » (٤) فى ب « والله ماوفى بماوعد »
(٥) هذا البيت ساقط من ا ، وهكذا وقع فى ب ، وليس بذاك

Marfat.com

[كيما يراها بأنس مُرْمِلٌ وفرد قوم ليس بالآهل] (١)

[يغلى بنىء اللحم ، حتى إذا أنضجه لم يغل من آكل] (١)

[أعنى الذى أَسْلَمَنَا هُلْكه للزمن المستحرج الماحل] (١)

وفى ذلك يقول آخر من شيعةِ على رضى الله عنه :

تأسَّ فكم لك من سَلْوَة تُفَرِّجُ عنك غليل الْحَزَنْ

بموت النَّبىّ ، وقتل الْوَصِىِّ ، وقتل الْحُسَيْن ، وسم الْحَسَنْ

قال المسعودى رحمه الله : ووجدت فى كتاب « الأخبار » لأبى الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى عن صالح بن على بن عطية الأصم قال : حدثنا عبد الرحمن بن العباس الهاشمى ، عن أبى عون صاحب الدولة ، عن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، عن أبيه ، عن جده ، عن العباس بن عبد المطلب ، قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل على بن أبى طالب ، فلما رآه أَسْفَرَ فى وجهه ، فقلت : يا رسول الله ، إنك لتُسْفِر فى وجه هذا الغلام ، فقال : يا عَمَّ رسول الله ، وَاللهِ لَلّهُ أشَدُّ حباً له مِنِّى ، إنه لم يكن نبى (٢) إلا وذريته الباقية بعده من صُلْبه ، وإن ذريتى بعدى من صُلْب هذا ، إنه إذا كان يوم القيامة دُعِىَ الناس بأسمائهم وأسماء أمهاتهم ستراً من الله عليهم ، إلا هذا وشيعته فإنهم يُدْعَوْنَ بأسمائهم وأسماء آبائهم لصحة ولادتهم .

رثاء ابن الحنفية للحسن

ولما دُفِنَ الحسن رضى الله عنه وقَفَ محمد ابن الحنفيَّةِ أخوه على قبره ، فقال : لئن عزت حياتُكَ ، لقد هَدَّتْ وَفَاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى ، وَخَلَفُ أهل التقوى ، وخامس أصحاب الكساء ، غَذَتْكَ بالتقوى أكفُّ الحق ، وأرضعتك ثُدِىُّ الإيمان ، وَرُبِّيتَ

(١) هذه الأبيات لاتوجد فى ا .

(٢) فى ب « ولم يكن نبى إلا وذريته ــ إلخ » .

Marfat.com

فى حِجْرِ الإسلام ، فطِبْتَ حيًّا وميتاً ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد ! .

ومن رثاء ابن الحنفية للحسن

ووجدت فى وجه آخر من الروايات فى أخبار أهل البيت أن محمداً وقف على قبره فقال : أبا محمد ، لئن طابت حياتك ،لقد فجع[1] مماتك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت خامس أهل الكساء ، وابن محمد المصطفى ، وابن على المرتضى ، وابن فاطمة الزهراء ، وابن شجرة طُوبَى ؟ ثم أنشأ يقول رضى الله عنه :

أَأَدْهن رأسى أم تطيب مجالسى وَخَدُّكَ معفور وأنت سليب ؟
[أأَشْرَب ماء المزن من غير مائه وقد ضمن الأحشاء منك لهيب] ؟[2]
سأبكيك ما ناحت حمامة أيْكَةٍ وما اخْضَرَّ فى دَوْحِ الحجاز قضيب
غريب وَأَكْنَافُ الحجاز تَحُوطه ألا كل من تحت التراب غريب

ووجدت فى بعض كتب التواريخ فى أخبار الحسن ومعاوية أن بخلافة الحسن صَحَّ الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثين سنة » لأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه تَقَلَّدَهَا سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام[3] ، وعمر رضى الله عنه عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال[4] ، وعثمان رضى الله عنه إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً ، وعلى رضى الله عنه أربع سنين وسبعة أشهر إلا يوماً[5] ، والحسن رضى الله عنه ثمانية أشهر وعشرة أيام ، فذلك ثلاثون سنة .

سرور معاوية بموت الحسن

وحدث محمد بن جرير الطبرى ، عن محمد بن حُمَيد الرَّازى ، عن على بن مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، عن الفضل بن عباس بن ربيعة ، قال : وفد عبد الله بن العباس على معاوية ، قال : فوالله إنى لفى المسجد إذ كَبَّرَ معاوية

(١) فى ب « فقد فجع » (٢) هذا البيت لا يوجد فى ا .
(٣) فى ا « وأربعة أيام » .
(٤) فى ب « عشر سنين وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما » .
(٥) فى ب « أربع سنين وتسعة أشهر ويوما » .

Marfat.com

فى الخضراء فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجَتْ فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها ، فقالت : سَرَّكَ الله يا أمير المؤمنين ! ما هذا الذى بلغك فسررت به ؟ قال : موتُ الحسن بن على ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكَتْ وقالت: مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال معاوية : نعما والله ما فعلت[(١)] ، إنه كان كذلك أهلا أن تبكى عليه ، ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما ، فراح فدخل على معاوية ، قال : علمتُ يا ابن عباس أن الحسن توفى ، قال : ألذلك كبرت ؟ قال : نعم ، قال : [أما] والله ما موْتُه بالذى يؤخِّر أجلك ، ولا حُفْرَته بسَادَّةٍ حُفْرَتَكَ ، ولئن أصبنا به [قبله] بسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بعده بسيد الأوصياء[(٢)] ، فجبر الله تلك المصيبة ، ورفع تلك العَثْرَة ، فقال : وَيْحَكَ يا ابن عباس ! ما كلمتك [قط] إلا وجدتك معداً[(٣)] .

وفى نسخة أنه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية فى الخضراء ، وكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة من خوخة لها ، فقالت : سَرَّكَ الله يا أمير المؤمنين ! ماهذا الذى بلغك ؟ قال : أتانى البشيرُ بصلح الحسن وانقياده ، فَذَكَرَتْ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ابنى هذا سيد أهل الجنة ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين » فالحمد لله الذى جعل فِئَتِى إحدى الفئتين .

ولما صالح الحسن معاوية لما ناله من أهل الكوفة وما نزل به أشار عمرو بن العاص على معاوية ــ وذلك بالكوفة ــ أن يأمر الحسن فيقوم فيخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال : ما أريد أن يخطب [بالناس] ، قال

(١) فى ا « أما والله لئن فعلت » .
(٢) فى ا « بسيد الوصيين » .
(٣) فى ا « إلا وجدتك محقدا » .

Marfat.com

عمرو : لكنى أريد أن يبدو عِيُّه فى الناس بأنه يتكلم فى أمور لا يَدْرِى ماهى ، ولم يزل به حتى أطاعه ؛ فخرج معاوية فخطب الناس ، وأمر رجلا أن ينادى بالحسن بن على ، فقام إليه ، فقال : قم يا حسن فكلِّم الناسَ ، [فقام] فتشهد فى بديهته ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحَقَنَ دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُوَلٌ ، قال الله عزَّ وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (قل إن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ، ثم قال فى كلامه ذلك : يا أهل الكوفة ، لو لم تُذْهَل[1] نفسى عنكم إلا لثلاث خصال لذَهِلت : مَقْتَلكم لأبى ، وسلبكم ثقلى ، وطعنكم فى بطنى ، وإنى قد بايعت معاوية ، فاسمعوا له وأطيعوا .

وقد كان أهل الكوفة انتهبوا سُرَادق[2] الحسن وَرَحْله ، وطعنوا بالخنجر فى جوفه ، فلما تيقن ما نزل به انقاد إلى الصلح .

خطبة للحسن

وقد كان علىّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه اعتلّ ، فأمر ابنه الحسن رضى الله عنه أن يصلى بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله لم يبعث نبيًّا إلا اختار له نقيباً وَرَهْطاً[3] وبيتاً ، فوالذى بعث محمداً بالحق نبيًّا لا ينتقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عَمَله مثله ، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين .

خطبة أخرى

ومن خطب الحسن رضى الله عنه فى أيامه فى بعض مقاماته أنه قال : نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ، وأهل بيته

(١) فى ب « لم تذهب نفسى عنكم إلا لثلاث خصال : أذهلت مقتلكم لأبى » .

(٢) فى ا « انتهبوا شرار الحسن ورحله وطعنوه » .

(٣) فى ب « إلا اختار له نفسا ورهطا وبيتا » .

Marfat.com

الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خَلَّفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانى كتاب الله، فيه تفصيل كل شىء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خَلْفِهِ ، والمعول عليه فى كل شىء ، لا يخطئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ؛ فإنَّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله [والرسول وأولى الأمر] مقرونة (فإن تنازعتم فى شىء فَرُدُّوه إلى الله والرسول . . . ولو رَدُّوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأحذركم الإصغاء لهتاف[1] الشيطان إنه لكم عدو مبين ؛ فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نَكَصَ على عقبيه، وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون) فتلقون للرماح أزرا ، وللسيوف جزرا ، وللعمد خطأ، وللسهام غرَضاً ، ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، والله أعلم .

(١) فى ا « لهنات الشيطان » .

Marfat.com

ذكر خلافة معاوية[1] بن أبى سفيان

[و] بويع معاوية فى شوال سنة إحدى وأربعين ، ببيت المقدس ، موجز
فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفى فى رجب سنة إحدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودُفن بدمشق بباب الصغير ، وقبره يُزَار إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس .

(١) فى ا « ذكر أيام معاوية » .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره وسيره، ونوادر من بعض أفعاله(١)

وفى سنة ثلاث وخمسين قَتَلَ معاوية حُجْرَ بن عدى الكِنْدِىَّ ، وهو أول من قتل صبراً فى الإسلام : حمله زياد من الكوفة ومعه تسعةُ نَفَرٍ من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها ، فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ، ولا عقب له من غيرها :

مقتل حجر الكندى

تَرَفَّعْ أيها القمر المنـــير لعلك أن ترى حُجْراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله ، كَذَا زَعَمَ الأمير
وَيَصْلبه عَلَى بَابَىْ دمشق وتأكل من مَحاسِنِه النسور
[تخيرت الخبائر بعد حُجْرٍ وَطَابَ لها الخورنقُ وَالسَّدِير](٢)
ألا يا حجر حجر بنى عدى تلقتك السلامة وَالسُّرُور
أخاف عليك ما أرْدَى عليا وَشَيْخًا فى دمشق له زئير(٣)
ألا يا ليت حجراً مات موتاً ولم يُنْحَر كما نحر البَعِير
فإن تهلك فكل عَمِيد قَوْم إلى هُلْكٍ من الدُّنْيَا يَصِير

ولما صار إلى مرج عذراء على اثنى عشر ميلا من دمشق تقدَّم البريد بأخبارهم إلى معاوية ، فبعث برجل أعْوَر ، فلما أشرف على حُجْر وأصحابه قال رجل منهم : إن صدق الزَّجْر فإنه سيقتل مِنَّا النصف وينجو الباقون ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أما ترون الرجل المقبل مُصَاباً بإحدى عينيه ، فلما وصل إليهم قال لحجر : إن أمير المؤمنين [قد] أمرنى بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولى لأبى تراب وقتل

(١) فى ا « ونوادره وأفعاله » (٢) سقط هذا البيت من ا
(٣) فى ا « ولم أردى عديا » .

Marfat.com

أصحابك ، إلا أن ترجعوا عن كفركم ، وتلعنوا صاحبكم وتتبرؤوا منه ، فقال حُجْر وجماعة ممن كان معه : إن الصبر على حد السيف لأيْسَرُ علينا مما تَدْعُونَا إليه ، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحَبُّ إلينا من دخول النار ، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من على ، فلما قُدِّمَ حجر ليُقْتل قال : دعونى أصلى ركعتين ، فجعل يطول فى صلاته ، فقيل له : أجَزَعاً من الموت ؟ فقال : لا ، ولكنى ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت ، وماصليت قط أخَفَّ من هذه ، وكيف لا أجزع ، وإنى لأرى قبراً محفوراً ، وسيفاً مشهوراً [وكَفَناً منشوراً][1] ، ثم تقدم فنحر ، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل : إن قتلهم كان فى سنة خمسين .

عدى بن حاتم ومعاوية

وذكر أن عدى بن حاتم الطائى دخل على معاوية ، فقال له معاوية : ما فعلت الطرفات ؟ يعنى أولاده ، قال : قتلوا مع على ، قال : ما أنصفك عَلِىّ قتل أولادك وبَقّى أولاده ، فقال عدى : ما أنْصَفْتَ علياً[2] إذ قتل وبقيتَ بعده ، فقال معاوية : أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن ، فقال عدى : والله إن قلوبنا التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن أسيافنا التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فتراً لندنيَنَّ إليك من الشر شبراً ، وإن حَزَّ الحلقوم[3] وحشرجة الحيزوم لأهْوَنُ علينا من أن نسمع المساءة فى على ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف ، فقال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدىّ محادثاً له كأنه ما خاطبه بشىء .

بين عمرو بن عثمان وأسامة عند معاوية

وذكر أن معاوية بن أبى سفيان تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرض ، فقال عمرو

---

(١) لاتوجد هذه العبارة فى ب
(٢) فى ب « ما أنصفك على »
(٣) فى ا « وأن جز الحلقوم » .

Marfat.com

لأسامة : كأنك تنكرنى ، فقال أسامة : مايسرنى نسبك بولأنى ، فقام مروان ابن الحكم فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان ، وقام الحسن فجلس إلى جانب أسامة ، فقام سعيد بن العاص فجاس إلى جانب مروان ، فقام الحسين فجلس إلى جانب الحسن ، وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب سعيد ، فقام عبد الله بن جعفر فجلس إلى جانب الحسين ، وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس إلى جانب ابن عامر ، فقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب ابن جعفر ، فلما رَأى ذلك معاوية قال : لا تعجلوا ، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أُسَامَةَ ، فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين ، وأقبل الأمويون عليه فقالوا : ألا كنت أصلحت [بيننا] قال : دعونى فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس على عقلى ، وإن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بَلْوَى ، وتمثل بأبيات امرىء القيس المتقدمة فى هذا الكتاب فى أخبار عمر رضى الله عنه ، وأولها :

الحرب أول ما تكون فتية تدنو بزينتها لكل جهول[(1)]

ثم قال : ما فى القلوب يشب الحروب ، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير ، وتمثل :

قد يُلحق الصغير بالجليل وإنما القَرْمُ من الأفيلِ
وتسحق النَّخْل منَ الفسيلِ

إلحاق زياد بأبى سفيان

قال المسعودى : ولما هَمَّ معاوية بإلحاق زياد بأبى سفيان أبيه — وذلك فى سنة أربع وأربعين — شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازى[(2)] ومالك بن ربيعة السلولى والمنذر بن الزبير بن العوام أن أباسفيان أخبر أنه ابنه ، وأن أبا سفيان قال لعلى عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب :

أما والله لولا خَوْف شخص يرانى يا علىُّ من الأعادى

(١) ا « تدعو بزينتها » .
(٢) فى ا « الجرمازى » تحريف .

Marfat.com

لبين أمره صَخْرُ بن حرب ولم يكن الجمجم عن زياد(١)
ولكنى أخاف صُرُوف كف لها نقم وَنَنْى عن بلادى
فقد طالت محاولتى ثقيفاً وتركى فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبى مريم السلولى ، وكان أَخْبَرَ الناس بِبَدْءِ الأمر [وذلك] أنه جمع بين أبى سفيان وسُمَيَّة أم زياد فى الجاهلية على زنا ، وكانت سُمَيَّة من ذوات(٢) الرايات بالطائف تؤدى الضريبة إلى الحارث بن كَلَدَة ، وكانت تنزل بالموضع الذى تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر(٣) فى محلة يقال لها حارة البغايا .

وكان سبب ادعاء معاوية [له] فيما ذكر أبو عبيدة مَعْمَر(٤) بن المثنَّى أن عليًّا كان وَلاَّه فارس حين أخرج منها سهل بن حُنَيْف ، فضرب زياد ببعضهم بعضاً حتى غلب عليها ، وما زال يتنقل فى كُوَرِهَا حتى صلح أمر فارس ، ثم وَلاه على إصْطَخْرَ ، وكان معاوية يتهدده ، ثم أخذ بُسْر(٥) بن أرطاة عبيد الله وسالما ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنهما إن لم يراجع ويدخل فى طاعة معاوية [وكتب معاوية إلى بُسْر ألا يعرض لابْنَىْ زياد ، وكتب إلى زياد أن يدخل فى طاعته] وَيَرُدَّه إلى عمله ، فقدم زياد على معاوية ، فصالحه على مال وحلى ، ودعاه معاوية إلى أن يستحلفه ، فأبى زياد ذلك] ، وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية : ارْمِ بالغرض الأقْصَى ، ودَعْ عنك الفُضُولَ ، فإن هذا الأمر لا يمد إليه أحد يداً إلا الحسن ابن على وقد بايع لمعاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فقال زياد : فأَشِرْ علىّ ، قال : أرى أن تنقل أصلك إلى أصله ، وَتَصِلَ حبلك بحبله ، وأن تعير الناس

(١) فى ب « ولم يكن المحجم عن زياد » .
(٢) فى ا « من ذوات الزنا بالطائف » وليس بشىء .
(٣) فى ا « خارجا من الحصن » (٤) فى ب « أبو عبيدة عامر بن المثنى » تحريف
(٥) فى ا « بشر بن أرطاة » .

Marfat.com

منك أُذُناً صَمَّاء ، فقال زياد : يا ابن شعبة ، أأَغْرس عوداً فى غير منبته ولا مَدَرَةَ فتحييه ولا عِرْقَ فيسقيه ؟ ! ثم إن زيادا عزم على قبول الدعوى وأخذ برَأْى ابن شعبة ، وأرسلت إليه جويرية بنت أبى سفيان عن أمر أخيها [معاوية] ، فأتاها فأذنت له وكَشَفَتْ عن شعرها بين يديه ، وقالت : أنت أخى أخبرنى بذلك أبو مريم(١) ، ثم أخرجه معاوية إلى المسجد ، وجمع الناس ، فقام أبو مريم السلولى فقال : أشهد أن أبا سفيان قَدِمَ علينا بالطائف وأنا خَمَّار فى الجاهلية، فقال : ابغنى بغياً، فأتيته وقلت له : لم أجد إلا جارية الحارث بن كَلَدَة سُمَيَّة ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتمونى لكان أحب إلَىَّ ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها(٢) ، وأغلقت الباب عليهما وقعدت دهشاناً(٣) ، فلم ألبث أن خرج عَلَىَّ يمسح جبينه ، فقلت : مَهْ يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها(٤) ، فقام زياد فقال : أيها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدرى حق ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد(٥) ربيبًا مبروراً أو وليًّا مشكوراً ، والشهود أعلم بما قالوا ، فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفى — وكانت صفية مولاة سُمَيَّة — فقال : يا معاوية ، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش ، مُخَالَفَةً لكتاب الله تعالى ، وانصرافًا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ، فقال معاوية : والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئًا وقوعها ، فقال يونس : هل إلا إلى الله

---

(١) فى ا « أخبرنى بذلك أبى » (٢) فى ا « بكور درعها »
(٣) فى ا « وقعدت دنقشانا » (٤) فى ا « وذفر من مرفقيها »
(٥) فى ب « وإنما كان عبد بنيا مبرورا ».

Marfat.com

ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله ، فقال عبد الرحمن بن أم الحكم فى ذلك ويقال : إنه ليزيد بن مفرغ[1] الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن حَرْب مُغَلْغَلَةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال : أبُوكَ عَفٌّ وترضى أن يقال : أبُوكَ زانى ؟
فأشهد أن رِحْمَكَ من زياد كَرِحْمِ الفيل من ولد الأتان

وفى زياد وإخوته يقول خالد النجارى :

إن زيَاداً ونافعاً وأبَا بَكْرَةَ عندى من أعجب العَجَبِ
إن رجالاً ثلاثة خلقوا من رِحْمِ أنثى مخالفى النسب
ذا قُرَشِيّ فيما يقول ، وَذَا مَوْلًى ، وهذا بِزَعْمِهِ عرَبِى[2]

بين معاوية وعبد الله بن هاشم المرقال

ولما قتل على كرم الله وجهه كان فى نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عُتْبَة بن أبى وَقَّاص المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشم إحَنٌ ، فلما استعمل معاوية زياداً على العراق كتب إليه ، أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم ابن عتبة ، فشدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابْعَثْ به إلَيَّ ، فحمله زياد من البصرة مُقَيَّداً مغلولا إلى دمشق ، وقد كان زياد طَرَقَه بالليل فى منزله بالبصرة ، فأدخل إلى معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا الذى يقول أبوه يوم صِفّين :

إنى شَرَيْتُ النَّفس لما اعْتَلاَّ وأكْثَرَ اللوم وما أقَلاَّ
أعْوَر يبغى أهْلَهُ محلاَّ قد عالج الحَيَاة حتى مَلاَّ
لا بُدَّ أن يَفُلَّ أو يُفلاَّ أشلُّهم بذى الكُعُوب شَلاَّ
لا خَيْرَ عندى فى كَرِيم وَلَّى

(١) فى ا « ليزيد بن مفرع » محرفا .
(٢) فى ب « وذا ابن عمه عربى » محرفا

Marfat.com

فقال عمرو متمثلا :

وقد يَنبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثرَى   وتبقى حزَازَاتُ النفوس كما هيا

دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب أوداجه على أسباجه ، ولا تردَّه إلى [أهل] العراق ، فإنه لا يصبر عن النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب إبليس ليوم هيجاء ، وإن له هوًى سيُرديه[١] ، ورأيا سيطغيه ، وبطانة ستقويه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فقال عبد الله : يا عمرو ، إن أُقْتَلْ فرجل أسْلَمه قومه ، وأدركه يومُه ، أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بسمال النطاف ، وعقائق الرصاف ، كالأمة السوداء ، والنعجة القَوْدَاء ، لا تدفع يد لامس ، فقال عمرو : أما والله لقد وقعت فى لهاذم شَدْقَم للأقران ذى لبد ، ولا أحسبك منفلتا من مخاليب أمير المؤمنين ، فقال عبد الله : أما والله يا ابن العاص إنك لبَطِر فى الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غَشُوم إذا وليت ، هَيَّابة إذا لقيت ، تهدر كما يهدر العَوْدُ المنكوس المقيد بين مجرى الشول[٢] لا يستعجل فى المدة ، ولا يرتجى فى الشدة ، أفلا كان هذا منك إذ غمرك أقوام لم يعنفوا صغاراً ، ولم يمرُقوا كباراً ، لهم أيد شداد ، وألسنة حداد ، يدعمون العوج[٣] ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليل ، ويشفون الغليل[٤] ، ويعزون الذليل ، فقال عمرو : أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه ، وتبق أمعاؤه ، وتضطرب أطلاؤه ، كأنما انطبق عليه صمد ، فقال عبد الله : يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقالَتَكَ فوجدنا لسانك كذوبا غادراً ، خلوتَ بأقوام لا يعرفونك ، وجُنْدٍ لا يسامونك ، ولو رمت المنطق فى غير أهل الشام لجحظ إليك عقلك ، ولتلجلج لسانك ،

---

(١) فى ب « هوى سيؤديه » .   (٢) فى ا « بين مجرى السيول »

(٣) فى ا « يزعمون العوج ، ويذهبون العرج »   (٤) فى ا « ويشفون العليل »

Marfat.com

ولا ضطرب نخذاك اضطراب القَعُودِ الذى أثقله حمله(١) ، فقال معاوية : إيهاً عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرتُكَ أمراً حازماً فعصيتَنِى وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذى أعان علياً يوم حزِّ الغَلَاصم
فلم ينثنى حتى جرت من دمائنا بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه ، والمرء يُشْبه شيخه ويوشك أن تقرع به سن نادم

فقال عبد الله يجيبه :

مُعَاوِىَ إن المرء عمراً أبَتْ له ضغينةُ صــدرٍ غِشُّها غير نائم
يرى لك قتلى يا ابن هند ، وإنما يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم
على أنهم لا يقتلون أسيرهم إذا منعت عنه عهود المسالم
وقد كان منا يوم صِفِّينَ نفرة عليك جناها هاشم وابن هاشم
قضى ما انقضى منها ، وليس الذى مضى ولا ما جرى إلا كأضغاث حالم(٢)
فإن تَعْفُ عنى تعف عن ذى قرابة وإن تَرَ قتلى تستحلَّ محارمى

فقال معاوية :

أرى العفو عن عُلْيَا قريش وسيلةً إلى الله فى يوم العصيب القماطر
ولست أرى قَتْلِي الغَدَاةَ ابنَ هاشمٍ بإدراك ثأرى فى لؤى وعامر(٣)
بل العفو عنه بعد ما بان جُرْمُهُ وزلَّتْ به إحدى الجدود العواثر
فكان أبوه يوم صفين جمرة علينا فأردته رِماح نهــابِر

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية : من يخبرنى عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) فى ا « نهكه حمله » . (٢) هذا البيت يروى فى ا هكذا :
قضى ما قضى فيتاله الله ما قضى وما قد مضى إلا كأضغاث حالم
(٣) فى ب « ولست أرى قتل العداة ابن هاشم » .

أما الجود فابتذال المــال ، والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الأقوام[١] ، والصبر عند ازوراو الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح فى الدين ، والإصلاح[٢] للمال ، والمحاماة عن الجار .

بين معاوية ومحمد ابن أبى بكر

ولمـا صرف على رضى الله عنه قَيْسَ بن سعد بن عُبَادَةَ عن مصر وَجَّه مكانه محمد بن أبى بكر ، فلما وصل إليها كتب إلى معاوية كتاباً فيه : من محمد بن أبى بكر ، إلى الغاوى معاوية بن صخر ، أما بعد ، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عَبَث منه ، ولا ضعف فى قوته ، ولا حاجة به إلى خلقهم ، ولـكنه خلقهم عبيداً ، وجعل منهم غويًّا ورشيداً ، وشقياً وسعيداً ، ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه بعلمه ، واصطفاه برسالته ، وائتمنه على وحيه ، وبعثه رسولاً ومبشراً ونذيراً [ووكيلا] فـكان أول من أجاب وأناب وآمن وصدق وأسلم وسَلَّم أخوه وابن عمه على بن أبى طالب : صدقه بالغيب المـكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووَقَاه بنفسه كل هَوْل ، وحارب حَرْبه ، وسالم سِلْمَه ، فلم يبرح مبتذلا لنفسه فى ساعات الليل [والنهار] والخوف والجوع والخضوع حتى برز سابقاً لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له فى فعله ، وقد رأيتك تُسَاميه وأنت أنت ، وهو هو ، أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم : أخوه الشارى[٣] بنفسه يوم مؤتة ، وعمه سيد الشهداء يوم أُحد ، وأبوه الذابُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حَوْزَته ، وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تَبْغِيَانِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغَوَائل ، وتجهدان فى إطفاء نور الله ، تجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المــال ، وتؤلِّبَان عليه القبائل ، [و] على ذلك مات أبوك ، وعليه خَلَفْتَه ، والشهيد عليك من تدنى ويلجأ إليك

(١) فى ب « فالجراءة على الإقدام » . (٢) فى ب « والصلاح للحال »
(٣) فى ا « وأخوه السارى بنفسه » .

Marfat.com

من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق ، والشاهد لعلى — مع فضله المبين القديم — أنصارُهُ الذين معه [وهم] الذين ذكرهم الله بفضلهم ، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يَرَوْنَ الحق فى اتباعه ، والشقاء فى خلافه ، فكيف — يا لك الويل ! — تَعْدِلُ نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ووصيه وأبو ولده : أول الناس له اتباعا ، وأقربهم به عهداً ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ، فتمتَّعْ فى دنياك(١) ما استطعت بباطلك ، وليمددك ابن العاص فى غوايتك ، فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وَهَى ، ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا ، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى أمِنْتَ كَيْده(٢) ، ويئست من رَوْحه ؛ فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه فى غرور ، والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه معاوية : من معاوية بن صخر ، إلى الزارى على أبيه محمد ابن أبى بكر . أما بعده : فقد أتانى كتابُكَ تذكر فيه ما الله أهْلُه فى عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، مع كلام [كثير لك] فيه تضعيف ، ولأبيك [فيه] تعنيف ، ذكرت فيه فضل ابن أبى طالب ، وقديم سوابقه ، وقرابته إلى رسول(٣) الله صلى الله عليه وسلم ، ومُوَاساته إياه فى كل هَوْل وخوف ، فكان احتجاجك علىّ وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد ربًّا صرف هذا الفضل عنك ، وجعله لغيرك ، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبى طالب وحَقه لازماً لنا مبروراً علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده ، وأتم له ماوعده ، وأظهر دعوته ، وأبْلَجَ حُجَّته ، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه ، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حَقَّه ،

(١) فى ا « فتمتع بدنياك » . (٢) فى ب « آمنك كيده »

(٣) فى ا « وقرابته من رسول الله » .

وخالفه على أمره ، على ذلك اتّفقا واتّسقا ، ثم إنهما دَعَوَاه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهمَّا به الهموم ، وأرادا به العظيم ، ثم إنه بايع[1] لهما وسَلّم لهما ، وأقاما لايشركانه فى أمرهما ، ولا يُطْلِعانه على سرهما ، حتى قبضهما الله ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ، فطلبتما له الغوائل ، وأظهرتما عداوتكما [فيه] حتى بلغتما فيه مُنَاكما ، فخذ حذرك ياابن أبى بكر ، وقس شبرك بفترك ، يقصر عن أن توازى أو تساوى مَنْ يَزِنُ الجبال بحلمه ، لا يلين عن قَسْرٍ قناته ، ولا يدرك ذو مقال[2] أناته [أبوك] مَهّد مِهاده ، وبنى لملكه وساده ، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدَّ به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبى طالب ، ولسلمنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به [من] قبلنا فأخذنا بمثله ، فعب أباك بما بدا لك أودَعْ ذلك ، والسلام على من أناب .

من معاوية إلى على

ومما كتب به معاوية إلى علىّ : أما بعد ، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك مابلغت لم يجنها بعضُنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها مانَرُمّ به مامضى[3] ، ونُصلِح به مابقى ، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمنى لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنك لاترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولاتخاف من القتال إلاماأخاف ، وقد والله رَقّت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ، ويسترق به حر ، والسلام .

جواب على لمعاوية

فكتب إليه علىّ كرم الله وجهه : من علىّ بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد : فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك مابلغت لم يجنها بعضُنا على بعض ، وأنا وإياك نلتمس منها غاية

---

(١) فى ا « ثم إنه بايعهما » . (٢) فى ا « ولا يدرك ذو مقال نياته »

(٣) فى ب « ما نرد به ما مضى » .

Marfat.com

لم نبلغها بعدُ ، فأما طلبك منى الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام على الدنيا بأحْرَصَ من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن ، وليس أمية كهاشم ، ولا حَرْب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المُبْطِل كالمحقّ ، وفى أيدينا فضل النبوة التى قَتَلْنَا بها العزيز ، وبعنا بها الحر ، والسلام .

بين سعد ومعاوية

وحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، عن محمد بن حميد الرازى ، عن أبى مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، عن ابن أبى نجيح[1] ، قال : لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد ، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار النَّدْوَة ، فأجلسه معه على سريره ، ووَقَعَ معاوية فى على وشَرَعَ فى سَبِّه ، فزحف سعد[2] ثم قال : أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على ، والله لأن يكون فىَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لى من الولد ما لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قاله يوم خيبر : «لأعطيَنَّ الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله [ويحب الله ورسوله][3] ليس بفرَّار ، يفتح الله على يديه » أحبُّ إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فى غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » أحبُّ إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت ، ثم نهض .

(١) فى ا ، ب « عن محمد بن إسحاق بن أبى نجيح » وليس بذاك .
(٢) فى ا « فرجف سعد » . (٣) زيادة فى ب وحدها

Marfat.com

ووجدت فى وجه آخَرَ من الروايات ، وذلك فى كتاب على بن محمد بن سليمان النوفلى فى الأخبار ، عن ابن عائشة وغيره ، أن سعداً لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضَرَطَ له[1] معاوية ، وقال له : اقعد حتى تسمع جواب ما قلت ، ما كُنْتَ عندى قَطُّ ألأم منك الآن ، فهلا نصرته ، ولم قعدت عن بيعته ؟ فإنى لو سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مثل الذى سمعت فيه لكنت خادماً لعلى ما عشت ، فقال سعد : والله إنى لأحق بموضعك منك ، فقال معاوية : يأْبَى عليك ذلك بنو عذرة ، وكان سعد فيما يقال لرجل من بنى عذرة ، قال النوفلى : وفى ذلك يقول السيد بن محمد الحميرى :

سائل قريشاً بها إن كنت ذا عَمَهٍ ... مَنْ كان أثْبَتَهَا فى الدين أوْتَادَا
من كان أقدمها إسلاما ، وأكثرها ... علما ، وأطهرها أهلا وأولادا
من وحَّدَ الله إذ كانت مكذبة ... تدعو مع الله أوثاناً وأندادا
من كان يُقْدِم فى الهيجاء إن نكلوا ... عنها ، وإن بخلوا فى أزمة جادا[2]
من كان أعدلها حكماً ، وأقسطها ... حلماً ، وأصدقها وعداً وإيعادا
إن يَصْدُقُوكَ فلم يَعْدُوا أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
إن أنت لم تلق من تَيْمٍ أخا صَلَفٍ ... ومن عَدِيٍّ لحق الله جُحَّادا
أو من بنى عامر ، أو من بنى أسد ... رَهْطِ العبيد ذوى جهل وأوغادا
أو رهط سعد، وسعد كان قد علموا ... عن مستقيم صراط الله صَدَّادا
قوم تَدَاعَوْا زنيما ثم سادهُمُ ... لولا خمول بنى زهر لما سادا

وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة[3] ممن قعد عن على بن أبى طالب ، وأبوا أن يبايعوه هم غيرهم ممن ذكرنا من القُعَّاد[4]

---

(١) فى ا « اضطر له معاوية » . (٢) فى ا « من كان أقوم فى الهيجاء »
(٣) فى ا « ومحمد بن مسلمة » . (٤) فى ا « من القعد » .

Marfat.com

وذلك أنهم قالوا : إنها فتنة ، ومنهم من قال لعلى : أعْطِنا سيوفاً نقاتل بها معك ، فإذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم وَنَبَتْ عن أجسامهم ، وإذا ضربنا بها الكافرين سَرَتْ فى أبدانهم ، فأعرض عنهم علىّ ، وقال : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

بين معاوية وأبى الطفيل الكنانى

وذكر أبومخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخباريين أن الأمر لما أفضى إلى معاوية أتاه أبو الطفيل الكنانى فقال له [معاوية] : كيف وَجْدُك على خليلك أبى الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو إلى الله التقصير ، فقال معاوية : أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ قال : لا ، ولكنى فيمن حضر[1] فلم ينصره ، قال : فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ قال : منعنى ما منعك إذ تربَّصُ به[2] رَيْبَ المنون وأنت بالشام ، قال : أو ما ترى طلبى بدمه نصرة له ؟ قال : بلى ، ولكنك وإياه كما قال الجعدى[3]

لا ألفينَّكَ بعد الموت تَنْدُبنى وفى حياتىَ ما زودتنى زادا

ودخل على معاوية ضرار بن الخطاب فقال له : كيف حُزْنُكَ على أبى الحسن؟ قال: حزن من ذُبح ولدها على صدرها فما ترقأ عَبْرتها ولا يسكن حزنها .

بين معاوية وقيس بن سعد

ومما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عُبَادة حين كان عاملا لعلىّ على مصر ، فكتب إليه معاوية : أما بعد ، فإنك يهودى ابن يهودى، إن ظفر أحَبُّ الفريقين إليك عَزَلَك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك نَكَّلَ بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوْتَرَ قوسه ، ورمى غَرَضه ، فأكثر الحز[4] وأخطأ المفصِلَ ، فخذله قومه ، وأدركه يومُه ، ثم مات بحوران طريداً .

فكتب إليه قيس بن سعد : أما بعد ، فإنما أنت وثنى ابن وثنى ، دخلت

(١) فى ا « ولكنى ممن حضر فلم ينصره » .
(٢) فى ا « إذ تربصت به ريب النون » .
(٣) فى ا « كما قال الحنفى » . (٤) فى ب « فأكثر الجد ، وأخطأ القصد »

Marfat.com

فى الإسلام كرهاً ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم إيمانك ، ولم يحدث نفاقك ، وقد كان أبى أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فشغب[(١)] به من لم يبلغ عقبه[(٢)] ، ولا شق غباره ، ونحن أنصار الدين الذى منه خرجت ، وأعداء الدين الذى فيه دخلت .

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة على ووقوع الصلح فى جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية : يا معشر الأنصار ، بِمَ تطلبون ما قبلى ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معى كثيراً علىَّ ، ولفللتم حَدِّى يوم صِفِّينَ حتى رأيت المنايا تلظَّى فى أسنتكم ، وهجوتمونى [فى أسلافى] بأَشَدَّ من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم : ارْعَ [فينا] وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هيهات يأبى الحقِينُ العذرة[(٣)] ، فقال قيس : نطلب ماقبلك بالإسلام الكافى به الله ، لا بما تمتُّ به إليك الأحزاب ، وأما عداوتنا لك فلو شِئْتَ كففتها عنك ، وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه ، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا ، وأما فَلُّنَا حدك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى طاعتَهُ طاعة لله ، وأما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاها بعده ، وأما قولك يأبى الحقين العذرة فليس دون الله يد تحجزك منا يامعاوية ، فقال معاوية يموه[(٤)] : ارفعوا حوائجكم .

من مناقب قيس بن سعد

وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل إلى على بالموضع العظيم ، وبلغ من خوفه الله وطاعته إياه أنه كان يصلى فلما أهوى للسجود إذا فى موضع سجوده ثعبان [عظيم] مطوق ، فمال عن الثعبان برأسه ، وسجد إلى جانبه ، فتطوق الثعبان برقبته ، فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيئاً ، حتى فرغ ، ثم أخذ الثعبان فرمى به ، كذلك ذكر الحسن بن على بن عبدالله ابن المغيرة عن معمر بن خلاد عن أبى الحسن على بن موسى الرضا .

(١) فى ب « فشعب به » (٢) فى ا « من لم يلحق عقبه »
(٣) فى ب « يأبى الحقير القدرة » (٤) فى ا « فقال معاوية : سوأة »

Marfat.com

بين معاوية وعمرو

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم: قد أعيانى أن أعلم أجَبَانٌ أنت أم شجاع ، لأنى أراك تتقدم حتى أقول : أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول : أراد الفرار ، فقال له معاوية : والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حَزْماً ، كما قال القَطَامى(١) :

شجاع إذا ما أمكنتنىَ فرصةٌ وإلا تكن لى فرصة فجبان

العباس ابن ربيعة

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى عن أبى الأغرّ التيمى(٢) ، قال : بينا أنا واقف بصفين إذ مر بى العباس بن ربيعة مغفراً بالسلاح(٣) ، وعيناه تبصان من تحت المغفر كأنهما شُعْلَتَا نار أو عينا أرْقَم ، وبيده صفيحة له يمانية يقلّبها ، والمنايا تلوح فى شَفْرتها ، وهو على فرس صَعْب ، فبينا هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته إذ هتف به هاتف يقال له عَرَار بن أدهم من أهل الشام يا عباس ، هلم إلى النزال ، قال : فالنزول إذاً ، فإنه إياس من الحياة ، فنزل إليه الشامى(٤) وهو يقول :

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ

وثنى العباس وركه وهو يقول :

الله يعـــلم أنا لا نحبكمُ ولا نلومكمُ أن لا تحبُّونا

ثم عصر فضلات درعه فى محزمه يريد منطقته ودفع فرسه إلى غلام له أسود كأنى والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم زحف(٥) كل واحد منهما إلى صاحبه ، وكف الفريقان أعنة الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين ، فتكافحا بسيفيهما مليًّا [من] نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأْمَتِهِ ، إلى أن لحظ العباس وهناً(٦) فى درع الشامى فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثَنْدُوَته ، ثم عاد لمجاولته ، وقد أفرج له مفتق الدرع ،

(١) فى ا « كما قال الطائى » . (٢) فى ا « أبى الأعز »

(٣) فى ا « مكفرا بالسلاح وعينان تضيئان » .

(٤) فى ا « ويرز إليه الشامى » (٥) فى ا « ثم دلف » (٦) فى ا « وهيا »

Marfat.com

فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره ، فخر الشامى لوجهه ، فكبر الناس تكبيرة ارتجّتْ لها الأرض من تحتهم ، وانساب العباس فى الناس ، فإذا قائل يقول من ورائى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين - الآية) فالتفتُّ فإذا بعلى رضى الله عنه ، فقال : يا ابن الأغرّ ، من المبارز لعدونا ؟ قلت : ابن أخيكم العباس ابن ربيعة ، قال : وإنه لهو العباس ؟ قلت : نعم ، فقال : يا عباس ، ألم أنْهَكَ وعبدَ الله بن عباس أن تخلا بمركز أو تبارزا[١] أحداً ؟ قال : إن ذلك كما قلت ، قال على : فما عَدَا مما بَدَا[٢] ؟ قال : أفأُدعى إلى البراز فلا أجيب ؟ قال : طاعة إمامك أولى بك من إجابة عدوك ، وتغيّظَ واستطار ، ثم تطامن وسكن ورفع يديه مبتهلا ، فقال : اللهم اشكر للعباس مقامه[٣] ، واغفر ذنبه ، اللهم إنى قد غفرت له فاغفر له ، وتأسف معاوية على عرَّار ابن أدهم ، وقال : متى ينطق فحل بمثله أبطل[٤] دمه ! لاها الله ، ألا رجل يشرى نفسه يطلب بدم عرَّار ، فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس ومن صناديد الشام ، فقال : اذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر ومثلها من اللُّجَين وبعددهما من برود اليمن ، فأَتيَاه فدعَوَاه إلى البراز ، وصاحا بين الصفين : يا عباس يا عباس ، ابرز إلى الداعى ، فقال : إن لى سيداً أريد أن أؤامره ، فأَتى علياً وهو فى جناح الميمنة يحرض الناس ، فأخبره الخبر ، فقال على : والله لَوَدَّ معاوية أنه ما بقى من بنى هاشم نافخُ ضِرْمَةٍ إلا طعن فى بطنه إطفاء لنور الله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) أما والله ليملكنهم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار ، ثم قال : يا عباس ، ناقلنى سلاحك بسلاحى ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميين ، فلم يشكا أنه

(١) فى ا «أو تباشرا حربا» . (٢) فى ب «فما عدا فيما بدا»
(٣) فى ا « اللهم اشكر للعباس مكانه » . (٤) لعل الأصل « أطل دمه »

Marfat.com

العباس ، فقالا له : أذن لك صاحبك ؟ فتحرج أن يقول نعم ، فقال : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير) وكان العباس أشبه الناس فى جسمه وركوبه بعلى ، فبرز له أحدهما فما أخطأه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول (الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحك وهات سلاحى ، فإن عاد لك أحد فعد لى ، ونما الخبر إلى معاوية فقال : قبح الله اللجاج إنه لعقور[١] ما ركبته قط إلا خذلت ، فقال عمرو بن العاص : المخذول والله اللخميان ، والمغرور من غررته ، لا أنت المخذول ، قال : اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك ، قال : وإن لم يكن ، رحم الله اللخميين ، ولا أراه يفعل ، قال : ذلك والله أضْيَقُ لحجتك ، وأخْسَرُ لصفقتك ، قال : قد علمت ذلك ، ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها ، فإنى أعلم أن على بن أبى طالب على الحق وأنت على ضده[٢] ، فقال معاوية : مصر والله أعمتك ، ولولا مصر لألفيتك بصيراً[٣] ، ثم ضحك معاوية ضحكاً ذهب به كل مذهب ، قال : مِمَّ تضحك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سنك ؟ قال : أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت علياً ، وإبدائك سوأتَكَ ، أما والله يا عمرو لقد واقعت المنايا ، ورأيت الموت عياناً ، ولو شاء لقتلك ، ولكن أبى ابن أبى طالب فى قتلك إلا تكرماً[٤] ، فقال عمرو : أما والله إنى لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحْوَلَّتْ عيناك [وبَدَا سَحْرك] وبَدَا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دَعْ .

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن معاوية برز فى بعض أيام صفين أمام الناس وكَرَّ على ميسرة على ، وكان على فيها فى ذلك الوقت يعبىء الناس ،

---

(١) فى ا « إنه لقعود »
(٢) فى ب « وأنا على ضده »
(٣) فى ا « ولولا مصر لقيتك بصيرا »
(٤) فى ا « أمرك إلا تكرما »

Marfat.com

فغير على لَأمته وجواده ، وخرج بلأمة بعض أصحابه ، وصَمَدَ له معاوية ، فلما تدانيا أثْبَتَه[١] معاوية فغمز برجليه على جواده وعلىٌّ وراءه ، حتى فاته ودخل فى مَصَافّ أهل الشام ، فأصاب علىٌّ رجلا من مصافهم دونه ، ثم رجع وهو يقول :

يا لهفَ نفسى فاتَني معاويهْ فوق طِمِرٍّ كالعقاب الضاريهْ

وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية فى بعض الأيام ، فلما رآه معاوية قال :

يموتُ الصالحونَ وأنت حىٌّ تخطَّاكَ المنـــايا لا تموتُ

فأجابه عمرو :

فلسْتُ بميتٍ ما دمت حيًّا ولست بميت حتى تموت

وذكر أن معاوية لما نظر إلى عسكر[٢] أهل العراق — وقد أشرفت وأخذت الرجال مراتبها من الصفوف — ونظر إلى علىّ على فرس أشْقَرَ حاسر الرأس يرتِّبُ الصفوف كأنه يغرسهم فى الأرض غرساً فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص ، قال لعمرو : يا أبا عبد الله ، أما تنظر إلى ابن أبى طالب وما هو عليه ؟ فقال له عمرو : مَنْ طلب عظيما خاطر بعظيم .

بسر بن أرطاة

وقد كان معاوية فى سنة أربعين بعث بُسْرَ بن أرطاة فى ثلاثة آلاف حتى قَدِم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصارى فتنحَّى ، وجاء بُسْر حتى صعد المنبر وتهدَّد أهل المدينة بالقتل ، فأجابوه إلى بيعة معاوية ، وبلغ الخبر علياً فأنفذ حارثة بن قدامة السعدى فى ألفين ووهب بن مسعود فى ألفين ، ومضى بُسْر إلى مكة ، ثم سار إلى اليمن ، وكان عبيد الله بن العباس بها ، فخرج عنها ولحق بعلى واستخلف عليها عبد الله بن عبد المَدَان[٣] الحارثى ، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقُثَم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكنانى ،

(١) فى ب « انتبه معاوية » (٢) فى ب « عساكر أهل العراق »
(٣) فى ا « عبد الله بن عبد الدار الحارثى »

Marfat.com

فقتلهما بُسْر وقتل معهما خالا لهما من ثقيف وقد كان بُسْر بن أرْطَاةَ العامرى — عامر بن لؤى بن غالب — قَتَلَ بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خُزَاعة وغيرهم ، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال هَمْدَان ، وقتل بصنعاء خلقاً [كثيراً] من الأبناء ، ولم يبلغه عن أحد أنه يمالىء علياً أو يهواه إلا قتله ، ونما إليه خبر حارثة بن قدامة السعدى فهرب ، وظفر حارثة بابن أخى بُسْر مع أربعين من أهل بيته ، فقتلهم ، وكانت جويرية أمُّ ابنى عبيد(٢) الله بن العباس اللذين قتلهما بُسْرٌ تدور حول البيت ناشرة شَعْرها وهى من أجمل النساء وهى تقول ترثيهما :

هامن أحَسَّ من ابنىَّ اللذين هما ... كالدرتين تَشَظَّى عنهما الصدف
هامن أحَسَّ من ابنىَّ اللذين هما ... سمعى وقلبى ، فعقلى اليوم مختطَفُ
هامن أحَسَّ من ابنىَّ اللذين هما ... مخ العظام فمخى اليوم مزدهف
نبئت بُسْراً ، وما صَدَّقت ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الذى وصفوا
أنحى على وَدِجَىْ ابنىَّ مرهفة ... مشحوذة ، وكذاك الإثم يُقْتَرف

وذكر الواقدى قال : دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وَرْدَانُ ، فأخذا فى الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، ما بقى مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أربَ لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيها ألذ وأطيب(٣) ، وأما الطِّيبُ فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب ، فما شىء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر إلى بنىَّ وبنى بنىَّ يدورون حولى ، فما بقى منك يا عمرو ؟

بين معاوية وعمرو ابن العاص ووردان

(١) فى ب « جويرية بنت فارط الكنانية »
(٢) فى ب « عبد الله بن العباس » (٣) فى ب « أية ألذ وأطيب »

قال : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلّته ، فالتفتَ [معاوية] إلى وَرْدَانَ فقال : ما بقى منك يا وَرْدَان ؟ قال : صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل[١] وأخطار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى ، فقال معاوية : تَبًّا لمجلسنا سائر [هذا] اليوم ، إن هذا العبد غلبنى وغلبك .

وفاة عمرو ابن العاص

وفى سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سَهْم بن سعيد بن سعد بمصر ، وله تسعون سنة ، وكانت ولايته مصر عشر سنين وأربعة أشهر ، ولما حضرته الوفاة قال : اللهم لابراءة لى فأعتذر ، ولاقوة لى فأنتصر ، أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا ، اللهم هذه يدى إلى ذقنى ، ثم قال : خُدُّوا لى [فى] الأرض خَدًّا ، وسُنُّوا علىّ التراب سنًّا ، ثم وضع أصبعه فى فيه حتى مات ، وصَلّى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر ؛ فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد[٢] ، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد ، وكان أبوه من المستهزئين ، وفيه نزلت (إن شانئك هو الأبتر) .

وولى معاوية ابنه عبد الله بن عمرو ما كان لأبيه .

تركته

وخلف عمرو من العَيْنِ ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الوَرِقِ ألف درهم [وغلة مائتى ألف دينار بمصر][٣] وضيعته المعروفة [بمصر] بالوهط قيمتها عشرة آلاف [ألف][٣] درهم .

وفيه يقول ابن الزَّبِيرِ الأسدى الشاعر من أبيات :

ألم تر أن الدهر أخنَتْ صُرُوفُه ... على عمرٍو السهمى تُجْبَى له مصر
فلم يُغْنِ عنه حَزْمه واحتياله ... ولا جمعه لَمَّا أتيح له الدهر
وأمْسَى مقيما بالعَرَاء وضلت ... مكايده عنه وأمواله الدَّثْرُ

---

(١) فى ا « ذوى أحساب وأخطار » (٢) فى ا « قبل صلاة الفطر »
(٣) زيادة فى ا وحدها .

Marfat.com

وفى سنة خمس وأربعين وَلّى معاويةُ زيادَ ابن أبيه البصرةَ وأعمالها ، وقال لما دخلها :

ألا رُبَّ مسرورٍ بنا لا نسره وآخر محزون بنـا لا نضره(١)

وقد كان معاوية أغْزَى فى هذه السنة سفيان(٢) بن عوف العامرى ، وأمره أن يبلغ الطوانة فأصيب معه خلق من الناس ، فعمَّ الناسَ الحزنُ بمن أصيب بأرض الروم ، وبلغ معاوية أنَّ يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال :

أهْوِنْ عَلَيَّ بما لاقت جموعهمُ يوم الطوانة من حُمَّى ومن مُوم(٣)

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مُرَّانَ عندى أم كلثوم(٤)

فحلف عليه ليغزوَنَّ ، وأردف به سفيان ، فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة ، وبلغ الناسُ فيها إلى القسطنطينية ، وفيها مات أبو أيوب الأنصارى ودُفن [هنالك] على باب القسطنطينية ، واسم أبى أيوب خالد بن زيد ، وقد قيل : إن أبا أيوب مات فى سنة إحدى وخمسين غازياً مع يزيد ، وقد أتينا على خبر هذه الغزَاة ، وما كان من يزيد فيها فى الكتاب الأوسط .

أبو أيوب الأنصارى

وفى سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة، فهرب منها المغيرة بن شعبة وكان واليها ، ثم عاد إليها فطعن فمات ، فمرَّ أعرابى عليه وهو يدفن فقال :

المغيرة ابن شعبة

أَرَسْمَ ديارٍ للمغيرة تعرف عليها دَوِىُّ الإنس والجن تعزف(٥)

فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا وفرعون فاعلم أن ذا العرش مُنْصِفُ

وذكر أن المغيرة ركب إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى فى دير لها فى الحِيرَةِ مترهِّبة ، وهو أمير الكوفة يومئذ ، وقد كانت [هند] عميت ،

(١) فى ب « مسرور بما لا يسره » وفيها « محزون بما لا يضره » .

(٢) فى ب « عزل فى هذه السنة شقران بن عوف العامرى » .

(٣) فى ب « من حمى ومن شوم » . (٤) فى ب « بدير مروان » .

(٥) فى ب « عليها دوانى الإنس » .

Marfat.com

فلما جاء الدير[١] استأذن عليها ، فأتتها جاريتها فقالت : هذا المغيرة يستأذن عليك ، فقالت للجارية : ألقى إليه أثاثاً ، فألقت إليه وسادة من شَعَرٍ ، فلما دخل قعد عليها وقال : أنا المغيرة ، فقالت له : قد عرفتك عامل المدرة ، فما جاء بك ؟ قال : أتيتك خاطباً إليك نفسك ، قالت : أما والصليب لو أردتنى[٢] لِدِينٍ أو جمال ما رجَعْتَ إلا بحاجتك، ولكنى أخبرك الذى أردت ذلك له ، قال : وما هو ؟ قالت : أردت أن تتزوجنى حتى تقوم فى الموسِمِ فى العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان ، قال : ذلك أرَدْتُ ، ولكن أخبرينى ما كان أبوك يقول فى هذا الحى من ثقيف ؟ قالت : كان ينسبهم فى إياد ، وقد افتخر عنده رجلان من ثقيف أحدهما من بنى سالم والآخر من بنى يسار ، فسألهما عن أنسابهما ، فانتسب أحدهما إلى هَوَازن والآخر إلى إياد ، فقال [أبى] : ما لحى معد على إياد فضل ، فخرجا وأبى يقول :

إن ثقيفاً لم تكن هوازنا ولم تناسب عامراً ومازنا
إلاَّ حديثاً وَافَقَ المحاسنا[٣]

فقال المغيرة : أمَّا نحن فمن هوازن وأبوك أعلم ، قال : فأخبرينى أىَّ العرب كان أحب إلى أبيك ؟ قالت : أطوعهم له ، قال : ومن أولئك ؟ قالت : بكر بن وائل ، قال : فأين بنو تميم ؟ قالت : ما استعنتهم فى طاعة ، قال : فقيس ؟ قالت : ما اقتربوا إليه بما يحب إلا استعقبوه بما يكره ، قال : فكيف أطاع فارس ؟ قالت : كانت طاعته إياهم[٤] فيما يهوى ، فانصرف المغيرة .

ولما هلك المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أوَّلَ من جمع له ولاية العراقين البصرة والكوفة .

---

(١) فى ا « فلما جاء الليل » . (٢) فى ا « لو أتيتنى لدين » .
(٣) فى ب « إلا حديثاً واثبتوا المحاسنا » (٤) فى ب « كانت طاعتهم إياه »

Marfat.com

وفى سنة ثمان وأربعين قَبَضَ معاوية فَدَكَ من مروان بن الحكم ، وقد كان وهبها له قبل ذلك ، فاستردَّها .

وقد كان معاوية حجَّ فى سنة خمسين، وأمر بحمل منبر النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى الشام ، فلما حمل كسفت الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار، فجزع من ذلك وأعْظَمَه ، ورَدَّه إلى موضعه ، وزاد فيه ست مراقى .

موت زياد

وفى سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه بالكوفة فى شهر رمضان ، وكان يكنى أبا المغيرة ، وقد كان كتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه ، وشمالُه فارغةٌ ، فجمع له الحجاز مع العراقين ، واتصلت ولايته بأهل المدينة ، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضَجُّوا إلى الله ، ولاذوا بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ؛ لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف[1] ، فخرجت فى كفه بَثْرَة ثم حَكَّها ثم سرت واسودَّتْ فصارت آكلة سوداء ، فهلك بذلك وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقيل : اثنتين وخمسين ، ودُفن بالثوية[2] من أرض الكوفة .

وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم[3] على لَعْنِ علي، فمن أبى ذلك عرضه على السيف ، فذكر عبد الرحمن بن السائب ، قال : حضرت فصرت إلى الرحبة ومعى جماعة من الأنصار ، فرأيت شيئاً فى منامى وأنا جالس فى الجماعة ، وقد خَفَقْتُ ، وهو أنى رأيت شيئاً طويلا قد أقبل ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بُعِثْتُ إلى صاحب هذا القصر ، فانتبهت فزعاً ، فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فإن الأمير عنكم مشغول ، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء ، وفى ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات :

(١) فى ا « والعنف » . (٢) فى ب « بالتوبة »

(٣) فى ا « ليعرضهم على لعن على » .

ما كان منتهياً عما أراد بنا حتى تأتّى له النقاد ذو الرَّقَبَهْ
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت لما تناول ظلماً صاحبَ الرحبه

يعنى بصاحب الرحبة على بن أبى طالب رضى الله عنه ! وقد ذهب جماعة إلى أن عليًا دفن فى القصر بالكوفة ؛ ويقال : إن زياداً طُعِن فى يده ، وإنه شاور شريحاً فى قطعها ، فقال له : لك رزق مقسوم ، وأجل معلوم ، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجْذَمَ[1] ، وإن حُمَّ أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك : لِمَ قطعتها ؟ قلت : بغضاً للقائك ، وفراراً من قضائك ، فلام الناس شريحاً ، فقال [لهم] : إنه استشارنى والمستشار مؤتمن ، ولولا [أمانة] المشورة لوددت أن الله قطع يده يوماً ورجله يوماً ، وسائر جسده يوماً .

البيعة ليزيد

وفى سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفد الأمصار من العراق وغيرها ، فكان ممن وفد من أهل العراق الأحْنَفُ بن قيس فى آخرين من وجوه الناس ، فقال معاوية للضحاك بن قيس : إنى جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله ، فإذا فرغت من كلامى فقل فى يزيد الذى يحق عليك ، وَادْعُ إلى بيعته ، فإنى قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفى ، وعبد الله بن عضاة[2] الأشعرى ، وثور بن مَعْن السلمى أن يصدقوك فى كلامك ، وأن يجيبوك إلى الذى دعوتهم إليه ، فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حُسْنِ رِعْيَة يزيد ابنه وهَدْيِه ، وأن ذلك دعاه إلى أن يوليه عهده ، ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه إلى ذلك ، وحَضَّ الناس على البيعة ليزيد[3] ، وقال لمعاوية : اعزم على ما أردت ، ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبد الله بن عضاة الأشعرى وثور بن مَعْن

(١) فى ب « أن تعيش أجد » . (٢) فى ب « عبد الله بن عمارة » .
(٣) فى ا « وحض الناس إلى البيعة ليزيد » .

فصدَّقُوا قوله ، ثم قال معاوية : أين الأحنف بن قيس ؟ فقام الأحنف فقال : إن الناس قد أَمْسَوْا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان يؤتنف ، ويزيد حبيب قريب ، فإن توله عهدك فعن غير كبر مُفْنٍ ، أو مرض مُضْنٍ ، وقد حَلَبْتَ الدهور ، وجَرَّبت الأمور ، فاعرف من تُسْنِد إليه عهدك ، ومن توليِّه الأمر من بعدك ، واعص رأى من يأمرك ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، فقام الضحاك بن قيس مُغْضَباً فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق ، وقال : اردد رأيهم فى نحورهم ، وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الضحاك ، ثم قام رجل من الأزد ، فأشار إلى معاوية وقال : أنت أمير المؤمنين ، فإذا مُتَّ فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبَى هذا فهذا ، وأخذ بقائم سيفه فسلّه ، فقال له معاوية : اقعد فأنت من أخطب الناس ، فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولاية العهد ، وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن همام[1] السلولى :

فإن تَاتوا بِرَمْلَةَ أو بهند ... نُبَايعها أميرة مؤمنينا[2]
إذا ما مَاتَ كسرى قَام كسرى ... نعدُّ ثلاثة مُتَنَاسقينا[3]
فيا لهفا لَوَأنَّ لنا أنوفا ... ولكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضربتمُ حَتَّى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السَّخِيناَ
خشينا الغيظ حَتَّى لو شَرِبْنَا ... دماء بنى أُمَيَّة ما رَوِينَا
لقد ضاعت رَعِيَّتكُمْ وأنتم ... تَصِيدُونَ الأرانب غافلينا

وأنفذت الكتب[4] ببيعة يزيد إلى الأمصار ، وكتب معاوية إلى مروان ابن الحكم ــ وكان [عامله] على المدينة ــ يعلمه باختياره يزيد ، ومبايعته إياه

(١) فى ب « عبد الله بن هشام السلولى » محرفا .
(٢) فى ا « نبايعها أمير المؤمنينا » .
(٣) فى ا « بعيد ثلاثة متناسقينا » . (٤) فى ا « وأنشئت الكتب »

Marfat.com

بولاية العهد ، ويأمره بمبايعته ، وأخذ البيعة له على من قِبَلَهُ ، فلما قرأ مروان ذلك خرج مُغْضَباً فى أهل بيته وأخواله من بنى كنانة ، حتى أتى دمشق فنزلها ، ودخل على معاوية يمشى بين السِّمَاطين ، حتى إذا كان منه بقدر ما يُسْمعه صَوْتَه سَلّم ، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية ، منه : أقم الأمور يا ابن أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نُظَرَاء ، وأن لك على مناوأتهم[1] وزراء ، فقال له معاوية : أنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدَّته فى كل شديدة ، وعَضُده ، والثانى بعد ولىّ عهده ، وجعله ولى عهد يزيد ، وردَّه إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ولم يَفِ لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية .

---

(١) فى ا « وأن لك على موازاتهم إزراء » .

Marfat.com

ذكر جمل من أخلاقه وسياسته

وطرائف من عيون أخباره

قد ذكرنا فيما تقدم جُمَلا من أخبار معاوية وسيره ، فلنذكر الآن فى هذا الباب جملا من أخلاقه وسياسته[١] وأخباره ، وغير ذلك مما لحق هذا المعنى[٢] إلى وفاته .

من أخلاق معاوية وعاداته

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات : كان إذا صلى الفجر جلس للقاصِّ حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشىِّ ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ،وهو فَضْلة عشائه من جَدْى بارد أو فرخ أو مايشبهه، ثم يتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : يا غلام أخرج الكرسى ، فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسى ، ويقوم الأحْرَاس ،[٣] فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول : ظلمت ، فيقول : أعِزُّوهُ ، ويقول : عُدِىَ على ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صنع بى ، فيقول : انظروا فى أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم، ولا يشغلنى أحدعن رد السلام ، فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ ! فيقول : بنعمة [من] الله ، فإذا استووا جلوساً قال : يا هؤلاء ، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج مَنْ لا يصل إلينا ، فيقوم

(١) فى ا « من أخلاقه وسيره وأخباره » .

(٢) فى ا « لحق بهذا المعنى » (٣) فى ب « الأحداث » .

Marfat.com

الرجل فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضو لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهَدُوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخْدُموهم ، ثم يؤتى بالغَدَاء ، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمدُّ يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمره ، فيقال : يا عبد الله أعقب ، فيقوم ويتقدم آخر ، حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيزوا ، فينصرفون ، فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلى ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ، فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخْبِصَة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونه باللبن والسكر ودقيق السميد والكعك المسمّن[1] والفواكه اليابسة [والذانجوج] وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقيَّة يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلى العصر ، ثم يدخل إلى منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويُؤْذَنُ للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادى له أصحاب[2] الحوائج ، ثم يرفع العَشَاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها

(١) فى ب « والكعك المنضد » .

(٢) فى ا « ولا يدعى له بأصحاب الحوائج »

Marfat.com

لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا فى كل يوم .

وقد كان هَمَّ بأخلاقه[1] جماعةٌ بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه[2] ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأتِّى للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم .

من دهاء معاوية

وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق فى حالة منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتى ، أُخذت منى بصفين ، فارتفع أمرهما إلى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفى ، وأمره بتسليم البعير إليه ، فقال الكوفى : أصلحك الله ! إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ودس إلى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع إليه ضعفه ، وبَرَّه ، وأحسن إليه ، وقال له : أبلغ علياً أنِّى أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ، وقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء ، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص : إن علياً هو الذى قتل عَمَّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ، ثم ارتقى بهم الأمر فى طاعته إلى أن جعلوا لَعْنَ على سُنَّة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير .

(١) فى ا « وقد كان يم بأخلاقه » . (٢) فى ا « فلم يدركوا خلقه »

Marfat.com

ن غفلة أهل الشام والعراق

قال المسعودى : وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى والعقل منهم : مَنْ أبو تراب [هذا] الذى يلعنه الإمام على المنبر ؟ قال : أراه لصاً من لصوص الفتن .

وحكى الجاحظ قال : سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول : إذا أتيته مَنْ يكلمنى منه ؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم : ما تقول فى محمد هذا ؟ أربنا هو[1] ؟

وذكر ثمامة بن أشْرَس قال : كنت ماراً فى السوق ببغداد ، فإذا أنا برجل عليه الناسُ مجتمعون ، فنزلت عن بغلتى ، وقلت : لشىء ما هذا الاجتماع ، ودخلت بين الناس ، وإذا برجل يصف كحلا معه أنه ينجح من كل داء يصيب العين ، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة بَرْشَاء والأخرى مأسوكة[2] ، فقلت له : يا هذا ، لو كان كحلك كما تقول نفع عينيك ! ! فقال لى : [يا جاهل] أهاهنا اشتكت عيناى ؟ إنما اشتكتا بمصر ، فقال كلهم : صدق ، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد .

وذكر لى بعض إخوانى أن رجلا من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام عَلَى جار له أنه يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل ، فقال : إنه مُرْجىء قَدَرِىّ ناصبى[3] رافضى ، فلما قصهُ عن ذلك قال : إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل عَلَى بن العاص ، فقال له الوالى : ما أدرى عَلَى أى شىء أحسدك : عَلَىّ علمك بالمقالات ، أو عَلَى بصرك بالأنساب ؟

وأخبرنى رجل من إخواننا من أهل العلم ، قال : كنا نقعد نتناظر فى أبى

---

(١) فى ا « ما تقول فى محمد هذا ؟ قال : ربنا هو »

(٢) فى ا « والأخرى موكوسة »

(٣) فى ب « مرجىء قدرى أباضى رافضى »

Marfat.com

بكر وعمر وعلى ومعاوية ، ونذكر ما يذكره أهل العلم ، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا ، فقال لى ذات يوم بعضهم وكان [من] أعقلهم وأكبرهم لحية : كم تُطْنبون فى على ومعاوية وفلان وفلان ، فقلت له : فما تقول [أنت] فى ذلك ؟ قال : من تريد ؟ قلت : على ، ما تقول فيه ؟ قال : أليس هو أبو فاطمة ؟ قلت : ومَنْ كانت فاطمة ؟ قال : امرأة النبى عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية ، قلت : فما كانت قصة على ؟ قال : قتل فى غزَاة حنين(١) مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عبد الله بن على حين خرج فى طلب مروان إلى الشام ، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ، ونزل عبد الله بن على الشام ، ووجَّه إلى أبى العباس السفاح أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة [من سائر أجناد الشام] فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة ، فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر البَجَلِيُّ :

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبدشمس ؛ إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب

متطبب فى عهد الرشيد

وقد كان ببغداد رجل فى أيام هرون الرشيد متطبب يطبب العامة(٢) بصفاته وكان دهرياً يظهر أنه من أهل السنة [والجماعة] ويلعن أهل البدع ويعرف بالسنى تنقاد إليه العامة ؛ فكان يجتمع إليه فى كل يوم بقوارير الماء خَلْقٌ من الناس، فإذا اجتمعوا وثب قائماً على قدميه فقال لهم : معاشر المسلمين ، قلتم لا ضار ولا نافع إلا الله فلأى شى [مصيركم إلى] تسألوننى عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجئوا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون

(١) فى ا « قتل فى غزوة خيبر » (٢) فى ا « تتبرك العامة بصفاته » .

Marfat.com

فعلكم مثل قولكم ، فيُقْبِل بعضهم على بعض فيقولون : إى والله قد صدقنا ، فكم من مريض لم يعالج حتى مات ، ومنهم من كان يتركه حتى يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء ، فيقول: إيمانُكَ ضعيف ، ولولا ذلك لتوكلت على الله كما أمْرَضَكَ فهو يُبْرِئك ، فكان يقتل بقوله هذا خلقاً كثيراً لتزهيده إياهم فى معالجة مرضاهم .

من أخلاق العامة

ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد ، ويفضلوا غير الفاضل ، ويقولوا بعلم غير العالم ، وهم أتباع من سَبَقَ إليهم من غير تمييز بين [الفاضل والمفضول ، و] الفضل والنقصان ، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم ، ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت فى مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولى التمييز والمروءة والحجا ، وتفقد[1] العامة فى احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر إلا مُرْقِلين إلى قائد دُبٍّ ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى مشَعبذ[2] متنمس ممخرق[3] ، أو مستمعين إلى قاصٍّ كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب ؛ يُنْعَق بهم فيتبعون ، ويصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً ، ولا يبالون أن يلحقوا البارَّ بالفاجر ، والمؤمن بالكافر ، وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم حيث يقول « الناس اثنان : عالم ، ومتعلم ، وما عدا ذلك هَمَجٌ رَعاع لا يعبأ الله بهم » وكذلك ذكر عن على وقد سئل عن العامة ، فقال : هَمَج رَعَاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، وأجمع الناس فى تسميتهم على أنهم غَوْغَاء ، وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا ، ثم تدبر تفرقهم فى أحوالهم ومذاهبهم ، فانظر إلى إجماع مَلَئِهِمْ ، إن رسول الله

---

(١) فى ب « وتقصد العامة » .

(٢) فى ا « متعبد » (٣) فى ب « منمس مخرف » .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم أقام يدعو الخلق إلى الله اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوَحى ويمليه على أصحابه، فيكتبونه ويدوِّنونه ويلتقطونه لفظة لفظة، وكان معاوية فى هذه المدة بحيث علم الله، ثم كتب له صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بشهور، فأشادوا بذكره، ورفعوا من منزلته؛ بأن جعلوه كاتباً للوَحْىِ، وعَظَّمُوه بهذه الكلمة، وأضافوه إليها، وسلبوها عن غيره [1]، وأسقطوا ذكر سواه، وأصل ذلك العادة والإلْفُ، وما ولدوا عليه، وما نشئوا فيه، فألفوا وقت التحصيل والبلوغ، وقد عملت العادة عملها، وبلغت مبالغها، وفى العادة قالت الشعراء وتكلم أهل الدراية والأدباء، كلام فى العادة قال الشاعر:

لا تُهِنِّى بعد إذ أكرمتنى فشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

وقال آخر معاتباً لصاحبه:

ولكِنْ فِطَامُ النفسِ أثقَلُ محملاً من الصخرة الصماء حين ترومها

وقد قالت حكماء العرب: العادة أملك بالأرب [2]، وقالت حكماء العجم: العادة هى الطبيعة الثانية، وقد صنف أبو عقال الكاتب كتاباً فى أخلاق العوامِّ يصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم، وسَمَّاه بالمُلْهِى.

ولولا أنى أكره التطويل والخروج عما قصدنا إليه فى هذا الكتاب من الإيجاز لشرحت من نوادر العامة وأخلاقها، وظرائف أفعالها عجائبَ، ولذكرت مراتب الناس فى أخلاقهم، وتصرفهم فى أحوالهم.

فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياسته، وما أوسع الناس من أخلاقه، وما أفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه، مما اجتذب به القلوب، واستدعى به النفوس، حتى آثروه على الأهل والقرابات.

---

(١) فى ا « وسلبوها من غيره ».
(٢) فى ا « العادة أملك بالأدب ».

Marfat.com

عقيل بن أبى طالب ومعاوية

من ذلك أنه وفد عليه عَقِيلُ بن أبى طالب منتجعاً وزائراً ، فرحَّبَ به معاوية ، وسُرَّ بوروده ، لاختياره إياه على أخيه ، وأوْسَعَه حلماً واحتمالا ، فقال له : ياأبايزيد ، كيف تركت عليا ؟ فقال : تركته على ما يحبُّ اللهورسوله وألفيتك على ما يكره الله ورسوله ، فقال له معاوية : لولا أنك زائر منتجع [جنابَنَا] لرددت عليك أبا يزيد جواباً تألم منه ، ثم أحَبَّ معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتى بشىء يخفضه ، فوثب عن مجلسه ، وأمر له بنُزُلٍ[(١)]، وحمل إليه مالا عظيما ، فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأتاه ، فقال له : يا أبايزيد، كيف تركت عليا أخاك ؟ قال : تركته خيراً لنفسه منك ، وأنت خير لى منه ، فقال له معاوية : أنت والله كما قال الشاعر :

وإذا عددت نخار آل محرق فالمجد منهم فى بنى عتَّابِ

فمحل المجد من بنى هاشم مَنُوطُ فيك يا أبا يزيد ماتغيرك الأيام والليالى، فقال عقيل :

اصـــبر لحرب أنت جانيها لا بد أن تصـــلى بحاميها

وأنت والله يا ابن أبى سفيان كما قال الآخر :

وإذا هوازن أقبلت بفَخَارها يوماً نخرتهم بآل مجـــاشع

بالحاملين على الموالى غُرْمَهم والضاربين الهام يوم الفازع[(٢)]

ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنوأمية فبمن تفخر ؟ فقال معاوية : عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكت ، فإنى لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب على فإنك ذو معرفة بهم ، فقال عَقِيل : سَلْ عما بدا لك ، فقال :

وصف بنى صوحان

مَيِّزْ لى أصحاب على ، وابدأ بآل صَوْحَان فإنهم مخاريق الكلام ، قال : أما صعصعة فعظيم الشأن ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق

(١) فى ا « وأمر له أن ينزل » .

(٢) فى ب « بالحاملين على الموالى عزمهم » و « يوم القارع » .

مارتق ، قليل النظير ، وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان ، يصب فيهما الْخُلُجان ، ويغاث بهما البلدان ، رجلا جِدٍّ لا لعب معه ، وبنو صوحان كما قال الشاعر :

إذا نزل العدوُّ فإن عنـــدى   أسوداً تخلس الأسْدَ النفوسا

من صعصعة إلى عقيل

فاتَّصل كلام عقيل بصعصعة فكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، ذِكْرُ الله أكبر ، وبه يستفتح المستفتحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة ؛ أما بعد ، فقد بلغ مولاك كلامُكَ لعدو الله وعدو رسوله(١) ، فحمدْتُ الله على ذلك ، وسألته أن يفىء بك إلى الدرجة العليا ، والقضيب الأحمر ، والعمود الأسود فإنه عمودٌ مَنْ فارقه فارق الدين الأزهر ، ولئن نزعَتْ بك نفسك إلى معاوية طلباً لمـاله إنك لذو علم بجميع خصاله ، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة ، فإن الله قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه فى غيركم ، فما كان من فضل أو إحسان فبكم وَصَلَ إلينا ، فأجَلَّ الله أقداركم ، وحمى أخطاركم ، وكتب آثاركم ، فإن أقداركم مرضية ، وأخطاركم محمية ، وآثاركم بَدْرِية ، وأنتم سلم الله إلى خلقه ، ووسيلته إلى طرقه ، أيْدٍ علية ، ووجوه جلية ، وأنتم كما قال الشاعر :

فما كان من خير أتوه فإنمـــا   توَارَثَه آباء آبائهم قَبْلُ

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتُغْرَسُ إلا فى منابتها النخل

بين على ووجوه أصحابه

وحدث الهيثم(٢) عن أبى سفيان عمرو بن يزيد ، عن البراء بن يزيد ، عن محمد بن عبد الله بن الحارث الطائى ثم أحد بنى عفان ، قال : لمـا انصرف على من الجمل قال لآذنه : مَنْ بالباب من وجوه العرب ؟ قال : محمد بن عمير بن عطارد التيمى(٣) والأحنف بن قيس ، وصعصعة بن صوحان العبدى ، فى رجال سماهم ، فقال : أئذن لهم ، فدخلوا فسلموا [عليه] بالخلافة ، فقال لهم : أنتم وجوه العرب عندى ، ورؤساء أصحابى ، فأشيروا علىَّ فى أمر هذا الغلام المترَف(٤) ــ يعنى

(١) فى ا « عدو الله وعدوه »   (٢) فى ب « وحدث أبو الهيثم »

(٣) فى ب « التميمى »   (٤) فى ا « الغلام المترف »

Marfat.com

معاوية ـ فافتنَتْ بهم المَشُورة عليه ، فقال صعصعة: إن معاوية أتْرَفَهُ الهوى، وحببت إليه الدنيا ، فهانت عليه مصارع الرجال ، وابتاع آخرته بدنياهم ،فإن تعمل فيه برأى ترشد وتُصِبْ ، إن شاء الله ، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين ، والرأى أن ترسل له عيناً من عيونك وثقة من ثقاتك،بكتاب تدعوه إلى بيعتك ، فإن أجاب وأناب كان له مالك وعليه ما عليك ، وإلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين ، فقال على : عزمت عليك يا صعصعة إلا كتبت الكتاب بيديك[1] ،وتوجهت به إلى معاوية ، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً ، وعجزه استتابة واستنابة ، ولْيكن فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية سلام عليك ، أما بعد» ثم اكتب ما أشَرْتَ به علىَّ ،واجعل عنوان الكتاب «ألا إلى الله تصير الأمور » ، قال : أعْفِنِى من ذلك ، قال . عزمت عليك لتفعلَنَّ ، قال : أفعل ، فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق ؛ فأتى باب معاوية فقال لآذنه: استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ وبالباب أزْفَلة[2] من بنى أمية ـ فأخذته الأيدى والنعال لقوله ، وهو يقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » وكثرت الجلبة واللغط ، فاتصل ذلك بمعاوية فوجَّه من يكشف الناس عنه ، فكشفوا ، ثم أذن لهم فدخلوا ، فقال لهم : من هذا الرجل ؟ فقالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من على ، فقال : والله لقد بلغنى أمره ،هذا أحد سهام على وخُطَباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شَيِّقاً ، ائذن له يا غلام ، فدخل عليه، فقال : السلام عليك يا ابن أبى سفيان ، هذا كتابُ أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسُلُ تقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية فى الكلام، وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطبعاً أم تكلفاً فقال: ممن الرجل؟ قالَ: من نزار،قال: وما كان نزار؟ قال: كان إذا غزا انكسَ، وإذا لقى افترس،

(١) فى ا « لما كتبت الكتاب بيدك » .

(٢) الأزفلة : الجماعة ، ووقع فى ب « أردفة » .

(٣) فى ا « إذا غزا انكش ، وإذا لقى افترش » محرفا .

Marfat.com

وإذا انصرف احترس[١] ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النِّجاد ، ويَعُولُ العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العِمَادَ ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من جَدِيلَةَ ، قال : وما كان جديلة ؟ قال : كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعاً ، وفى اللقاء لهباً ساطعاً ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما كان عبد القيس ؟ قال كان خصيباً خضرماً[٢] أبيض وهاباً لضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء ، قال : ويحك يا ابن صوحان ! فما تركت لهذا الحى من قريش مجداً ولا فخراً ، قال : بلى والله يا ابن أبى سفيان ، تركت لهم ما لا يصلح إلا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والأشقر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، وأنَّى لا يكون ذلك كذلك وهم مَنَارُ الله فى الأرض ونجومه فى السماء ؟ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، فقال : صدقت يا ابن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صعصعة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد ، بعدتم عن أُنُفِ المرعى وعلوتم عن عذب الماء ، قال : فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان ؟!! قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم ، قال : قم ، فأَخْرَجُوهُ ، فقال صعصعة : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد[٣] ، من أراد المشاجرة قبل المحاورة ، فقال معاوية : لشىء ماسَوَّده قومه[٤] ، وددت والله أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال .

معاوية وجماعة من أصحاب على

وحدث منصور بن وحشى ، عن أبى الفياض عبد الله بن محمد الهاشمى ، عن الوليد بن البخترى[٥] العبسى ، عن الحارث بن مسمار البهرانى ، قال :

(١) فى ا « وإذا انصرف احترش (والاحتراش : الاعتراض على الطريق) »
(٢) فى ب « كان حضريا خصيبا » (٣) فى ا « الصدق ينبىء عنك لا الوعيد »
(٤) فى ا « لشىء ما سودك قومك » (٥) فى ا « البحترى »

Marfat.com

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى وعبد الله بن الكوّاء اليشكرى ورجالا من أصحاب على مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً فقال: نشدتكم بالله إلا ماقلتم حقاً وصدقاً[١] ، أىّ الخلفاء رأيتمونى؟ فقال ابن الكوّاء: لولا أنك عزمت علينا ماقلنا لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولكنا نقول: إنك ماعلمنا واسعُ الدنيا، ضيق الآخرة ، قريب الثرى، بعيد المَرْعى ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات ، فقال معاوية : إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابِّينَ عن بَيْضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلِّينَ ما حرم الله ، والمحرِّمينَ ما أحل الله ، فقال عبدالله بن الكواء : يا ابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جوابًا ، ونحن نخاف جبروتك، فإن كنت تطلق ألسنتا ذَبَبْنَا عن أهل العراق بألسنة حِدَادٍ لا تأخذها فى الله لومة لائم، وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه قال : والله لا يطلق لك[٢] لسان ، ثم تكلم صعصعة فقال : تكلمت يا ابن أبى سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت، أنَّى يكون الخليفة مَنْ ملك الناس قهراً ، ودَانَهم كبراً ، واستولى بأسباب الباطل كذبًا ومكراً ؟؟ أما والله مالك فى يوم بدر مضرب ولا مرمى[٣] وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لا حلى ولا سيرى[٤] » ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ممن أجْلَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟

فقال معاوية : لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قابلت جهلهمُ حلمًا ومغفـرة والعفو عن قدرةٍ ضَرْبٌ من الكرم

لقتلتكم .

---

(١) فى ا « نشدتكم الله إلا قلتم حقا وصدقا » .

(٢) فى ا « لا ، والله لا نطق لك لسان » (٣) فى ا « ولا مرق » .

(٤) كذا وقع فى ب ، والذى نرجحه أن أصله «لا حاء ولا ساء» وهو من أمثال العرب ، يريد لم يكن لك فيه أمر ولا نهى ، وانظر (مجمع الأمثال ٢ : ١٥٨ طبع بولاق) ، وفى ا « لا حل ولا سير » .

Marfat.com

صعصعة ابن صوحان عند معاوية يصف له أهل البلاد

وحدث أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : أخبرنا أبو الهيثم يزيد بن رجاء الغَنَوِى ، قال : أخبرنا الوليد بن البختري ، عن أبيه ، عن ابن مردوع[١] الكلبي قال : دخل صعصعة بن صوحان [العبدى] على معاوية فقال له : يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سَرَوَاتُ[٢] العرب كدَوَرَان الرحا على قطبها ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال: قبة الإسلام ، وذروة الكلام ، ومظانّ[٣] ذوى الأعلام ، إلا أن بها أجلافاً تمنع ذوى الأمر الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة ، وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة ، قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غَنَاء فيها ، غير أن لهم ثباتاً فى الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلعون الفَسَقَةَ الفجار ، فقال معاوية: من البررة والفسقة ؟ فقال : يا ابن أبي سفيان ، تَرَكَ الخداع مَنْ كشف القناع ، علىٌّ وأصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك ، ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة فى كلامه بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القبة الحمراء فى ديار مضر ، قال : أسد مضر بُسْلانٌ بين غيلين[٤] ، إذا أرسلتها افترست ، وإذا تركتها احترست ، فقال معاوية : هنالك يا ابن صوحان العز الراسى ، فهل فى قومك مثل هذا ؟ قال : هذا لأهله دونك يا ابن أبي سفيان ، ومن أحَبَّ قوما حُشِرَ معهم . قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك . قال : والله ما أنا عنهم براض ، ولكنى أقول فيهم وعليهم : هم والله أعلام الليل ، وأذناب فى الدين والميل[٥] لن تُغلَب ايتها إذا رسخت ، خوارج الدين ، برازخ اليقين[٦] ، من نصروه فلج ، ومن خذلوه زلج ، قال: فأخبرني عن مضر ، قال:

(١) فى ا « عن أبي مزروع » (٢) فى ا « سورات العرب » محرفا
(٣) فى ب « ومصان ذوى الأعلام » (٤) فى ب « بسلاء بين غيلين »
(٥) فى ا « هم والله أعلام الخيل ، وأرباب فى الدين والميل »
(٦) فى ا « جوارح الدين ، موارح اليقين » .

Marfat.com

كنانة العرب ، ومعدن العز والحسب(١) ، يقذف البحر بها آذيّه ، والبر رديه ، ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ يامعاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يا ابن صوحان ؟ قال : أهل الشام ، قال : فأخبرنى عنهم ، قال : أطْوَعُ الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، عُصَاة الجبار ، وخلفة الأشرار(٢) ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار ، فقال معاوية : والله يا ابن صوحان إنك لحاملٌ مُدْيَتَكَ منذ أزمان ، إلا أن حلم ابن أبى سفيان يرد عنك ، فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قَدَراً مقدوراً.

صعصعة أيضا

وحدث أبو الهيثم قال : حدثنى أبو البشير(٣) محمد بن بشر الفزارى ، عن إبراهيم بن عقيل البصرى ، قال : قال معاوية يوماً — وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب على وعنده وجوه الناس — : الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائزاً لى ، فقال صعصعة :

تُمَنِّيكَ نفسك ما لا يكو ن جَهْلاً معاوىَ لا تأثم

فقال معاوية : يا صعصعة ، تعلمت الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل ، قال معاوية : ما أحْوَجَكَ إلى أن أذيقك وَبَالَ أمرك ! قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، قال: ومن يحول بينى وبينك ؟ قال : الذى يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتّسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير ، قال : اتسع بطن مَنْ لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع(٤) .

من أخبار صعصعة

قال المسعودى : ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان ، وكلام فى نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعانى ، على إيجاز واختصار .

ومن ذلك خبره مع عبد الله بن العباس ، وهو ماحدث به المدائنى ، عن زيد بن طليح(٥) الذهلى الشيبانى ، قال : أخبرنى أبى ، عن مصقلة بن هبَيْرة

(١) فى ا « العز والحرب » (٢) فى ا « وحلبة الأشرار » .
(٣) فى ب « أبو البشر » (٤) فى ا « من لايقنع »
(٥) فى ا « زيد بن صبح الذهلى » .

الشيبانى ، قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس : ماالسؤدد فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النَّوَال ، وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرَعًا ، قال : فما المروءة ؟ قال : أخوان اجتمعا [فإن لقيا قهرا][1] حارسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، يحتاجان إلى صيانة مع نزاهة وديانة ، قال : فهل تحفظ فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذُهْل ابن شيبان حيث يقول :

إن السيادة والمروءة عُلِّقَا حيث السماء من السِّماكِ الأعزل
وإذا تقابل مُجْرِيَانِ لغاية عثر الهجين وأسلمته الأرجل
ويَجِى الصريحُ مع العتاق معوداً قرب الجياد فلم يخنه الأفكل

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : لو أن رجلا ضرب آباط إبله مشرقاً ومغرباً لفائدة هذه الأبيات ماعنفته ، إنا منك يا ابن صوحان لعلى علم وحكم واستنباط ماقد عفا من أخبار العرب ، فمن الحكيم فيكم ؟ قال : مَنْ ملك غضبه فلم يعجل[2] ، وسعى إليه بحق أو باطل فلم يقبل ، ووجد قاتل أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل ، ذلك الحكيم يا ابن عباس ، قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : ولا قليلا ، وإنما وصفت لك أقواماً لاتجدهم إلاخاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون[3] ، فأما الآخرون فإنهم سبق جهلهم حلمهم ، ولايبالى أحدهم إذا ظفر ببغيته حين الحفيظة ما كان بعد أن يدرك زعمه ويقضى بغيته ، ولووتره أبوه لقتل أباه ، أو أخوه لقتل أخاه ، أماسمعت إلى قول زبان[4] بن عمرو بن زبان ، وذلك أن عمراً أباه قتله مالك بن كومة ، فأقام زبان زمانًا ، ثم غزا مالكا ، فأتاه فى مائتى فارس صباحًا وهو فى أربعين بيتا فقتله ، وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، ويقال : بل كان أخاه ، وذلك أنه كان جاورهم ، فقيل لزبان فى ذلك : قتلت صاحبنا ، فقال :

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ا ، وفى ب بعده « وإن كان حارسهما جليلا لحاجان إلى صيانة — إلخ » . (٢) فى ب « فلم يفعل » .
(٣) فى ا « ينيلون ولا ينالون » (٤) فى ب « ريان بن عمرو بن ريان »

Marfat.com

فلو أمى ثَقَفَتْ بحيث كانوا لبلَّ ثيابها عَلَقٌ صبيب
ولو كانت أمية أخت عمرو بهذا الماء ظَلَّ لها نحيب
شهرت السيف فى الأدْنَيْنَ منى ولم تعطف أواصِرَنَا قلوب(١)

فقال [له] ابن عباس : فمن الفارس فيكم ؟ حُدَّ لى حدا أسمعه منك فإنك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صوحان ، قال : الفارس من قصر أجله فى نفسه، وضغم على أمله بضرسه ، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه ، ذلك الفارس إذا وقدت الحروب ، واشتدت بالأنفس الكروب، وتداعوا للنزال، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج ، واقتحموا بالسيوف اللجج ، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان ، إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء، ما ورثت هذا عن كَلالَة، زدنى قال : نعم، الفارسُ كثير الحذر ، مدير النظر ، يلتفت بقلبه، ولا يدير خرزات صلبه ، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان الوَصْفَ، فهل فى مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن جَنَاب(٢) الكلبى يرثى ابنه عمرا حيث يقول :

فارس تكلأ الصحابة منه بحسام يمرُّ مَرَّ الحريق
لا تراه لَدَى الوغى فى مجال يغفل الطرف ، لا ، ولا فى مضيق(٣)
من يراه يَخَلْه فى الحرب يوما أنه أخرق مضل الطريق

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أُخواك منك يا ابن صوحان ؟ صِفْهُمَا لأعرف وزنكم . قال : أما زيد فكما قال أخو غَنِيّ :

فتى لا يبالى أن يكون بوجهه إذا سد خلاَّتِ الكرام شُحُوبُ
إذا ما تراآه الرجال تحفظوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه إليه ، ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى يا أم عمرو ضَجِيعَه إذا لم يكن فى المنقيات حلوب
كأن بيوت الحى ما لم يكن بها بَسَابِسُ ما يُلْفَى بهن عَرِيبُ

فى أبيات ، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة ، شريف الأخوة، جليل

---

(١) فى ا « ولم يعطف أواصرانا قريب » .
(٢) فى ا « لزهير بن الخباب الكلبى » محرفا (٣) فى ب « يقفل الضرب »

Marfat.com

الخطر ، بعيد الأثر ، كميش العروة ، أليف البدوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الدهر ، ذاكراً الله طرفَى النهار وزُلَفاً من الليل ، الجوع والشبع عنده سيان ، لا ينافس فى الدنيا ، وأقل أصحابه من يُنافس فيها ، يطيل السكوت ، ويحفظ الكلام ، وإن نطق نطق بعُقَام ، يهرب منه الدُّعَّار الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار ، فقال ابن عباس : ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيداً ! فأين كان عبد الله منه ؟ قال : كان عبد الله سيداً شجاعا ، مألفاً مطاعا ، خيره وساع ، وشره دفاع ، قُلْبى النحيزة ، أحوذى الغريزة، لا ينهنهه منهنِهٌ عما أراده ، ولا يركب من الأمر إلا عتاده ، سمام عدى ، وباذل قرى ، صعب المَقَادة ، جَزْل الرفادة[1] ، أخو إخوان ، وفتى فتيان ، وهو كما قال البرجمى عامر بن سنان :

سِمَامُ عدى ، بالنبل يقتل من رمى وبالسيف والرمح الرُّدَيْنِيِّ مشغب
مهيب مفيــــد للنوال مُعَوَّدٌ بفعل الندى والمكرمات مجرب

فى أبيات ، فقال ابن له عباس : أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب .

ومن أخبار صعصعة ما حدث به أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمى ، عن أبى الهيثم يزيد بن رجاء الغنوى ، قال : [أخبرنى رجل من بنى فزارة ثم من بنى عدى ، قال :] وقف رجل من بنى فزارة على صعصعة ، فأسمعه كلاماً منه : بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيبوك ، أما لئن شئْتَ لأكونن لك لصاقاً ، فلا تنطق إلا حَدَدْتُ لسانك بأذْرَبَ من ظُبَةِ السيف ، بعضب قوى ، ولسان على ، ثم لا يكون لك فى ذلك حل ولا ترحال ، فقال صعصعة : لو أجد غرضا منك لرميت ، بل أرى شبحا ولا أرى مثالا[2] ، إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، أما لو كنت كفؤاً لرميت حصائلك بأذْرَبَ من ذلك السنان،

(١) فى ا « جزل الوفادة » وما هنا عن ب أحسن .

(٢) فى ب « ولا إخال مثالا » .

Marfat.com

ولو شققتك بنبال تردعك عن النضال ، ولخطمتك بخطام يخزم منك موضع الزمام ، فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من الفزارى ، وقال : أما لو كلف أخو فزارة نَفْسَه نقل الصخور من جبال شمام[1] إلى الهضام ، لكان أهون عليه من منازعة أخى عبد القيس ، خاب أبوه ، ما أجهله ! ! يستجهل أخا عبد القيس ، وقواه المريرة ، ثم تمثل :

صُبَّتْ عليك ولم تنصبَّ من أَمَمٍ إن الشَّقَاء على الأَشْقَيْنَ مصبوب

أبو أيوب وصعصعة

وحدث المبرد ، عن الرياشى ، عن ربيعة بن عبد الله النميرى ، قال : أخبرنى رجل من الأزد ، قال : نظرت إلى أبى أيوب الأنصارى ، فى يوم النهروان ، وقد علا عبد الله بن وهب الراسبى ، فضربه ضربة على كتفه ، فأبان يده ، وقال : بُؤْبها إلى النار يا مارق ، فقال عبد الله : ستعلم أينا أولى بها صليا ، قال : وأبيك إنى لأعلم ؛ إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال : أولى بها والله صلياً من ضَلَّ فى الدنيا عميا ، وصار إلى الآخرة شقيا ، أبعدك الله ! وأنزحك ! أما والله : لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس ، فأبيت إلا نكوصا على عقبيك ، فذق يا مارق وبال أمرك ، وشَرِكَ أبا أيوب فى قتله : ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله ، وأدركه بأخرى فى بطنه ، وقال : لقد صرت إلى نار لا تطفأ ، ولا يبوخ سعيرها ، ثم احتزا رأسه ، وأتَيَا به عليا[2] ، فقالا : هذا رأس الفاسق ، الناكث ، المارق : عبد الله بن وهب ، فنظر إليه فقطَّبَ ، وقال : شَاهَ هذا الوجهُ ! حتى خيل إلينا أنه يبكى ، ثم قال : قد كان أخو راسب حافظا لكتاب الله ، تاركا لحدود الله ، ثم قال لهما : اطلبا لى ذا الثُّدَيَّة ، فطُلِبَ فلم يوجد ، فرجعا إليه وقالا : ما أصبنا شيئا ، فقال : والله لقد قتل فى يومه هذا ، وما كَذَبَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كَذَبْتُ عليه ، قوموا بجمعكم فاطلبوه ، فقامت جماعة من أصحابه ، فتفرقوا فى القتلى ، فأصابوه

(١) فى ا «من جبال شماء إلى الهضاب» (٢) فى ا «احتز رأسه وأتى به عليا»

Marfat.com

فى دهاس من الأرض ، فوقه زهاء مائة قتيل ، فأخرجوه يجر برجله ، ثم أتى به على ، فقال : اشهدوا أنه ذو الثُّدَيَّة ، وقد ذكرنا أخبار ذى الثدية فيما سلف من هذا الكتاب .

من قول على فى ربيعة

ولعلى فى ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ، ويرثيهم شعراً ومنثوراً ، وقد كانوا أنصاره وأعوانه ، والركن المنيع من أركانه ، فمن بعض ذلك قوله يوم صفين :

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حُضَيْنُ تقدما(١)
فيوردها فى الصف حتى يعلها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما
جزى الله قوماً قاتلوا فى لقائه ... لدى الموت قُدْماً ما أعز وأكرما
وأطيب أخباراً ، وأكرم شيمة ، ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعَةَ أعْنِي ، إنهم أهل نجدة ... وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

معاوية وجميل ابن كعب

وذكر المدائنى أن معاوية أسر جميل بن كعب الثعلبى — وكان من سادات ربيعة وشيعة على وأنصاره — فلما وقف بين يديه قال : الحمد لله الذى أمكننى منك ، ألست القائل يوم الجمل :

أصبحتِ الأمة فى أمر عَجَبْ ... والملك مجموع غداً لمن غلب
قد قلت قولا صادقا غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب

قال : لا تقل ذلك فإنها مصيبة ، قال معاوية : وأى نعمة أكبر من أن يكون الله قد أظفرنى برجل قد قتل فى ساعة واحدة عدة من حُمَاة أصحابى ؟ اضربوا عنقه ، فقال : اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلنى فيك ، ولا لأنك ترضى قتلى ، ولكن قتلنى على حُطَام الدنيا ، فإن فعل فافعل به ما هو أهله ، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله ؛ فقال معاوية : قاتلك الله ! لقد سببت فأبلغت فى السب ، ودعوتَ فبالغت فى الدعاء ، ثم أمر به فأطلق ، وتمثل

(١) فى ا ، ب « حصين » بالصاد مهملة ، وليس بشىء ، وفى ا وحدها « لنا راية » والرواية ما أثبتناه موافقا لما فى ب .

Marfat.com

معاوية بأبيات للنعمان بن المنـذر ، لم يقل النعمان غيرها ، فيما ذكر ابن الـكلبى ، وهى :

تعفو الملوك عن الجليـــل من الأمور بفَضْلِهَا
ولقد تُعاَقب فى اليســير ، وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضـلهاَ ويُخاَف شدة نـكلهاَ

معاوية عند موته

وذكر لوط بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدى وغيرهم من نَقَلَةِ الأخبار أن معاوية لما احْتُضِرَ تمثل :

هو الموت ، لا مَنْجى من الموت ، والذى
تحاذر بعـــد الموت أدهى وأفظع

ثم قالَ : اللهم أَقِلِ العَثْرة ، واعف عن الزلة ، وجُدْ بحلمك على جهل من لم يَرْجُ غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة مهرب ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقال : لقد رغب إلى مَنْ لا مرغوب إليه مثله [وإنى لأرجو أن لا يعذبه الله][1] .

وذكر محمد بن إسحاق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام فى بَدْء علته التى كانت وفاته فيها ، فرأى نحول جسمه ، فبكى لفنائه وما قد أشْرَفَ عليه من الدثور الوّاقع بالخليقة ، وقال متمثلا :

أرى الليالى أسرعت فى نقضى أخَذْنَ بعضى وتركن بعضى
حَنَيْنَ طولى وحَنَيْنَ عرضى أقعدننى من بعد طول نهضى

ولما أزف أمرهُ ، وحان فراقه ، واشتدت علته[2] ، وأيس من برئه ، أنشأ يقول :

فيَالَيْتنى لم أعن فى الملك ساعة ولم أك فى اللذات أعشى النواظر
وكنت كذى طمرين عاش ببُلْغَة من الدهر حتى زار أهل المقابر

قال المسعودى : ولمعاوية أخبار كثيرة مع على وغيره ، وقد أتينا على الغرر

(١) هذه العبارة لاتوجد فى ا (٢) فى ا «واشتد عليه» محرفا عما أثبتناه

Marfat.com

من أخباره ، وما كان فى أيامه فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وغيرهما من كتبنا ، مما أفرد للآثار ، وهذا باب كبير ، والكلام فيه وفى غيره مما تقدم وتأخر فى هذا الكتاب كثير ، ومَنْ ضَمِنَ الاختصار لم يَجُزْ له الإكثار .

وإنما نذكر فى كل باب [من هذا الكتاب] طُرَفاً من كل نوع من العلوم والأخبار ، وما انتخبناه من طرائف الآثار ؛ ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد مما تركنا ذكره ، وقد تقدم وصفه وبسطه فيما سلف من كتبنا .

وإذ قد تقدم ما ذكرنا ، فلنذكر الآن جملا من فَضْل الصحابة ، وغيرهم ، عليهم السلام ؛ إذ كانوا حجة على مَنْ بعدهم ، وقدوة لمن تأخر عنهم ، وبالله التأييد .

Marfat.com

ذكر الصحابة ومدحهم

وعلىّ ، والعباس ، وفضلهما

معاوية وعبد الله ابن العباس

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وُجُوه قريش ، فلما سلم وجلس قال له معاوية : إنى أريد أن أسألك عن مسائل ؟ قال : سَلْ عما بدا لك ، قال : ما تقول فى أبى بكر ؟ قال : رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تاليا ، وعن المنكر [ات] ناهيًا ، وبذنبه عارفًا ، ومن الله خائفًا ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائمًا ، وبالنهار صائمًا ، فاقَ أصحابه وَرَعًا وكفافا[1] ، وسادهم زهداً وعفافًا ، فغضب الله على مَنْ أبغضه وطعن عليه .

وصف أبى بكر

وصف عمر

قال معاوية : إيهًا يا ابن عباس ، فما تقول فى عمر بن الخطاب ؟

قال : رحم الله أبا حفص [عمر] ، كان والله حليف الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحل الإيمان ، وكَهْفَ الضعفاء ، ومَعْقِلَ الحنفاء ، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد ، وأمَّنَ العباد ، فأعقب الله على مَنْ تنقصه اللعنَةَ إلى يوم الدين .

قال : فما تقول فى عثمان ؟

وصف عثمان

قال : رحم الله أبا عمرو ، كان والله أكرم الحفَدَة[2] ، وأفضل البررة، هَجَّاداً بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نَهَّاضًا عند كل مكرمة ، سَبَّاقًا إلى كل منحة ، حييًا أبيا وفيا ، صاحب جيش العُسْرَة ، خَتَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين .

---

(١) فى ا « ورعا وكفافا »

(٢) فى ب « أكرم الجعدة »

Marfat.com

قال : فما تقول فى على ؟ وصف على

قال : رضى الله عن أبى الحسن ، كان والله علىٌّ عَلَمَ الهدى ، وكهف التقى ، ومحل[1] الحجا ، وبحر الندى ، وطَوْد النهى ، وكهف العلا ، للورى داعياً إلى المحجَّةِ العظمى ، متمسكاً بالعروة الْوُثْـقَى ، خير مَنْ آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسَعَى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى ، سوى الأنبياء والنبى المصطفى ، صاحب القبلتين فهل يوازيه أحد ؟ وهو أبو السبطين فهل يقارنه بشر ؟ وزوج خير النساء فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأُسُودِ قتال ، وفى الحروب ختال ، لم تر عينى مثله ولن تَرَى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التناد .

قال : إيها يا ابن عباس ، لقد أكثرت فى ابن عمك ، فما تقول فى أبيك العباس ؟

قال : رحم الله [العباس] أبا الفَضْل ، كان صِنْوَ نبى الله صلى الله عليه وسلم وقرة عين صفى الله ، سيد الأعمام ، له أخْلَاقُ آبائه الأجواد ، وأحلام أجداده الأمجاد ، تباعدت الأسباب فى فضيلته ، صاحب البيت والسِّقَاية ، والمشاعر والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دَبَّ ؟ وصف العباس

فقال معاوية : يا ابن عباس ، أنا أعلم أنك كِلْمَانى فى أهل بيتك .

قال : ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعلمه التأويل » ؟ .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام :

يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، خَصَّ نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابةٍ آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ، ووصفهم الله فى كتابه فقال : (رحماء بينهم) الآية ، وصف الصحابة عا

---

(١) فى ب « ومحل الحجا » .

Marfat.com

قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء الله ، واستقر دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رءوسه[1]، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا فى الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء ، وكانوا لعباد الله نُصَحَاء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بَعْدُ فيها .

فَقَطَعَ عليه معاوية الكلام ، وقال : إيها يا ابن عباس ، حديثاً[2] فى غير هذا .

(١) فى ب « وأزال روحه » (٢) فى ا « خذ بنا فى غير هذا »

Marfat.com

ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

وبويع يزيد بن معاوية ، فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمانى ليال ، وأخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته ، ففى ذلك يقول عبد الله بن هَمَّام السَّلُولى :

تَلَقَفَهَا يَزِيدُ عن أبيه ... فخُذْهَا يا مُعَاوِىَ عن يزيدا
لقد علقت بِكُمْ فَتَلَقَفُوهَا ... ولا ترموا بها الغرض البعيدا(١)

وهلك يزيد بحُوَّارِينَ من أرض دمشق لسبع(٢) عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وفى ذلك يقول رجل من عنزة :

يا أيها القبر بحُوَّارِيناَ ... ضممت شَرَّ الناس أجمعينا

وقد رَثَاه الأخطل النصرانى ، فقال من قصيدة :

لعمرى لقد دَلَّى إلى اللحد خالد ... جنازة لا نِكْسِ الفؤاد ولا غمر(٣)
مقيم بحُوَّارِينَ ليس يَرِيمُهَا ... سقته الغوادى من ثَوِىٍّ ومن قبر

فى أبيات .

---

(١) فى ا « فقد علقت بكم فتلقفوها » .
(٢) فى ا « لأربع عشرة ليلة خلت من صفر »
(٣) فى ب « لعمرى لقد ولى إلى الحلد خالد »

Marfat.com

ذكر مقتل الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام

ومَنْ قتل معه من أهل بيته وشيعته

أهل الكوفة يدعون الحسين

ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة إلى الحسين بن على : إنا قد حَبَسْنَا أنفسنا على بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك.

وطولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير ، وخرج يتهادى بين مواليه ويقول :

لا ذَعَرْتُ السَّوَامَ فى فلق الصبـــح مُغِيراً ، ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيما والمنايا ترصُدْنَنِى أن أحِيدا

مسلم بن عقيل يتقدم الحسين إلى الكوفة

ولحق بمكة ، فأرسل بابن عمه[1] مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، وقال له : سِرْ إلى أهل الكوفة ، فإن كان حقًّا ما كتبوا به عرفنى حتى ألحق بك ، فخرج مسلم من مكة فى النصف[2] من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خَلَوْنَ من شوال ، والأمير عليها النعمان بن بشير الأنصارى ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَجة مستتراً ، فلما ذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، وقيل : ثمانية عشر ألفاً ، فكتب بالخبر إلى الحسين ، وسأله القدوم إليه ، فلما هَمَّ الحسين بالخروج إلى العراق أتاه ابن العباس ، فقال له : يا ابن عم ، قد بلغنى أنك تريد العراق ، وإنهم أهْلُ غَدْر ، وإنما يدعونك للحرب ، فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فَاشْخَصْ إلى اليمن ، فإنها فى عُزْلَة ، ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وَبُثَّ دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم[3] ، فإن قَوَوْا على ذلك ونفوه عنها ، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما أنا لغدرهم بآمن ،

ابن عباس ينصح الحسين

(١) فى ا « فأرسل ابن عمه » . (٢) فى ا « للنصف من شهر رمضان »

(٣) فى ا « فليخرجوا أميرهم فإن قروا على ذلك » .

Marfat.com

وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره ، فإن فيها حصونا وشعابا ، فقال الحسين : يا ابن عم ، إني لأعلم أنك لي ناصح وعليّ شفيق ، ولكن مسلم بن عقيل كتب إليّ باجتماع أهل المصر على بَيْعَتي ونُصْرتي ، وقد أجمعْتُ على المسير [إليهم] ، قال : إنهم من خَبَرْتَ وجَرَّبتَ[1] وهم أصحاب أبيك وأخيك وقَتَلَتُكَ غداً مع أميرهم ، إنك لو قد خرجت فبلغ ابنَ زياد خروجُك استنفرهم إليك ، وكان الذين كتبوا إليك أشَدَّ من عدوك ، فإن عصيتني وأبيت إلا الخروج إلى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ، فكان الذي رَدَّ عليه : لأن أقْتَلَ والله بمكان كذا أحَبُّ إلى من أن أستحَلَّ بمكة ، فيئس ابن عباس منه ، وخرج من عنده ، فمر بعبد الله بن الزبير ، فقال : قرت عينك يا ابن الزبير ، وأنشد :

يا لك من قُبَّرَةٍ بمعمر ... خلالكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز .

الحسين وابن الزبير

وبلغ ابن الزبير أنه يريد الخروج إلى الكوفة وهو أثقل الناس عليه ، قد غمه مكانه بمكة ؛ لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين ، فلم يكن شيء يُؤْتاه أحَبّ إليه من شخوص الحسين عن مكة ، فأتاه فقال : أبا عبد الله ما عندك ، فوالله لقد خفت الله في [ترك] جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله ، فقال حسين : قد عزمْتُ على إتيان الكوفة ، فقال : وفّقَكَ الله ! ! أما لو أن لي [بها] مثل أنصارك ما عدلْتُ عنها ، ثم خاف أن يتهمه فقال : ولو أقمت بمكانك فدعوتَنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنا إليك سِرَاعا ، وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد.

(١) في ب « إنهم من جرت وجرت » وفي ا « إنهم من خبرت وجبرت » وأحسب ذلك كله محرفا عما أثبته .

Marfat.com

نصيحة أبى بكر ابن هشام

ودخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين فقال : يا ابن عم ، إن الرحم يُظَائرنى(١) عليك ، ولاأدرى كيف أنافى النصيحة لك،فقال:يا أبا بكر ما أنت ممن يُسْتَغَشُّ [ولا يُتَّهم ، فقل] ، فقال أبو بكر: كان أبوك [أقْدَمَ سابقة ، وأحسن فى الإسلام أثراً ، و] أشد بأساً،والناس له أرْجَى ، ومنه أسمع وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهو أعز منه ، فخذلوه ، وتثاقلوا عنه ، حرصاً على الدنيا ، وضناً بها ، فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ماصار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ماصنعوا ، وقد شهدْتَ ذلك كله ورأيته ، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عَدَوْا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعَدُّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغوا الناس(٢) بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك مَنْ وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فاذكر الله فى نفسك ، فقال الحسين : جزاك الله خيراً يا ابن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يَقْضِ الله يكن ، فقال : [إنا لله] وعند الله نحتسب [يا] أبا عبد الله ، ثم دخل على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومى والى مكة وهو يقول :

كم نرى ناصحاً يقول فَيُعْصَى وظَنِينِ المغيب يُلْفَى نصيحا

فقال : وماذاك؟فأخبره بماقال للحسين ، فقال : نصحت له ورب الكعبة .

يزيد يستعد

واتصل الخبر بيزيد،فكتب إلى عبيد الله بن زياد بتولية الكوفة،فخرج من البصرة مسرعًا حتى قدم الكوفة على الظَّهر،فدخلها فى أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تَلَثَّم بها،وهو راكب بغلة والناس يتوقعون قدوم الحسين فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون : وعليك السلام يا ابن رسول الله ! قدمْتَ خير مَقْدَم ، حتى انتهى إلى القصر وفيه النعمان بن بشير ، فتحصَّنَ فيه ، ثم أشرف عليه ، فقال : يا ابن رسول الله مالى ولك؟وماحملك على قصد بلدى من

(١) فى ا « يظأرنى عليك » (٢) فى ا « لقد استعطفوا الناس بالأموال »

Marfat.com

بين البلدان ؟ فقال ابن زياد : لقد طال نومك يانعيم ، وَحَسَرَ اللِّثام عن فيه ، فعرفه ، ففتح له ، وتنادى الناس : ابن مَرْجانَة ، وَحَصَبوه بالحصباء ، ففاتهم ودخل القصر ، ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تَحَوَّلَ إلى هانىء بن عروة المرادى ، ووضع ابن زياد الرَّصَدَ على مسلم حتى علم بموضعه ، فَوَجَّه محمد بن الأشعث بن قيس إلى هانىء ، فجاءه فسأله عن مسلم ، فأنكره ، فأغلظ له ابن زياد القول ، فقال هانىء : إن لزياد أبيك عندى بلاء حسناً ، وأنا أحِبُّ مكافأته به ، فهل لك فى خير ؟ قال ابن زياد : وما هو ؟ قال : تَشْخَصُ إلى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم ، فإنه قد جاء [حق] مَنْ هو أحق من حقك وحق صاحبك ، فقال ابن زياد : أدنوه منى ، فأدنوه منه ، فضرب وجهه بقضيب كان فى يده [حتى] كسر أنفه وشق حاجبه ، ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه ، وضرب هانىء بيده إلى قائم سيف شرطى من تلك الشرط ، فجاذبه الرجل ، ومنعه السيف ، وصاح أصحاب هانىء بالباب : قتل صاحبنا ، فخافهم ابن زياد ، وأمر بحبسه فى بيت إلى جانب مجلسه ، وأخرج إليهم ابن زياد شريحاً القاضى ، فشهد عندهم أنه حى لم يقتل ، فانصرفوا ، ولما بلغ مسلماً ما فعل ابن زياد بهانىء ، أمر منادياً فنادى « يا منصور » وكانت شعارهم ، فتنادى أهل الكوفة بها ، فاجتمع إليه فى وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل ، فَسَارَ إلى ابن زياد ، فتحصن منه ، فحصروه فى القصر فلم يُمْسِ مسلم ومعه غير مائة رجل ، فلما نظر إلى الناس يتفرقون عنه سار نحو أبواب كِنْدَة ، فما بلغ الباب إلا ومعه منهم ثلاثة ، ثم خرج من الباب فإذا ليس معه منهم أحد ، فبقى حائراً لا يدرى أين يذهب ، ولا يجد أحداً يَدُلُّه على الطريق ، فنزل عن فرسه ومشى متلدداً فى أزقة الكوفة لايدرى أين يَتَوَجَّه ، حتى انتهى إلى باب مولاة للأشعث بن قيس ، فاستسقاها ماء فَسَقَتْهُ ، ثم سألته عن حاله ، فأعلمها بقضيته[1] ، فَرَقَّت له

أول الغدر

(١) فى ا « فأعلمها بقصته » .

وآوَتْهُ ، وجاء ابنها فعلم بموضعه ، فلما أصبح غدا إلى محمد بن الأشعث فأعلمه، فمضى ابن الأشعث إلى ابن زياد فأعلمه ، فقال : انطلق فَأْتِنِي به ، وَوَجَّهَ معه عبد الله بن العباس السُّلمى فى سبعين رجلا ، فاقتحموا على مسلم الدار ، فثار عليهم بسيفه ، وشَدَّ عليهم فأخرجهم من الدار ، ثم حملوا عليه الثانية ، فَشَدَّ عليهم وأخرجهم أيضاً ، فلما رأوا ذلك عَلَوْا ظهر البيوت فَرَمَوْه بالحجارة ، وجعلوا يلهبون النار بأطراف القصب ، ثم يلقونها عليه من فوق البيوت ، فلما رأى ذلك قال : أ كلُّ ما أرى من الأحلاب لقتل مسلم بن عقيل ؟ يا نفس اخرجى إلى الموت الذى ليس عنه محيص ، فخرج إليهم مُصْلِتاً سيفه إلى السِّكَّةِ ، فقاتلهم ، واختلف هو وبكير بن حمران الأحمرىّ ضربتين : فضرب بكير فَمَ مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع فى السفلى[1]، وضربه مسلم ضربة منكرة فى رأسه ، ثم ضربة أُخرى على حبل العاتق فـكاد يصل إلى جوْفِهِ ، وهو يرتجز ويقول :

قتل مسلم ابن عقيل

أقسم لا أقتَـلُ إلاَّ حُرَّا وإنْ رأيت الموت شيئاً مُرَّا[2]
كل امرىء يَوْماً مُلاَقٍ شَرَّا أخَافُ أنْ أُكْذَبَ أوْ أُغَرَّا

فلما رأوا ذلك منه تقدم إليه محمد بن الأشعث فقال له : فإنك لا تُكذب ولا تغر ، وأعطاه الأمان ، فأمكنهم من نفسه ، وحملوه على بَغْلَةٍ وَأَتَوْا به ابنَ زيادٍ ، وقد سلبه ابنُ الأشعث حين أعطاه الأمان سيفه وسلاحه ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء فى كلمة يهجو فيها ابن الأشعث :

وتَرَكْتَ عَمَّكَ أن تُقَاتِلَ دُونه فَشَلاً ، وَلَوْلاَ أنت كان مَنِيعاَ
وقتلت وَافِدَ آل بيت مُحَمَّد وسَلَبْتَ أسْيَافاً له ودُرُوعاَ

فلما صار مسلم إلى باب القصر نظر إلى قُلة مبردة ، فاستسقاهم منها ، فمنعهم مسلم بن عمرو الباهلى – وهو أبو قتيبة بن مسلم – أن يسقوه ، فوجَّهَ عمرو بن حريث فأتاه بماء فى قدح ، فلما رفعه إلى فيه امتلأ القدح دما ، فَصَبَّهُ وملأه[3] له

(١) فى ا « وأشرع فى السفلى » (٢) فى ا « أقسمت لا أقتل – إلخ » .
(٣) فى ا « وسأله الثانية » وما هنا أحسن .

Marfat.com

الثانية ، فلما رفعه إلى فيه سقطت ثناياه فيه وامتلأ دماً ، فقال : الحمد لله ، لو كان من الرزق المقسوم اشربته ، ثم أُدخل إلى ابن زياد ، فلما انقضى كلامه ومسلم يُغْلظ له فى الجواب أمر به فأصعد إلى أعلى القصر ، ثم دعا الأحمرىَّ الذى ضربه مسلم ، فقال : كُنْ أنت الذى تضرب عنقه لتأخذ بثأرك من ضربته ، فأصعدوه إلى أعلى القصر ، فضرب بكير الأحمرى عنقه ، فأَهْوَى رأسه إلى الأرض ، ثم أتبعوا رأسه جَسَدَه ، ثم أمر بهانىء بن عروة فأخرج إلى السوق ، فضرب عنقه صبراً[1] ، وهو يصيح : يا آل مراد ، وهو شيخها وزعيمها ، وهو يومئذ يركب فى أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، وإذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان فى ثلاثين ألف دارع ، فلم يجد زعيمهم منهم أحداً فشلاً وخذلاناً ، فقال الشاعر ، وهو يرثى هانىء ابن عروة ومسلم بن عقيل ويذكر ما نالهما :

مقتل هانىء ابن عروة

إذا كُنْتِ لا تَدْرِين ما الموت فانظرى   إلى هانىء فى السوق وابن عَقيلِ
إلى بَطَلٍ قد هَشَّمَ السَّيْفُ وجهه   وَآخَرَ يَهْوِى فى طمار قتيل
أصابهما أمْرُ الأميرِ فَأَصْبَحَا   أحَادِيثَ من يَسْعى بكل سبيل
تَرَىْ جَسَداً قد غَيَّرَ المَوْتُ لونه   وَنَضْحَ دم قد سَالَ كلَّ مَسِيلِ
أيترك أسمـــاء المهايج آمِناً   وقد طلبته مَذْحج بذحُول[2]
فَتًى هو أحْيَىٰ من فتاة حَيِيَّةٍ   وأقطع من ذِى شَفْرَتَيْنِ صقيل

ثم دعا ابن زياد ببكير بن حمران الذى ضرب عنق مسلم فقال : أقتلته ؟ قال : نعم ، قال : فما كان يقول وأنتم تصعدون به لتقتلوه ؟ قال : كان يكبر ويسبح الله ويهلل ويستغفر الله ، فلما أدنيناه لنضرب عُنقه قال : اللهم احكم بيننا وبين قوم غرُّونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا ، فقلت : الحمد لله الذى أقادنى منك ، وضربته ضربة لم تعمل شيئاً ، فقال لى : أو ما يكفيك

---

(١) فى ا « فضربت عنقه جبرا »

(٢) روى هذا البيت فى ا هكذا :

أيركب أسماء الهماليج آمنا   وقد طلبته مذحج بقتيل

ووقع فيها « المهاليج » محرفا .

Marfat.com

وَفِي خَدْشٍ مني وَفَاءٌ بدمك أيها العبد ، قال ابن زياد : أَوَفَخْراً عند الموت؟ قال : وضربته الثانية فقتلته ، ثم أتبعنا رأسه جسده .

وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال مَضَيْنَ من ذى الحجة سنة ستين ، وهو اليوم الذى ارتحل فيه الحسين من مكة إلى الكوفة ، وقيل : يوم الأربعاء يوم عرفة لتِسْع مَضَينَ من ذى الحجة سنة ستين .

ثم أمر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت ، وحمل رأسه إلى دمشق ، وهذا أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم ، وأول رأس حمل من رءوسهم إلى دمشق.

الحسين يقاتل جيش ابن زياد

فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحر[1] بن يزيد التميمى فقال له : أين تريد يا ابن رسول الله ؟ قال : أريد هذا المصر ، فَعَرَّفَه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال : ارجع فإنى لم أَدَعْ خلفى خيراً أرجوه لك ، فَهَمَّ بالرجوع فقال له إخوةُ مسلمٍ : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل كلنا ، فقال الحسين : لا خير فى الحياة بعدكم ، ثم سار حتى لقى خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد[2] بن أبى وقاص ، فعدل إلى كربلاء ـ وهو فى مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل ـ فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيص له ، فقال : اللهم احكم بيننا وبين قوم دَعَوْنَا لينصرونا ثم هم يقتلوننا ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه ، وكان

مقتل الحسين

الذى تولى قتله رجل من مَذْحِج واحتز رأسه ، وانطلق به إلى ابن زياد وهو يرتجز :

[أَوْقِرْ رِكَابِى فِضَّة وذَهَبَا] أنا قتلتُ الملك المحجَّبَا
قتلتُ خَيْرَ الناس أُما وأبا وَخَيْرَهُم إذ يُنْسَبُونَ نسبا

فبعث به [ابن] زياد إلى يزيد بن معاوية ومعه الرأس ، فدخل إلى يزيد وعنده أبو بَرْزَة الأسلمى[3] ، فوضع الرأس بين يديه ، فأقبل ينكت القضيب [فى فيه] ويقول :

---

(١) فى ب « الحارث بن يزيد » (٢) فى ا « عمر بن سعد بن أبى وقاص »
(٣) فى ب « أبو بردة الأسلمى » .

Marfat.com

نُفَلِّقُ هاماً من رجالٍ أَحِبَّةٍ عَلَيْنَا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو بَرْزَةَ : ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه ، وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولّى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامى ، وكان جميع من قتل مع الحسين فى يوم عاشوراء بكربلاء سبعة وثمانين ، منهم ابنه على بن الحسين الأكبر ، وكان يرتجز ويقول :

من قتل مع الحسين

أنَا علىُّ بن الْحُسَيْنِ بن على نَحْنُ وبيت الله أَوْلَى بِالنَّبِى

تالله لا يَحْكُمُ فِينَا ابن الدَّعِى

وقتل من ولد أخيه الحسنِ بن على : عبدُ الله بن الحسن ، والقاسم بن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن، ومن إخوته : العباس بن على ، وعبد الله بن على ، وجعفر بن على ، وعثمان بن على ، ومحمد بن على ؛ ومن ولد جعفر بن أبى طالب : محمد بن عبد الله بن جعفر ، وعَوْنُ بن عبد الله بن جعفر؛ ومن ولد عقيل بن أبى طالب : عبد الله بن عقيل ، وعبد الله بن مسلم بن عقيل ، وذلك لعشر خَلَوْنَ من المحرم سنة إحدى وستين[1] .

وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيل : ابن تسع وخمسين سنة ، وقيل غير ذلك .

ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ، ضَرَبَ زرعة بن شريك التميمى كفه اليسرى ، وطعنه سنان بن أنس النخعى ، ثم نزل فاحتز رأسه ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وَأَىُّ رَزِيّةٍ عدلَتْ حُسَيْناً غَدَاةَ تبينهُ كَفَّا سِنَانِ !؟

وقتل معه من الأنصار أربعة ، وباقى من قتل معه من أصحابه — على

(١) فى ب « سنة أربع وستين » .

ما قَدَّمنا من العِدَّة — من سائر العرب ، وفى ذلك يقول مسلم بن قتيبة مَوْلَى بنى هاشم :

عَيْنُ جودى بعبرة وَعَوِيل وَانْدُبِى إن ندبت آلَ الرَّسُول

[واندبى تِسْعَة لِصُلْبِ على قد أصيبوا ، وخَمْسَة لعقيل][1]

وَابْنَ عَمّ النبى عَوْناً أخاهم ليس فيما يَنُوب بِالمَخْذُول[2]

وَسَمِىُّ النبى غُـودِرَ فيهم قد عَلَوْهُ بِصَارِمٍ مَصْقُول

واندبى كَهْلَهُمْ فليس إذا ما عُدَّ فى الخير كهلهم كَالـكُهُول

لَعَنَ الله حيث كَانَ زياداً وابنه وَالعَجُوزَ ذات البُعُول

وأمر عمرو بن[3] سعد أصحابه أن يُوطِئوا خيلَهم الحسينَ ، فانتدب لذلك إسحاق بن حيوة الحضرمى فى نفر معه ، فوطئوه بخيلهم ، ودَفَنَ أهل العاضرية — وهم قوم من بنى عاضر من بنى أسد — الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم ، وكان عِدَّة مَنْ قتل من أصحاب [عمرو بن][4] سعد فى حرب الحسين عليه السلام ثمانية وثمانين رجلا .

---

(١) هذا البيت لا يوجد فى ب

(٢) فى ا « ليس فيما ينوبهم بمخذول »

(٣) فى ا « وأمر عمر بن سعد »

(٤) زيادة فى ا وحدها .

Marfat.com

ذكر أسماء ولد على بن أبى طالب

رضى الله عنه !

أسماء ولد على وأمهاتهم

الحسن ، والحسين ، ومُحَسِّن ، وأم كلثوم الكبرى ، وزينب الكبرى ، أمهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحمد وأمه خَوْلَة بنت إياس الحَنَفِيَّة ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مَسْلَمَة الحنفى ، وعبيد الله ، وأبو بكر أمهما ليلى بنت مسعود النهشلى ، وعمر ، ورقية أمهما تغلبية ، ويحيى وأمه أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية ، وقد قدَّمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفرا الطيار استشهد وخلف عليها عَوْناً ومحمداً وعبد الله ، وأن عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر ، وأن أبا بكر الصديق تزوجها بعده ، وخلف عليها محمداً ، ثم تزوجها على فخلف عليها يحيى ، وأنها ابنة العجوز الجرشية التى كانت أكْرَمَ الناس أصهاراً ، وقد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب تسمية أصهار العجوز الجرشية ، وأن أولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر ، والعباس ، وعبد الله أمهم أم البنين بنت حرام الوحيدية ، ورَمْلَة وأم الحسن أمهما أم سعيد بنت عروة ابن مسعود الثقفى ، وأم كلثوم الصغرى ، وزينب الصغرى ، وجُمَانة ، وميمونة ، وخديجة ، وفاطمة ، وأم الكرام ، ونفيسة ، وأم سلمة ، وأم أبيها .

وقد أتينا على أنساب آل أبى طالب ، ومَنْ أعقب منهم ومَصَارعهم ، وغير ذلك من أخبارهم فى كتابنا « أخبار الزمان » .

ذو العقب من أولاد على

والعقب لعلى من خمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد ، وعمر ، والعباس ، وقد استقصى أنسابهم ، وأتى على ذكر مَنْ لا عقب له منهم ومَنْ له العقب ، وأنساب غيرهم من قريش من بنى هاشم ، وغيرهم : الزبيرُ بن بَكَّار فى كتابه فى « أنساب قريش » وأحسن من هذا الكتاب فى أنساب آل أبى طالب الكتابُ الذى سمع من طاهر بن يحيى العلوى الحسينى بمدينة النبى صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم ، وقد صنف فى أنساب آل أبى طالب كتب كثيرة : منها كتاب العباس من ولد العباس بن على ، وكتاب أبى على الجعفرى ، وكتاب المهلوس العلوى من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه .

رثاء قتيل الطف

وفى قتيل الطف يقول سليمان بن قتة[1] يرثيه على ما ذكره الزبير بن بَـكّار فى كتاب « أنساب قريش » من أبيات :

فإن قتيلَ الطفّ من آل هاشم أذلّ رقاباً من قُرَيْش فَذَلَّتِ
فإن يُتْبِعُوه عائذ البيت يُصْبِحُوا كَعَادٍ تعمت عن هُدَاهَا فَضَلَّتِ[2]
أَلَمْ تَرَ أنّ الأرض أضحت مريضة بقَتْلِ حُسَيْن والبلاد اقْشَعَرَّتِ
فلا يُبْعِدُ الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمى تَخَلَّتِ

(١) فى ب « سليمان بن قبة » وانظر أيضاً (ص ٨٠ من هذا الجزء) .
(٢) فى ا « فإن تتبعوه عائذ البيت تتبعوا » وعائذ البيت هو عبد الله بن الزبير ، وانظر فيما يلى (ص ٨٠ ، ٨١ من هذا الجزء) نص المؤلف على هذا واستشهاده بهذا البيت نفسه على ذلك .

Marfat.com

ذكر لمع من أخبار يزيد ، وسيره

ونوادر من [بعض] أفعاله

خروج يزيد لوفود العرب

ولما أفضى الأمر إلى يزيد بن معاوية دخل منزله ، فلم يظهر للناس ثلاثاً ، فاجتمع ببابه أشرافُ العرب ووفود البلدان وأمراء الأجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالأمر ، فلما كان فى اليوم الرابع خرج أشْعَثَ أغْبَرَ فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن معاوية كان حَبْلا من حبال الله مَدَّه الله ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من [كان] قبله ، وخير من بعده ، إن يغفر الله له فهو أهله ، وإن يعذبه فبذنبه ، وقد وليتُ الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل بطلب علم ، فعلى رِسْلِكم فإن الله لو أراد شيئاً كان ، اذكروا الله واستغفروه ، ثم نزل ، ودخل منزله ، ثم أذن للناس .

فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه أم يُعَزُّونه ، فقام عاصم[1] بن أبى صيفى ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت قد رُزِئْتَ خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، ومنحت هبة الله ، قضى معاوية نحبه ، فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ؛ فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واحمده على أفضل العطية ، فقال يزيد : ادْنُ منى يا ابن أبى صيفى ، فدنا حتى جلس قريباً منه .

ثم قام عبد الله بن مازن فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، ومنحت أفضل الأشياء ، فهنأك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحَتْ قريش مفجوعة بفَقْد سائسِها[2] مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، والعُقْبى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التى لا فوقها وقد أراد الملحدون عَوْقَهَا

(١) فى ب « عصام بن أبى صيفى » (٢) فى ب « بعد ساستها » .

Marfat.com

عنك فيأبىٰ الله إلا سَوْقَهَا إليك حتى قَلَّدوك طَوْقَهَا

فقال له يزيد : اذن منى يا ابن مازن ، فدنا حتى جلس قريباً منه .

ثم قام عبد الله بن همام فقال : آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية ، وصبرك على المصيبة ، وبارك لك فى العطية ، ومنحك محبة الرعية ، مضى معاوية لسبيله غفر الله له ، وأوردَه موارد السرور ، ووفقك [بعده] لصالح [الأمور ، فقد رزئت جليلا ، وأعطيت جزيلا ، جئت بعده للرياسة ، ووليت] السياسة ، أصبت بأعظم المصائب ، ومنحت أفضل الرغائب ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، وأشكره على أفضل العطية ، وأحْدِثْ لخالقك حَمْداً ، والله يمتعنا بك ويحفظك ، ويحفظ بك وعليك ، وأنشأ يقول:

اصْبِرْ يزيد فقد فارقْتَ ذا مِقَة واشكر حِباءَ الذى بالملك أصفاكا

أصبَحْتَ لا رزء فى الأقوام نعلمه كما رُزِئت ولا عقبى كعقباكا

أعطِيتَ طاعة خلق الله كلهمُ وأنت ترعاهم والله يرعاكا

وفى معاوِيَةَ الباقى لنا خلفٌ إما نُعِيتَ ولا نسمع بمَنْعَاكَا

فقال يزيد : ادن منى يا ابن همام ، فدنا حتى جلس قريباً منه .

ثم قام الناس يعزونه ويهنئونه بالخلافة ، فلما ارتفع عن مجلسه أمر لكل واحد منهم بمال على مقداره فى نفسه ، ومحله فى قومه ، وزاد فى عطائهم ، ورفع مراتبهم ، وقد أتينا فى كتابنا «أخبار الزمان» على ما كان من خبر يزيد وغيبته فى حال وفاة أبيه معاوية ، ومسيره من ناحية حمص حين بلغه ما بأبيه من العلة ، وورود على ثنية العقاب من أرض دمشق ، فأغنى ذلك عن إعادة هذا الخبر فى هذا الكتاب .

بين يزيد وعبد الملك

وذكر عدة من الأخباريين وأهل السير أن عبدالملك بن مروان دخل على يزيد ، فقال : أُرَيْضَة لك إلى جانب أرض لى ، ولى فيها سَعَة ، فأَقْطِعْنِيهَا ، فقال : يا عبد الملك ، إنه لا يتعاظَمُنِى كبير ، ولا أجزع(١) من صغير ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب «ولا أخدع من صغير» وأحسب أن الأصل « ولا أخدع عن صغير » .

Marfat.com

فأخبرنى عنها وإلا سألت غيرك ، فقال : ما بالحجاز أعظم منها قدراً ، قال: قد أقطعتك ، فشكَرَه عبد الملك ودعا له ، فلما ولّى قال يزيد : إن الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة، فإن صدقوا فقد صانعناه، وإن كذبوا فقد وصلناه .

فسوق يزيد وعماله

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقُرُود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسْقِنِى شَرْبَةً تُرَوِّى مُشَاشِى ... ثم مِلْ فاسق مثلها ابن زياد[1]

صاحب السرّ والأمانة عِنْدِى ... ولتسديد مغنمى وجهـادى

ثم أمر المغنين فغنوا [به]

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذُلّلَتْ لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحَلْبَة ، فجاء فى بعض الأيام سابقاً ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قَبَاء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشَقَائق ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسكْ أبا قيس بِفَضْلِ عِنَانِها ... فليس عليها إن سقطت ضَمَانُ

ألا مَنْ رأى القرد الذى سبقت به ... جياد أمـير المؤمنين أتان

وفى يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس إلى ملكه يقول الأخْوَصُ :

ملك تدين له الملوك مُبَارَكٌ ... كادت لهيبته الجبالُ تَزُولُ

تُجْبَى له بَلْخٌ ودِجْلَةُ كلها ... وله الفُرَاتُ وَمَا سَقَى وَالنِّيلُ

---

(١) فى ب « ثم صل » وما أثبتناه موافقا لما فى ا هد الصـ

Marfat.com

وقيل : إن الأحْوَص قال هذا فى معاوية بعد وفاته يرثيه .

ما قيل فى مقتل الحسين

ولما قتل الحسين بن على رضى الله عنهما بكر بلاء وحمل رأسه ابن زياد إلى يزيد خرجت بنت عقيل بن أبى طالب فى نساء من قومها حواسر [حائرات] ، لما قد ورد عليهن من قتل السادات ، وهى تقول :

ماذا تقولون إنْ قال النبىُّ لكم : ماذا فعلتم وأنتم آخِرُ الأمم ؟
بعِتْرَتِى وبأهلى بعد مُفْتَقَدِى نِصفٌ أسارى ونِصْفٌ ضُرِّجوا بِدَم
ما كان هذا جزائى إذ نَصَحْتُ لكم أن تَخْلفونى بشَرٍّ فى ذوى رَحِمِى

وفى فعل ابن زياد بالحسين يقول أبو الأسود الدؤلى من قصيدة :

أقولُ وذاك من جَزَعٍ وَوَجْدٍ أزالَ الله مُلْك بنى زِيَادِ
وأبْعَدَهُمْ ، بما غَدَرُوا وخانُوا كما بَعُدَتْ ثَمُودُ وقَوْمُ عَادِ

أهل المدينة وعمال يزيد

ولما شمل الناس جَوْرُ يزيد وعماله ، وعَمَّهم ظلمه ، وماظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، وما أظهر من شرب الخمور، وسيره سيرة فرعون ، بل كان فرعون أعْدَلَ منه فى رعيته ، وأنصف منه لخاصته وعامته ؛ أخرج أهلُ المدينة عامله عليهم ـ وهو عثمان ابن محمد بن أبى سفيان ـ ومروان بن الحكم ، وسائر بنى أمية ، وذلك عند تنسك ابن الزبير وتألُّهه ، وإظهار الدعوة لنفسه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين، وكان إخراجهم لما ذكرنا من بنى أمية وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير(١) ، فاغتنمها مروان منهم ؛ إذ لم يقبضوا عليهم ويحملوهم إلى ابن الزبير ، فحثوا السير نحو الشام ، ونمى فعل أهل المدينة ببنى أمية وعامل يزيد إلى يزيد ، فسيَّرَ إليهم بالجيوش من أهل الشام عليهم مسلم بن عقبة المرى الذى أخاف

صنع مسلم ابن عقبة بالمدينة

المدينة ونهبها ، وقتل أهلها ، وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد ، وسماها نتنة، وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة ، وقال : « مَنْ أخاف المدينة أخافه الله » فسمى مسلم هذا لعنه الله بمجرم ومسرف ؛ لما كان من فعله،

(١) فى ا « على إذن من ابن الزبير » .

Marfat.com

ويقال : إن يزيد حين جرد هذا الجيش وعرض عليه أنشأ يقول :

أَبْلِغْ أبا بكر إذا الأمرُ انبرى ... وأشْرَفَ القومُ على وادى القرى
أجمع السكران من قوم تَرَى

يريد بهذا القول عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله يكنى بأبى بكر ، وكان يُسَمِّى يزيد السكران الخمير ، وكتب إلى ابن الزبير :

أدعو إلٰهك فى السماء فإننى ... أدعو عليك رجال عكٍّ وأشْعر
كيف النجاة أبا خُبَيْبٍ منهمُ ... فاحْتَلْ لنفسك قبل أتى العسكر

ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحرَّة وعليهم مُسرف خرج إلى حربه أهلُها عليهم عبد الله بن مطيع العدوى وعبدالله بن حنظلة الغسيل[1] الأنصارى ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بنى هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس ؛ فممن قتل من آل أبى طالب اثنان[2] : عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وجعفر بن محمد بن على بن أبى طالب ؛ ومن بنى هاشم من غير آل أبى طالب: الفَضْلُ بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد الله بن نوفل ابن الحارث بن عبدالمطلب ، والعباس بن عُتْبة بن أبى لهب بن عبدالمطلب، وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش، ومثلهم من الأنصار ، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء ، دون من لم يعرف . وقعة الحرة

وبايع الناس على أنهم عبيدٌ ليزيد ، ومَنْ أبى ذلك أمره مُسْرف على السيف ، غير على بن الحسين بن على بن أبى طالب السَّجاد، وعلى بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وفى وقعة الحرَّة يقول محمد بن أسلم :

فإن تَقْتُلونا يَوْمَ حَرَّة واقمٍ ... فنحنُ على الإسلام أوَّل من قتل
ونحن تركناكُمْ بِبَدْرٍ أذلةً ... وأُبْنَا بأسيافٍ لنا منكم تفل

(١) فى ا « العسيل » محرفا ، وحنظلة يقال له غسيل الملائكة » .
(٢) فى ا « اثنان لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب » .

Marfat.com

ونظر الناس إلى على بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو ، فأتى به إلى مُسْرِف وهو مغتاظ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده إلى جانبه ، وقال له : سَلْنِي حوائجك، فلم يسأله فى أحد ممن قُدِّم إلى السيف إلا شَفَّعه فيه ، ثم انصرف عنه ، فقيل لعلى : رأيناك تحرك شفتيك ، فما الذى قلت ؟ قال : قلت : اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ، ربَّ العرش العظيم ، ربَّ محمد وآله الطاهرين ، أعوذ بك من شره ، وأدرأ بك فى نَحْره ، أسألك أن تؤتينى خيره ، وتكفينى شره ، وقيل لمسلم : رأيناك تسبُّ هذا الغلام وسَلَفه ، فلما أتى به إليك رفعت منزلته ، فقال : ما كان ذلك لرأى منى ، لقد ملىء قلبى منه رعباً .

وأما على بن عبد الله [بن العباس] فإن أخواله من كندة مَنَعُوه منه ، وأناس من ربيعة كانوا فى جيشه ، فقال على فى ذلك :

أبِى العباسُ قرم بنى لؤى   وأخْوَالى الملوكُ بَنُو وليعه(١)
هُمُ منعوا ذِمَارى يوم جاءت   كتائبُ مُسْرِفٍ وبنى اللَّكيعه
أرادَ بِىَ التى لا عزَّ فيها   فحالت دونه أيدى رَبيعه(٢)

ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبى وغير ذلك مما عنه أعرضنا من مُسْرِفٍ خرج عنها يريد مكةَ فى جيوشه من أهل الشام ؛ ليوقع بابن الزبير وأهل مكة ، بأمر يزيد ، وذلك فى سنة أربع وستين.

فلما انتهى إلى الموضع المعروف بقديد مات مُسْرِفٌ لعنه الله! واستخلف على الجيش الحصينُ بن نمير ، فسار الحصين حتى أتى مكة وأحاط بها، وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام ، وكان قد سمى نفسه العائذَ بالبيتِ ، وشُهِر بهذا حتى ذكرته الشعراء فى أشعارها ، من ذلك ما قدمنا من قول سليمان بن قتة(٣) .

---

(١) فى ب « أبا العباس قوم من لؤى » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى
(٢) فى ا «فحالت دونه أيد منيعه» (٣) فى ب «سليمان بن قبة » محرفا .

Marfat.com

فإن تُتْبِعُوه عائذَ البيت تُصْبِحُوا كَعَادٍ تَعَمَّتْ عن هُدَاهَا فَضَلَّتِ

ونصب الحصينُ فيمن معه من أهل الشام المجانيقَ والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفِجَاج ، وابنُ الزبير فى المسجد ، ومعه المختار بن أبى عُبَيْد الثقفى داخلا فى جملته ، منضافاً إلى بيعته ، منقاداً إلى إمامته ، على شرائط شَرَطها عليه لا يخالف له[1] رأياً ، ولا يعصى له أمراً ، فتواردت أحجار[2] المجانيق والعرادات على البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنِّفْطِ ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية ، ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أَحَدَ عَشَرَ رَجُلاً ، وقيل : أكثر من ذلك [وذلك] يوم السبت لثلاث خَلَوْنَ من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، قبل وفاة يزيد بأَحَدَ عشَرَ يوماً ، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، واتصل الأذى بالأحجار والنار والسيف ؛ ففى ذلك يقول أبو وَجْزَة المدنى[3] :

رمى الكعبة بالمجانيق

أَبْنُ نُمَيْرٍ بِئْسَ مَا تَوَلَّى قَدْ أَحْرَقَ المَقَامَ وَالْمُصَلَّى

وليزيد وغيره أخبار عجيبة ، ومَثَالب كثيرة : من شرب الخمر ، وقتل ابن [بنت] الرسول ، ولَعْن الوصِيِّ ، وهدم البيت وإحراقه ، وسفك الدماء ، والفسق والفجور ، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه ، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله[4] ، وقد أتينا على الغرر من ذلك فيما [تقدم و] سلف من كتبنا ، والله ولى التوفيق .

(١) فى ا « لا يخلف له رأيا » وما هنا عن ب أدق .
(٢) فى ا « فتواترت أحجار المجانيق » .
(٣) فى ب « يقول أبو حرة المدينى »
(٤) فى ا « وخالف رسوله »

Marfat.com

ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم

والمختار بن أبى عُبَيْد ، وعبد الله بن الزبير

ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وبعض ما كان فى أيامهم

موجز أخبار معاوية بن يزيد

قال المسعودى : وَمَلَكَ معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه ، فكانت أيامه أربعين يوماً إلى أن مات ، وقيل : شهرين ، وقيل غير ذلك ، وكان يكنى بأبى يزيد ، وكنى حين ولى الخلافة بأبى ليلى ، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب ، وفيه يقول الشاعر :

إنِّى أرى فِتْنَةً هَاجَتْ مَرَاجِلُها   والملكُ بعد أبى لَيْلَى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له : اعْهَدْ إلى من رأيت من أهل بيتك ، فقال : والله ما ذُقْتُ حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وِزْرَهَا ؟ وتتعجلون[1] أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم إنى برىء منها مُتَخَلٍّ عنها ، اللهم إنى لا أجد نفراً كأهل الشورى فأجعلها إليهم ينصبون [لها] من يرونه أهلا لها ، فقالت له أمه : ليت أنى خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام ، فقال لها : وليتنى يا أُماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر ، أتفوز بنو أُمية بحلاوتها وأبوء بوزرها وَمَنْعِها أَهْلَهَا ؟ كلا ! إنى لبرىء منها .

وقد تنوزع فى سبب وفاته ، فمنهم من رأى أنه سقى شربة ، ومنهم من رأى أنه مات حَتْفَ أنفه ، ومنهم من رأى أنه طعن[2] ، وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، ودُفن بدمشق ، وصَلّى عليه الوليدُ بن عُتْبَة بن أبى سفيان ، ليكون الأمر له من بعده ، فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتاً قبل تمام الصلاة ، فقدم عثمان بن عتبة بن أبى سفيان ، فقالوا : نبايعك ؟ قال : على أن لا أحارب ولا أباشر قتالا ، فأَبَوْا ذلك عليه ، فصار إلى مكة ، ودخل فى جملة ابن الزبير .

(١) فى ب « وتنتحلون أنتم حلاوتها » .
(٢) فى ا تتقدم الجملة الثانية على سابقتها هنا .

Marfat.com

وزال الأمر عن آل حَرْب فلم يكن فيهم من يرومها[(١)] ، ولا يتشوف نحوها ، ولا يرتجى أحد منهم لها .

وبايع أهل العراق عبد الله بن الزبير ، فاستعمل على الكوفة عبد الله ابن مطيع العدوى .

المختار في الكوفة

فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير : إني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلا له رِفْقٌ وعلم بما يأتى لاستخرج لك منهم جنداً تغلب بهم أهل الشام ، فقال : من هم ؟ قال : شيعة بنى هاشم بالكوفة ، قال : كن أنت ذلك الرجل ، فبعثه إلى الكوفة ، فنزل ناحية منها ، وجعل يُظْهِر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزَعَ لهم ، ويحثُّ على أخذ الثأر لهم[(٢)] ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة إليه ، وانضافوا إلى جملته ، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطيع[(٣)] منه ، وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه داراً ، واتخذ بستاناً أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقَةً واسعة ، وكتب إلى ابن الزبير [يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسوم ابن الزبير][(٤)] أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختار طاعته، وجحد بيعته ، وكتب المختار كتاباً إلى على بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له ، ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالا كثيراً ، فأبى عليٌّ أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه ، وسبه على رءوس الملأ في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأظهر كذبه[(٥)] وفجوره ، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبى طالب ، فلما يئس المختار من على بن الحسين كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك ، فأشار عليه على بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء

(١) في ا « فلم يكن منهم من يرومها ولا يتشوق نحوها » .
(٢) في ا « أخذ الثأر بهم »
(٣) في ب « فأخرج مطيعا منه »
(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ا
(٥) في ا « وذكر كذبه وفجوره »

Marfat.com

من ذلك ، فإن الذى يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم ، وتقربه إليهم بمحبتهم ، وباطِنهُ مخالف لظاهره فى الميل إليهم ، والتَّوَلِّى لهم، والبراءة من أعدائهم ، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه أن يشهر أمره ، ويظهر كذبه ، على حسب ما فعل هو وأظهر [ما] من القول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك ، فقال له ابن عباس : لا تفعل ، فإنك لا تدرى ما أنت عليه من ابن الزبير ، فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار .

واشتد أمر المختار بالكوفة ، وكثر رجاله ، ومال الناسُ إليه ، وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم فى أنفسهم وعقولهم ، فمنهم من يخاطبه بإمامة محمد ابن الحنفية ، ومنهم من يدفعه[1] عن هذا فيخاطبه بأن المَلَكَ يأتيه بالوحى ويخبره بالغيب ، وتتبع قتلة الحسين فقتلهم : قتل عمرو بن سعد[2] بن أبى وقاص الزهرى ، وهو الذى تولى حرب الحسين يوم كر بلاء وقتله ومن معه ، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ، ومحبتهم له .

حال ابن الزبير

وأظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة ، وقال : إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب ، وكثرت أذيَّتُهُ لبنى هاشم مع شُحِّه بالدنيا[3] على سائر الناس ، ففى ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير :

إنَّ الموالىَ أمْسَتْ وهى عاتبـة — على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينـا وماذا كان يرزؤنا — أى الملوك على ما حولنا غلبا ؟

وفيه يقول بعد مفارقته إياه :

ما زال فى سُورَةِ الأعراف يقرؤها — حتى فؤادىَ مثل الخزِّ فى اللين
لو كان بطنك شِبراً قد شَبِعْتَ ، وقد — أفضَلْتَ فَضْلاً كثيراً للمساكين
إن امرأً كنتُ مَوْلاهُ فضيعنى — يرجو الفلاح لعمرى حَقٌّ مغبونِ

(١) فى ب « ومنهم من يرفعه » (٢) فى ا «عمر بن سعد بن أبى وقاص»
(٣) فى ا « مع شحه على الدنيا على سائر الناس » .

Marfat.com

وفيه يقول أيضاً :

فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلغَنْ كبير بنى العوّام إن قيل : مَنْ تَعْنِى
تخــــبِّرُ مَنْ لاقيت أنك عائذ وتكثر قتْلاً بين زمْزَم والرُّكن

وفيه يقول [أيضاً] الضحاك بن فيروز الديلمى :

تخبرنا أنْ سَوْف تكفيك قبضةٌ وبطنُك شِبْر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قَضَمْتَهُ كما قضَمَتْ نارُ الغضى حَطَبَ السِّدر
فلو كنت تجزى إذ تبيت بنعمة قريباً لردَّتْكَ العطوف على عمرو

ابن الزبير وأخوه عمرو

وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة فسرَّحَ منها جيشاً إلى مكة لحرب ابن الزبير عليه عمرو بن الزبير أخوه ، وكان عمرو منحرفا عن عبد الله ، فلما تصافَّ القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه ، فظفر به أخوه عبد الله ، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجرداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

ابن الزبير والحسن بن محمد بن الحنفية

وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية فى الحبس المعروف بحبس عارم[(١)] ، وهو حبس مُوحِش مُظْلِم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن ، وتعسّفَ الطريق على الجبال حتى أتى مِنًى وبها أبوه محمد بن الحنفية ففى ذلك يقول كثير :

تخبِّرُ من لاقيت أنك عائذٌ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
ومن يرهذا الشيخ بالخيف من منًى من الناس يعــلم أنه غيْرُ ظالم
سمىّ نبىّ الله وابن وصيّــه وفكّاكُ أغلالٍ وقاضى مغارم

وقد كان ابن الزبير عمد إلى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشِّعْبِ ، وجمع لهم حَطَباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد[(٢)] ، وفى القوم محمد بن الحنفية .

---

(١) فى ب « المعروف بحبس غارم » (٢) فى ا « لم يسلم من القوم أحد »

Marfat.com

ابن الزبير وآل بيت الرسول

وحدث النَّوْفَلى على بن سليمان[١]، عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفى، عن أبى عمران الرازى، عن فطر[٢] بن خليفة، عن الديال بن حرملة، قال: كنت فيمن استنفره أبو عبد الله الجدلى من [أهل] الكوفة من قبل المختار، فنفرنا معه فى أربعة آلاف فارس، فقال أبو عبد الله: هذه خيل عظيمة، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بنى هاشم، فيأتى عليهم، فانتدبوا معى، فانتدبنا [معه] فى ثمانمائة فارس جريدة خيل، فما شعر ابن الزبير إلا والرايات تخفق على رأسه، قال: فجئنا إلى بنى هاشم، فإذا هم فى الشِّعْبِ، فاستخرجناهم، فقال لنا ابن الحنفية: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، فلما رأى ابن الزبير تنمر ناله وإقدامنا عليه لاذ بأستار الكعبة، وقال: أنا عائذ الله[٣].

وحدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار، عن ابن عائشة، عن أبيه، عن حماد بن سلمة، قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بنى هاشم وحَصْره إياهم فى الشِّعْبِ وجمعه [لهم] الحطب لتحريقهم، ويقول: إنما أراد بذلك إرهابهم[٤] [ليدخلوا فى طاعته] إذ هم أبوا البيعة فيما سلف، وهذا خبر لا يحتمل ذكره هنا، وقد أتينا على ذكره فى كتابنا فى مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب «حدائق الأذهان».

وخطب ابن الزبير فقال: قد بايعنى الناس، ولم يتخلف [عن بيعتى] إلا هذا الغلام محمد ابن الحنفية، والموعد بينى وبينه أن تغرب الشمس، ثم أضرم داره عليه ناراً، فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال: يا ابن عم، إنى لا آمنه عليك فبايعه، فقال: سيمنعه عنى حجاب قوى، فجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس، ويفكر فى كلام ابن الحنفية، وقد كادت الشمس أن تغرب، فوافاهم أبو عبد الله الجدلى فيما ذكرنا من الخيل، وقالوا لابن الحنفية: ائذن لنا فيه، فأبى، وخرج إلى أَيْلَةَ فأقام بها سنين، ثم قتل ابن الزبير، كذلك حدث عمر بن شبة النميرى[٥]، عن

---

(١) فى ا «النوفلى عن على بن سليمان» وليس لكلمة «عن» هنا موضع فإن اسم النوفلى على بن محمد بن سليمان (٢) فى ب «عن قطن بن خليفة»
(٣) فى ا «أنا عائذ بالله» (٤) فى ا «إنما أراد ذلك لإرهابهم»
(٥) فى ب «عمر بن حبة التيمى».

Marfat.com

عطاء بن مسلم، فيما أخبرنا به أبو الحسن المهرانى المصرى[١] بمصر، وأبو إسحاق الجوهرى بالبصرة، وغيرهما، وهؤلاء الذين وردوا إلى ابن الحنفية هم الشيعة الكَيْسَانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية، وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بإمامة محمد بن الحنفية: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حىٌّ فى جبال [رَضْوَى]، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضاً، وإنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبى عُبَيْد الثقفى، وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرة، [وأن على بن أبى طالب سماه بذلك، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة] هو غير المختار، وقد أتينا على أقاويل فرق الكَيْسَانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة فى كتابنا فى «المقالات فى أصول الديانات» وذكرنا قول كل فريق منهم، وما أيَّدَ به مذهبه، وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل إلى شِعْب رَضْوى فى جماعة من أصحابه فلم يُعْرَفْ لهم خبر إلى هذه الغاية.

الكيسانية وقولهم فى ابن الحنفية

وقد ذكر جماعة من الأخباريين أن كُثَيِّراً الشاعر كان كَيْسانياً، ويقول: إن محمد بن الحنفية هو المهدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت [شراً و] جوراً.

وحكى الزبير بن بكار فى كتابه «أنساب قريش» فى أنساب آل أبى طالب وأخبارهم منه قال: أخبرنى عمى[٢]، قال: قال كثير أبياتاً له يذكر ابن الحنفية رضى الله عنه، وأولها:

هو المهدىُّ خَبَّرناه كَعْبٌ ... أخو الأحبار فى الحِقَبِ الخوالِى
أقَرَّ اللهُ عينِى إذ دعانى ... أمين الله يلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى علىَّ خيراً ... وساءل عن بَنِىَّ وكيف حالى

وفيه يقول أيضاً كثير:

ألا إنَّ الأئمة من قريش ... وُلَاةَ الحق أربعة سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

(١) فى ب «أبو حسن المهرانى البصرى بمصر».
(٢) فى ب «أخبرنى عمير» مكان «أخبرنى عمى».

Marfat.com

فسبط سبط إيمان وبِرٍّ وسبط غَيَّبَتْهُ كَرْبلاء
وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيـلَ يتبعها اللواء(١)
تَغَيَّبَ لا يُرَى فيهم زماناً برَضْوَى عنده عسل وماء
وفيه يقول السيد الحميرى ، وكان كَيْسَانياً :
ألا قل للوصىّ فَدَتْكَ نفسى أطَلْتَ بذلك الجبل المقاما
أضَرَّ بمعشر وَالَوْكَ منـا وَسَمَّوْكَ الخليفة والإماما
وعادَوْا فيك أهل الأرض طُرًّا مغيبك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابْنُ خَوْلَة طعم موت ولا وارت له أرضٌ عظاما
لقد أمسى بمردف شِعْبِ رَضْوَى تراجعه الملائكةُ الـكلاما(٢)
وفيه يقول السيد أيضاً :
ياشعب رضوى ما لمن بك لا يرى وبنا إليه من الصبابة أَوْلَقُ
حتى متى ؟ وإلى متى ؟ وكم المَدَى ؟ يا ابن الرسول وأنت حىٌّ تُرْزَقُ
وللسيد فيه أشعار كثيرة لا يأتى عليها كتابنا هذا .

وذكر على بن محمد بن سليمان النوفلى فى كتابه الأخبار مما سمعناه من أبى العباس بن عمار ، قال : حدثنا جعفر بن محمد النوفلى ، قال : حدثنا إسمعيل الساحر ، وكان راوية السيد الحميرى ، قال : ما مات السيد إلا على قوله بالـكيسانية ، وأنـكر قوله فى القصيدة التى أولها :

* تجعفَرْتُ باسم الله ، والله أكبرُ *

قال أبو الحسن على بن محمد النوفلى عقيب هذا الخبر : وليس يشبه هذا شعر السيد ؛ لأن السيد مع فصاحته وجزالة قوله لا يقول تجعفَرْتُ باسم الله.

وذكر عمر بن شَبَّة النميرى ، عن مساور بن السائب ، أن ابن الزبير خطب أربعين يوماً لا يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يمنعنى أن أصلى عليه إلا أن تَشْمَخَ رجالٌ بآنافها .

---
(١) فى ا « يقود الخيل يقدمها اللواء » وهو المحفوظ .
(٢) فى ا « لقد أمسى بمؤرق شعب رضوى » .

Marfat.com

بين ابن عباس وابن الزبير

وذكر سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس دخل على ابن الزبير[١] فقال له ابن الزبير : أنت الذى تؤنبنى وتبخِّلُنِي[٢] ؟ قال ابن عباس : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره » فقال ابن الزبير : إنى لأكتم بغضكم أهْلَ هذا البيت منذ أربعين سنة ، وجرى بينهم خطب طويل ، فخرج ابن عباس من مكة خوفا على نفسه ، فنزل الطائف ، فتوفى هنالك ، ذكر هذا الخبر عمر بن شَبَّة النميرى ، عن سويد بن سعيد ، يرفعه إلى سعيد بن جبير فيما حدثنا به المهرانى بمصر ، والكلابى بالبصرة ، وغيرهما ، عن عمر بن شَبَّة .

بين ابن الحنفية وابن الزبير

وحدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار عن الوليد بن هشام المخزومى ، قال: خطب ابن الزبير فنال من على[٣] ، فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية [فجاء] حتى وضع له كرسى قدامه ، فعلاه ، وقال : يامعشر قريش ، شاهت الوجوه! أَيُنْتَقَص على وأنتم حضور ؟ إن عليًا كان سَهْمًا صادقًا أَحَد مرامى[٤] الله على أعدائه يقتلهم لكفرهم ويُهَوِّعهم مآكلهم ، فثقل عليهم ، فرموه بقرفة الأباطيل[٥] ، وإنا معشر له على ثبج من أمره[٦] بنو النخبة من الأنصار ، فإن تكن لنا فى الأيام دولة ننثر عظامهم ونحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فعاد ابن الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما بال ابن الحنفية ؟ فقال محمد : يا ابن أم رومان ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم إخوتى ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركت فى بنى أسد عَظْمًا إلا هشمته ، وإن نالتنى فيه المصائب صبرت .

ابن الزبير ينتقص ابن العباس

حدثنا ابن عمار ، عن على بن محمد بن سليمان النوفلى ، قال : حدثنى ابن عائشة والعتبى جميعًا عن أبويهما ، وألفاظُهُما متقاربة ، قالا : خطب ابن الزبير

(١) فى ا « دخل على أبى الزبير » محرفا (٢) فى ا «تؤنبنى وتنحلنى» محرفا
(٣) فى ا « فقال : من على » محرفا (٤) فى ا «سهما صار ما أحد مرامى الله ـ إلخ
(٥) فى ب «فرموه بصرفة الأباطيل» (٦) فى ب «على نهج من أمره بنو الحسبة»

فقال : مابال أقوام يفتون فى المتعة ، وينتقصون حَوَارِىّ الرسول وأم المؤمنين عائشة ، ما بالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم ، يُعَرِّض بابن عباس ، فقال [ابن عباس] : يا غلام ، اصمدنى صَمْدَه ، فقال : يا ابن الزبير :

قد أنصف الْقَارَة مَنْ راماها إنا إذا ما فِئَة نَلقاها[1]

* نَرُدُّ أولاها على أُخْرَاها *

أما قولك فى المتعة فسل أُمك تخبرك ، فإن أول متعة سطع مجمرها لمجمر سطع بين أمك وأبيك ، يريد مُتْعَةَ الحج ، [وأما قولك « أم المؤمنين » فبنا سميت أم المؤمنين ، وبنا ضُرب عليها الحجاب] وأما قولك « حَوَارِىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقد لقيتُ أباك فى الزَّحْف وأنا مع إمام هُدى ، فإن يكن على ما أقول فقد كفر بقتالنا ، وإن يكن على ماتقول فقد كفر بهربه عنا ، فانقطع ابن الزبير ودخل على أُمه أسماء ، فأخبرها ، فقالت : صدق .

قال المسعودى : وفى هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة ، وقد أتينا على الخبر بتمامه وما قاله الناس فى مُتْعَة النساء ومتعة الحج ، وتنازعهم فى ذلك وما ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه حرمها عام خيبر [ولحوم الحمر الأهلية] وماذكر فى حديث الربيع بن سَبْرَةَ عن أبيه وقول عمر « كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تقدمت بالنهى لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا » وما روى عن جابر قال : تمتعنا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافة أبى بكر ، وصدر من خلافة عمر ، وغير ذلك من أقاويلهم ، فى كتابنا المترجم بكتاب « الاستبصار[2] » وفى كتاب « الصفوة » وفى كتابنا المترجم بالكتاب « الواجب فى الفروض اللوازم » وما قال الناس فى غسل الرجلين ، ومسحهما ، والمسح على الخفين ، وطلاق السنة ، وطلاق العدة[3] ، وطلاق التعدى ، وغير ذلك .

(١) وقع فى ب « إذا ما فتنة نلقاها » .
(٢) وقع اسم هذا الكتاب فى بعض الأصول فيما سبق «الاستنصار» بالنون
(٣) لعله « وطلاق البدعة » ولما فى الاصل وجه .

Marfat.com

وقد حدث النوفلى ، عن أبى عاصم ، عن ابن جريج ، قال : حدثنى منصور بن شيبة ، عن صفية بنت أبى عبيد ، عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت : لما قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أمر مَنْ لم يكن معه هَدْى أن يحلّ ، قالت : فأحللت ، فلبست ثيابى ، وتطيبت ، وجئت حتى جلست إلى جنب الزبير ، فقال : قومى عنى ، فقلت : ما تخاف؟ قال : أخاف أن أثِبَ عليك ؟ فهذا الذى أراد ابن عباس .

وقد ذكر هذا الحديث عن أبى عاصم غَيْرُ النوفلى ، وقد تنازع الناس فى ذلك : فنهم من رأى أنه عَنَى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ؛ لأن الزبير تزوج أسماء بكراً فى الإسلام ، زوجهُ أبو بكر معلناً ، فكيف تكون متعة النساء .

بين ابن الزبير والحصين ابن نمير

ولما هلك يزيد بن معاوية ووليها معاوية بن يزيد نمى ذلك إلى الحصين ابن نمير ومن معه فى الجيش من أهل الشام ، وهو على حرب ابن الزبير ، فهادنوا ابن الزبير ، ونزلوا مكة ، فلقى الحصين عبد الله فى المسجد ، فقال له : هل لك يا ابن الزبير أن أحملك إلى الشام وأبايع لك بالخلافة؟ فقال عبد الله رافعاً صوته : أبعد قتل أهل الحَرَّة ، لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام ، فقال الحصين : مَنْ زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق ، أكلمك سراً وتكلمنى علانية ، أدعوك [إلى] أن أستخلفك فترفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا ، فستعلم أينا المقتول ، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحصين ، فلما صاروا إلى المدينة جعل أهلها يهتفون بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحَرَّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهَيْجها صعد روح بن زنباع الجذامى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فى ذلك الجيش ، فقال : يا أهل المدينة ، ما هذا الإيعاد الذى توعدوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من بَلْقَين ، ولا إلى رجل من لخم أو جُذَام ، ولا غيرهم من العرب [والموالى] ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحى من قريش ، يعنى بنى أُمية ، ثم إلى طاعة يزيد

Marfat.com

ابن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيانا توعدون ؟ أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعون ، وفضلات الموت والمنون ، فماشئتم ، ومضى القوم إلى الشام.

ابن الزبير يبنى الكعبة على قواعد إبراهيم

وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفُسَيْفِسَاء التى كان بناها أبرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وَشْى منقوش قد حُشى النقش السندزوس وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً ، وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سَعَة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه هو وإسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : باباً يدخل منه ، وباباً يخرج منه ، فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ، وكتب إلى عبد الملك [بن مروان] يعلمه بما زاده ابن الزبير فى البيت ، فأمره عبد الملك بهدمه ، وردِّه إلى ما كان عليه آنفا من بناء قريش وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن يجعل له باباً واحداً ، ففعل الحجاج ذلك .

واستوثق الأمر لابن الزبير ، وأخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الإسلام ، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن ، فإن حسان بن مالك ابن بجدل(١) أبى أن يبايع لابن الزبير ، وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبدالله بن مطيع العدوى ؛ فى ذلك يقول قضاعة الأسدى ، وكان بايع لابن الزبير ثم نكث :

دعا ابنُ مطيع للبياع فجئته ... إلى بَيْعَة قلبى لها غيرُ آلف
فناوَلنى خَشْنَاءَ لما لمستها ... بكفى ليست من أكفِّ الخلائف(٢)

وهلك يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، وعبيدُ الله بن زياد على البصرة

---

(١) فى ب « حسان بن مالك بن بحدل » بالحاء المهملة .

(٢) خشناء : أراد كفا غير لينة المس ، ووقع فى ب « حسناء » محرفا

Marfat.com

عبيد الله بن زياد والخلافة

أمير، فخطب الناس وأعلمهم بموتهما ، وأن الأمر شورى لم ينصب له أحد ، وقال : لا أرْضَ اليوم أوسع من أرضكم ، ولا عَدَدَ أكثر من عددكم ، ولا مال أكثر من مالكم ، فى بيت مالكم مائة ألف ألف درهم ، ومقاتلتكم ستون ألفاً ، وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف ألف درهم ، فانظروا رجلا ترضونه يقوم بأمركم ، ويجاهد عدوكم ، وينصف مظلومكم من ظالمكم ، ويوزع بينكم أموالكم ، فقام إليه أشراف أهلها — ومنهم الأحنف بن قيس التميمى ، وقيس بن الهيثم السلمى ، ومسمع بن مالك العبدى — فقالوا: مانعلم ذلك الرجل غيرك أيها الأمير ، وأنت أحق مَنْ قام على أمرنا حتى يجتمع الناس على خليفة ، فقال : أما لو استعملتم غيرى لسمعت وأطعت .

الكوفة تأبى الانقياد له

وقد كان على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعى عاملا لعبيدالله بن زياد، فكتب إليه عبيد الله يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة ، ويأمره أن يأمر أهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة ، [فصعد عمرو بن حريث على المنبر، فخطب الناس وذكر لهم ما دخل فيه أهل البصرة] فقام يزيد بن رويم الشيبانى فقال : الحمد لله الذى أطلق أيماننا ، لا حاجة لنا فى بنى أُمية ، ولا فى إمارة ابن مرجانة ، وهى أُم عبيد الله ، وأم أبيه زيادٍ سميةُ على ماذكرنا آنفا، إنما البيعة لأهل الحجر — يعنى أهل الحجاز — فخلع أهل الكوفة ولاية بنى أُمية وإمارة ابن زياد وأرادوا أن ينصبوا لهم أميراً إلى أن ينظروا فى أمرهم ، فقال جماعة : عمرو بن سعد[1] بن أبى وقاص يصلح لها ، فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان [والأنصار] وربيعة والنخع حتى دخَلْنَ المسجد الجامع صارخات باكيات مُعْوِلات يندبن الحسين ويقلن : أمارضى عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميراً علينا على الكوفة ، فبكى الناس، وأعرضوا عن عمرو ، وكان المبرزات فى ذلك نساء همدان ، وقد كان على عليه السلام مائلا إلى همدان مؤثراً لهم ، وهو القائل:

(١) فى ا « عمر بن سعد بن أبى وقاص » .

Marfat.com

فلو كنت بَوّاباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال :

* عَبَيْتُ همدان وعَبَوْا حميراً *

ولم يكن بصفين منهم أحد مع معاوية وأهل الشام إلا اناس كانوا بغُوطَةِ دمشق ، بقرية تعرف بعين ثرما ، فيها منهم قوم إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

ولما اتصل خبر أهل الكوفة بابن الزبير أنفذ إليهم عبد الله بن مطيع العدوى على ما قدمنا آنفاً ، فتولى أمرهم حتى وَجَّه المختار فى أثره .

تدبير مروان ابن الحكم

ونظر مروان بن الحكم فى إطباق الناس على مبايعة ابن الزبير ، وإجابتهم له ، فأراد أن يلحق به وينضاف إلى جملته ، فمنعه من ذلك عبيدالله ابن زياد عند لحاقه بالشام ، وقال له : إنك شيخ بنى عبد مناف فلا تعجل ، فصار مروان إلى الجابية ، من أرض الجولان ، بين دمشق والأردن ، واستمال الضحاك بن قيس الفهرى الناس ، ورأسهم ، وانحاز عن مروان ، وأراد دمشق ، فسبقه إليها الأشدق ، عمرو بن سعيد بن العاص [فدخلها] وصار الضحاك إلى حوران [والبثنة] وأظهر الدعوة لابن الزبير ، والتقى الأشدق ومروان ، فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك فهو خير لى ولك ؟ قال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك ، فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، ومضى الأشدق إلى حسان بن مالك بالأردن ، فأرغبه فى بيعة مروان ، فجنح لها .

البيعة لمروان

وبويع مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أُمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، ويكنى أبا عبدالملك ، وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان ، وذلك بالأردن ، وكان أول من بايعه أهلها ، وتمت بيعته .

وكان مروان أول مَنْ أخذها بالسيف كرهاً على ماقيل بغير رضا من عصبة من الناس، بل كلٌّ خوّفه إلا عدداً يسيراً حملوه على وثوبه عليها، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد وأعوان، إلا مروان، فإنه أخذها على ما وصفنا!

وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد، ولعمرو بن سعيد الأشدق بعد خالد، وكان مروان يلقب بخيط باطل، وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن الحكم [أخوه]:

لحا الله قَوْماً أَمَّرُوا خيطَ باطِلٍ على النَّاسِ يعطى مَنْ يَشَاء ويمنع

واشترط حسان بن مالك — وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام — على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد: منها أن يفرض لهم لألفى رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهى[1]، وَصَدْر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأى منهم ومشورة، فرضى مروان بذلك، فانقاد إليه، وقال له مالك بن هبيرة اليشكرى: إنه ليست لك فى أعناقنا بيعة، وليس نقاتل [إلا] عن عرَضِ دنيا؛ فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى فوالله ماقريش عندنا إلا سواء، فأجابه مروان إلى ما سأل!

لقاء مروان والضحاك بن قيس

وسار مروان نحو الضحاك بن قيس الفهرى، وقد انحازت قيس وسائر مضر وغيرهم من نزار إلى الضحاك، ومعه أُناس من قُضَاعَة، عليهم وائل بن عمرو العدوى[2]، وكانت معه راية عَقَدَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبيه، وأظهر الضحاك ومَنْ معه خلافة ابن الزبير، والتقى مروان والضحاك ومن معهما بمرج راهط على أميال من دمشق؛ فكانت بينهم الحروب سجالا، وكثرت اليمانية عليهم وبواديها مع مروان[3]؛ فقتل الضحاك بن قيس رئيس جيش ابن الزبير، قتله رجل من تَيْم اللات، وقتل من معه

(١) فى ا «وعلى أن لهم بكر الأمر والنهى».
(٢) فى ا «وائل بن عمرو العدوى» (٣) فى ا «واحتال بها مروان».

Marfat.com

من نزار ، وأكثرهم من قيس ، مَقْتَلة عظيمة لم ير مثلها قط ، وفي ذلك يقول مروان بن الحكم :

لما رأيت الناس صارُوا حَرْبَا ... وَالْمال لا يُؤخَذ إلا غَصْبَا
دَعَوْت غَسَّاناً لهم وكلبا ... والسَّكْسَكِيِّينَ رِجَالاً غُلْبَا
وَالقَيْن تمشى فى الْحَدِيدِ نكبا ... وَالأعْوَجيَّاتُ يَثِبْنَ وَثْبَا
يحملْنَ سَرْوَات ودينا صُلْباً(١)

وفى ذلك يقول أخوه عبد الرحمن بن الحكم :

أرَى أحاديث أهْل المَرْج قد بلغت ... أهْل الفرات وَأهْل الفيض وَالنِّيل

وكان زفر بن الحارث العامرى ، ثم الكلابى ، مع الضحاك ، فلما أمعن السيفُ فى قومه وَلى ومعه رجلان من بنى سليم ، فقصر فرساهما وغشيتهما اليمانية من خيل مَرْوَان ، فقالا له : انج بنفسك فإنا مقتولان ، فوَلَّى راكضاً ، وَلُحِقَ الرجلان ، فقتلا ، وفى هذا اليوم يقول زفر بن الحارث الكلابى من أبيات كثيرة :

لَعَمْرِي لقد أبقت وَقيعَة رَاهِط ... لِمَرْوَانَ صَدْعاً بَيِّناً مُتَنَاءِيَا
فقد ينبت المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتبقى حَزَازَات النفوس كما هِيَا
أرِيني سلاحى لا أَبَالَكَ إننى ... أرَى الحرب لا تزداد إلا تَمَادِيَا
أتَذْهَب كلب لم تَنَلْهَا رماحنا ... وتترك قَتْلَى رَاهِط هى ما هِيَا
فلم ترَ مِنِّى نَبْوَة قبل هذه ... فِرَارِي ، وتركى صَاحِبَيَّ وَرَائيا
عَشِيَّةَ أغْدُو فى الفريقين لا أرَى ... من القوم إلا مَنْ عَلَيَّ ولا لِيَا
أيذهب يَوْمٌ واحد إن أسَأْتُهُ ... بصالح أيامى وَحُسْنِ بَلائيَا
أبَعْدَ ابن عمرو وابن مَعْن تتابعا ... وَمَقْتَل هَمَّام أُمَنَّى الأمَانِيَا

وتلاحق الناس ممن حضر الوقعة بأجنادهم من أرض الشام ، وكان النعمان ابن بشير والياً على حِمْصَ قد خطب لابن الزبير ممالئاً للضحاك ، فلما بلغه قتله

(١) فى ا « يحملن مروانا ودينا صلبا » .

Marfat.com

وهزيمة الزُّبَيْرِية خرج عن حمص هارباً ، فسار ليلته [جمعاء] متحيراً لا يدرى أين يأخذ ، فأتبعه خالد بن عدىّ الكُلاعى فيمن خَفَّ معه من أهل حمص، فلحقه وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان ، وانتهى زُفَر بن الحارث [الكلابى] فى هزيمته إلى قرقيسيا ، فغلب عليها ، واستقام الشام لمروان ، وبَثَّ فيه رجاله وعُمَّاله .

وسار مروان فى جنوده من الشام إلى [أهل] مصر ، فحاصرها وخَنْدَقَ عليها خندقا مما يلى المقبرة ، وكانوا زُبَيْرِية عليهم لابن الزبير [عبدالرحمن بن عتبة] بن جحدم ، وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رشد بن كريب بن أبرهة ابن الصباح، فكان بينهم وبين مروان قتال يسير، وتوافقوا على الصلح، وقتل مروان أكيدر بن الحمام صبراً ، وكان فارس مضر ، فقال أبو رشد لمروان : إن شئت والله أعَدْنَاهَا جَذَعَة ، يعنى يوم الدار بالمدينة ، فقال مروان : ما أشاء من ذلك شيئاً ، وانصرف عنها وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز .

وقدم مروان الشام فنزل الصميرة(١) على ميلين من طبرية من بلاد الأردن ، فأحضر حسان بن مالك ، وأرغبه وأرهبه ، فقام حسان فى الناس خطيباً ، ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان [بعد مروان] ، وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك ، فلم يخالفه فى ذلك أحد .

موت مروان ابن الحكم

وهلك مروان بدمشق فى هذه السنة ، وهى سنة خمس وستين ، وقد تنازع أهل التواريخ وأصحاب السير ومن عُنِىَ بأخبارهم فى سبب وفاته : فمنهم من رأى أنه مات مطعوناً ، ومنهم من رأى أنه مات حَتْفَ أنْفِهِ . ومنهم من رأى أن فاختة بنت أبى هاشم بن عتبة أم خالد بن يزيد بن معاوية هى التى قتلته ، وذلك أن مروان حين أخذ البيعة لنفسه ولخالد بن يزيد بعده وعمرو بن سعيد بعد خالد، ثم بَدَا له غير ذلك فجعلها لابنه عبد الملك بعده ، ثم لابنه عبد العزيز بعد عبد الملك ودخل عليه خالد بن يزيد فكلمه وأغْلَظَ له ، فغضب من ذلك وقال: أتكلمنى

(١) فى ب « الصبرة » .

Marfat.com

يا ابن الرَّطْبة ؟ وكان مروان قد تزوج بأمه فاختة لِيُذِلَّه بذلك ويَضَع منه ، فدخل خالد على أمه فقبح لها تزوجها بمروان ، وشكا إليها ما نزل به منه ، فقالت : لا يعيبك بعدها ؛ فمنهم من رأى أنها وضعت على نَفَسِه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات ، ومنهم من رأى أنها أعَدَّتْ له لبناً مسموماً فلما دخل عليها ناولته إياه فشرب ، فلما استقر فى جوفه وقع يجود بنفسه وأمسك لسانه ، فحضره عبد الملك وغيره من ولده ؛ فجعل مروان يشير إلى أم خالد [برأسه][1] يخبرهم أنها قتلته ، وأم خالد تقول : بأبى [وأمى][1] أنت ، حتى عند النزع لم تشتغل عنى ، إنه يوصيكم بى ، حتى هلك ، فكانت أيامه تسعة أشهر وأياماً قلائل ، وقيل : ثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك مما سنورده عند ذكرنا للمدة التى ملكت فيها بنو أمية من الأعوام، فيما يرد من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

ترجمة مروان

وهلك مروان وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد ذكر غير ذلك فى سِنِّه ، وكان قصيراً أحمر ، ومولده لسنتين خَلَتَا من الهجرة ، وهلك بعد أخذ البيعة لولده بثلاثة أشهر ، وقد ذكر ابن أبى خيثمة فى كتابه فى التاريخ أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى ومروان ابن ثمانِ سنين، وكان لمروان عشرون أخاً وثمانى أخوات ، وله من الولد أحد عشراً ذكراً وثلاث بنات ، وهم : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وعبد الله ، وأبان ، وداود ، وعمر ، وأم عمر ، وعبد الرحمن، وأم عثمان ، وعمرو ، وأم عمرو ، وبشر ، ومحمد ، ومعاوية ، وقد ذكرنا هؤلاء ومَنْ أعقب منهم ومن لم يعقب .

ولد يزيد ابن معاوية

وقد كان يزيد بن معاوية خلف من الولد أكثر مما خلف مروان ، وذلك أنه خلف : معاوية ، وخالداً ، وعبد الله الأكبر ، وأبا سفيان ، وعبد الله الأصغر، وعمر، وعاتكة، وعبد الرحمن، وعبد الله الذى لقبه الأصغر ، وعثمان، وعتبة الأعور، وأبا بكر، ومحمداً، ويزيد، وأم يزيد، وأم عبد الرحمن ، ورَمْلَة.

ولد معاوية

[وخلف أبوه معاوية بن أبى سفيان من الولد : عبد الرحمن ، ويزيد ، وعبد الله ، وهنداً ، ورَمْلَة ، وصفية][1]

(١) زيادة فى ا وحدها .

ذكر أيام عبد الملك بن مروان

وبويع عبدُ الملك بن مروان ليلة الأحد غرة شهر رمضان من سنة خمس وستين ، ثم بَعَثَ الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير ومن معه من الناس بمكة ، فقتل عبد الله يوم الثلاثاء لعشر مَضَيْنَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وكانت ولاية ابن الزبير تسع سنين وعشر ليال ، وسنذكر مدة ابن الزبير بعد هذا الموضع من هذا الكتاب عند ذكرنا لجامع [مدة] ملك بني أمية ، ثم هاجت فتنة ابن الأشعث في شعبان من سنة اثنتين وثمانين ، ثم توفي عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين ، وكانت ولايته منذ بويع إلى أن توفي إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً ، وَبقي بعد عبد الله بن الزبير وَاجتماع من اجتمع عليه من الناس ثلاث عشرة سنة وَأربعة أشهر إلا سبع ليال ، وَسنذكر مافعله من وَقت استقامة من استقام له من الناس ، وَقُبِضَ وَهو ابن ست وَستين سنة[1] ، وَقيل أكثر من ذلك ، وَكان يحب الشعر وَالفخر وَالتقريظ وَالمدح [وَكان الغالب عليه البخل ، وَكان له إقدام على الدماء][2] ، وَكان عُمَّاله على مثل مذهبه ، كالحجَّاج بالعراق ، وَالمهلَّب بخراسان ، وهشام بن إسماعيل بالمدينة ، وَغيرهم [بغيرها] ، وَكان الحجاج من أظلمهم وَأسفكهم للدماء ، وسنذكر في هذا الكتاب جوامع من ذكره فيما يلي هذا الباب . موجز

---

(١) في ا « وقبض وهو ابن اثنتين وستين سنة » .

(٢) زيادة في ا وحدها .

Marfat.com

ذكر جمل من أفعاله ، وسيره

ولمع مما كان فى أيامه ، ونوادر من أخباره

منادمة الشعبى لعبد الملك

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه إلى محادثة الرجال والإشراف على أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى، فلما حمل إليه ونادمه [وحظى عنده] قال له : يا شعبى لا تساعدنى على ماقبح، ولا ترد على الخطأ فى مجلسى، ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى ، وكلمنى بقدر ما أستطعمك واجعل بدل المدح لى صواب الاستماع منى ، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعتنى أتحدث فلا يفوتنك منه شىء ، وأرنى فهمك فى طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك فى تطرية جوابى، ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ؛ فإن أسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل[1] ، وإن أسوأ حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم ياشعبى أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويسقط حق الحرمة ؛ فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من المنطق فى موضعه ، وعند إصابته فرصة[2] .

أدب النديم

مهب الرياح

وقال عبد الملك للشعبى يوماً: من أين تهب الريح؟ قال: لا علم لى يا أمير المؤمنين قال عبد الملك : أما مهب الشمال فمن مطلع بنات نعش [إلى مطلع الشمس] ، وأما مهب الصبا فمن مطلع الشمس إلى مطلع سهيل ، وأما الجنوب فمن مطلع سهيل إلى مغرب الشمس ، وأما الدبور فمن مغرب الشمس إلى مطلع بنات نعش.

حركة الشيعة

وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه[3] ، ورأوا أنهم قد أخطؤا خطأ كبيراً ، بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك

---

(١) فى ا « فإن أشر الناس حالا من استعد الملوك بالباطل »

(٢) فى ب « وعند إصابته وفرصته » (٣) فى ا « فلم يعينوه »

Marfat.com

الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم : سليمان ابن صُرَد الخزاعى ، والمسيب بن نجبة(١) الفزارى ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى ، وعبد الله بن وال التيمى ، ورفاعة بن شداد البجلى ، فعسكروا بالنخيلة ، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبى عُبَيْدِ الثقفى خَطْبٌ طويل بتثبيطه الناسَ عنهم ممن أراد الخروج معهم ، ففى ذلك يقول عبد الله ابن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات :

صحوت وودَّعْتُ الصبا والغوانيا ... وقلت لأصحابى : أجيبوا المنادِيَا(٢)

وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا : لَبَّيْكَ لبيكَ دَاعيا

فى شعر طويل يحثُّ فيه على الخروج ، ويرثى الحسين ومَنْ قتل معه ، ويلوم شيعته بتخلفهم عنه ، ويذكر أنهم قد تابوا إلى الله [وأنابوا إليه] من الكبائر التى ارتكبوها إذ لم ينصروه ، ويقول أيضاً فى هذا الشعر :

ألا وانْعَ خير الناس جداً ووالداً ... حُسيناً لأهل الدين إن كنت ناعياً

ليَبْكِ حسيناً مُرْمِلٌ ذو خَصاصة ... عديم وأيتام تشكَّى المواليا(٣)

فأضحى حسين للرماح دريئة ... وغودر مسلوباً لدى الطَّفِّ ثاويا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عند الشانئين الأعاديا

سقى الله قبراً ضُمِّنَ المجد والتقى ... بغربية الطف الغمامَ الغواديا

فيا أمةً تاهَتْ وضَلَّتْ سفاهة ... أنيبوا فأرْضُوا الواحد المتعاليا

ثم ساروا يقدمهم مَنْ سَمَّينا من الرؤساء وعبد الله بن الأحمر يقول :

خرجن يلمعن بنا أرسالا ... عوابسا يحملننـا أبطالا

نريد أن نلقى بها الأقيالا ... القاسطين الغُدُرَ الضُّلاَّلا

وقد رَفَضْنَا الوُلْدَ والأموالا ... والخفِرَاتِ البيضَ والحِجَالا

نرضى به ذا النعم المفضالا

(١) فى ب « والمسيب بن محمد الفزارى »
(٢) فى ب « صحوت وقد أصحوا الصبا والعواديا » محرفا
(٣) فى ب « عديم وأمام تشكى المواليا » محرفا

Marfat.com

موقعة عين الوردة

فانتهوا إلى قرقيسياء من شاطىء الفرات وبها زُفَرُ بن الحارث الكلابى، فأخرج إليهم الأنزال ، وساروا من قرقيسياء ليسبقوا إلى عين الوردة ، وقد كان عبيد الله بن زياد توجَّهَ من الشام إلى حربهم فى ثلاثين ألفاً ، وانفصل على مقدمته من الرقة خمسة أمراء، منهم الحصين بن نمير السكونى[1]، وشَرَحْبيل بن[2] ذى الـكلاع الحميرى ، وأدهم بن محرز الباهلى ، وربيعة ابن المخارق الغَنَوِى ، وجبلة بن عبدالله الخثعمى ، حتى إذا صاروا إلى عين الوردة التقى الأقوام ، وقد كان قبل ذلك لهم مُنَاوَشَاتٌ فى الطلائع ، فاستشهد سليمان بن صُرَد الخزاعى ، بعد أن قَتَلَ من القوم مقتلة عظيمة ، وأبلى وحَثَّ وحَرَّض ، ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله ، فأخذ الراية المسيب بن نجبة الفزارى ، وكان من وجوه أصحاب علىّ رضى الله عنه، وكَرَّ على القوم وهو يقول :

قد علمَتْ مَيَّالة الذوائب واضحة اللَّبَّاتِ والترائبِ
أنى غداة الروع والمقانب أشجع من ذى لِبْدَةٍ مُوَاثب[3]

فقاتل حتى قتل، واستقتل التر ابيون[4]،وكسروا أجفان السيوف،وسالت عليهم عساكر أهل الشام بالليل ينادون الجنة الجنة إلى البقية من أصحاب أبى تراب الجنة الجنة إلى الترابية ، وأخذ راية الترابيين عبدالله بن سعد بن نفيل ، وأتاهم إخوانهم يحثُّونَ السير خلفهم من أهل البصرة وأهل المدائن فى نحو من خمسمائة فارس عليهم المثنى بن مخرمة ، وسعد[5] بن حذيفة ، وهم يقولون : أقِلْنَا رَبَّنَا تفريطنا فقد تُبْنَا ، فقيل لعبد الله بن سعد بن نفيل وهو فى القتال: إن إخواننا قد لحقونا من البصرة والمدائن ، فقال : ذاك لو جاءوا ونحن أحياء ، فكان أول من استشهد فى ذلك الوقت ممن لحقهم من أهل المدائن كثير بن عمرو

(١) فى ب « السلولى » (٢) فى ا « وشراحيل ذى الـكلاع »
(٣) فى الطبرى وابن كثير « أنى غداة الروع والتغالب »
(٤) فى ا « واستقبل التوابون » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب
(٥) فى ا « المتق بن محرصة وسعيد بن حذيفة »

Marfat.com

المدنى ، وطعن سعد بن أبى سعد[1] الحنفى ، وعبد الله بن الخطل الطائى ، وقتل عبد الله بن سعد[2] بن نفيل .

فلما علم من بقى من التراببين : أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام انحازوا عنهم ، وارتحلوا ، وعليهم رفاعة بن شداد البجلى ، وتأخر أبو الحويرث العبدى فى جابية الناس[3] ، وطلب منهم أهل الشام المكافَّةَ والمتَارَكة ، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم ، فلحق أهل الكوفة بمصرهم ، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم ، وسمع من التراببين فى مسيرهم ورجوعهم من عين الوردة قائلا يقول ، رافعاً عقيرته :

يا عين بكى ابن الصُّرَدْ   بكى إذا الليل خَمَدْ
كان إذا البأس نكد   تخاله فيه أسد
مضى حَمِيداً قد رَشَدْ   فى طاعة الأعلى الصمد

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من أصحاب التواريخ والسير مَنْ قتل من التراببين مع سليمان بن صُرَد الخزاعى على عين الوردة وأسماءهم ، فقللهم .

وحكى أبو مخنف فى كتابه فى أخبار التراببين بعين الوردة قصيدة عزاها إلى أعشى هَمْدَانَ طويلة يرثى بها أهل عين وردة من التراببين ويصف ما فعلوه ، منها :

توجَّهَ من دون الثنية سائراً   إلى ابن زياد فى الجموع الكتائب
فساروا وهم من بين ملتمس التقى   وآخر مما جرَّ بالأمس تائب
فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلا   عليهم فحيوهم ببيض قواضب
فجاءَهُمُ جمع من الشام بعده   جموع كموج البحر من كل جانب
فما بَرِحُوا حتى أبيدت جموعهم   ولم يَنْجُ منهم ثَمَّ غير عصائب

(١) فى ب « وطعن سعيد بن سعيد الحنفى »
(٢) فى ب « عبد الله بن سعيد بن نفيل » (٣) فى ا « فى حاميه الناس »

وغودرَ أهل الصبر صرْعى فأصبحوا تعاوَرُهمْ ريحُ الصَّبا والجنائب
وأضْحى الخزاعىُّ الرئيسُ مجدَّلاً كأن لم يقاتل مرة ويحارب
ورأس بنى شمخ وفارس قومه جميعاً مع التيمى هادى الكتائب
وعمرو بن عمرو بن بشر وخالد وبكر وزيد والحليس بن غالب
أبَوْ غير ضرب يَفْلق الهام وقعه وطعن بأطراف الأسنة صائب
فيا خــير جيش للعراق وأهله سُقِيتُمْ روايا كل أسْحَمَ ساكبَ
فلا تَبْعَدُوا فرساننا وحُماتَنا إذا البيض أبدت عن خِدام الكواعب
فإن تقتلوا فالقتل أكرم ميتة وكل فتى يوماً لإحدى النوائب
وما قتلوا حتى أصابوا عصابة محلين حورا كالليوث الضوارب

وقيل : إن وقعة عين الوردة كانت فى سنة ست وستين .

وصف القرآن لعلى كرم الله وجهه

وفى [سنة ست وستين ، فى] أيام عبد الملك بن مروان توفى الحارث الأعور صاحب على عليه السلام ، وهو الذى دخل على علىّ فقال : يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب الله ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قال : نعم ، قال: أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتنة » قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما [كان] قبلكم ، وخَبَرُ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه من جبَّار قصَمه الله ، ومن أراد الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ عنه العقول ، ولا تلتبس به الألسُنُ ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يعلم علم مثله ، هو الذى لمَّا سَمِعَتْهُ الجنُّ قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد ، من قال به صَدَقَ ، ومن زال عنه عدا ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم » خذها إليك يا أعور .

ولما كان من وقعة عين الوردة ما قدمنا سار عبيد الله بن زياد فى عساكر

مقتل عبيد الله ابن زياد

الشام يوْمُ العراق ، فلما انتهى إلى الموصل — وذلك فى سنة ست وستين — التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعى ، وإبراهيم على خيل العراق من قبل المختار بالخازر [1] ، فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها ابن مَرْجَانة عبيد الله بن زياد ، والحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذى الكلاع ، وابن حوشب ذى ظليم ، وعبد الله بن إياس السلمى ، وأبو أشرس [2] ، وغالب الباهلى ، وأشراف أهل الشام ، وذلك أن عمير بن الحباب السلمى كان على ميمنة ابن زياد فى ذلك الجيش ، وكان فى نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط ، فصاح : ياثارات قيس [3] يا لمضر ، يا لنزار ، فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم فى جيشهم من أهل الشام من قحطان ، وقد كان عمير كَاتَبَ إبراهيم بن الأشتر [سرا] قبل ذلك ، والتقيا ، فتواطآ على ما ذكرنا ، وحمل إبراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره إلى المختار ، فبعث به المختار إلى عبد الله بن الزبير بمكة .

اضطراب فى كل ناحية

وقد كان عبد الملك بن مروان سار فى جيوش أهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من [أمر] ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل ، أتاه فى تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة ، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مُصْعَب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوى بن فلنط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وأن عبيدها وأوباشها ودُعَّارها قد خرجوا على أهلها ، ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن مَنْ فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأنَّ خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نمى إليه من المفظعات فى تلك الليلة ، فلم يُرَ عبدُ الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ، ولا أثْبَتَ جَنَانا منه تلك

(١) هكذا وقع فى تاريخ الطبرى (٧ / ١٤٢) ، وفى ب « بالجارد » وفى ا « بالجازر » . (٢) فى ب « وعبد الله بن إياس السلمى أبو سدس » (٣) فى ا « ياثارات مضر ، يالنزار »

Marfat.com

من سياسة عبد الملك

الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك ، وترك إظهار الفَشَلِ ، وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم ، فشغله وهادنه ، وسار إلى فلسطين وبها ناتل[1] بن قيس على جيش ابن الزبير ، فالتقوا بأجنادين ، فقتل ناتل[1] بن قيس وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ، ونمى خبر قتله وهزيمة الجيش إلى مصعب بن الزبير وهو فى الطريق ، فولى راجعاً إلى المدينة ، ففى ذلك يقول رجل من كلب من المروانية :

قَتَلْنَا بأجنادين سعداً وناتلا قصاصاً بما لاقى حبيش ومنذر

ورجع عبدالملك إلى دمشق فنزلها ، وسار إبراهيم بن الأشتر فنزل نصيبين ، وتحصن منه أهل الجزيرة ، ثم استخلف على نصيبين ، ولحق بالمختار بالكوفة .

بين مصعب والمختار الثقفى ومقتل المختار

وفى سنة سبع وستين سار مصعب بن الزبير من البصرة ، وقد كان أخوه عبد الله بن الزبير أنفذه إلى العراق والياً ، فنزل حَرُوراء ، والتقى هو والمختار فكانت بينهم حروب عظيمة ، وقُتِلَ ذريع ، وانهزم المختار ، وقد قتل محمد بن الأشعث وابنان له ، ودخل قصر الإمارة بالكوفة وتحصن فيه ، وجعل يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه من أهل الكوفة [وغيرهم] والمختار معه خلق كثير من الشيعة قد سموا الخشبية من الكيسانية وغيرهم ، فخرج إليهم ذات يوم وهو على بغلة [له] شهباء ، فحمل عليه رجل من بنى حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد ، فقتله واحتز رأسه ، وتنادوا بقتله ، فقطّعه أهل الكوفة وأصحاب مصعب أعضاء ، وأبى مصعب أن يعطى الأمان لمن بقى فى القصر من أصحابه ، فحاربوا إلى أن أضرَّ بهم الجَهْدُ ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك ، فكان ممن قتل مع المختار عبيد الله[2] بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وله خبر مع المختار فى تخلصه منه ومضيه إلى البصرة وخوفه على نفسه من مصعب إلى أن خرج معه فى جيشه ، وقد أتينا على خبره وسائر ما أومأنا إليه فى كتابنا « أخبار

(١) فى ب « بابل » فى كل المواضع التى ذكر فيها هذا الاسم
(٢) فى ب « فكان ممن قتل مع مصعب عبد الله بن الحسين بن على »

Marfat.com

الزمان » فكان جملة مَنْ أدركه الإحصاء ممن قتله مصعب مع المختار سبعة آلاف رجل ، كل هؤلاء طالبون بدم الحسين ، وقتلة أعدائه ، فقتلهم مصعب ، وسماهم الخشبية (١) ، وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها، وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه ففعلن إلا حرمتين له إحداهما بنت سَمُرَةَ بن جندب الفزارى والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصارى ، وقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربى الله ؟ كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قَتَلَةِ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس ، فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله يخبرها وما قالتاه ، فكتب إليه إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه وإلا فاقتلهما ، فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لو دعوتنى إلى الكفر مع السيف لكفرت : أشهد أن المختار كافر ، وأبت ابنة النعمان بن بشير ، وقالت : شهادة أرزقها فأتركها ؟ كلا ! ! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون ، آتى مع ابن هند [فأتبعه] وأترك ابن أبى طالب ؟ اللهم اشهد أنى متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بَيْتِه وشيعته ، ثم قدَّمها فقتلت صبراً ، ففى ذلك يقول الشاعر :

إن من أعجب الأعاجيب عندى قَتْلَ بَيْضَاء حرة عُطْبُولِ
قتلوها ظلماً على غير جرم إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر المهلب وقتله لنافع [بن الأزرق] ، وذلك فى سنة خمس وستين ، ونافع هو الذى تنسب إليه الأزارقة من الخوارج ؛ إذ كنا أتينا فى كتابنا «أخبار الزمان» على ذكر حروب الخوارج مع المهلب وغيره ممن سلف وخلف، وذكرنا شأن مرداس بن عمرو بن بلال التميمى ، وعطية بن الأسود الحنفى، وأبى فديك ، وشوذب الشيبانى [وسويد الشيبانى (١)] وقطامة الشيبانى ،

(١) فى ب « وسماهم الحسينية » هنا وفيما سبق فى سرد هذه القصة

Marfat.com

والمهذب السكونى ، وقَطَرِى بن الفُجَاءة ، والضحاك بن قيس الشيبانى] ووقعة ابن الماحوز الخارجى مع المهلب ومقتله ، وظفر المهلب بهم فى ذلك اليوم ، وخبر عبد ربه وأخبار خوارج اليمن كأبى حمزة المختار بن عوف الأزدى ، و[ابن] بيهس الهيصمى ، مع ما تقدم من ذكرنا لفرق الخوارج فى كتابنا « المقالات فى أصول الديانات » من الأباضية وهم شُرَاة عمان من الأزد وغيرهم من الأزارقة والنجدات والحمرية[٢] [والجابية] والصفرية وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الأرض ، مثل بلاد سنجار وتل أعْفَرَ من بلاد ديار ربيعة والسن والبوازيج والحديقة[٣] مما يلى بلاد الموصل ، ثم من سكن من الأكراد بلاد أذربيجان وهم المعروفون بالشراة منهم ، وأسلم المعروف بابن شادلويه ، وقد كان تملك على أعمال ابن أبى الساج من بلاد أذربيجان وأران[٤] والبيلقان وأرمينية ، ومن سكن منهم بلاد سجستان وجبال هَرَاة وكوهستانة وبوشنج من بلاد خراسان ومن بلاد مكران على ساحل البحر بين بلاد السند وكرمان وأكثرهم صفرية وحمرية[٢] ، ومنهم ببلاد حمران[٥] إصطخر وصاهك[٦] بين كرمان وفارس ، ومنهم ببلاد تيهرت المغرب ، ومنهم ببلاد حضرموت وغيرها من بقاع الأرض .

وفاة عبد الله ابن العباس

وفى سلطنة عبد الملك مات أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فى سنة ثمان وستين ، وقيل : فى سنة تسع وستين ، بالطائف ، وأمه لُبابة بنت الحارث بن حزن ، من ولد عامر بن صعصعة ، وله إحدى وسبعون سنة ، وقيل : إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقد ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين ، وصلى عليه محمد ابن الحنفية ، وكان قد ذهب بصره لبكائه على علىّ والحسن والحسين ، وكانت له وَفْرَة طويلة يَخْضُب شَيْبه بالحناء ، وهو الذى يقول :

---

(١) فى ب « وسودة الشيبانى » (٢) فى ا « والحمزية »
(٣) فى ا « والحدبثة » (٤) فى ا « والران »
(٥) فى ا « يلاد حراة » (٦) فى ب « صاهد »

Marfat.com

إن يأخذِ الله من عينىَّ نورَهُما ... فى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى ، وعقلى غير مُدَّخل ، ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم دعا له حين وضع له الماء للطهور فى بيت خالته ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » .

وقيل لابن عباس رضى الله عنه : ما منع عليا رضى الله عنه أن يبعثك مكان أبى موسى [فى] يوم الحكمين ؟ فقال : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض ، أسِفُّ إذا طار ، وأطير إذا أسَفَّ ، ولكن مضى قدر ، وبقى أسف ، ومع اليوم غد ، وللآخرة خير للمتقين .

وكان لابن عباس من الولد : على ، وهو أبو الخلفاء من بنى العباس ، والعباس، ومحمد ، والفضل ، وعبد الرحمن ، وعبيد الله ، ولُبَابة، وأمهم زرعة[١] بنت مشرح الكندية ، فأما عبيد الله ومحمد والفضل فلا أعْقابَ لهم.

مقتل عمرو ابن سعيد الأشدق

وفى سنة سبعين قَتَلَ عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام ، وقد كان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات وخَطْب طويل طلباً للملك ، وكان فيما كتب إليه عبد الملك : إنك لتطمع نفسك بالخلافة ، ولست لها بأهل ، فكتب إليه عمرو : استدراج النعم إياك أفادك البغى ، ورائحة الغدر[٢] أورثتك الغفلة ، زجرت عما وافقت عليه ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب[٣] يؤيس الطالب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز ، وعن قريب يتبين مَنْ صريع بغى وأسير غفلة .

وقد كان عبد الملك سار إلى زفَرَ بن الحارث الكلابى وهو بقرقيسياء وبلاد الرحبة وخلف عمرو بن سعيد بدمشق فبلغه أن عمراً قد دعا [الناس] إلى بيعته بدمشق ،

(١) فى ب « وأمهم زعبة بنت مسرح »
(٢) فى ا « ورائحة القدرة »
(٣) فى ا « ضعف الأنساب »

فكَرَّ راجعاً إليها ، فامتنع عمرو فيها ، فناشده عبد الملك الرحم وقال له : لا تفسد [أمر] أهل بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة ، وفيما صنعت قوة [لابن الزبير] ؛ ارجع إلى بيتك فإنى سأجعل لك العهد ، فرضى وصالح ، ودخل عبد الملك وعمرو متحيز(١) منه فى نحر خمسمائة [فارس] يزولون معه حيث زال .

وقد تنازع أهل السير فى كيفية قتل عبد الملك إياه : فمنهم من رأى أن عبد الملك قال لحاجبه : ويحك ! ! أتستطيع إذا دخل عمرو أن تُغْلِق الباب؟ قال : نعم ، قال : فافعل ، وكان عمرو رجلا عظيم الكِبْر لا يرى أن لأحد عليه فضلا ، ولا يلتفت وراءه إذا مشى إلى أحد ، فلما فتح الحاجب الباب دخل عمرو ، فأغْلَقَ الحاجب الباب دون أصحابه ، ومضى عمرو لا يلتفت ، وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يدخلون ، فعاتبه عبد الملك طويلا ، وقد كان وصى صاحب حرسه أبا الزعيزعة بأن يضرب عنقه ، فكلمه عبد الملك وأغلظ له القول ، فقال : يا عبد الملك ، أتستطيل علىَّ كأنك ترى لك علىَّ فضلا ؟ إن شئت والله نقضت العهد بينى وبينك ، ثم نصبت لك الحرب فقال عبد الملك : قد شئت ذلك ، فقال : وأنا قد فعلت ، فقال عبد الملك : يا أبا الزعيزعة شأنَكَ ، فالتفت عمرو إلى أصحابه فلم يرهم فى الدار ، فدنا من عبد الملك ، فقال : ما يدنيك منى ؟ قال : لتمسَّنى رحمك ، وكانت أم عمرو عمة عبد الملك [كانت] تحت الحكم بن أبى العاص بن وائل ، فضربه أبو الزعيزعة فقتله ، فقال له عبد الملك : ارْمِ برأسه إلى أصحابه ، فلما رأوا رأسه تفرقوا ، ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمراً فوقع فيه ، وذكر خلافه وَشِقَاقه ، ونزل من المنبر وهو يقول :

أدْنَيْتُهُ مِنِّى لِيَسْكُنَ نفْرَةُ فَأَصُولَ صَوْلَةَ حازم مُسْتَمْكِن
غضباً ومَحْمَاة لدينى ؛ إنه ليس المسىء سبيله كالمحسن(٢)

وقيل : إن عمراً خرج من منزله يريد عبد الملك ، فعثر بالبساط ، فقالت له

(١) فى ا « وعمرو متحرز » (٢) فى ا « غضبا ومحمية لدينى »

Marfat.com

امرأته نائلة بنت قريص[1] بن وكيع بن مسعود : أَنْشُدُكَ الله أن لا تأتيه ، فقال: دعيني عنك فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ، وخرج وهو مكفر بالدرع؛ فلما دخل على عبدالملك قام مَنْ هناك من بني أُمية ، فقال عبدالملك وقد أخذت الأبواب : إني كنت حلفت لئن ملكتك لأشُدَّنك في جامعة ؛ فأتي بجامعة فوضعها في عنقه وشدَّها عليه؛ فأيقن عمرو أنه قاتله؛ فقال: أَنْشُدُكَ الله يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك : يا أبا أُمية ، مالك جئت في الدرع ألقتال ؟! فأيقن عمرو بالشر فقال : أنشدك الله أن تخرجني إلى النـاس في الجامعة ، فقال له عبد الملك : وتماكرني أيضاً وأنا أمكر منك ؟ تريد أن أخرجك إلى الناس فيمنعوك ويستنقذوك من يدي ، وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز — وقد كان قدم من مصر في ذلك اليوم — بقتله إذا خرج ! وقد قيل : أمر ابنه الوليد بذلك ؛ فلما دنا منه عبد العزيز ناشده عمرو بالرحم فتركه ؛ فلما رجع عبد الملك من الصلاة ورآه حَيًّا قال لعبد العزيز : والله ما أَرَدْتُ قتله إلا من أجلكم ألا لا يجوزها دونكم ، ثم أضجعه ؛ فقال له عمرو : أغدر يا ابن الزَّرْقاء ؟ فذبحه ، ووافى أخو عمرو يحيى بن سعيد إلى الباب بمن معه من رجاله ليكسره ؛ فخرج إليه الوليد وموالي عبد الملك ؛ فاقتتلوا ، واختلف الوليد ويحيى ؛ فضربه يحيى بالسيف على أليته فانصرع ، وألقى رأس عمرو إلى الناس ؛ فلما رأوه تفرقوا من بعد أن ألقى عليهم من أعلى الدار بِدَر الدنانير ؛ فاشتغلوا بها عن القتال، وقال عبدالملك: وأبيك لئن كانوا قَتَلُوا الوليد لقد أصابوا بثأرهم ، وقد كان الوليد فقد حين ضرب ، وذلك أن إبراهيم بن عدي احتمله فأدخله بيت القراطيس في المعمعة، وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد ؛ واجتمعت الكلمة على عبد الملك ؛ وانقاد الناس إليه !

وقد قيل في مقتله غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا «أخبار

(١) في ب « نائلة بنت فريض بن وكيع بن مسعود »

Marfat.com

الزمان » وقد ذكرنا شعر أخته فيه – وكانت تحت الوليد بن عبد الملك – فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار المنصور ؛ إذ هو الموضع المستحق له دون هذا الموضع لما تغاغل بنا [إليه] الكلام ، وتسلسل بنا القول نحوه .

وأقام عبد الملك بدمشق بقية سنة سبعين ، وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه ، حتى انتهى إلى الموضع المعروف بباجميرا[١] مما يلى الجزيرة ، يريد الشام لحرب عبد الملك ، فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من مكة إلى البصرة فى ولده وعِدَّة من مواليه ناكثاً لبيعة عبد الله بن الزبير ؛ فنزل بعض نواحى البصرة ، وأن قوماً قد انضافوا إليه من ربيعة [ومضر] ، ومنهم عبد الله بن الوليد ، ومالك بن مسمع البكرى ، وصَفْوَان بن الأهتم[٢] التميمى ، وصعصعة بن معاوية عم الأحنف ، فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخِراً على خالد بن عبد الله ؛ فخرج هارباً بابنيه [فى البر] حتى لحقوا بعبد الملك ، وانصرف مصعب راجعاً إلى البصرة ، وذلك فى سنة إحدى وسبعين ، ثم عاد من العراق إلى باجميرا[١] ؛ ففى ذلك يقول الشاعر :

أَبَيْتَ يا مُصْعَبُ إلاَّ سَيْرَا فى كلِّ يومٍ لكَ باجميرا

ونزل عبد الملك بن مروان على قرقيسياء ، فحاصر بها زُفَرَ بن الحارث العامرى الكلابى ، وكان يدعو إلى ابن الزبير ، فنزل على إمامته وبايعه ، وسار عبد الملك فنزل على نصيبين — وفيها يزيد والحبشى موليا الحارث فى ألفى فارس ممن بقى من أصحاب المختار يدعون إلى إمامة محمد بن الحنفية — فحاصرهم ، فنزلوا على إمامته ، وانضافوا إلى جملته !

وخرج مصعب فى أهل العراق — وذلك فى سنة اثنتين وسبعين — يريد عبد الملك ، وَدَلَفَ إليه عبد الملك فى عساكر مصر والجزيرة والشام ؛ فالتقوا بمسكن قرية من أرض العراق على شاطىء دجلة ، وعلى مقدمة عبد الملك

(١) فى ب « بيا حميراء » محرفا (٢) فى ب « بن الأيهم »

Marfat.com

الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى ، وقيل : على ساقته ، وقد أَحْمَدَ أَمْرَهُ فى قيامه بما أهل له ، فكاتب عبد الملك رؤساء أهل العراق ممن هم بعسكر مصعب وغيرهم [سراً] وصار يرغِّبهم ويرهِّبهم ، فكان فيمن كتب إليه إبراهيم بن الأشتر النخعى ، فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله فى رَحْله ، وأتى مصعباً بالكتاب قبل أن يَفُضّه ويعلم ما فيه ، فقال له مصعب : أقرأته ؟ فقال : أعوذ بالله أن أقرأه حتى يقرأه الأمير ، وآتىَ يوم القيامة غادراً قد نقضت بيعته وخلعت طاعته ، فلما تأمل مصعب ما فيه وجده أماناً له وولاية لما شاء من العراق وإقطاعا وغير ذلك ، ثم قال إبراهيم لمصعب : هل أتاك أحد من أشراف العساكر بكتاب ؟ فقال مصعب : لا ، فقال إبراهيم : والله لقد كاتبهم وما كاتبنى حتى كاتب غيرى ولا امتنعوا عن إيصالها إليك إلا للرضا به والغدر بك ، فأطِعْنِى وابدأ بهم ، فأمرهم على السيف ، أو استوثق منهم فى الحديد ، والْقَ هذا الرجل ، فأبى مصعب ذلك ، وتحيَّزَ مَنْ كان فى عسكره من ربيعة لقتله ابن زياد بن ظبيان البكرى ، وكان من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل ، وسار إبراهيم بن الأشتر على مقدمة مصعب فى متسرعة الخيل ، فلقى خيل عبد الملك ومقدمته عليها أخوه محمد بن مروان ، وبلغ عبد الملك وزود إبراهيم ومنازلته محمداً أخاه ، فبعث إلى محمد : عزمت عليك أن لا تقاتل [فى هذا] اليوم ، وقد كان مع عبد الملك منجم مقدم ، وقد أشار على عبد الملك أن لا تحارب له خيل فى ذلك اليوم ، فإنه منحوس ، وليكن حربه بعد ثلاث فإنه ينصر ، فبعث إليه محمد : وأنا أعزم على نفسى لأقاتلن ولا ألتفت إلى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب ، فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضره : ألا ترون ؟ ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : اللهم إن مُصْعَباً أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسى ، اللهم فانصر خيرنا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالتقى محمد بن مروان وابن الأشتر ، ومحمد يرتجز ويقول :

Marfat.com

مثلى على مثلك أولى بالسلب محجل الرجلين أعرب الذنب(١)

فاقتتلوا حتى غشيهم المساء ، فقال عتاب بن وَرْقَاء التميمى ، وكان مع ابن الأشتر : يا إبراهيم ، إن الناس قد جُهِدُوا فمرهم بالانصراف ، حسداً له لإشرافه على الفتح، فقال [له] إبراهيم : وكيف ينصرفون وعدوهم بإزائهم ؟! فقال عتاب : فمر الميمنة أن تنصرف ، فأبى إبراهيم ذلك ، فمضى إليهم عتاب فأمرهم بالانصراف ، فلما زالوا عن مصافهم أكَبَّتْ ميسرة محمد عليهم ، واختلط الرجال ، وصمدت الفرسان لإبراهيم ، واشتبكت عليه الأسِنَّةُ ، فبرى منها عدة رماح،وأسلمه من كان معه ، فاقتلع من سرجه ودار به الرجال وازدحموا عليه ، فقتل بعد أن أبلى ونكأ فيهم ، وقد تنوزع فى آخذ رأسه: فمنهم من زعم أن ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير السكندى هو الذى أخذ رأسه ، ومنهم من ذكر أن عبيد بن ميسرة مولى بنى يشكر ثم من بنى رفاعة هو الذى أخذ رأسه ، وأتى عبد الملك بجسد إبراهيم فألقى بين يديه ، فأخذه مولى الحصين بن نمير ، فجمع عليه حطباً وأحرقه بالنار .

وسار عبد الملك فى صبيحة تلك الليلة من موضعه حتى نزل بدير الجاثليق من أرض السوداء ، وأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعى إلى رايات ربيعة فأضافوها إلى عسكر عبد الملك ودخلوا فى طاعته، ثم تَصَافَّ القوم ، فأفرد مصعب ، وتخلى عنه من كان معه من مصر واليمن ، وبقى فى سبعة نفر منهم إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله التميمى ، وابنه عيسى بن مصعب ، فقال لابنه عيسى : يا بنى اركب [فرسك] فانج [بنفسك] فالحق بمكة بعمك ، فأخبره بما صنع بى أهل العراق ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال له: لا والله ، لا يتحدث نساء قريش أنى فررت عنك ، ولا أحدثهم عنك أبداً ،فقال له مصعب: أما إذ أبيت فتقدم أمامى حتى أحتسبك ، فتقدم عيسى فقاتل حتى قتل

---

(١) يروى هذا البيت فى ا هكذا :

مثلى على خيلك أودى بالسلب محجل الرجلين غر بالذنب

Marfat.com

وسأل محمد بن مروان أخاه عبد الملك أن يؤمن مصعباً ، فاستشار عبد الملك من حضره ، فقال له على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب : لا تؤمنه ، وقال خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان : بل أمنه ، وارتفع الكلام بين على وخالد حتى تسابا على مصافهما ، فأمر عبد الملك أخاه محمداً أن يمضى إلى مصعب فيؤمنه ويعطيه عنه ما أراد ، فمضى محمد [فوقف قريباً من مصعب ، ثم قال : يا مصعب ، هلم إلىّ ، أنا ابن عمك محمد] بن مروان، وقد أمَّنَكَ أمير المؤمنين على نفسك ومالك ، وكل ما أحدثت ، وأن تنزل أى البلاد شئت ، ولو أراد بك غير ذلك لأنزله بك ، فأنشدك الله فى نفسك .

وأقبل رجل من أهل الشام إلى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه ، فعطف عليه مصعب والرجل غافل ، فناداه أهل الشام : ويلك يافلان الأسد قد أقبل نحوك ، ولحقه مصعب فقدّه ، وعُرْقِبَ فرسُ مصعب ، و بقى راجلا ، فأقبل عليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فاختلفا ضربتين ، سبق مصعب بالضربة إلى رأسه وكان مصعب قد أثخن بالجراح ، وضربه عبيد الله فقتله ، واحتز رأسه ، وأتى به عبد الملك ، فسجد عبد الملك ، وقبض عبيد الله بن زياد على قائم سيفه فاجتذبه من غمده حتى أتى على أكثره سَلاًّ ليضرب عبد الملك فى حال سجوده ، ثم ندم واسترجع ، فكان يقول بعد ذلك : ذهب الفَتْكُ من الناس ، إذ هممت ولم أفعل فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعباً ملكى العرب فى ساعة واحدة ، وتمثل عبيد الله عند مجيئه برأس مصعب :

نعاطى الملوك الحق ّ ما قَسَطُوا لنا   وليس علينا قتلهم بمحرم

وقال عبد الملك : متى تلد قريش[1] مثل مصعب ؟ وكان قتل مصعب يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ، وأمر عبد الملك بمصعب وابنه عيسى فدفنا بدَيْرِ الجاثليق ، ودعا عبد الملك أهل العراق إلى بيعتا فبايعوه .

---

(١) فى ب « متى تغذو قريش مثل مصعب » .

Marfat.com

وقد كان مسلم بن عمرو الباهلى من صنائع معاوية وابنه يزيد ، وكان فى ذلك اليوم فى جيش مصعب ، فأتى به عبد الملك وقد أخذ له منه الأمان ، فقيل له : أنت ميت لا ترجو الحياة لما بك من الجراح ، فما تصنع بالأمان؟ قال : ليسلم مالى ويأمن ولدى بعدى ، فلما وضع بين يدى عبد الملك قال : قَطَعَ الله يَدَ ضاربك كيف لم يجهز عليك ؟ أ كفرْتَ صنائع آل حرب معك[1] ؟ فأمنه على ماله وولده ومات من ساعته .

وفى مصرع مصعب بدير الجاثليق من أرض العراق ، يقول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّاتِ :

لقد أوْرَث المصرين عاراً وذلة — فتيـــلٌ بدير الجاثليق مقيمُ
فما نصحت لله بكر بن وائل ، — ولا صبرت عند اللقاء تميم
[ولـكنه ضاع الذمار ، ولم يكن — بها مُضَرِيٌّ يوم ذاك كريم][2]
جزى الله بصرياً بذاك ملامة — وكوفيهم ، إن المليم مُليمُ

وفى ذلك يقول شاعر أهل الشام من أبيات :

لعمرى لقد أضْجَرَتْ خيلُنَا — بأكناف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنـــا — ة مُعْتَدِلَ النصل والثعلب
إذا ما منافق أهـــل العرا — ق عوتب يوماً فلم يُعْتِبِ
دَلَفْنَا إليـــه لدى موقف — قليــــل التفقُّدِ للغُيَّبِ

وقد كان مصعب ذا حسن ، وجمال ، وهيئة[3] ، وكمال فى الصورة ، وفيه يقول ابن [قيس] الرقيات من كلمة :

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلَّتْ عن وجهه الظلماء

وقد أتينا على أخبار مصعب ، وسُكَيْنة بنت الحسين زوجه ، وعائشة بنت طلحة وليلى من نسائه وغير ذلك من أخباره فى الـكتاب الأوسط .

أربع رؤوس فى مكان واحد

وحدث المنقرى ، قال : حدثنى سويد بن سعيد[4] ، قال : حدثنا مروان

---

(١) فى ا « صنائع آل حرب عندك » . (٢) هذا البيت لايوجد فى ب .
(٣) فى ا « وهيبة » . (٤) فى ا « حدث المنقرى حدثنا سعيد » .

Marfat.com

ابن معاوية الفزارى ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبى مسلم النخعى ، قال : رأيت رأس الحسين جىء به ، فوضع فى دار الإمارة بالكوفة بين يدى عُبَيْد الله بن زياد ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جىء به ، فوضع فى ذلك الموضع بين يدى المختار ، ثم رأيت رأس المختار قد جىء به فوضع بين يدى](١) مصعب بن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جىء به ، فوضع فى ذلك الموضع بين يدى عبد الملك .

وقد قيل فى وجه آخر من الروايات ، قال الراوى : فرأى عبد الملك منى اضطرابا ، فسألنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، دخلتُ هذه الدار فرأيتُ رأس الحسين بين يدى ابن زياد فى هذا الموضع ، ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار فيه ؛ ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدىْ مصعب ابن الزبير ، وهذا رأس مصعب بين يديك ، فوقاك الله يا أمير المؤمنين ! قال : فوثب عبد الملك بن مروان ، وأمر بهَدْمِ الطاق الذى على المجلس ، ذكر هذا الحديث عن الوليد بن خباب(٢) وغيره .

الناس يبايعون عبد الملك

وسار عبدالملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة ، فخرج إليه أهل الكوفة فبايعوه ، ووفى للناس بما كان وعدهم به فى مكاتبته إياهم سراً ، وخلع ، وأجاز ، وأقْطَعَ ، ورتب الناس على [قدر] مراتبهم ، وعمهم ترغيبه ، وترهيبه ، وولّى على البصرة خالد بن عبد الله بن [خالد بن أسد] وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه ، وخلف معه جماعة من أهل الرأى والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زِنْبَاع الجُذَامى ، وبعث بالحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير بمكة ، وسار فى بقية أهل الشام إلى دار ملكه دمشق .

روح بن زنباع وبشر بن مروان

وكان بشر بن مروان أديباً ظريفاً ، يحب الشعر والسَّمَرَ والسماع والمعاقرة ، وقد كان أخوه عبد الملك قال له : إن روحا عمك الذى لا ينبغى أن تقطع أمراً

(١) زيادة عن ا ، وهى مطابقة لما وقع من الحوادث وللرواية بعدها .
(٢) فى ا «عن الوليد بن حباب» بالحاء المهملة .

Marfat.com

دونه ، لصدقه وعفافه ومناصحته [ومحبته] لنا أهل البيت ، فاحتشم بشر منه ، وقال لندمائه : أخاف إن انبسطنا أن يكتب روح إلى أمير المؤمنين بذلك ، وإنى لأحِبُّ من الأنس والاجتماع ما يحبه مثلى ، فقال له بعض ندمائه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته : أنا أكفيك أمره حتى ينصرف عنك إلى أمير المؤمنين غير شاكٍ ولا لائم ، فسُرَّ بشر ، ووعده الجائزة وحسن المكافأة إن هو تأتّى له ما وعد به ، وكان روح شديد الغيرة ، وكانت له جارية إذا خرج من منزله إلى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يقفله ، فأخذ الفتى دواةً وأتى منزل روح عشياً [مختفياً] وخرج روح للصلاة ، فتوصل الفتى إلى دخول الدهليز فى حال خروج روح، وكَمَنَ تحت الدرجة ، ولم يزل يحتال ليلته حتى توصل إلى بيت روح ، فكتب على حائط فى أقرب المواضع من مرقد روح :

يا روح مَنْ لبُنَيَّات وأرملة إذا نعاك لأهل المغرب الناعى
إن ابن مَرْوَانَ قد حانت مَنِيَّته فاحتل لنفسك يا روح بْنَ زنباع
ولا يغرنك أبكار منعمة واسمع هديت مقال الناصح الداعى (1)

ورجع إلى مكانه بالدهليز ، فبات فيه ، فلما أصبح روح خرج إلى الصلاة فتبعه غلمانه ، والفتى متنكر فى جملتهم مختلط بهم ، فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها ، فراعه ذلك وأنكره ، وقال : ما هذا ؟ فوالله مايدخل حجرتى إنسى سواى ، ولا حظ لى فى المقام [بالعراق] ثم نهض إلى بشر، فقال [له] : يا ابن أخى ، أوْصِنِى بما أحببت من حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين، قال: أو تريد الشخوص ياعم ؟ قال: نعم ، قال: ولم؟ هل أنكرت شيئاً أو رأيت قبيحاً لا يسعك المقام عليه ؟ قال : لا والله ، بل جزاك الله عن نفسك وعن سلطانك خيراً ، ولكنْ أمر حَدَثَ ، ولا بدَّ لى من الانصراف إلى أمير المؤمنين فأقسم عليه أن يخبره ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت إلى أيام ،

(1) فى ا « مقال الناصح الراعى » .

Marfat.com

قال : ومن أين علمت بذلك ؟ فأخبره بخبر الكتابة ، وقال : ليس يدخل حجرتي غيري وغير جاريتي فلانة ، وما كتب ذلك إلا الجن أو الملائكة ، فقال له بشر : أقم فإني أرجو أن لا يكون لهذا حقيقة ، فلم يَثْنِه شيء ، وسار إلى الشام ، فأقبل بشر على الشراب والطرب ، فلما أتى روح عبد الملك أنكر أمره ، وقال : ما إقدامك إلا لحادثة حدثت [على بشر] ، أو لأمر كرهته ، فأثنى على بشر ، وحمد سيرته ، وقال : لا بل لأمر لا يمكنني ذكره حتى تخلو ، فقال عبد الملك لجلسائه : انصرفوا[1] ، وخَلاَ بروح ، فأخبره بقصته وأنشده الأبيات ، فضحك عبد الملك حتى استغرق[2] ،وقال: ثقلت على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت ، فلا تُرَعْ .

عبد الله ابن الزبير ينعى أخاه مصعبا

ولما اتصل قتل مصعب بأخيه عبد الله أضرب عن ذكره حتى تحدث بذلك العبيد والإماء في سكك المدينة ومكة ، فصعد المنبر وجبينه يَرْشَح [عرقاً] ، فقال : الحمد لله ملك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، ألا إنه لن يذل [الله] من كان الحق معه ، ولن يعز من كان أولياء الشيطان حزبه ، إنه أتانا خبر من العراق أحزننا وأفرحنا ، [وهو] قتل مصعب ، فأما الذي أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوي من بعد ذلك إلى كريم الصبر وجميل العزاء ، وأما الذي أفرحنا فإن القتل له شهادة ، ويجعل [الله] لنا وله في ذلك الخيرة ، أما والله إنا لانموت حتفاً[3] كميتة آل أبي العاص وإنما نموت قَعْصاً بالرماح ، وقتلا تحت ظلال السيوف ، ألا وإن الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يتبدل، فإن تُقْبِل الدنيا عليَّ لا آخذها أخذ الأشِرِ البطِرِ، وإن تُدْبِرْ عني لا أبكي عليها بكاء الحزين المهين.

الحجاج في مكة

فأتى الحجاج الطائف ، فأقام بها شهوراً ، ثم زحف إلى مكة ، فحاصر

(١) في ا « فقال عبد الملك لجلسائه : إذا شئتم » .

(٢) في ب « حتى استغرب » . (٣) في ا « لا نموت حبجا » .

ابن الزبير بها ، وكتب إلى عبدالملك : إنى قد ظفرت بأبى قُبَيس،فلما ورد كتابه على عبدالملك بحصار ابن الزبير [بمكة] والظفر بأبى قُبَيس كَبَّر عبد الملك فكبر من [معه] فى داره ، واتصل التكبير بمن فى جامع دمشق فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق [فكبروا] ثم سألوا عن الخبر ، فقيل لهم : إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبى قُبَيس، فقالوا : لانرضى حتى يحمله إلينا مكبلا على رأسه برنس على جمل يمر بنا فى الأسواق الترابى الملعون ، وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وفيها قتل مصعب [وماذكرنا من قول أهل دمشق فى ابن الزبير فذكره عمر ابن شبة النميرى عن ابن عاصم] ومنع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت ، ووقف الْحَجَّاجُ بالناس [بعرفة] محرماً فى درع ومغفر، وهو من أبناء إحدى وثلاثين سنة ، ونَحَرَ ابن الزبير بمكة ، ولم يخرج إلى عرفة بسبب الحجاج ، فكانت مدة حصار الحجاج لابن الزبير بمكة خمسين ليلة .

ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد بلغت من السِّنِّ مائة سنة لم تَقَعْ لها سن ، ولا ابيضَّ لها شعر، ولم ينكر لها عقل ، على حسب ماقدمنا من خبرها فى هذا الكتاب،فقال : ياأمه ، كيف تجدينك ؟ قالت: إنى لشاكية يابنى[1] ، فقال لها : إن فى الموت راحة،قالت:لعلك تمنَّاه لى، وماأحب أن أموت حتى يأتى على أحد طرفيك : إما قُتِلْتَ فأحتسبك ،وإما ظفِرْتَ فقرَّتْ عينى بك ،وأوصى عبدالله بمايحتاج من أمره وأمر نسائه إذاسمعن الواعية عليه أن يضممن أمه أسماء إليهن،وكان عروة بن الزبير على رأى[2] عمه عبدالملك بن مروان ، وكانت كتُبُ عبد الملك بن مروان إلى الحجاج [متصلة] يأمره بتعاهد عروة وأن لايسوءه فى نفسه وماله ، فخرج عروة إلى الحجاج ، ورجع إلى أخيه فقال له : هذا خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبدالملك على ماأحْدَثْتَ أنت ومن معك ، وأن تنزل أى

(١) فى ا « إنى لشاكرة يابنى » وما أثبتناه موافقاً لما فى ب أحسن .

(٢) فى ا « وكان عروة بن الزبير على همة عبد الملك » .

Marfat.com

البلاد شئت ، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وغير ذلك من الكلام ، فأبى عبد الله قبول ذلك ، وقالت له أمه أسماء : أىْ بنىَّ ، لا تقبل خُطّةً تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريماً ، وإياك أن تؤسر ، أو تعطى بيديك ، فقال : يا أمه ، إنى أخاف أن يمثل بى بعد القتل ، فقالت : يا بنى ، وهل تتألم الشاة من [ألم] السَّلخ بعد الذبح؟ ودخلوا على ابن الزبير فى المسجد وقت الصلاة ، وقد التجأ إلى البيت وهم ينادون : يا ابن ذات النِّطاَقَيْنِ ، فقال ابن الزبير متمثلا :

وعَيَّرَهَا الواشون أنى أحبها وتلك شَكَاةٌ ظاهر عنك عارها

ونظر إلى طائفة منهم قد أقبلوا نحوه بالسيوف ، فقال لأصحابه : من هؤلاء؟ قالوا : أهل مصر ، قال : قتلة عثمان أمير المؤمنين وربِّ الكعبة ، فحمل عليهم ، فضرب رجلا منهم [به أدمة] فقدَّه ، وقال : صبراً يا ابن حام ، وتكاثر عليه الرجال من أهل الشام ومصر ، فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد ، ورجع إلى البيت وهو يقول :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا أبتغى من رَهْبَة الموت سلما

فاستلم الحجر ، ثم تكاثروا عليه ، فحمل عليهم ، وهو يقول :

قد سَنَّ أصحابك ضرب الأعناق وقامَتِ الحرب بنا على ساق

فأتاه حجر فصك جبينه فأدماه وأوْضَحَه ، فقال :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تَقْطُر الدما

فكشفهم عن المسجد ، ورجع على من بقى من أصحابه عند البيت ، فقال لهم : ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل [رجل] منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة ، ولا يسأل رجل منكم : أين عبد الله ، من يسأل عنى فإننى[1] فى الرعيل الأول ، ثم أنشأ يقول :

يارب إن جنود الشام قد كثروا وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يارب إنى ضعيف الركن مُضْطَهَدٌ فابعث إلىَّ جنوداً منك أنصارا

(١) فى ا « من يسأل عنى يلقنى فى الرعيل الأول » .

وتكاثر أهل الشام عليه ألوفاً من كل باب ، فحمل عليهم ، فشدِخَ بالحجارة ، فانصرع ، وأكب عليه موليَانِ له ، وأحدهما يقول :

* العبد يحمى ربه ويحتمى *

حتى قتلوا جميعاً ، وتفرق من كان معه من أصحابه ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، وكان مقتله يوم الثلاثاء ، لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين (١) .

وكلمت أسماء أمه الحجاج فى دفنه ، فأبى عليها ، فقالت للحجاج : أشهد إنى لسمعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومُبير » فأما الكذاب فهو المختار ، وأما المبير فما أظنك إلا هو .

وسنذكر لمعا من أخبار الحجاج فيما يرد من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على مبسوطها فيما تقدم من كتبنا .

ولاية الحجاج الحجاز

وأقام الحجاج واليا على مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين ، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة .

جابر بن عبد الله

ومات جابر بن عبد الله الأنصارى فى أيام عبد الملك بالمدينة ، وذلك فى سنة ثمان وسبعين ، وقد ذهب بصره ، وهو ابن نيف وتسعين سنة .

وقد كان قدم إلى معاوية بدمشق ، فلم يأذن له أياما ، فلما أذن له قال : يامعاوية ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حجب ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم [القيامة ، يوم] فاقته وحاجته » فغضب معاوية ، وقال له : لقد سمعته يقول : « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تَرِدُوا على الحوض » أفلا صبرت ؟ قال : ذكرتنى مانسيت ، وخرج فاستوى على راحلته ومضى ، فوجه إليه معاوية بستمائة دينار ، فردها وكتب إليه :

وإنى لأختار القنوع على الغنى ... إذا اجتمعا والماء بالبارد المحض
وأقضى على نفسى إذا الأمر نابنى ... وفى الناس من يُقْضَى عليه ولا يَقْضِى
وألبس أثواب الحياء ، وقد أرى ... مكان الغنى أن لا أهين به عرضى

(١) انظر هذا مع ما تقدم له فى ص ١٢٠ .

Marfat.com

وقال لرسوله : قل له والله يا ابن آكلة الأكباد لا وجد[تَ] فى صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً .

محمد بن الحنفية

ومات محمد بن [على بن أبى طالب ، ابن] الحنفية فى سنة إحدى وثمانين فى أيامه بالمدينة ، ودفن بالبقيع ، وصلى عليه أبانُ بن عثمان [بن عفان] بإذن ابنه أبى هاشم ، وكان محمد يكنى بأبى القاسم ، وقبض وهو ابن خمس وستين [سنة] وقيل : إنه خرج إلى الطائف هارباً من ابن الزبير فمات بها ، وقيل : إنه مات ببلاد أيلة ، وقد تنوزع فى موضع قبره ، وقد قدمنا قول الكَيْسَانية ومن قال منهم إنه بجبل رَضْوَى ، وكان له من الولد: الحسن ، وأبو هاشم ، [وعبد الله ، وجعفر الأكبر ، وحمزة ، وعلى لأم ولد ، وجعفر الأصغر] وعَوْن ، أمهما أم جعفر] والقاسم ، وإبراهيم .

حدثنا نصر بن على ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، عن يونس بن أبى إسحاق ، قال : حدثنا سهل بن عبيد بن عمرو الحابورى[1] قال : كتب ابن الحنفية إلى عبد الملك : إن الحجاج قد قدم بلدنا [وقد خِفْتُه] فأحبُّ أن لا تجعل له على سلطاناً بيدٍ ولا لسانٍ ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج : إن محمد بن على كتب إلى يستعفينى منك ، وقد أخرجْتُ يدك عنه ، فلم أجعل لك عليه سلطاناً بيدٍ ولا لسانٍ ، فلا تتعرض له ، فلقيه فى الطواف فعض على شفته ، ثم قال : لم يأذن لى فيك أمير المؤمنين ، فقال له محمد : ويحك أوَ ما علمت أن لله تبارك وتعالى فى كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لحظة ، أو قال نظرة ، لعله أن ينظر إلىَّ منها بنظرة ، أو قال [يلحظنى] بلحظة ، فيرحمنى فلا يجعل لك علىَّ سلطاناً بيد ولا لسان ، قال : فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك ، فكتب بها عبد الملك إلى ملك الروم وكان قد توعَّدَه ، فكتب إليه ملك الروم : ليست هذه من سجيتك ولا من سجية آبائك ، ما قالها إلا نبى ، أو رجل من أهل بيت نبى .

(١) فى ب « سهيل بن عبيد بن عمر الحابورى » .

Marfat.com

ملك الروم والشعبي

وذكر الشعبى قال : أنفذنى عبد الملك إلى ملك الروم ، فلما وصلت إليه جعل لا يسألنى عن شىء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل [الإقامة] عنده ، فحبسنى أياما كثيرة ، حتى استحببت خروجى[1] ، فلما أردت الانصراف قال لى : من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكنى رجل من العرب فى الجملة ، فهمس بشىء ، فدفعت إلى رُقْعة ، وقيل لى : إذا أديت الرسائل [عند وصولك] إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة ، قال : فأديت الرسائل عند وصولى إلى عبد الملك ، ونسيت الرقعة فلما صرت فى بعض الدار [إذ بدأت بالخروج] تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه ، فلما قرأها قال لى : أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، قال لى من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكنى رجل من العرب فى الجملة ، ثم خرجت من عنده ، فلما بلغت الباب رُدِدْتُ ، فلما مثلت بين يديه قال لى : أتدرى ما فى الرقعة ؟ قلت : لا ، قال : اقرأها ، فلما قرأتها فإذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف مَلّكوا غيره ، فقلت له : والله لو علمت [ما فيها] ما حملتها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال : أفتدرى لم كتبها ؟ قلت : لا ، قال : حسدنى عليك وأراد أن يغرينى بقتلك ، قال : فتأدى ذلك إلى ملك الروم ، فقال : ما أردت إلا ما قال .

وصف معاوية عبد الملك

وذكر عند معاوية عبد الملك فقال : هو آخذ بثلاث ، وتارك لثلاث : آخذ بقلوب الناس إذا حَدَّث ، ويحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر الأمرين إذا خولف ، تارك للمُمَارَاه ، تارك للغيبة ، وتارك لما يعتذر منه .

وقال لعبد الملك بعض جلسائه يوماً : أريد الخلوة بك ، فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تُطْرِ نفسى عندك فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندى أحداً فلست أسمع منك ، ولا تكذبنى فلا رأى لمكذب ، قال : أتأذن [لى] فى الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

(١) فى ا « حتى استحثثت خروجى » :

Marfat.com

عبد الملك وعامل له قبل هدية

وذكر الهيثم وغيره من الأخباريين أن عبدالملك بلغه عن عامل من عماله أنه قبل الهدايا ، فأشخصه إليه ، فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليتَ ؟ قال له : يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن كنت أنلت مُهْدِيها من غير مالك أو استكفيته مالم يكن مثله مستكفاه إنك لخائن جائر ، وما أتيت أمراً لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، وأمر بصرفه من عمله .

عبد الملك وعمرو بن بلال يصلح بينه وبين زوجته

وحدث المنقرى [عن الضبي] قال : قال الوليد بن إسحاق : قال ابن عباس : كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية — وأمها أم كلثوم بنت عبدالله ابن عامر — تحت عبد الملك بن مروان ، فغضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شيء ، فأَبَتْ [عليه] وكانت أَحَبَّ الناس إليه ، فشكا ذلك إلى خاصته ، فقال له عمرو بن بلال رجل من بنى أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامى: مالى عليك إن أرضيتها ؟ قال : حكمك ، فخرج وجلس ببابها يبكى فقالت[له] خاصتها : مالك [تبكى] أبا حفص ؟ قال : فزعت إلى ابنة عمى ، فاستأذنوا لى عليها ، فأذنت له وبينهما ستر ، فقال : قد عرفتِ حالى مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ، ولم يكن لى غير ابنين فعَدَا أحدهما على الآخر فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل المعتدى ، قلت [له] : أنا وليُّ الدم وقد عفوت ، فأبى عَلَىَّ وقال: ما أحب أن أعوِّد رعيتى هذا ، وهو قاتله بالغداة ، فأنشدك الله إلا ما طلبته منه ، فقالت : لا أكلمه ، قال : ما أظنك تكسبين شيئاً هو أفضل من إحياء نفس ، ولم يزل [بها] خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت : على بثيابى ، فلبست ، وكان بينها وبين عبدالملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم دخلت فأقبل الخصِىُّ يشتد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة ، قال : ويلك ! ! ورأيتها ؟ قال : نعم ، إذ طلعت وعبد الملك على سريره ، فسلمت ، فسكت ، فقالت : أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك ، آلله أنْ عَدَا أحد ابنيه على الآخر فقتله وهو

Marfat.com

ولى الدم وقد عفا [عنه] أعزمت لتقتلنَّه[١] ! قال : إى والله وهو راغم ، فأخذت بيده فأعرض عنها ، فأخذت برجله فقبلتها[٢]، فقال: هولك، وتراضيا [بعد أن نكحها ثلاثاً] وراح عبد الملك فجلس مجلسه للخاصة ، فدخل عمرو ابن بلال ، فقال له : يا أبا حفص ، ألطفت الحيلة فى القيادة ، ولك الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق ، قال : هى لك ، قال : وفرائض لولدى وأهل بيتى ، قال : وذلك كله ، وبلغ عاتكة الخبر ، فقالت : ويلى على القوَّاد ، إنما خدعنى .

الحجاج يصف الفتنة

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن صِفْ لى الفتنةَ ، فكتب إليه : إن الفتنة تشب بالنجوى ، وتحصد بالشكوى ، وتنتج بالخطب ، فكتب إليه : إنك قد أصبت وأحسنت الصفة ، فإن أردت أن يستقيم لك مَنْ قبلك فخذهم بالجماعة ، وأعطهم عطاء الفرقة ، وألصق بهم الحاجة .

وحدثنا المنقرى ، قال : حدثنا أبو الوليد الصباح بن الوليد[٣] قال: حدثنا أبو رياش ضَبَّة بن نفاقة[٤]، عن مقلس بن سابق[٥] الدمشقى ثم السكسكى ، أن عبد الملك لما بلغه خلع ابن الأشعث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إن أهل العراق استعجلوا قدرى قبل انقضاء أجلى ، اللهم لا تسلطنا على مَنْ هو خير منا ، ولا تسلط علينا مَنْ نحن خير منه ، اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغ رضاك ، فإذا بلغه فلا تجاوز به سخطك .

كتاب من عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه

وكتب عبد الملك إلى الحجاج : أنت [عندى] سالم ، فلم يعرف ما أراد بذلك ؛ فكتب إلى قتيبة بن مسلم يسأله عن ذلك ، وبعث الكتاب مع رسول فلما ورد على قتيبة وناوله الكتاب ضرط الرسول ؛ فخجل واستحيا ؛ فقرأه قتيبة وأراد أن يقول له اقعد فقال : اضرط ، قال : قد فعلت ، فاستحيا قتيبة وقال:

---

(١) فى ا « أعزمت لقتله » (٢) فى ا « برجليه فقبلتهما »
(٣) فى ا « الصباح بن مروان » (٤) فى ب « عتبة بن نعامة » .
(٥) فى ا « معكس بن سابق » وأظنه محرفا عن « مغلس بن سابق »

Marfat.com

ما أردت إلا أن أقول لك اقعد فغلطت ، فقال : قد غلطت أنا وغلطت أنت ، قال قتيبة : ولا سواء ، أغلط أنا من فمى وتغلط أنت من استك ، أعْلِم الأمير أن سالماً كان عبداً لرجل ، وكان عنده أثيراً ، وكان يُسْعَى به إليه كثيراً ، فقال :

يُدِيرُوننى عن سالم وأديرهم وجلدة بين العَيْنِ والأنف سالم

فأراد عبد الملك أنك عندى بمنزلة سالم ، فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهداً على خراسان .

وقد روى نحو هذا الخبر عن رجل كان فى مجلس خالد بن عبد الله القَسْرِى فضرط ، فلما حضر الغداء قام ذلك الرجل ، فقال له خالد : اقعد ، فأبَى ، فقال له : أقسمت عليك لتضرطن ، قال : قد ضرطت ، فخجل خالد ، واعتذر إليه ، وأمر له بمال .

وأهدى إلى عبد الملك أتْرِسَةٌ مكالة بالدر والياقوت ، فأعجبته ، وعنده جماعة من خاصته وأهل خلوته ، فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد : اغمز منها ترساً ، وأراد أن يمتحن صلابته ، فقام فغمزه فضرط ، فاستضحك عبدالملك ، فضحك جلساؤه ، فقال : كم دية الضرطة ؟ فقال بعضهم : أربعمائة درهم وقطيفة ، فأمَرَ له بذلك ، فأنشأ رجل من القوم :

أيَضْرُط خالد من غَمْزِ ترس ويحبوه الأمــير بها بدورا
فيالَكِ ضَرْطة جلبت غناء وَيالَكِ ضَرْطة أغْنَت فقيرا
يَوَدُّ الناس لو ضَرِطوا فنالوا من المـال الذى أُعْطى عشيرا
ولو نَعْلَم بأنَّ الضَّرْط يغنى ضَرَطنا أصلحَ اللهُ الأميرا

فقال عبد الملك : أعطوه أربعة آلاف درهم ، ولا حاجة لنا فى ضراطك .

وحدثنا أحمد بن سعيد الدمشقى والطُّوسى وغيرهما فى كتاب الأخبار المعروف بالموقعيات ، عن الزبير بن بكار ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن يزيد عن عُتْبَة بن أبى لهب ، قال : حج عبدالملك فى بعض أعوامه ، عبد الملك يحج

Marfat.com

فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بدرة مكتوب عليها «من الصدقة» فأبى أهل المدينة من قبولها وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفيء [(١)] ، فقال عبد الملك وهو على المنبر : يا معشر قريش ، مَثَلُنَا ومثلكم أن أخوين فى الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا فى ظل شجرة تحت صَفَاة ، فلما دنا الرواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لمن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام كلَّ يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ؟ فنهاه أخوه ، وقال [له] : ماتدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأساً معه ورَصَدَ الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلته ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه فدفنه ، [وأقام] حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء ، فقال لها : يا هذه ، إنى والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضرينى ولا أضرك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إنى لأعلم أن نَفْسَكَ لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسى لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشَّجَّة ، وأنشدهم شعر النابغة :

فقالت : أَرَى قَبْراً تراه مقابلى ... وَضَرْبَةَ فَأْسٍ فوق رأسى فاقره [(٢)]

فيا معشر قريش ، وليكم عمر بن الخطاب فكان فَظًّا غليظاً مُضَيِّقاً عليكم ، فسمعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلا [ليناً كريماً] فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلتموه ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبُّوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان .

وحدث المدائنى وابن دأب أن روح بن زنباع جليس عبد الملك رأى منه

(١) فى ا « وقالوا أنما كان أعطانا من الفيء » .
(٢) فى ا ، ب « فاغرة » وما أثبتناه موافق لما فى ديوان النابغة الذبيانى .

Marfat.com

إعراضاً وجَفْوة ، فقال للوليد بن عبد الملك : أما ترى ما أنا فيه من أمير المؤمنين بإعراضه عنى بوجهه حتى [لقد] فغرَتِ السباع بأفواهها نحوى وأهوت بمخالبها إلى وجهى ؟ فقال له الوليد : احْتَلْ له فى حديثٍ تضحكه به كما احتال مرزبان نديم سابور بن سابور ملك فارس ، قال روح : وما كان من خبره مع الملك ؟ قال الوليد : كان مرزبان هذا من سُمَّار سابور ، فظهرت له من سابور جَفْوة ، فلما علم ذلك تعلَّم نُبَاح الكلاب ، وعُوَاء[1] الذئاب ، ونهيق الحمير ، وزُقَاء الديوك ، وشَحِيجَ البغال ، وصَهِيلَ الخيل ، ومثل هذا ، ثم [احتال حتى] توصَّلَ إلى موضع يقرب من مجلس خلوة الملك وفراشه ، وأخفى أثره ، فلما خلا الملك نَبَحَ نُبَاحَ الكلاب ، فلم يشك الملك أنه كلب ، فقال الملك : [انظروا] ماهذا ؟ فعوى عُواء[1] الذئاب ، فنزل الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هارباً ، ومضى الغلمان يتبعون [الأثر و] الصوت ، فكلما دَنَوْا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتاً آخر من أصوات البهائم ، فأحْجَمُوا عنه ، ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه فأخرجوه ، فلما نظروا إليه قالوا للملك : هذا مرزبان المضحك ، فضحك الملك ضحكا شديداً ، وقال له : ويلك ! ! ماحَمَلكَ على هذا ؟ قال : إن الله مسخنى كلباً [وذئباً] وحماراً وكل خلق لما غضبت على ، فأمر الملك بالخلع عليه ، وردَّه إلى مرتبته التى كان فيها ، وتجدد للملك به سرور ، فقال روح للوليد : إذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسألنى عن عبد الله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مُزَاحًا ؟ قال الوليد : أفعل ، وكان عمر صاحب سلامة لايمزح ولايعرف شيئاً عن المُزَاح ، فتقدم الوليد وسبقه بالدخول ، فتبعه روح ، فلما اطمأنَّ بهما مجلس عبد الملك قال الوليد [لروح] ، يا أبا زرعة ، هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المُزَاح ؟ قال روح : حدثنى ابن أبى عتيق أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن [المخزومية] هَجَتْه فقالت :

(١) فى ب « عى الذئاب » والذى أثبتناه عن اهو الوجه فى العربية .

Marfat.com

ذَهَبَ الإلهُ بما تعيش به وقُمِرْتَ عَيْشَكَ أَيَّمَا قَمْرِ
أَنْفَقْتَ مَالَكَ غيرَ مُحْتَشِمٍ فى كل زانية وفى الخمر

وكان ابن أبى عتيق صاحب غزل وفكاهة ، فأخذ هذين البيتين فى رقعة وخرج [بهذا الشعر] فإذا هو بابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظر فى هذه الرقعة وأشِرْ على برأيك فيها ، فلما قرأها عبد الله استرجع ، فقال له : ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر ، قال : أرى أن تعفو وتصفح ، قال : والله يا أبا عبد الرحمن لئن لقيته[1] بناحية لأنيكَنَّهُ نيكا جيداً ، [فأخذت] ابن عمر أفكل ورعدة وارْبَدَّ لونه ، وقال : مالك غضب الله عليك ، قال : ما هو إلا ما قلت لك ، وافترقا ، فلما كان بعد أيام لقيه فأعرض عنه ابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى لقيت صاحب البيتين ونكته ، فصُعِقَ عبد الله [بن عمر] فلما رأى ما حَلَّ به دَنَا منه وقال له فى أُذنه : إنها امرأتى [فقام ابن عمر] فقبل مابين عينيه وضحك ، وقال : أحسنت فَزِدْها[2] ، فضحك عبد الملك حتى فحص برجله[3] ، وقال له : قاتلك الله يا روح ، ما أطْيَبَ حديثك ! ومَدَّ يده إليه ، فقام إليه روح فأكَبَّ عليه وقَبَّلَ أطرافه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أَلذنبٍ فأعتذر ، أم لملالة فأصطبر وأرجو عاقبتها ؟ قال : لا والله ما ذاك لشىء تكرهه ، ثم عاد إلى أحسن حالاته .

عبد الملك الهمذانى وسليمان ابن المنصور

وقد حكى مثل هذا عن عبد الملك بن مهلهل الهمذانى ، وكان سميراً لسليمان بن المنصور ، وكان سليمان قد جفاه ، فأتاه يوما فى قائم الظَّهيرة واحتدام الهجيرة فاستأذن ، فقال له الحاجب : ليس هذا بوقتِ إذنٍ على الأمير ، فقال [له] : أعلمه بمكانى ، فدخل فاستأذن له ، فقال له سليمان : مره يسلم قائما ويخفف ، فخرج

(١) فى ا « لئن لقيت صاحبه » .
(٢) فى ا « أحسنت فى ذلك » .
(٣) فى ا « حتى فحص برجليه » .

Marfat.com

الحاجب [فأَذِنَ له] وأمره بالتخفيف ، فدخل فسلّم قائماً ثم قال : أصلح الله الأمير ، إني انصرفْتُ بالأمس إلى نحو منزلي وقد أمسيت، فبينا أنا في طريقي إذ أذَّنَ مؤذن ، فَدَنَوْتُ ، ثم صعدت إلى مسجد مغلق فصعدت ثم صعدت ثم صعدت ، قال سليمان : فَبَلَغْتَ السماء فكان ماذا ؟ قال : فتقدم إنسان إما كُرْدِي أو طمطماني فَأَمَّ القوم بكلام ما أفهمه ولُغَة ما أعرفها ، فقال : وَيْل لكل زمة زما مالا وعده ، قال : يريد وَيْل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وَعَدَّده ، فإذا خلفه سكران ما يعقل [سكراً] ، فلما سمع قراءته ضرب بيديه ورجليه وجعل يقول : أيرعبكي درليلكا في حر أم قارئك [ومصليك] ، فضحك سليمان حتى تمرغ على فراشه ، وقال : ادْنُ مني يا أبا محمد ، فأنت أطيب أمة محمد ، ثم دعا بخلعة ، وقال : الزم الباب وَاغْدُ في كل يوم ، وعاد إلى أحسن حالاته عنده .

Marfat.com

ذكر طرف من أخبار الحجاج ، وخطبه[(١)]

وما كان منه فى بعض أفعاله

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء

كانت أم الحجاج عند الحارث بن كَلَدَة ، فدخل عليها فى السحر فوجدها تتخلل ، فبعث إليها بطلاقها ، فقالت : لم بعثت إلىَّ بطلاق ؟ ألشىء رابك منى ؟ قال : نعم ، دخلت عليك [عند] السحر وأنت تتخللين[(٢)] ، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شَرِهَة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة ، فقالت : كل ذلك لم يكن ، لكنى تخللت من شَظَايَا السِّوَاك ، فتزوجها بعده يوسف بن أبى عقيل الثقفى أبو الحجاج ، فولدت له الحجاج ابن يوسف مشوهاً لا دُبُرَ له ، فثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثَدْىَ أمه أو غيرها ، فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصوَّرَ لهم فى صورة الحارث بن كلدة ، فقال : ما خبركم ؟ فقالوا : ابن ولد ليوسف من الفارعة ، وكان اسمها ، وقد أبى أن يقبل ثدى أمه [أو غيرها] ، فقال : اذبحوا جَدْياً أسود وأوْلِغُوه دمه ، فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك ، فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأوْلِغُوه دمه ، ثم اذبحوا له أَسْوَدَ سالخاً فأولغوه دمه واطْلُوا به وجهه ، فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع ، قال : ففعلوا به ذلك ، فكان [بعد] لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه فى بَدْء أمره ، هذا ، وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لَذَّاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يُقْدم عليها غيره ، ولا سبق إليها سواه .

عبد الملك يولى المهلب قتال الخوارج

حدثنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن داود البصرى المنقرى ، قال : حدثنى ابن عائشة [وغيره] قال : سمعت أبى يقول : لَمَّا غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم عبد الملك جيشاً فهزموه [ثم بعث إليهم آخر فهزموه] فقال : مَنْ للبصرة

(١) فى ا « ذكر جمل من أخبار الحجاج – إلخ »

(٢) فى ا « فوجدتك تتخللين »

والخوارج ؟ فقيل له : ليس لهم إلا المهلب بن أبى صُفْرة ، فبعث إلى المهلب ، فقال : على أن لى خَرَاجَ ما أجْلَيْتُهم عنه ، قال : إذن تشركنى فى ملكى ، قال : فثلثاه ، قال : لا ، قال : فنصفه ، والله لا أنقص منه شيئاً ، على أن تمدنى بالرجال ؛ فإذا أخللت فلاحَقَّ لك علىّ ، فجعلوا يقولون : وَلّى عبد الملك على العراق رجلا ضعيفاً ، وجعل يقول : بعثت المهلب حتى يحارب الخوارج فركب دجلة ، ثم كتب المهلب إلى عبد الملك : إنه ليس عندى رجال أقاتل بهم ، فإما بعثت إلى بالرجال وإما خليْتُ بينهم وبين البصرة ، فخرج عبد الملك إلى أصحابه فقال : ويلكم ! من للعراق ؟ فسكت الناس وقام الحجاج وقال: أنا لها، قال : اجلس ، ثم قال: ويلكم !! من للعراق؟فصمتوا ، وقام الحجاج وقال : أنا لها ، قال : اجلس ، ثم قال : ويلكم !! من للعراق ؟ فصمتوا ، وقام الحجاج الثالثة فقال : والله أنا لها يا أمير المؤمنين ، قال : أنت زنبورها فكتب إليه عهده ، فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقبلوا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قَتَب ، فجلس عليه بغير حَشِيَّة[1] ولا وطاء ، وأخذ الكتاب بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمَّمَ بعمامته[2] حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل ينادى : الصلاةَ جامعةً ، وما منهم رجل جالس فى مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر [من] ذلك من أهله ومواليه [وصعد المنبر متلثما متنكباً قَوْسَه ، فجلس واضعاً إبهامه على فيه] فقال بعضهم لبعض : قوموا حتى نحصبه [فدخل محمد بن عمير الدارمى فى مواليه، فلما رأى الحجاج جالساً على المنبر لا يجيب ولا ينطق قال : لعن الله بنى أمية حين يولونَ العراق مثل هذا ، لقد ضيع الله العراق حيث يكون مثل هذا عليها ، ثم ضرب بيده إلى حصباء المسجد ليحصبه ، وقال : والله لو وجدوا أذَمّ من هذا ابعثوه إلينا ، فلما هَمَّ أن يحصبه] قال له بعض أهل بيته : أصلحك الله ! كُفَّ عن الرجل حتى نسمع ما يقول ، فمن قائل يقول : حَصِرَ الرجل فما يقدر على الكلام ، ومن قائل يقول : أعرابى ما أبصر حجته ، فلما غَصَّ المسجد بأهله

عبد الملك يولى الحجاج العراق

(١) فى ب « بغير خشبة ولا وطاء » (٢) فى ا « وتعمم بعمامة »

Marfat.com

حَسَرَ اللثام عن وجهه ثم قام ، ونَحَّى العمامة عن رأسه ، فوالله ما حمد الله ولا أثْنى عليه ، ولا صَلّى على نبيه ، وكان أول ما بدأهم به أنْ قال :

خطبه الحجاج مقدمه العراق

أنا ابن جَلاَ وطلاع الثنـــايا متى أضع العمامـــة تعرفونى

إنى والله لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطَافُهَا ، وإنى [أنا] صاحبها[١] ، كأنى أنظر إلى الدماء تَرَقْرَق بين العمائم واللحى :

هذا أوان الحرب فاشتدّى زِيَمْ قد لَفّها الليـــل بسَوّاقٍ حُطَم[٢]
ليس بِرَاعى إبلٍ ولا غنم ولا بجزّارٍ على ظهر وَضَمْ

وقال :

قد لَفّها الليـــل بعُصْلُبِىٍّ أرْوَعَ خَرّاجٍ من الدَّوِّىِّ
* مهاجر ليس بأعرابى *

وقال :

قد شَمّرَتْ عن ساقها فـكدوا [وجَدّتِ الحرب بكم فجدوا][٣]
والقوس فيهـــا وَتَرٌ عُرُدُّ مثل ذراع البكر أو أشد

إن أمير المؤمنين نَثَرَ كنانته ، فوجدنى أمَرّهَا طعماً ، وأحَدّها سناناً ، وأقواها قداحا ، فإن تستقيموا تستقم لـكم الأمور ، وإن تأخذوا لى بُنيّات[٤] الطريق تجدونى لـكل مرصد مرصداً ، والله لا أقيل لـكم عَثْرَةً ، ولا أقبل منكم عِذْرَة .

يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، والله ما أغمز كتَغْماز التين[٥] [ولا يُقَعقع لى بالشِّنَان] ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء، وفُتّشت عن تجربة

---

(١) فى ا « وإنى لصاحبها » وهو المحفوظ
(٢) فى ا « هذا أوان الشد فاشتدى زيم » وهو المحفوظ
(٣) فى ا « قد شمرت عن ساقها فجدوا » وسقط منها مابين المعقوفين بعده
(٤) فى ا ، ب « تأخذوا إلى ثنيات الطريق » (٥) فى ب « تغماز التنين »

Marfat.com

والله لألحوَنَّكُمْ لحوَ العود ، ولأعصبنكم عَصْب السَّلَمَة(١) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل(٢) ولأقرعنكم قرع المَرْوَةِ .

يا أهل العراق ، طالما سعيتم فى الضلالة ، وسلكتم سبيل الغواية(٣) ، وسننتم سنن السوء ، وتماديتم فى الجهالة ، يا عبيد العصا وأولاد الإماء ، أنا الحجاج بن يوسف ، إنى والله لا أعِدُ إلا وفيت ، ولا أخْلُقُ إلا فَرَيْتُ ، فإياكم وهذه الزَّرَافَات والجماعات ، وقال وقيل ، وما يكون وما هو كائن ، وما أنتم وذاك يا بنى اللكيعة ؟ لينظر الرجل فى أمر نفسه ، وليحذر أن يكون من فرائسى .

يا أهل العراق ، إنما مثلكم كما قال الله عز وجل : (كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف — الآية) فأسرعوا واستقيموا ، واعتدلوا ولا تميلوا ، وشايعوا وبايعوا واخضعوا ، واعلموا أنه ليس منى الإكثار والإهذار ، ولا منكم الفرار والنفار ، إنما هو انتضاء السيف ، ثم لا أغمده فى شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمير المؤمنين أوَدَكم ، ويذل له صَعْبكم .

إنى نظرت فوجدت الصدق مع البر ، ووجدت البر فى الجنة ، ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور فى النار .

ألا وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم إلى محاربة عدوكم مع المهلّب ، وقد أمرتكم بذلك ، وأجّلْتُ لكم ثلاثا ، وأعطيت الله عهداً يؤاخذنى به ويستوفيه منى أن لا أجد أحداً من بَعْثِ المهلب بعدها إلا ضربْتُ عنقه ، وانتهبت ماله ، يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين .

---

(١) فى ا « ولأعضدنكم عضد السلمة » .

(٢) فى ب « ضرب عراب الإبل » .

(٣) فى ا « طالما أوضعتم فى الضلالة ، وسلكتم مسلك الغواية » .

Marfat.com

فقال الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى مَنْ بالعراق من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإنى إليكم أحمد الله [الذى لا إله إلا هو]..

فقال الحجاج : اسكت يا غلام ، ثم قال مغضباً : ياأهل العراق [يا أهل] النفاق والشقاق ومساوىء الأخلاق ، يا أهل الفُرْقة والضلال ، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام؟ أما والله لئن بقيت لكم لألحوَنَّكم لحو العود(١) ولأؤدبنكم أدباً سوى هذا الأدب ، هذا أدب ابن سمية(٢) — وهو صاحب شرطة كان بالعراق — اقرأ يا غلام الكتاب ، فلما بلغ السلام قال أهل المسجد : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم نزل ، وأمر للناس بأعْطِيَاتهم ، والمهلب يومئذ بمهرجان [قدق] يقاتل الأزارقة .

فلما كان اليوم الثالث جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس ، فمر به عمير ابن ضابىء [التميمى] البرجُمِىُّ [ثم أحد بنى الحدادية] وكان من أشراف أهل الكوفة ، وكان من بَعْثِ المهلب ، فقال : أصلح الله الأمير ؛ إنى شيخ كبير زَمِنٌ عليل ضعيف ، ولى عدة أولاد ، فليختر أيهم شاء مكانى ، أشدهم ظهراً ، وأكرمهم فرسا ، وأتمهم أدَاةً ، قال الحجاج : لا بأس بشاب مكان شيخ ، فلما ولى قال له عنبسة بن سعيد ومالك بن أسماء : أصلح الله الأمير ! أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قالا : هو عمير بن ضابىء التميمى الذى وَثَبَ على أمير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعاً من أضلاعه ، فقال [الحجاج : علىَّ به ، فأتى به ، فقال له : أيها الشيخ ، أنت الواثب على أمير المؤمنين عثمان بعد قتله ، والكاسر ضلعاً من أضلاعه ؟ فقال له] : إنه كان حَبَس أبى شيخاً كبيراً ضعيفاً فلم يُطْلِقه حتى مات فى سجنه ، فقال الحجاج : أما أمير المؤمنين عثمان فتغزوه بنفسك ، وأما الأزارقة فتبعث

(١) فى ا « لأنجرنكم نجر العود » . (٢) فى ا « ابن نهية » .

Marfat.com

إليهم بالبُدَلاَء ، أو ليس أبوك الذى يقول :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكدت وليتنى فعلت وأوليت البكاء حلائله[(١)]

أما والله إن فى قتلك أيها الشيخ لصَلاَحَ المصرين ، ثم أقبل يصعِّد بصره إليه [ويصوِّبه] ويَعَضُّ على لحيته مرة ويسرحها أخرى ، ثم أقبل عليه فقال : يا عمير سمعت مقالتى على المنبر ؟ فقال : نعم ، قال : والله إنه لقبيحٌ بمثلى أن يكون كذاباً ، قم إليه يا غلام[(٢)] فاضرب عنقه ، ففعل ، فلما قتل ركب الناس كلَّ صَعْبٍ وذَلُول ، [وخرجوا] على وجوههم يريدون المهلب ، فازدحموا على الجسر حتى سقط بعضُ الناس فى الفرُات ، فأتاه صاحب الجسر فقال : أصلحَ الله الأمير ! قد سقط بعض الناس فى الفرات ، قال : ويحك !! ولم ذلك[(٣)] ؟ قال : أهل [هذا] البعث ازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم ، قال : انطلق فاعْقِدْ لهم جسرين .

وخرج عبد الله بن الزَّبير الأسدى مذعوراً ، حتى إذا كان عند اللجامين لقيه رجل من قومه يقال له إبراهيم ، فقال له : ما الخبر ؟ فقال ابن الزبير : الشر ، قتل عمير من بعث المهلب ، وأنشأ يقول :

أقول لإبراهيم لما لقيته أرى الأمرَ أمسى مهلكا متصعبا
تجهَّزْ ، فإما أن تزور ابن ضابىء عميراً ، وإما أن تزور المهلبا
هما خطّتا خَسْفٍ نجاؤك منهما ركوبُكَ حوليا من الثلج أشهبا[(٤)]
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هو أقربا
وإلا فما الحجاج مُغْمِدُ سيفِهِ مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

---

(١) المحفوظ فى رواية هذا البيت هكذا :

همت ، ولم أفعل ،وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

(٢) فى ا « قم إليه ياحرسى » .

(٣) فى ا « ويحك ! ومم ذلك ؟ » .

(٤) ب « ركوبك حيرانا من البلج أنهبا » تحريف .

Marfat.com

وخرج الناس هَرَبًا إلى السواد ، وأرسلوا إلى أهاليهم أن زَوِّدُونا ونحن بمكاننا ، وقال الحجاج اصاحب الجسر : افتح ولا تَحُلْ بين أحد وبين الخروج[١] ، ووجه العراض إلى المهلب ، فما أتت على المهلب عاشرة حتى ازدحموا عليه ، فقال : من هذا الذى استعمل على العراق ؟ هذا والله الذكر من الرجال ؟ فويل والله للعدو[٢] إن شاء الله تعالى .

خروج ابن الأشعث

وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على سجستان وبُسْتَ والرخج ، فحارب مَنْ هنالك من أمم الترك ، وهم أنواع من الترك يقال لهم الغوز والخلج[٣] ، وحارب مَنْ يلى تلك البلاد من ملوك الهند ، مثل[٤] رتبيل وغيره ــ وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم ، وذكرنا مملكة كل واحد منهم ، والصقع الذى هو به ، وذوى السِّمَاَت[٥] منهم ، وبينا أن كل ملك يلى هذا الصقع من بلاد الهند يقال له رتبيل ــ فخلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ، وصار إلى بلاد كرمان ، فثنى بخلع عبد الملك ، وانقاد إلى طاعته أهْلُ البصرة[٦] والجبال مما يلى الكوفة والبصرة وغيرهما ، وسار الحجاج إلى البصرة ، وسار ابن الأشعث إليه ، فكانت له حروب عظيمة ، وفى عبد الرحمن بن الأشعث يقول الشاعر :

خلع الملوك وسار تحت لوائه شجر العرى وعراعر الأقوام

وكتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الأشعث ، فكتب إليه عبد الملك : لعمرى لقد خلع طاعة الله بيمينه ، وسلطانه بشماله ، وخرج

---

(١) فى ا « بين أحد وبين الرجوع » . (٢) فى ا « قوتل والله العدو »
(٣) فى ب « يقال لهم الطغرغر والجلج » .
(٤) فى ب « مثل زنبيل » تحريف .
(٥) فى ب « السياسات » .
(٦) فى ب « أهل الرى والجبال مما بين الكوفة والبصرة وغيرها » .

Marfat.com

من الدين عرياناً ، وإنى لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم فى ذلك على يد[ى] أمير المؤمنين ، وما جوابه عندى فى خلع الطاعة إلا قول القائل :

أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالوانى ولا الضَّرِع الغمر (١)
أظن صروف الدهر والجهل منهم ستحملكم منى على مركب وَعْرِ (٢)
ألم تعلموا أنى تخاف عرَامتى وأن قَنَاتى لاتلين على الكسر (٣)

ودخل ابن الأشعث الكوفة ، وكتب الحجاج كتاباً إلى عبد الملك يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ، ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد ، وقال فى كتابه : واغوثاه يا ألله ، واغوثاه يا ألله ، واغوثاه يا ألله ، فأمَدَّه بالجيوش وكتب إليه : يا لبيك ، يا لبيك ، يا لبيك .

وقائع دير الجماجم وقتل ابن الأشعث

فالتقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، فكانت بينهم وقائع نيف وثمانون وقعة تَفَانَى فيها خلق ، وذلك فى سنة اثنتين وثمانين ، وكانت على ابن الأشعث ، فمضى حتى انتهى إلى ملوك الهند ، ولم يزل الحجاج يحتال فى قتله حتى قتل ، وأتى برأسه ، فعلا الحجاج منبر الكوفة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أهل العراق ، إن الشيطان استَبْطَنَكُمْ فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء ، وجرى منكم مجرى الدم ، وأفْضَى إلى الأضلاع والأمخاخ ، فحشا ما هناك شقاقا واختلافا ونفاقا ، ثم أربع فيه فعشش ، وباض فيه ففرخ ، واتخذتموه دليلا تتابعونه ، وقائداً تطاوعونه ، ومؤمراً تستأمرونه ، ألستم أصحابى بالأهواز حين سعيتم بالغدر بى فاستجمعتم علىَّ وحيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته ، وأقسم بالله إنى لأراكم بطرفى

(١) فى ب « فما أنا بالقالى ولا الضرع الغمر » .
(٢) فى ب « أظن صروف الدهر بينى وبينكم » .
(٣) فى ب «ألم تعلموا أنى تخاف عزائمى» ووقع فى ا « غرامتى »و« القسر »

Marfat.com

تتسللون لِوَاذاً منهزمين ، سراعا مفترقين ، كل امرىء منكم عَلَى عنقه السيف رعباً وجبناً ، ثم يوم الزاوية [ومايوم الزاوية؟] بها كان فَشَلُكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ، وتوليكم على أكتافكم السيوف هاربين [ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشَّوَارِدِ إلى أوطانها] لا يسأل الرجل عن بنيه ، ولا يلوى امرؤ عَلَى أخيه ، حتى عضتكم[1] السلاح ، وقصفتكم الرماح ، ويوم دير الجماجم ، بها كانت الملاحم ، والمعارك العظائم :

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فما الذى أرجوه منكم ياأهل العراق؟ أم ماالذى أتوقعه؟ولماذا أستبقيكم؟ ولأى شىء أدخركم ؟ أللفجرات بعد العداوات[2]؟ أم للنزوة بعد النزوات ؟ وما الذى أراقب بكم ؟ وما الذى أنتظر فيكم ، إن بُعِثتم إلى ثغوركم جبنتم، وإن أمنتم أو خفتم نافقتم ، لا تجزون بحسنة ، ولا تشكرون نعمة .

يا أهل العراق ، هل استنبحكم نابح ، أو استشلاكم غاوٍ ، أو استخفكم ناكث ، أو استنفركم عاص إلا تابعتموه وبايعتموه، وآويتموه وكفيتموه؟!

يا أهل العراق ، هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبى كاذب إلا كنتم أنصاره وأشياعه ؟ !

يا أهل العراق ، لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع ، هل يقع فى صدوركم ماأوقع الله بكم عندمصادر الأمور ومواردها.

يا أهل الشام ، أنا لكم كالظَّليم الرامح عن فراخه ، ينفى عنهن القذى ، ويكنفهن من المطر ، ويحفظهن من الذئاب ، ويحميهن من سائر الدواب ، لايخلص إليهن معه قذى ، ولا يُفضِى إليهن رَدَى ، ولا يمسهن أذى .

ياأهل الشام ، أنتم العدة والعدد ، والجُنَّة فى الحرب ، إن نحارب حاربتم، أو نجانب جانبتم[3] ، وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بنى جعدة :

(١) فى ا ب «حين عض لكم السلاح» .
(٢) فى ب «أللعجرات بعد العدوات» .
(٣) فى ب « إن حارب محارب أو جانب مجانب » .

Marfat.com

وإن تداعيهم حظهم ولم ترزقوه ولم نكذب
كقول اليهود قتلنا المسيح ولم يقتلوه ولم يُصْلَبِ

فى أبيات .

من عبد الملك إلى الحجاج

ولما أسرف الحجاج فى قتل أسارى دير الجماجم وإعطائه الأموال[١] بلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُكَ فى الدماء ، وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحَدٍ من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء فى الخطأ الدية وفى العمد القود ، وفى الأموال ردها إلى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة ، فلا يؤنسنك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً ، وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها وتطلب رضائى بالذى أنا طالبه[٢]
وتخشى الذى يخشاه مِثْلُكَ هاربا إلى الله منه ضَيَّعَ الدَّرَّ حالبه[٣]
فإن تَرَ منى غفـلة قُرَشية فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تَرَ منى وَثْبَةً أُمَوِيَّةً فهذا وهذا كلٌ ذا أنا صاحبه
فلا [لا] تلمنى والحوادث جمة فإنك مجزىٌّ بما أنت كاسبه
ولا تَعْدُما يأتيك منى، وإن تَعُدْ يَقُومُ بها يوماً عليك نوادبه
ولا تنقصن للناس حقاً علمته ولا تعطين ما ليس لله جانبه[٤]

(١) فى ب « وأعطى الأموال » .
(٢) فى ب « إذا أنت لم تطلب أمورا كرهتها » .
(٣) فى ب « وتخشى الذى يخشاه مثلى هاربا » .
(٤) فى ب « ولا تدفعن للناس حقا علمته » وليس بشيء .

Marfat.com

وهى أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك .

جواب الحجاج

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب : أما بعد ، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سَرَفِى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال ، ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية ما هُمْ أهْلُه ، وما قضيت حقَّ أهل الطاعة بما استحقوه ، فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفا و إعطائى أولئك المطيعين تبذيراً فليسوِّغْنِى أمير المؤمنين ما سلف ، وليحدَّ لى فيه حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ما على من عَقْل ولا قَوَد : ما أصبت القوم خطأً فأدِيَهُمْ [ولا ظلمتهم فأقاد بهم] ولا أعطيتهم إلا لك ، ولا قتلت إلا فيك ، وأما ما أنا منتظره من أمْرَيْكَ فألينهما عدة[1] وأعظمهما محنة ، فقد عبأت للعدة الجلاد[2] ، وللمحنة الصبر ، وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنا لم أتبَعْ رضاك وأتَّقِى ... أذاك فيومى لا تَزُولُ كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جُنة ... تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى قرابة ... ومَنْ لم تسالمه فإنى محاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة ... فقامت عليه فى الصباح نوادبه
إذا أنا لم أُدْنِ الشفيق لنصحه ... وأقصِ الذى تسرى إلىَّ عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى ... مُصَاولتى ، والدهر جَمٌّ نَوَائبه؟
فقف بى على حد الرضا لا أجوزه ... مَدَى الدهر حتى يرجع الدرَّ حالبه
وإلاَّ فَدَعْنِى والأمور فإننى ... شفيق رفيق أحكمتنى تجاربه

وهى أبيات من جيد ما اخترناه من شعر الحجاج .

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صَوْلتى ، ولن أعود لشىء يكرهه[3] .

(١) فى ا « فألينهما عزة » . (٢) فى ا « للعزة الحلاء » .
(٣) فى ا « ولن يعود لشىء أكرهه » .

الحجاج يلتمس محدثا مؤنسا

وحدث حماد الراوية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة ، فقال لحرسى : ائتنى بمحدثٍ من المسجد ، فاعترض رجلا جسيما عظيما ، فقال له : أجب الأمير ، فانطلق به حتى أدخله إليه ، فلم يسلم ولا نطق حتى قال له الحجاج : إيه ماعندك ؟ فلم يتكلم ، فقال للحرسى : أخرجه أخرج الله نفسك ، أمرتك أن تأتينى بمحدث فأتيتنى بمرعوب قد ذهب فؤاده ، فخرج الحجاج ومعه صرة دراهم إلى المسجد ، فجعل يناول الناس فيأخذونها ، حتى انتهى إلى شيخ ، فأعطاه فنَبَذَها ، فأعادها الحجاج فردَّها ، ففعل ذلك الحجاج ثلاثاً ، فدنا منه الحجاج وقال : أنا الحجاج [فأخذها] ، ودخل القصر ، وقال للحرسى : ألحقنى به ، فدخل فسلم بلسان ذلق وقلب شديد ، فقال له الحجاج: ممن الرجل ؟ فقال : من بنى شيبان ، قال : ما اسمك ؟ قال سميرة[1] بن الجعد ، قال : يا سميرة ، هل قرأت القرآن ؟ قال : جمعته فى صدرى فإن عملت به فقد حفظته وإن لم أعمل به ضيعته ، قال : فهل تفرض ؟ قال : إنى لأفرض الصُّلْب وأعرف الاختلاف فى الجد ، قال : فهل تبصر الفقه ؟ قال : إنى لأبصر ما أقوم به أهلى وأرشد ذا العمى من قومى ، قال : فهل تعرف النجوم ؟ قال : إنى لأعرف منازل القمر ، وما أهتدى به فى السفر ، قال : فهل تروى الشعر ؟ قال : إنى لأروى المثل والشاهد ، قال : المثل قد عرفناه فما الشاهد ؟ قال : اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر ، فإنى أروى ذلك الشاهد ، فاتخذه الحجاج سميراً ، فلم يك يطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه علماً ، وكان يرى رأى الخوارج [وكان] من أصحاب قَطَرِىِّ بن الفُجَاءة التميمى ، والفجاءة أُمة ، وكانت من بنى شيبان ، وإنما هو رجل من تميم ، وكان قَطَرِى يومئذ يحارب المهلب ، فبلغ قطريا مكان سميرة[1] من الحجاج ، فكتب إليه بأبيات منها :

---

(١) فى ب « سبرة بن الجعد » فى كل المواضع .

Marfat.com

لشتَّان ما بين ابن جعد وبيننا ... إذا نحن رُحْنا فى الحديد المظاهر
نجاهد فُرْسانَ المهلّب كلنا ... صَبُورٌ على وقع السيوف البَوَاتِرِ (١)
وراح بحر الخزَّ عنـــد أميره ... أميرٌ بتقوى ربه غـــيرُ آمرِ (٢)
أبا الجعد ، أين العلم والحلم والنهى ... وميراث آباء كرام العناصِرِ ؟
ألم تر أن الموت لاشك نازل ... ولا بد من بعث الألى فى المقابرِ؟
حفاةً عراةً والثواب لربهم ... فمن بين ذى ربح وآخر خاسر (٣)
فإن الذى قد نلتَ يَفْنَى ، وإنما ... حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فَرَاجِـعْ أبا جعد ولاتك مُغْضِياً ... على ظلمة أعشَتْ جميع النواظر
وتُبْ تَوْبةً تهدى إليك شهادة ... فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسِرْ نحونا تَلْقَ الجهاد غنيمة ... تُفِدْكَ ابتياعا رابحاً غير خاسر
هى الغاية القُصوى الرغيب ثوابها ... إذا نال فى الدنيا الغِنَى كلُّ تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ، ولحق بقَطَرِىٍّ ، وطلبهُ الحجاج فلم يقدر عليه ، ولم يشعر (٤) الحجاج إلا وكتاب قد بدر منه فيه شعر قطرى الذى كان كتب به إليه ، وفى أسفل الكتاب إلى الحجاج أبيات ، منها :

فمن مُبلغ الحجاج أن سميرة ... قَلاَ كلَّ دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه ... مَلاَعين تَرَّاكين قَصْدَ المخارج
فأَقْبَلْتُ نحو الله بالله واثقاً ... وما كُرْبَتِى غير الإله بفارج
إلى عصبة ؛ أما النهار فإنهم ... هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جَنَّ فإنهم ... قيام كأنواح النساء النواشج (٥)

---

(١) فى ا « نجالد فرسان المهلب » (٢) فى ا « وراح بجد الحق » محرفا
(٣) فى ب « والتراب لديهم » (٤) فى ب « ولم يرع الحجاج »
(٥) فى ب « قيام بأنواح النساء »

Marfat.com

يُنادون للتحكيم ، تالله إنهم رَأَوْا حكم عَمرٍو كالرياح الهوائج
وَحُكْم ابن قيس مثل ذاك فأعصموا بحبلٍ شديدِ المتن ليس بناهج

فطرح الحجاج هذا الكتاب إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : هذا من سميرنا الشيباني ، وهو من الخوارج ، ولا نعلم به .[1]

ولأبي الجعد سميرة[2] بن الجعد سمير الحجاج هذا أشعار كثيرة ، منها قوله من أبيات :

عجبت لحالات البــلاء وللدهر وللحَيْن يأتى المرء من حَيْث لا يدرى[3]
وللناس يأتون الضــلالة بعدما أتاهم من الرحمن نور من البدر[4]
ولله لا يخفى عليه صــنيعنا حفيظ علينا فى المُقَامِ وفى السَّفْر
عَلاَ فوق عَرْشٍ فوق سَبْع ، ودونه سماء يرى الأرواح من دونها تجرى

وقد قيل : إن هذا الشعر لغيره من الخوارج .

بعض ما اتفق عليه الخوارج وما اختلفوا فيه

ولأصناف [من] الخوارج أخبار حِسَان من الأزارقة والأباضية وغيرهما ، [و] قد أتينا على ذكرها فى كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط ، وذكرنا ما اتفقت عليه الخوارج واجتمعت عليه من الأصول : من إكفارهم عثمان وعليًّا ، والخروج على الإمام الجائر ، وتكفير مرتكب الكبائر ، والبراءة من الحكمين أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى وعمرو بن العاص السَّهْمِىِّ ، وحكمهما ، والبراءة ممن صَوَّبَ حكمهما أو رضى به ، وإكفار معاوية وناصريهِ ومقلديه ومحبيه ، فهذا ما اتفقت عليه الخوارج من الشرَاة والحَرُورِيَّة ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى مواضع [من] العبارة عن التوحيد ، والوعد والوعيد ، والإمامة ، وغير ذلك من آرائهم ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى باب ذكر الحكمين أن أول من حَكَّم بصفين عُرْوَة بن أدَية[5] التميمى [وقيل : إن أول من حَكَّم بصفين يزيد

(١) فى ا « هذا من سمينا الشيبانى » محرفا (٢) فى ب « سبرة بن الجعد»
(٣) فى ا « لحالات الأنام وللدهر » (٤) فى ا « نور مع البدر » .
(٥) فى ا « عروة بن أذينة » هنا ، محرفا .

Marfat.com

ابن عاصم المحاربى] وقيل : إن أول من حَكَّم رجل من بنى سعد بن زيد مَنَاة بن تميم ، وكان أول من شرى بصفين من المحكمة[١] رجل من بنى يشكر ، وكان من وجوه ربيعة ممن كان مع على ، فإنه فى ذلك اليوم قال : لا حكم إلا لله ، ولا طاعة لمن عَصَى الله ، وخرج عن الصف ، فحمل على أصحاب على فقَتَلَ منهم رجلا ، ثم حمل على أصحاب معاوية فتحاموه ولم يقدر على قتل أحد منهم ، وكَرَّ على أصحاب على فقتله [رجل] من هَمْدَان.

ذكر بعض أخبار الخوارج

وقد أتى الهيثم بن عدى وأبو الحسن المدائنى وأبو البخترى[٢] القاضى وغيرهم على أخبار الخوارج وأصنافهم فيما أفردوه من كتبهم ، وذكر أصحاب المقالات فى الآراء والديانات ما تنازعوا فيه من مذاهبهم [عند تباينهم فى فروعهم ، وما اجتمعوا عليه من أصولهم ، وقد أتينا على أكثر ما تنازعوا فيه من مذاهبهم] فى كتابنا فى « المقالات فى أصول الديانات» وذكرنا من خرج منهم من وقت التحكيم فى عصر عصر إلى آخر من خرج منهم بديار ربيعة على بنى حَمْدَان ، وذلك فى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وهو المعروف بعرون ، وخرج ببلاد كفرتوثى[٣] ، وورد إلى نصيبين ، فكانت له مع أهلها حرب أسر فيها وقتل منهم خلق عظيم ، والمعروف بأبى شعيب ، خرج فى بنى مالك وغيرهم من ربيعة ، وقد كان أدخل على المقتدر بالله ، وقد كان بعد العشرين والثلثمائة للأباضية ببلاد عمان مما يلى بلاد بروى وغيرها حروب وتحكيم وخروج وإمام نصبوه فقتل وقتل من كان معه .

الحجاج وشبيب الخارجى

وفى سنة سبع وسبعين كانت للحجاج حروب مع شبيب الخارجى ، وولى عنه الحجاج بعد قتل ذريع كان فى أصحابه حتى أحصى عددهم بالقضيب ، فدخل الكوفة وتحصن فى دار الإمارة[٤] ودخل شبيب وأمه وزوجته غزالة الكوفةَ عند الصباح ،

(١) فى ا « أول من تسرى بصفين من الحكمة » (٢) فى ا « وأبو البحترى » .
(٣) فى ب « ببلاد كفر بيونى » (٤) فى ا «قصر الإمارة» .

Marfat.com

غزالة امرأة شبيب

وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، فأتوا الجامع في سبعين رجلا ، فصلوا به الغَدَاةَ ، وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها .

فقال الناس بالكوفة في تلك السنة :

وفتِ الغزالة نَذْرَها يا رَبِّ لا تغفر لها

وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم ، وكذلك أم شبيب ، وقد كان عبد الملك — حين بلغه خبر هرب الحجاج ، وتحصنه في دار الإمارة بالكوفة من شبيب — بعث من الشام بعساكر كثيرة عليها سفيان بن الأبرد الكلبي لقتال شبيب ، فقدم على الحجاج بالكوفة ، فخرجوا إلى شبيب ، فحاربوه ، فانهزم شبيب وقتلت الغزالة وأمه ، ومضى شبيب في فوارس من أصحابه ، وأتبعه سفيان في أهل الشام[1] ، فلحقه بالأهواز ، فولّى شبيب ، فلما وصل إلى جسر[2] دجيل نَفَر به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ومِغْفَر ، فألقاه في الماء ، فقال له بعض أصحابه : أغَرَقًا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذلك تقدير العزيز العليم ، فألقاه دجيل ميتاً بشطه ، فحمل على البريد إلى الحجاج ، فأمر الحجاج بشق بطنه واستخراج قلبه ، فاستخرج فإذا هو كالحجر إذا ضربت به الأرض نبَا عنها ، فشق فإذا في داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقة الدم في داخله .

ابن القرية

وفي سنة اثنتين وثمانين[3] قَتَلَ الحجاج ابن القِرِّيَّة لخروجه مع ابن الأشعث وإنشائه الكُتُبَ له ، ووضعه الصدور[4] والخطب ، وكان ابن القِرِّيَّة من البلاغة والعلم والفصاحة بالموضع الموصوف ، وقد أتينا على خبر

(١) في ب « من أهل الشام » .
(٢) في ا « فلما صار على جسر دجيل نفر منه فرسه » .
(٣) في ا « وفي سنة أربع وثمانين » .
(٤) في ب « ووضع الصدور والخطب » .

Marfat.com

مقتله ، وما كان من كلامه مع الحجاج ، وقد كان قتله صبراً ، فى الكتاب الأوسط ، وأن قتله إياه كان بالسيف ، وقيل : بل قدم إليه فضربه الحجاج بحربة فى نحره فأتى عليه .

وابن القِرِّيَّة القائل : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فأما العاقل فإن الدين شريعته ، والحلم طبيعته[1] ، والرأى الحسن سجيته ، إن نطق أصاب ، وإن كلم أجاب ، وإن سمع العلم وَعَى ، وإن سمع الفقه روى ، وأما الأحمق فإن تكلم عجل ، وإن حُدِّث ذهل ، وإن حمل على القبيح حمل ، وأما الفاجر فإن استأمنته خانك ، وإن صاحبته شانك ، وإن استكتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حَدَّث لم يصدق ، وإن فقه لم يفقه .

ليلى الأخيلية والحجاج

وذكر المدائنى أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائه [منه] بشاشة ولا سماحة فى الخلق إلا فى يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية، فقال لها : [لقد] بلغنى أنك مررت بقبر توبة بن الحمير وعدلت عنه ، فوالله ما وفيت له ، ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ما عَدَلَ عنك ، قالت : أصلح الله الأمير ! ! لى عذر[2] ، قال : وما هو ؟ قالت : [إنى] سمعته وهو يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت ... علىَّ وفوق جندل وصفائح[3]
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائح

وكان معى نسوة قد سمعن قوله[4] ، فكرهت أن أُكَذِّبه ، فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها ، وانبسط فى محادثتها ، فلم يُرَ منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم .

وذكر حماد الراوية غير هذا الوجه ، وهو أن زوج ليلى حلف عليها — وقد اجتازوا بقبر تَوْبَة ليلا — أن تنزل وتأتى [قبره] وتسلم عليه

(١) فى ا « والحكمة طبيعته » (٢) فى ا « إن لى لعذرا » .
(٣) فى ا « وفوق تربة وصفائح » وما أثبتناه عن ب هو المحفوظ .
(٤) فى ا « سمعن صوته » .

Marfat.com

وتكذبه حيث يقول ، وذكر البيتين [المتقدمين] قال : وأبَتْ أن تفعل ، فأقسم عليها زوجُها ، فنزلت حتى جاءت إلى القبر ودموعها على صدرها كفرغ السحاب[١] ، فقالت : السلام عليك يا تَوْبَة ، فلم تستتم النداء[٢] حتى انفرج القبر عن طائر كالحمامة البيضاء ، فضربت صدرها فوقعت ميتة ، فأخذوا فى جهازها وكفنها ، ودفنت إلى جانب قبره .

بعض عادات العرب

وللعرب فيما ذكرنا كلام كثير — على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى آرائهم ومذاهبهم فى الهام والصَّدَى والصَّفَر — وقد كانت العرب تعقل إلى جانب [قبر] الميت إذا دفن ناقةً ، وتجعل عليه برذعة أو حَشِيَّة يسمونها البلية ، وقد ضربوا بذلك أمثالهم ، وذكره خطباؤهم فى خطبهم ، فقالوا : البلايا على الوَلاَيَا ، وقد كان بعضهم يتطير بالسانح ، ويتيامن بالبارح ، وبعضهم يضاد هذا ، فيتطير بالبارح ، ويتيامن بالسانح ؛ فأهل نجد يتيامنون بالسانح ، وأهل التهائم بالضد من ذلك ، على حسب ما قدمنا من قول عُبَيْد الراعى فيما سلف من هذا الكتاب .

خطبة لعلى ابن أبى طالب يعاتب أصحابه

حدثنا المنقرى ، قال : حدثنا عبد العزيز بن الخطاب الكوفى ، قال : حدثنا فضيل بن مرزوق ، قال : لما غلب بُسْر بن أرطاة على اليمن ، وكان من قبله لابنى عبيد الله بن عباس[٣] — وكان لأهل مكة والمدينة [واليمن] — ما كان ، قام على بن أبى طالب رضى الله عنه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : إن بُسْرَ بن أرطاة قد غلب على اليمن ، والله ما أرى هؤلاء القوم إلا سيغلبون على ما فى أيديكم ، وما ذلك بحق فى أيديهم ، ولكن بطاعتهم واستقامتهم [لصاحبهم] ، ومعصيتكم لى ، وتناصرهم وتخاذلكم ، وإصلاح بلادهم وإفساد بلادكم ، وتالله يا أهل الكوفة لوددت أنى صرفتكم صَرْفَ

(١) فى ا « كعزالى السحاب » ووقع فيها محرفا « كغزالى السحاب » .
(٢) فى ا « فلم تستتم السلام » (٣) فى ا « عبد الله بن العباس » .

Marfat.com

الدنانير العشرة بواحد ، ثم رفع يديه ، فقال : اللهم إنى قد مللتهم ومَلُّونى ، وسئمتهم وسئمونى ، فأبدِلْنِى بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً منى اللهم عجل عليهم بالغلام الثَّقَفى الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنها ، ولا يتجاوز عن مسيئها ، قال : وما كان الحجاج ولد يومئذ .

الحجاج يسأل عن النعمة

حدثنا الجوهرى ، عن سليمان بن أبى شيخ الواسطى ، عن محمد بن يزيد عن سفيان بن حسين[1] ، قال : سأل الحجاج[2] الجوهرىَّ : ما النعمة؟ قال: الأمن ، فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش ، قال : زدنى ، قال : الصحة ، فإنى رأيت السقيم لا ينتفع بعيش ، قال : زدنى [قال : الشباب ،فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش ، قال: زدنى] قال : الغِنَى ، فإنى رأيت الفقير لا ينتفع بعيش ، قال : زدنى ، قال : لا أجد مزيداً .

خطبة للحجاج وقد أرجف الناس بموته

حدثنا الجوهرى ، عن مسلم بن إبراهيم أبى عمرو الفراهيدى، عن الصَّلْتِ ابن دينار ، قال : مرض الحجاج فأرجف [به] أهل الكوفة ، فلما تماثل من عِلَّته صعد المنبر وهو يتثنى على أعواده فقال : إن أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان فى مناخرهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فَمَهْ ؟ والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت ، وما رضى الله الخلود لأحد من خلقه فى الدنيا إلا لأهونهم عليه [وهو] إبليس، والله لقد قال العبد الصالح سليمان بن داود : ربِّ اغفر وهَبْ لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، فكان ذلك ، ثم اضمحلَّ فكأنْ لم يكن ؛ يا أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأنى بكل

(١) فى ا « عن سعيد بن حسين » .

(٢) فى ب « سأل الحجاج الجوهرى » وكتب بهامشها « هكذا بالأصول ولعله آخر غير الجوهرى الأول » ووقع فى ا « سأل الحجاج جرثم الناعم » .

(٣) فى ا « مسلم بن إبراهيم بن عمر الفراهيدى » محرفا ، وما أثبتناه موافقا لما فى ب هو الذى يوافق ما ذكره الخزرجى فى الخلاصة .

Marfat.com

حى ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، وقد نقل كل امرىء [بثياب ظهره] إلى حفرته ، فخدَّ له فى الأرض ثلاث أذرع طولا فى ذراعين عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومَصَّت[(١)] من صديده ودمه ، وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما صاحبه : حبيبه من ولده يقتسم حبيبه من ماله ، أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول والسلام .

خطبة للحجاج يهدد ويتوعد

حدثنا المنقرى ، عن مسلم بن إبراهيم أبى عمرو الفراهيدى[(٢)] عن الصلت ابن دينار ، قال : سمعت الحجاج يقول: قال الله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فهذه لله ، وفيها مَثْنَوِيَة[(٣)] ، وقال : (واسمعوا وأطيعوا) وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله عبد الملك ، أما والله لو أمرت الناس أن يدخلوا فى هذا الشعب فدخلوا فى غيره لكانت دماؤهم لى حلالا ، عذيرى من [أهل] هذه الحمراء ، يُلقِى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول: إلى أن يبلغها يكون فرج الله ، لأجعلنهم كالرسم الدائر[(٤)] وكالأمس الغابر ، عذيرى من عبد هُذَيل يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه ، يعنى عبد الله بن مسعود ، عذيرى من سليمان بن داود ، يقول لربه (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ، كان والله فيما علمت عبداً حسوداً بخيلا .

الحجاج وعبد الله ابن هانىء

وحدثنا المنقرى ، عن عبيد بن أبى السرى ، عن محمد بن هشام بن السائب عن أبيه [عن] عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانىء وهو رجل من أود[(٥)] حى من اليمن ، وكان شريفاً فى قومه ، وقد شهد مع الحجاج مشاهِدَهُ كلها ، وشهد معه تحريق البيت ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأناك بعد ، ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة — وكان من فَزَارة — أن زوج عبد الله بن هانىء ابنتك ، فقال : لا [والله] ولا كرامة ،

(١) فى ب « وضمت من صديده ودمه » .
(٢) فى ا « مسلم بن إبراهيم بن عمر الفراهيدى » هنا أيضاً ، وانظر (ص ١٥ هـ ٣)
(٣) مثنوية : أى استثناء .
(٤) فى ب « كالرسم الدابر » (٥) فى ب « رجل من أدد » .

فدعا له بالسياط ، فقال : أنا أزوجه ، فزوجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمدانى رئيس اليمانية (١) أن زَوِّج عبد الله بن هانىء ابنتك ، قال : ومن أود ؟(٢) والله لا أزوجه ولا كرامة ، قال : هاتوا السيف ، قال: دعنى حتى أشاور أهلى ، فشاورهم ، فقالوا : زوجه لا يقتلك هذا الفاسق ، فزوجه ، فقال له الحجاج : يا عبد الله ، قد زوجتك بنت سيد [بنى] فزارة وابنة سيد همدان وعظيم كهلان ، وما أود(٣) هنالك ، فقال : لا تَقُلْ أصلح الله الأمير ذلك ، فإن لنا مناقب ما هى لأحد من العرب ، قال : وما هى هذه المناقب ؟ قال : ما سُبَّ أمير المؤمنين عثمان فى نادٍ لنا قط ، قال : هذه والله منقبة ، قال وشهد منا صِفّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، وما شهدها مع أبى تراب منا إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرأ سَوْء ، قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما منا أحد تزوج امرأة تحب أبا تراب ولا تتولاه ، قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما منا امرأة إلا نذرت إن قتل الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ففعلت ، قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما منا رجل عرض عليه(٣) شَتْم أبى تراب ولَعْنه إلا فعل ، وقال وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما [فاطمة] ، قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما أحد من العرب له من الملاحة والصباحة مالنا ، وضحك ، وكان دميما شديد الأدمة مجدوراً فى رأسه أعجر مائل الشِّدْقِ أحْوَل قبيح الوجه [وحش المنظر](٤) .

الحجاج والشعبى

حدثنا المنقرى ، عن جعفر بن عمرو الحرضى (٥) ، عن مجدى بن رجاء قال: سمعت عمران بن مسلم بن أبى بكر (٦) الهذلى يقول: سمعت الشعبى يقول: أتى بى

(١) فى ب « رئيس اليمامة »
(٢) فى ب « ومن أدد »
(٣) فى ب « وما منا رجل علم من أبيه » .
(٤) فى ب مكان هذه الصفة « مائل الحولة » .
(٥) فى ا « عن حفص بن عمر الحوضى عن مرجا بن رجاء » .
(٦) فى ا « سمعت عمران بن مسلم أبا بكر الهذلى » .

Marfat.com

الحجاج مُوثقاً ، فلما دخلت عليه استقبلنى يزيد بن مسلم[١] فقال: إنا لله يا شعبى على ما بين دفتيك من العلم[٢] ، وليس بيوم شفاعة ، بُؤْ للأمير بالشرك وبالنفاق على نفسك فبالحَرَى أن تنجو منه ؛ فلما دخلت عليه استقبلنى محمد بن الحجاج فقال لى مثل مقالة يزيد ، فلما مثلت بين يدى الحجاج قال : وأنت يا شعبى فيمن خرج علينا وكثر ؟ قلت : نعم ، أصلح الله الأمير ، أحْزَنَ بنا المبرك[٣] ، وأجدب [بنا] الجناب ، وضاق المسلك ، واكتحلنا السهاد ، واستحلسنا الخوف ، ووقعنا فى فتنة[٤] لم نكن فيها بَرَرَة أتقياء ولا فَجَرَة أقوياء ، قال: صدق ، والله ما بروا بخروجهم علينا ، ولا قووا إذ فجروا ، أطلقوا عنه ، قال الشعبىُّ: ثم احتاج إلى فريضة، فقال: ما تقول فى أخت وأم وجد؟ قلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبد الله ، وزيد ، وعلى وعثمان ، وابن عباس ، قال : فماذا قال فيها ابن عباس فقد كان متقيا ؟[٥] قلت : جعل الجد أبا ، وأعطى الأم الثلث ، ولم يعط الأخت شيئا ، قال: فماذا قال فيها عبد الله ؟ قلت : جعلها من ستة ؛ فأعطى الأخت النصف ، وأعطى الأم السدس ، وأعطى الجد الثلث ، قال : فما قال فيها زيد ؟ قلت : جعلها من تسعة ؛ فأعطى الأم ثلاثة ، وأعطى الأخت سهمين ، وأعطى الجد أربعة قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ قلت : جعلها أثلاثا ، قال : فما قال فيها أبو تراب ؟ قلت : جعلها [من] ستة ، أعطى الأخت النصف ، وأعطى الأم الثلث ، وأعطى الجد السدس ، قال : فضرب بيده على أنفه ، وقال : إنه المرء [لا] يرغب عن قوله [ثم قال للقاضى : أمِرَّها على مذهب أمير المؤمنين عثمان][٦] .

الحجاج يريد الحج

حدثنا المنقرى ، عن [أبى عبد الرحمن] العتبى عن أبيه قال : أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال : يا أهل العراق ، إنى قد استعملت عليكم محمدا ، وبه الرغبة عنكم ، أما إنكم لا تستأهلونه ، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية

(١) فى ا « يزيد بن أبى مسلم » (٢) فى ا « ما بين ذقنيك من العلم » .
(٣) فى ا « أحزن بنا المنزل » (٤) فى ا « ووقعنا فى خزية » .
(٥) فى ب « فلقد كان معينا » (٦) زيادة عن ا وحدها .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار ، فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، أما إنى إذا وليْتُ عنكم [أعلم] أنكم تقولون : لا أحسن الله له فى الصحابة ، وما منعكم من تعجيله إلا الفراق ، وأنا أعجل لكم الجواب ، لا أحْسَنَ الله عليكم الخلافة ، ثم نزل .

عبيد بن أبى المخارق يتولى عملا ويطلب المشورة

حدثنا العتبى ، عن عبد الغنى بن محمد بن جعفر ، عن الهيثم بن عدى ، عن أبى عبد الرحمن الكنانى ، عن ابن عباس الهمدانى ، عن عبيد بن أبى المخارق ، قال : استعملنى الحجاج على الفلوجة (١) فقلت : أههنا دِهْقَان يستعان برأيه ؟ فقالوا : جميل بن صهيب ، فأرسلت إليه ، فجاءنى شيخ كبير قد سقطت (٢) حاجباه على عينيه ، فقال : أزعجتنى وأنا شيخ كبير ، فقلت : أردت يُمْنَك ، وبركتك ، ومشورتك ، فأمر بحاجبيه فرفعا بخرقة حرير ، وقال : ما حاجتك ؟ قلت : استعملنى الحجاج على الفلوجة وهو ممن لا يؤمن شره ، فأشِرْ عَلَيَّ ، قال : أيما أحب إليك : رضا الحجاج ، أو رضا بيت المال ، أو رضا نفسك ؟ قلت [أحب] أن أرضى كل هؤلاء وأخاف الحجاج فإنه جبار عنيد ، قال : فاحفظ عنى أربع خلال ، افتح بابك ، ولا يكن لك حاجب ، فيأتيك الرجل وهو على ثقة من لقائك ، وهو أجدر أن يخافك عُمَّالك ، وأطل الجلوس لأهل عملك ، فإنه قلما أطال عامل الجلوس إلا هِيبَ مكانه ، ولا يختلف حكمك بين الناس ، وليكن [حكمك] على الشريف والوضيع سواء ، ولا يطمع فيك أحد من أهل عملك ، ولا تقبل من أهل عملك هدية ، فإن مهديها لا يرضى من ثوابها إلا بأضعافها ، مع ما فى ذلك من المقالة القبيحة ، ثم اسلخ ما بين أقفيتهم إلى عجوب أذنابهم ، فيرضوا عنك ، ولا يكون للحجاج عليك سبيل .

(١) فى ا « الفلوحة » بالحاء المهملة .

(٢) فى ب « قد سبق حاجباه » محرفا .

Marfat.com

حدث المنقرى ، عن يوسف بن موسى القطان ، عن جرير ، عن المغيرة ، عن الربيع بن خالد ، قال : سمعت الحجاج يخطب على المنبر وهو يقول : أخليفة أحدكم فى أهله أكرمُ عليه أم رسوله فى حاجته ؟ فقلت : لله على أن لا أصلى خلفك [صلاة] أبداً ، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقاتلنك معهم ، فقاتل فى دير الجماجم حتى قتل .

الغضبان ابن القبعثرى

حدث المنقرى ، عن العتبى ، عن أبيه ، أن الحجاج وجَّهَ الغضبان بن القَبَعْثَرَى إلى بلاد كرمان ليأتيه بخبر ابن الأشعث عند خَلْعه ، ففَصَلَ من عنده ، فلما صار ببلاد كرمان ضرب خباءه ونزل ، فإذا هو بأعرابى قد أقبل عليه فقال : السلام عليك ، فقال الغضبان : كلمة مَقُولَة ، فقال له الأعرابى : من أين جئت ؟ قال : من ورائى ، قال : وأين تريد ؟ قال : أمامى ، قال : وعلامَ جئت ؟ قال : على فرسى ، قال : وفيم جئت ؟ قال : فى ثيابى ، قال : أتأذن لى أن أدنو إليك[1] قال: وراءك أوسعُ لك ، قال : والله ما أريد طعامك ولاشرابك ، قال : لاتُعَرِّض بهما فوالله لا تذوقهما ، قال : أوليس عندك إلا ما أرى ؟ قال : بل هراوة من أرزن أضرب بها رأسك ، قال : إن الرمضاء قد أحرقت قَدَمى ، قال : بُلْ عليهما يبردان ، قال : فكيف ترى فرسى هذا ؟ قال : أراه خيراً من [آخر] شر منه وأرى آخر أفرَهَ منه ، قال : قد علمت هذا ؟ قال : لو علمته ماسألتنى عنه ، فتركه الأعرابى وولّى ، ثم دخل على عبد الرحمن بن الأشعث فقال: ماوراءك ياغضبان؟ قال : الشر ، تَغَدَّ بالحجاج قبل أن يتعشّى بك ، ثم صعد المنبر فخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه ، ودخل [مع] ابن الأشعث فى أمره ، فلم يلبث إلا قليلا ثم أسِرَ[2] ابن الأشعث، فأخذ الغضبان فيمن أسِرَ، فلما أدخل على الحجاج قال : يا غضبان ، كيف رأيت بلاد كرمان ؟ قال : أصلح الله الأمير ، بلاد

(١) فى ا « أن أدخل إليك » .

(٢) فى ا « حتى أثر ابن الأشعث »

Marfat.com

ماؤها وَشَل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، والخيل بها ضعاف ، وإن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا ، قال : ألست صاحب الكلمة الخبيثة « تَغَدَّ بالحجاج قبل ان يتعشّى بك » قال : أصلح الله الأمير ! ما نفعت من قِيلَتْ له ، ولا ضرت من قيلت فيه ، قال : لأقطعَنَّ يديك ورجليك من خلاف ثم لأصلبنك ، قال : لا أرى الأمير أصلحه الله يفعل ذلك ، فأمر به فَقُيِّدَ وألقى فى السجن ، فأقام به حتى بنى الحجاج خضراء[1] واسط ، فلما استتم بناءها جلس فى صحنها ، وقال : كيف ترون قبتى هذه ؟ قالوا : ما بنى الخلق قبلك مثلها ، قال : فإن فيها مع ذلك عيباً فهل فيكم مخبرى به ؟ قالوا : والله لا نَرَى بها عيباً ، فأمر بإحضار الغضبان ، فأتى به يَرْسُف فى قيوده ، فلما دخل عليه قال له الحجاج : أراك يا غضبان سميناً ، قال : أيها الأمير القيد والرتعة ، ومن يكن ضَيْفَ الأمير يسمن ،قال: فكيف ترى قبتى هذه ؟ قال : أرى قبة ما بنى لأحد مثلها إلا أن بها عيباً ، فإن أمننى الأمير أخبرته به ، قال : قل آمناً ، قال : بنيت فى غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم ، فما لما لا يتمتع فيه من طيب ولا لذة ، قال : رُدُّوه فإنه صاحب الكلمة الخبيثة ، قال : أصلح الله الأمير ! إن الحديد قد أكل لحمى وبَرَى عظمى ، فقال : احملوه ، فلما استقلَّ به الرجال قال : (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرِنِينَ) قال : أنْزِلوه ، فلما استوى على الأرض قال : (اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) قال : جُرُّوه ، فلما جَرُّوه قال : (بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم) قال : أطلقوا عنه.

حدث المنقرى ، عن [عبد الله بن[2]] محمد بن حفص التيمى ، عن الحسين[3] بن عيسى الحنفى ، قال : لما هلك بشر بن مروان وولى الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القَبَعْثَرَى [الشيبانى]

(١) فى ا « بنى الحجاج قصر واسط فلما استتم بناءه جلس فى صحنه » .
(٢) هذا الاسم لا يوجد فى ا (٣) فى ا « الحسن بن عيسى الحنفى » .

Marfat.com

بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد ولّى عليكم مَنْ لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الظلوم العشوم ، الحجاج ، ألا وإن لكم من عبدالملك منزلة بما كان منكم من خذلان مُصْعب وقتله ، فاعترضوا هذا الخبيث فى الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لايعدُّ منكم خلعاً ، فإنه متى[1] يعلوكم على متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه عُدَّ خَلْعاً ، فأطيعونى وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم ، فقال له أهل الكوفة : جبنت يا غضبان ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا منكَراً غيرناه ، قال : ستعلمون .

فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به فحبس ، فأقام فى حبسه ثلاث سنين ، حتى ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية : عشراً من النجائب ، وعشراً من قعد النكاح ، وعشراً من ذوات الأحلام ؛ فلما نظر إلى الكتاب لم يَدْرِ ماوصفه له من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ! ينبغى أن يعرف هذا مَنْ كان فى أوليته بدويا فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب فله بَذَاء أهل الشراب ، قال : وأين هذا؟ قيل : فى حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل : الغضبان الشيبانى ، فأحضر ، فلما مثل بين يديه قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدون بى قبل أن أتعشى بهم ، قال : أصلح الله الأمير ! ما نفعت من قالها ، ولاضرت من قيلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلىّ كتاباً لم أدْرِ ما فيه ، فهل عندك شىء[2] منه ؟ قال : يقرأ علىّ ، فقرىء عليه ، فقال : هذا بَيِّن ، قال : وما هو ؟ قال ، أما النجيبة من النساء فالتى عظمت هامتها ، وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبيها وثديبها ، واتسعت راحتها ، وثخنت

(١) فى ا « فإنه متى يغلبكم — إلخ » .
(٢) فى ا « فهل عندك فيه شىء » .

Marfat.com

ركبتها[١] ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالليث [العادى] وأما قعد النكاح فهنَّ ذوات الأعجاز ، منكسرات الثُّدِيِّ ، كثيرات اللحم ، يقرب بعضهنَّ من بعض ، فأولئك يشفين القَرِم ، ويروين الظمآن ، وأما ذوات الأحلام فبنات خمس وثلاثين إلى الأربعين ، فتلك التى تبسه كما يبس الحالب الناقة[٢] فتستخرجه من كل شعر وظفر وعرق ؟ قال الحجاج : أخبرنى بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير ! شرهن الصغيرة الرقبة[٣] ، الحديدة الركبة ، السريعة الوَثْبة ، الواسطة فى نساء الحى ، التى إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سمعت كلمة قالت : لا والله لا أنتهى حتى أقرها قَرَارَهَا ، التى فى بطنها جارية ، وتتبعها جارية ، وفى حجرها جارية ، قال الحجاج : على هذه لعنة الله ! ثم قال : ويحك ! فأخبرنى بخير النساء ، قال : خيرهن القريبة القامة من السماء ، الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الولود ، التى فى بطنها غلام ، وفى حجرها غلام ، ويتبعها غلام ؛ قال : ويحك ! فأخبرنى بشر الرجال ، قال : شرهم السبوط الربوط ، المحمود فى حرم الحى[٤] ، الذى إذا سقط لإحداهن دلو فى بئر انحطّ عليه حتى يخرجه ، فهن يجزينه الخير أو يقلن: عافى الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ! فأخبرنى بخير الرجال ، قال : خيرهم الذى يقول فيه الشماخ التغلبى :

فتًى ليس بالرَّاضِى بأدنى معيشة ولا فى بيوت الحى بالمتولِّجِ
فتًى يملأُ الشِّيزَى ويروى سنانَهُ ويضرب فى رأس الكمى المدَجَّجِ

فقال له : حسبك ، كم حبسنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها وخَلّى سبيله .

حدث المنقرى ، عن محمد بن [أبى] السرى ، عن هشام بن محمد بن السائب

(١) فى ا « ونمت ركبتها » .
(٢) فى ا « فتلك التى تسنن كما يسن الحالب الناقة » .
(٣) فى ب « الصغير النقبة » (٤) فى ا « خدم الحى » .

وصف البصرة والكوفة

عن أبى عبد الله النخعى ، قال : لما فرغ الحجاج من دير الجماجم وفد على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصرين فأدخلهم عليه ، فبينما هم عنده [يوماً] إذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطارد : أصلح الله الأمير ! إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وسفلت عن الشام ووبائها [وبردها] ، وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها ؛ وقال خالد بن صفوان [الأهتمى] : أصلح الله الأمير ! نحن أوسع منهم برية ، وأسرع منهم فى السرية ، وأكثر منهم قنداً وعاجاً وساجاً(١) ، ماؤنا صفو [وخيرنا عفو] لا يخرج من عندنا إلا قائد وسائق وناعق، فقال الحجاج : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنى بالبلدين خبير ، وقد وطئتهما جميعاً ، فقال له : قل فأنت عندنا مصدق ، فقال : أما البصرة فعجوز شمطاء دفراء بخراء أوتيت من كل حلى وزينة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة ، لا حلى لها ولا زينة ؛ فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

الحجاج يصف الدنيا

حدث المنقرى عن عمرو بن الحباب الباهلى ، عن إسماعيل بن خالد ، قال : سمعت الشعبى يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام(٢) ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : أما بعد فإن الله عزوجل كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلافناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة ، فطول الأمل يقصر الأجل .

رسول المهلب إلى الحجاج

حدث المنقرى عن سهل بن تمام بن بزيع(٣) عن عباد بن [حبيب بن] المهلب عن أبيه قال : لما قتل المهلبُ عبد ربه الصغير(٤) بكرمان قال : ائتونى برجل له بيان وعقل ومعرفة أوجهه إلى الحجاج برءوس من قتلنا ؛ فدلوه على بشر بن مالك الجرشى ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك ؟ قال: بشر بن مالك الجرشى ، قال : كيف تركت المهلب ؟ قال : تركته صالحاً

(١) فى ب « قندا وعاجا وبأساً » .
(٢) فى ب « يقول بكلام » .
(٣) فى ا « سهل بن تمام بن بديع » (٤) فى ا « عبد ربه بن الصعتر » .

Marfat.com

نال ما رجا وأمن ما خاف ،قال : فكيف فاتكم قَطَرى ؟ قال : كادنا من حيث كدناه ، قال : أفلا طلبتموه ؟ قال : كان [فَلاً ، وكان] الجد أهم علينا من الفل[1] ، قال : أصبتم ، فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : كانوا أعداء البَيَات حتى يأمنوا ، وأصحاب السُّرُجِ حتى يردوا ، قال : أجل ، فأيهم أفضل ؟ قال : ذاك إلى أبيهم أيهم شاء أن يستكفيه أمراً كفاه ، قال : إنى أرى لك عقلا فقل ، قال : هم كالحلقة المستوية[2] لا يدرى أين طرفها ، قال : أين هم من أبيهم ؟ قال : فَضْلُه عليهم كفضلهم على سائر الناس ، قال : كيف كان الجند ؟ قال : أرضاهم الحق ، وأشبعهم الفضل[3] وكانوا مع والٍ يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك ويسوسهم سياسة الملوك ، فله منهم برّ الأولاد[4] ، ولهم منه شفقة الوالد ، قال : هل كنت هَيَّأْت ما أرى؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : فالتفت الحجاج إلى عنبسة فقال : هذا الكلام المطبوع[5] لا الكلام المصنوع .

الحجاج وجرير ابن الخطفى

وأخذ الحجاج جرير بن الخَطَفَى ، فأراد قتله ، فمشى إليه قومه من مضر فقالوا : أصلح الله الأمير ! لسان مضر وشاعرها ، هَبْهُ لنا ، فوهَبَهُ لهم .

وكانت هند بنت أسماء زوج الحجاج ممن طالب به ، فقالت للحجاج : أتأْذن لجرير علىّ يوماً أستنشده من وراء حجاب ؟ فقال لها : نعم ، فأمرت بمجلس لها فهيىء فجلست فيه والحجاج معها ، ثم بعثت إلى جرير ، فدخل عليها يسمع كلامها ولا يراها ، فقالت : يا ابن الخطفى ، أنشدنى ما شببت به فى النساء ، فقال لها : ماشببت بامرأة قط ، ولا خلق الله شيئاً هو أبغض إلى من النساء ، قالت : يا عدوّ الله ، وأين قولك :

---

(١) فى ب « قال كان الحسد أهم علينا من القتل » .

(٢) فى ا « هم كالحلقة المفرغة » وهو المحفوظ .

(٣) فى ا « وأشبعهم النفل » . (٤) فى ا « حب الأولاد » .

(٥) فى ب « هذا الكلام المخلوق » .

Marfat.com

طرقَتْكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارْجِعِى بسـلام
تُجْرِى السواكَ على أغرَّ كأنه بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتون غمام(١)
لو كنت صـادقة بما حدثتنا لوصلت ذاك فـكان غير لمـام(٢)
سرت الهموم فبتن غير نيام وأخو الهموم يَرُوم كل مرام(٣)

قال : ما قلت هذا ، ولـكنى أنا الذى أقول :

لقد جرَّدَ الحجاج للحق سيفه ألا فاستقيموا ، لا يميلَنَّ مائل
ومايستوى داعى الضلالة والهدى ولا حُجَّة الخصمين حق وباطل

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

خليلىَّ لا تستغزرا الدمعَ فى هند أعيذكما بالله أن تَجِدَا وَجْدِى(٤)
ظمئْتُ إلى شرب الشراب وحسنه كذى قربة يرجو هداها وما يجدى(٥)

قال لها : ما قلت هذا ، ولـكنى أنا الذى أقول :

ومَنْ يَأْمَنُ الحجاج ؟ أما عِقَابه فمرٌّ ، وأما عَقْدُهُ فَوَثيق
يُسِرُّ لك البغضاء كلُّ مُنَافق كما كلُّ ذى بِرٍّ عليك شفيق

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

يا عَاذِلَىَّ دَعَا الملام وَأقْصِرَا طَالَ الهوَى وأطلتما التفنيدا
إنى وَجَدْتُ ، وَلَوْ أرَدْتُ زيادة فى الْحُبِّ عندى ما وَجَدت مزيدا(٦)

فقال : باطل أصلحك الله ، ولـكنى أنا الذى أقول :

من سَدَّ مُطلع النفاق عليهمُ أم من يَصُول كصولة الحجاج ؟
أم مَنْ يَغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج ؟

---

(١) البرد ـ بفتح الباء والراء ـ حب الغمام ، يشبهون به الأسنان .
(٢) فى ا « وكان غير لمام » (٣) فى ا « فبت غير نيام » محرفا .
(٤) فى ا « من هند » ولا تستغزرا : أى لا تجداه غزيرا ، أى كثيراً .
(٥) فى ا « كذى منية يرجو جداها وما يجدى » .
(٦) فى ا « إنى وجدتك لو أردت زيادة » .

Marfat.com

هذا ابن يوسف فافهموا وتفهموا بَرِحَ الخفاء وليس حيث يفاجى (١)
فلربَّ ناكث بيعتين تركته وخضابُ لحيته دَمُ الأوْدَاجِ

فقال الحجاج : يا عدو الله ، تحرض علىَّ النساء ؟ فقال : لا والذى أكرمك أيها الأمير ، ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتى هذه ، وما علمت بمكانك ، فأَقِلْنِي جعلنى الله فداك ، قال : قد فعلت ، فأمرت له هند بجارية وكسوة ، وأوفده الحجاج على عبد الملك .

بين الحجاج وأعشى همدان

ولما انهزم ابن الأشعث بدير الجماجم حلف الحجاج أن لا يُؤْتَى بأسيرٍ إلا ضرب عنقه ، فأتى بأَسْرَى كثيرة (٢) ، وكان أول من أتى به أعشى همدان [الشاعر] وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدى ابن الأشعث بسجستان ، فقال له الحجاج : إيه أنت القائل !

مَنْ مُبْلغ الحجاج أنـــى قد جنيت عليه حَرْبَا
وصفقت فى كفِّ امرِئٍ جَلْدٍ إذا ما الأمر عُبَّى (٣)
أنت الرئيس ابن الرئيـــس وأنت أعلى الناس كعبا
فابعث عطيـــة بالخيو ل يكبُّهُنَّ عليه كَبَّا
وانْهَضْ هُدِيتَ لعـــله يجلو بك الرحمن كَرْبَا
نُبِّئْتُ أن بَنِىَّ يو سُفَ خَرَّ من زَلَقٍ فتَبَّا

(١) كذا فى ا ، ب ، وهو تخليط فى الرواية وتحريف فى الكلام ، وصوابه :
هذا ابن يوسف فافهموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهـــاج
فاستوثقوا وتبينوا سبل الهـــدى ودعوا النجى فليس حين تناج
(٢) فى ا « فأتى بأسارى كثيرة » .
(٣) فى ا « ووضعت فى كف امرىء » .

Marfat.com

وهى أبيات ، وأنت القائل :

شطت نوى مَنْ دَارُهُ الإيوانْ إيوان كِسْرَى ذى القرى وَالرَّيحَانْ
من عاشـق أمْسَى بزابلستانْ إنَّ ثقيفاً منهم الكَذَّابَانْ
كَذَّابُهَا الماضى وكَذَّاب ثَانْ أمكن ربى من ثقيف هَمْدَانْ
[يَوْمًا من الليل يسلى ما كَانْ][1]

وأنت القائل :

وسألتمانى المجـد أَيْنَ محلُّه فالمجد بين محمـد وسعيد[2]
بين الأَشَجِّ وبين قيس باذخ بخ بخ لوالده وللمـولود

قال : لا ، ولكنى الذى أقول :

أبَى الله إلا أن يتمم نُوره وَيُطْفِىء نُور الفقعتين فيخمدا[3]
وينزل ذُلاًّ بالعراق وأهـله بما نَقضُوا العهد الوثيق المؤكدا[4]
وما أَحْدَثُوا من بدعة وضَلاَلَة من القول لم يصعد إلى الله مصعدا

قال : لسنا نحمدك على هذا القول ، إنما قلته تأسفاً على أن لا تكون ظفرت وظهرت ، وتحريضاً لأصحابك [علينا] ، وليس عن هذا سألتك ، أخبرنى عن قولك :

أمكن ربى من ثقيف هَمْدَان [يَوْمًا من الليل يسلى ما كان]

فكيف ترى الله أمكن ثقيفاً من هَمْدان ، ولم يمكن همدان من ثقيف ؟ وعن قولك :

بين الأَشَجِّ وبين قيس باذخ بخ بخ لوالده وللمـولُود

والله لا تبخبخ لأحد بعدها ، وأَمَرَ به فضربت عُنقه

---

(١) لا يوجد هذا البيت فى ا (٢) فى ب « وسألتم فى المجد » .
(٣) فى ا « ويطفىء نور الفقعسين » .
(٢) فى ا « ويترك ذلا بالعراق » .

Marfat.com

ولم يزل يؤتى برجل رجل حتى أتى برجل من بنى عامر، وكان من فرسان [دير] الجماجم مع ابن الأشعث ، فقال له : والله لأقتلنك شر قتلة ، قال : والله ماذلك لك ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأن الله يقول فى كتابه العزيز : (فإذا لقيتم الذين كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًّا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) وأنت قد قتلت فأثخنت، وأسرت فأوثقت[1] ؛ فإما أن تمن علينا أو تفدينا عشائرنا ، فقال له الحجاج: أ كَفَرْتَ ؟ قال : نعم ، وغَيَّرْتُ وبَدَّلْتُ ، قال : خلوا سبيله .

ثم أتى برجل من ثقيف فقال له الحجاج : أ كفرت ؟ قال : نعم ، قال [له] الحجاج : لكن هذا الذى خَلْفك لم يكفر ، وخَلْفه رجل من السَّكُون ، فقال السَّكُونىُّ : أعن نفسى تخادعنى ؟ بلى والله ولو كان شىء أشد من الكفر لبؤت به ، فخلّى سبيلهما .

فهذه جمل من أخبار عبد الملك والحجاج ، وقد أتينا على مبسوط هذه الأخبار مما لم نورده فى هذا الكتاب فى كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط التالى له الذى كتابُنَا هذا تاليه ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الحجاج لمعاً ، على حسب ما قَدَّمنا من الشرط فيما سَلَفَ من هذا الكتاب ، وبالله العون والقوة .

---

(١) فى ب «وأسرت فأثخنت» .

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك

وبويع الوليد بن عبد الملك بدمشق فى اليوم الذى توفى فيه عبدُ الملك ، موجز
وتوفى الوليد بدمشق للنصف من جمادى الآخرة [من][1] سنة ست وتسعين ؛ فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين ، وهلك وهو ابن ثلاث وأربعين سنة[2] ، وكان يكنى بأبى العباس .

(١) هذه الكلمة لا توجد فى ا .
(٢) فى ا « وهلك وهو ابن أربع وأربعين سنة » .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره، وسيره
وما كان من الحجاج فى أيامه

خلق الوليد وولده

كان الوليد جبّاراً عنيداً ، ظَلُوما غَشُوما ، وخلف من الولد أربعة عشر ذكراً ، منهم يزيد ، وعمرو[١] ، وبشر العالم[٢] ، والعباس ، وكان يدعى فارس بنى مروان لشهامته ، فعدل الوليد بالأمر عن ولده بعده اتباعا لوصية عبد الملك على حسب [ما] رتبها ، وكان نقش خاتمه « يا وليد إنك ميت » [فكان كلما همّ أن يجعل الأمر لولده قلب الفص وقرأ « إنك ميت » فيقول][٣] : لاها الله ، لا خالفت ما أمرنى به أبى ، إنى لميت[٤] .

بناء مسجدى دمشق والمدينة

وفى سنة سبع[٥] وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ، و [بناء] مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأنفق عليهما الأموال الجليلة ، وكان المتولى للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى

وحكى عثمان بن مرة الخولانى قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد فى حائط المسجد لوحا من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجَّه به إلى وهب بن مُنَبِّه ، فقال : هذا مكتوب فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقى من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقى من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك ، إذا زَلَّتْ بك قدمك وأسلمك أهلك [وحشمك] وانصرف عنك الحبيب، ووَدَّعَكَ القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا فى عملك زائد،

(١) فى ا « وعمر » (٢) فى ب « وبسر العالم » .
(٣) هذه العبارة لا توجد فى ب .
(٤) فى ب « فقال : لاها الله لا خالفت فيما أمر به إنى لميت » .
(٥) فى ب « تسع وثمانين » واتفقت النسختان على « سبع وثمانين » فيما كتب فى حائط المسجد (ص ١٦٧ س ٥) .

Marfat.com

فاغتنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يؤخذ منك بالكَظْم ، ويحال بينك وبين العمل ؛ وكتب زَمَنَ سليمان بن داود ؛ فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد : ربُّنَا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد ، وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبدُ الله الوليدُ أميرُ المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين ، وهذا الكلام مكتوب بالذهب فى مسجد دمشق إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

بين الوليد والحجاج

ووفد الحجاج بن يوسف على الوليد ، فوجده فى بعض نُزَهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجَّلَ له ، وقبَّلَ يده ، وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ، فقال : دعنى يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ؛ فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك(١) ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، وتفضل فى غلالة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه فى حاله تلك(٢) وأطال الجلوس عنده ، فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارَّتِ الوليد ومضت ، ثم عادت فسارته ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج : أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد ؟ قال : لا والله ، قال: بعثتْهَا إلىَّ ابنةُ عمى أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابى المتسلِّحِ فى السلاح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلْتُ إليها إنه الحجاج ، فراعها ذلك ، وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق ، فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دَعْ عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك ، ولا تُطِعْهن(٣) فى غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن [فى الأمور] فإن رأيهن إلى أَفْنٍ ، وعزمَهُنَّ إلى وَهْنٍ ، واكفف

(١) فى ا « أشغلانى عنك » .
(٢) فى ا « فى تلك الحالة » .
(٣) فى ا « ولا تطمعهن فى غير أنفسهن » .

Marfat.com

عليهن من أبصارهن بحُجبك ، ولاتملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن [والخلوة بهن](١) ، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبيَنُ لفضلك ، ثم نهض الحجاج فخرج.

بين الحجاج وأم البنين

ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين أحِبُّ أن تأمره غداً بالتسليم علىَّ ، فقال : أفعل ، فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ، سِرْ إلى أم البنين فسلم عليها ، فقال : أعفِني من ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال : لابد من ذلك ، فمضى الحجاج إليها ، فحجبته طويلا ، ثم أذنت له فأقرته قائماً ، ولم تأذن له فى الجلوس ، ثم قالت : إيه يا حجاج ، أنت الممتَنُّ(٢) على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهْوَنَ خلقه(٣) ما ابتلاك برمى الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النِّطَاقين ، وأول مولود ولد فى الإسلام ، وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم ، حتى لُذْتَ بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت فى أضيق من القرن ، فأظَلَّتْك رماحهم ، وأنجاك كفاحهم [وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن و بعنَه فى الأسواق فى أرزاق البعوث إليك](١) ، ولولا ذلك لكنت أذل من النَّقَدِ ، وأما ما أشرت [به] على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كنَّ ينفرجن عن مثل ما انفرجَتْ به عنك أمُّك فما أحَقَّه بالأخذ عنك والقبول منك ، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مُصْغٍ إلى نصيحتك ، قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسَدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة فزعاء تفزع من صفير الصافر(٤)

---

(١) لا توجد هذه العبارة فى ب (٢) فى ا « أنت المصر على أمير المؤمنين»
(٣) فى ا « لولا أن الله علم أنك أهون خلقه » .
(٤) كذا فى ا ، ب ، والمحفوظ فى عجزه * فتخاء تنفر من صفير الصافر *

Marfat.com

هلا بَرَزْتَ إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر

[ثم قالت لجواريها] أخرِجْنَهُ عنى ، فدخل إلى الوليد من فَوْره ، فقال [له] : يا أبا محمد ما كنت فيه ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكتَتْ حتى كان بطن الأرض أحَبَّ إلى من ظاهرها(١) ، فضحك الوليد حتى فحص برجله(٢) ، ثم قال : يا أبا محمد ، إنها بنت عبد العزيز .

ولأم البنين هذه أخبار كثيرة فى الجود وغيره ، وقد أتينا على ذكرها فى غير هذا الكتاب .

موت على ابن الحسين السجاد

وفى سنة خمس وتسعين قبض على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى ملك الوليد ، ودفن [بالمدينة] فى بقيع الغَرْقَدِ مع عمه الحسن بن على ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، ويقال : إنه قبض سنة أربع وتسعين ، وكل عقب(٣) الحسين من على بن الحسين [هذا] وهو السجاد على ما ذكرنا ، وذو الثفنات ، وزين العابدين .

موت عبد الملك بن مروان

وذكر المدائنى قال : دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته ، فجعل يبكى عليه وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين ؟ فقال عبد الملك الملك :

ومشتغل عنا يريد بنا الردى ومستعبرات والعيون سواجم(٤)

أشار بالمصراع الأول إلى الوليد ، ثم حَوَّل وجهه عنه ، وأشار بالمصراع الثانى إلى نسائه ، وهن المستعبرات .

وذكر العتبى وغيره من الأخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول :

كم عائد رجلا وليس يعوده إلا لينظر هل يراه يموت

وقيل : إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه فقال :

---

(١) فى ا « أحب إلى من ظهرها » (٢) فى ا « حتى فحص برجليه » .
(٣) فى ب « وكان عقب الحسين » (٤) فى ب « والعيون سواجع » .

Marfat.com

يا هذا[١] ، أحنين الحمامة ؟ إذا أنا متُّ فشمر واتّزِرْ[٢] ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال: إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفى غرور ، ثم أقبل على جميع ولده فقال : أوصيكم بتقوى الله فإنها عِصْمة باقية ، وجُنَّة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل فى المعاد ، وهى أحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير، مع سلامة الصدور ، والأخْذِ بجميل الأمور ، وإياكم والبغى والتحاسد ، فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين ، يا بنى ، أخوكم مسلمة نابكم الذى تفترون عنه ، ومِجَنُّكم الذى تستجنون به ، اصْدُروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج ؛ فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، وكونوا أولاداً أبراراً ، وفى الحروب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام .

وصية عبد الملك عند موته

وسأله بعض شيوخ بنى أمية — وقد فرغ من وصية أولاده هذه — [قال] : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كما قال الله عز وجل : (ولقد جئتمونا فُرَادَى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خوَّلْنَاكم وراء ظهوركم) إلى قوله (وما كنتم تزعمون) فكان هذا آخر كلام سمع منه .

فلما قضى سَجَّاه الوليد ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : لم أر مثلها مصيبة ، ولا مثلها نعمة ، فقدت الخليفة ، وتقلدت الخلافة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله رب العالمين على النعمة ، ثم دعا الناس إلى بيعته فبايعوا[٣] ، ولم يختلف عليه أحد .

موت عبيد الله ابن العباس

ومات فى أيام الوليد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وذلك فى سنة سبع وثمانين، وكان جواداً كريماً ، وذكر أن سائلا وقف عليه فقال [له]: تصدق

(١) فى ا « ما هذا ، أحنين الحمامة » .
(٢) فى ا « فشمر وابرز »
(٣) فى ا « فبايعوه » .

Marfat.com

مما رزقك الله ؛ فإنى نبئت أن عبيد الله بن العباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه ، فقال : وأين أنا من عبيد الله ؟ قال له : وأين أنت [منه] فى الحسب أم فى كثرة المال ؟ قال : فيهما جميعاً ، قال : إن الحسب فى الرجل مروءته وحسن فعله ، فإذا فعلت ذلك كنت حسيباً ، فأعطاه ألفى درهم[١] واعتذر إليه ، فقال له السائل : إن لم تكن عبيد الله فأنت خير منه ، وإن كنت هو[٢] فأنت اليوم خير منك أمس ، فأعطاه ألفاً أيضاً ، فقال : لئن كنت عبيد الله إنك لأسمح أهل دهرك ، وما إخالك إلا من رَهْطٍ فيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسألك بالله أأنت هو ؟ قال : نعم ، قال : والله ما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحى ، وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون إلا فى نبى أو عترة نبى .

وذكر أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم ، ثم وَجَّه [له] من يتعرّف له خبره، فانصرف إليه فأعلمه أنه قسمها فى سُمَّاره وإخوانه حصصاً بالسوية ، وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم ، فقال معاوية : إن ذلك ليسوءنى ويسرنى ، فأما الذى يسرنى فإن عبد مناف والده ، وأما الذى يسوءنى فقرابته من أبى تراب [دونى] .

قال المسعودى : وقد قدمنا خبر مقتل ابنى عبيد الله فيما سلف من هذا الكتاب ، وهما عبد الرحمن وقُثَم ، وما رثتهما به أمهما أم حكيم جويرية بنت فارط[٣] بن خالد الكنانية .

عبيد الله ابن العباس وبسر بن أرطاة

وقد كان عبيدالله بن العباس دخل يوماً على معاوية وعنده قاتلُهما بُسْرُ ابن أرْطَاةَ العامرى ، فقال له عبيد الله : [أيها الشيخ] أنت قاتل الصبيين ؟ قال : نعم ، قال : والله لوددت أن الأرض أنبتتنى عندك يومئذ ، فقال له بُسْرٌ : فقد أنبتتك الساعة ، فقال عبيد الله : ألا سيف ، فقال بُسْرٌ : هاك

(١) فى ا « فأعطاه ألف درهم » .
(٢) فى ا « وإن تكن هو » .
(٣) فى ا « جويرية بنت قارظ » .

Marfat.com

سيفى ، فلما هوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله قبض معاوية ومَنْ حضره على يد عبيدالله قبل أن يقبض على السيف ، ثم أقبل معاوية على بُسْرٍ فقال: أخزاك الله من شيخ !! قد كبرت وذُهِل عقلك ، تعمد إلى رجل موتور من بنى هاشم فتدفع إليه سَيْفَكَ ، إنك لغافل عن قلوب بنى هاشم ، والله لو تمكن من السيف لبدأ بنا قبلك ، قال عبيدالله : ذلك والله أردت .

وكان على عليه السلام — حين أتاه خبر قتل بُسْرٍ لابنى عبيد الله قُثَمَ وعبد الرحمن — دعا على بسر ، فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله ، فخرف الشيخ حتى ذُهِل عقله ، واشتهر بالسيف فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل بين يديه[1] زق منفوخ [يضربه ، و] كلما تخرق أبدل، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف ، حتى مات ذاهل العقل يلعب بخرئه[2] ، وربما كان يتناول منه ثم يقبل على مَنْ يراه فيقول : انظروا كيف يطعمنى هذان الغلامان ابنا عبيد الله ؟ وكان ربما شدت يداه إلى وراء منعاً من ذلك فأنجى ذات يوم فى مكانه ، ثم أهوى بفيه فتناول منه، فبادروا إلى منعه ، فقال : أنتم تمنعوننى وعبدُ الرحمن وقثم يطعمانني ، ومات بسر فى أيام الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين .

موت عبد الله ابن عتبة بن مسعود الهذلى

وفيها مات عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى ، وعتبة مهاجر ، وهو أخو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن مخزوم بن صبح[3] ابن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ، وكانت الرياسة فى الجاهلية فى صبح[3] بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، وكان عبيد الله ولد عبد الله بن عتبة من كبار أهل العلم ، وذكر ابن أبى خيثمة قال : سمعت ابن الأصبهانى يقول: قال سفيان : قال الزهرى : كنت أظن أنى نلت من العلم ، حتى جالست عبيد الله بن عبد الله فكأنما هو البحر .

(١) فى ب « وجعل فى يديه » .

(٢) فى ا « يلعب بنجوه » .

(٣) فى ا « صبيح » .

Marfat.com

مقتل سعيد ابن جبير

وفى سنة أربع وتسعين قَتَلَ الحجاجُ سعيدَ بن جُبَيْرٍ ، فذكر عون بن أبي راشد العبدى قال : لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل إليه قال له : ما اسمك ؟ قال: اسمى سعيد بن جبير ، قال : بل شقى بن كسير ، قال : أبى كان أعلم باسمى منك ، قال : لقد شقيت وشقى أبوك ، قال له : الغيب إنما يعلمه غيرك ، قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلهاً غيرك ، قال : فما قولك فى الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل ، قال : فاختر أى قتلة تريد أن أقتلك ، قال : بل اختر يا شقى لنفسك ، فوالله ماتقتلنى اليوم بقتلة إلا قتلتك فى الآخرة بمثلها ، فأمر به الحجاج ، فأخرج ليقتل ، فلما ولى ضحك ، فأمر الحجاج برده ، وسأله عن ضحكه ، فقال : عجبت من جزاءتك على الله وحلم الله عنك ، فأمر به فذبح ، فلما كبَّ لوجهه[1] قال : أشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن [بالله] ثم قال : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدى ، فذبح واحتز رأسه .

ولم يعش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت فى جوفة الأكلة فمات من ذلك ، ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد : يا قوم ، مالى ولسعيد بن جبير ؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى .

بين الوليد وأخيه سليمان

واشتكى الوليد ، فبلغه عن أخيه سليمان تمنَّى لموته[2] لما له من العهد بعده ، فكتب إليه الوليد يعتب عليه الذى بلغه ، وكتب فى [آخر] كتابه هذه الأبيات :

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ
لعلَّ الذى يرجو فنائى ويدعى به قبل موتى أن يكون هو الرَّدِى
فما موت مَنْ قد مات قبلى بضائرى
ولا عيش من قد عاش بعدى بمُخْلِدِى

(١) فى ا « فلما كب على وجهه » .
(٢) فى ا « أنه تمنى لموته » .

Marfat.com

[فقل للذى يرجو خلاف الذى مضى :
تَزَوَّدْ لأخرَى غيرها فكأنْ قَدِ][1]

منيته تجرى لوقت ، وَحَتْفُهُ سيلحقه يوماً على غير مَوْعِدِ

فأجابه سليمان : فهِمْتُ ما قال أمير المؤمنين ، ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال إنى لأولا حقٍ به ومنعىً إلى أهله ، فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها إلا بقدر مايحل السفر بمنزل ثم يظعنون عنه ؟ وقد بلغ أميرَ المؤمنين مالم يظهر من لفظى ، ولا يرى من لحظى، ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل النميمة ، ومن ليست له روية[2] أوشك أن يسرع فى فساد النيات ، ويقطع بين ذوى الأرحام والقرابات ، وكتب فى أسفل الكتاب :

ومن لا يغمِّضْ عينه عن صديقه وعن بعض مافيه يَمُتْ وَهْوَ عاتب[3]
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يَجِدْهَا ولم يسلم لهُ الدَّهر صاحب[4]

فكتب إليه الوليد : ما أحسن ما اعتذرت به ، وحذوت عليه ، وأنت الصادق فى المقال ، والكامل فى الفعال ، وماشىء أشبه بك من اعتذارك ، ولا أبعد مما قيل فيك ، والسلام .

وكان الوليد متحنناً على إخوته ، مراعياً لسائر ما أوصاه به عبد الملك ، وكان كثير الإنشاد لأبيات قالها عبدالملك حين كتب [إليه ب]بوصيته منها :

انفُوا الضغائن عنكمُ وعليكم عند المغيب وفى حضور المَشْهَدِ
فصلاحُ ذات البين طولُ بقائكم إن مُدَّ فى عمرى وإن لم يمدد
[فلمثل ريب الدهر ألَّفَ بينكم بتواصل وتراحم وتودُّد][5]
حتى تلين جلودكم وقلوبكم بمسوِّدٍ منكم وغير مسود

(١) هذا البيت لا يوجد فى ا (٢) فى ا « ومن ليست له رواية » .
(٣) فى ا « ومن لم يغمض » (٤) فى ا « ولا يسلم له الدهر صاحب»
(٥) هذا البيت لا يوجد فى ا

Marfat.com

إن القداح إذا اجتمعن فرَامَهَا بالكسر ذو حَنَق وبَطْش باليدِ
عَزّتْ فلم تكسر، وإن هى بُدِّدت فالوهن والتكسير للمتبدد

وصية عبد الملك لأولاده

وكان عبد الملك مواظباً على حث أولاده على اصطناع المعروف ، وبعثهم على مكارم الأخلاق ، وقال لهم : يا بنى عبدالملك ، أحسابكم أحسابكم[(١)] ، صونوها ببذل أموالكم ، فما يبالى رجل [منكم] ماقيل فيه من الهجو[(٢)] بعد قول الأعشى :

تبيتون فى المَشْتَى مِلاَء بطونكم وجاراتكم غَرْثَى يبتن خمائصا

وما يبالى قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير :

على مكثريهم حَقٌّ من يعتريهم وعند المقلين السماحةُ والبذلُ

حدث عبد الله بن إسحاق بن سلام ، عن محمد بن حبيب ، قال : صعد الوليد المنبر فسمع صوت ناقوس فقال : ماهذا ؟ قيل : البيعة ، فأمر بهدمها ، وتولى بعض ذلك بيده ، فتتابع الناس يهدمون ، فكتب إليه الأخرم ملك الروم : إن هذه البيعة قد أقرها مَنْ كان قبلك ، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت ، وإن تكن أصبت فقد أخطأوا ، فقال : مَنْ يجيبه ؟ فقال الفرزدق : أنا ، فكتب إليه (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكماً وعلماً) .

موت الحجاج

ومات الحجاج فى سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة بواسط العراق ، وكان تأمُّرُهُ على الناس عشرين سنة ، وأحصى من قتله صبراً سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً ، ومات وفى حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفاً مجردة ،

---

(١) فى ا « أحسابكم أحسانكم » .
(٢) فى ا « من المدح » وليس بشىء .

Marfat.com

وكان يحبس[1] النساء والرجال فى موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من المطر والبرد فى الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه فى الكتاب الأوسط .

وذكر أنه ركب يوماً يريد الجمعة ، فسمع ضجة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : المحبوسون يضجون ويشكون ماهم فيه من البلاء ، فالتفت إلى ناحيتهم وقال : (اخسأوا فيها ولا تكلمون) فيقال : إنه مات فى تلك الجمعة ، ولم يركب بعد تلك الركبة .

قال المسعودى : ووجدت فى كتاب عيون البلاغات مما اختبر من كلام الحجاج قوله : ما سلبت نعمة إلا بكفرها ، ولا نَمَتْ إلا بشكرها[2]

وقد كان الحجاج تزوج إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب حين أَمْلَقَ عبدُ الله وافتقر ، وقد ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » الخبر فى ذلك ، وتهنئة ابن القِرِّية الحجاج بذلك .

موت عبد الله ابن جعفر

وقد كان عبد الله بن جعفر [بن أبى طالب] من الجود بالموضع المعروف ، ولما قلّ مالُه سمع يوم الجمعة[3] فى المسجد الجامع وهو يقول : اللهم إنك [قد] عودتنى عادة فعودتُهَا عبادَكَ ، فإن قطعتها عنى فلاتبقنى ، فمات فى تلك الجمعة ، وذلك فى أيام عبد الملك [بن مروان] وصلى عليه أبَانُ بن عثمان بمكة ؛ وقيل : بالمدينة ، وهى السنة التى كان بها السيل الجحاف الذى بلغ الركن وذهب بكثير من الحجاج .

وفى هذه السنة كان الطاعون العامُّ بالعراق والشام ومصر والجزيرة والحجاز وهى سنة ثمانين .

---

(١) فى ا « وقد كان محبس النساء والرجال » .

(٢) فى ا « ولا نمت إلا بشكرها » .

(٣) فى ا « فى يوم جمعة » .

Marfat.com

وقبض عبد الله بن جعفر وهو ابن سبع وستين ، وولد بالحبشة حين هاجر جعفر إلى هنالك ، وقيل : إن مولده كان فى السنة التى قبض فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل غير ذلك .

وذكر المبرد والمدائنى والعتبي وغيرهم من الأحباريين أن عبد الله عوتب على كثرة إفضاله ، فقال: إن الله تعالى عوَّدنى أن يُفْضِل علىَّ ، وعوَّدْتُه أن أفضل على عباده ، فأكره أن أقطع العادة عنهم فيقطع العادة عنى .

ووفد عبد الله على معاوية ، بدمشق ، فعلم به عمرو بن العاص قبل دخوله دمشق[١] ، أخبره بذلك مولًى له كان قد سار مع ابن جعفر من الحجاز فتقدَّمه بمرحلتين إلى دمشق ، فدخل عمرو على معاوية وعنده جماعة من قريش من بنى هاشم وغيرهم : منهم عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال عمرو : قد أتاكم رجل كثير الخلوات بالتمنِّى ، والطرقات بالتغنِّى ، آخذ للسلف ، منقاد بالسرف[٢] ، فغضب عبد الله بن الحارث ، وقال لعمرو : كذبت وأهلُ ذلك أنت ، ليس عبد الله كما ذكرت ، ولكنه لله ذَكُور ، ولبلائه شَكُور ، وعن الخنا نفُور ، ماجد مهذب كريم سيد حليم ، إن ابتدأ أصاب ، وإن سئل أجاب ، غير حَصِر ولا هياب ، ولا فَحاش ولا سَبَّاب ، كالهِزَبْر الضِّرْغام ، الجرىء المقدام ، والسيف الصمصام ، والحسيب القمقام[٣] ، وليس كمن اختصم فيه من قريش شرارها ، فغلب عليه جزَّارها[٤] ، فأصبح ألأمها حسباً ، وأدناها منصباً[٥] ، يلوذ منها بذليل ، ويأوى إلى قليل ، وليت شعرى بأى حسب تتناول ؟ أو بأى قدم تتعرض؟ غير أنك تعلو بغبر[٦] أركانك ، وتتكلم بغير لسانك ، ولقد كان أبر فى الحكم ، وأبين فى الفضل ، أن يكفَّكَ ابن أبى سفيان عن وَلوعك

(١) فى ا « قبل دخوله بدمشق » (٢) فى ا « متقاربا بالشرف »
(٣) فى ا « والحسب القمقام » . (٤) فى ا « فغلب عليه جوارها » .
(٥) فى ا « وأدناها نسبا » . (٦) فى ا « تعطف بغير أركانك » .

Marfat.com

بأعراض قريش ، وأن يكعمك كعام الضبع فى وجارها ، ولست لأعراضها بوفى ، ولا لأحسابها بكفى ، وقد أتيح لك ضَيْغم شَرِس ، للأقران مختلس ، وللأرواح مفترس ، فهمَّ عمرو أن يتكلم ، فمنعه معاوية من ذلك ، وقال عبد الله بن الحارث : لا يُبْقِ المرء إلا على نفسه ، والله إن لسانى لحديد ، وإن جوابى لعتيد ، وإن قولى لسديد[١] ، وإن أنصارى لشُهُود ، فقام معاوية وتفرق القوم .

ولعبد الله بن جعفر [بن أبى طالب] أخبار حسان فى الجود والكرم وغير ذلك من المناقب ، وقد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وإنما كان تزوج الحجاج إليه يبتذل بذلك[٢] آل أبى طالب .

كتاب من عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يغلظ له أمر الخوارج مع قَطَرِى ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنى أحمد إليك السيف ، وأوصيك بما أوصى به البكرى زيداً ، فلم يفهم الحجاج ما عَنَاه عبد الملك ، وقال : مَنْ جاء بتفسير ما أوصى به البكرى زيداً فله عشرة آلاف درهم ، فورد رجل من الحجاز يتظلّم من بعض عماله ، فقيل له : أتعلم ما أوصى به البكرى زيداً ؟ قال : نعم ، قالوا : فأت الحجاج به ولك عشرة آلاف درهم ، فأتاه فأحضره ، فقال : أوصاه بأن قال :

أقول لزيد لا تُــبَرْبِرْ فإنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلى[٣]
فإن وَضَعُوا حرباً فَضَعْهَا ، وإن أبوا فشُبَّ وَقُودَ الحرب بالحطب الجزل
وإن عَضَّتِ الحرب الضَّرُوس بنابها فعرضة حد السيف مثلك أو مثلى

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين وصدق البكرى .

كتاب من الحجاج إلى المهلب

وكتب إلى المهلب : إن أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرى زيداً ، وأنا أوصيك [به و] بما أوصى به الحارث بن كعب بنيه ، فأتى المهلب بوصيته

(١) فى ا « وإن قولى لشديد » .
(٢) فى ا « ليذل بذلك آل أبى طالب » .
(٣) فى ب « لاتبر فإنهم » .

فإذا فيها : يا بَنِيَّ ، كونوا جميعاً ولا تـكونوا شَتَّى فتفرقوا ، وبروا قبل أن تبروا ، فموت فى قوة وعز ، خير من [حياة فى] ذل وعجز ، فقال المهلب : صدق البكرى والحارث بن كعب .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج : جَنِّبْنِى دماء آل أبى طالب ؛ فإنى رأيت الملك استوحش[1] من آل حرب حين سفكوا دماءهم ، فكان الحجاج يتجنبها خوفاً من زوال الملك عنهم ، لا خوفاً من الخالق عز وجل .

ليلى الأخيلية والحجاج

ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت : أصلح الله الأمير ! ! أتيت لإخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكَلَبِ البرد ، وشدة الجَهْد ، قال : فأخبرينى عن الأرض ، قالت : الأرض مقشعرة ، والفجاج مغبرة ، والمقتر[2] مقل ، وذو العيال مختل ، والبائس معتل ، والناس مُسْنِتُونَ ، رَحْمَةَ الله يرجون ، قال : أى النساء تختارين تنزلين عندها ؟ قالت : سَمِّهن لى ، قال : عندى هند بنت المهلب ، وهند بنت أسماء بن خارجة ، فاختارتها فدخلت عليها ، فصَبَّتْ حليها عليها حتى أثقلها ؛ لاختيارها إياها ودخولها عليها دون مَنْ سواها .

ابن عم للحجاج يطلب منه أن يوليه فيمتحنه فيوليه فينجح

حدثنا المنقرى قال : حدثنا العتبى ، عن أبيه ، قال : قدم على الحجاج ابن عم له [أعرابى] من البادية فنظر إليه يُولِّى الناس ، فقال له : أيها الأمير ، لم لا توليني بعض هذا الحضر ؟ فقال الحجاج : هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب ، فغضب الأعرابى وقال : بلى إنى والله لأَحْسَبُ منهم حسباً ، وأكتب منهم يداً ، فقال له الحجاج : فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس ، فما زال يقول : ثلاثة دراهم بين أربعة ، ثلاثة بين أربعة ، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء ، كم هم أيها الأمير ؟ قال : هم أربعة ، قال : نعم أيها الأمير ، قد وقفت على الحساب ، لكل واحد منهم درهم ، وأنا أعطى الرابع

(١) فى ب « فإنى رأيت الموت استوحش — إلخ » .
(٢) فى ب « والمقتل مغل ، وذو الغنى مجل ، والبائس مقل » .

Marfat.com

منهم درهماً من عندى وضرب بيده إلى تكته فاستخرج منها درهما ، وقال : أيكم الرابع فلاها الله ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين ، فضحك الحجاج ومَنْ معه ، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج : إن أهل إصبهان كسروا خَرَاجهم ثلاث سنين ، كلما أتاهم وَالٍ أعجزوه ، فلأرمينهم ببدوية هذا وعنجهيته ، فأخلِقْ به أن ينجب ، فكتب له عهده على إصبهان ، فلما خرج استقبله أهل إصبهان واستبشروا به ، وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله ، وقد استغمروه ، وقالوا : أعرابى بدوى ما[ذا] يكون منه ؟ فلما أكثروا عليه[1] قال : أعينوا علَىَ أنفسكم[2] وتقبيلكم أطرافى وأخِّرُوا عنى هذه الهيآت ، أما يشغلكم ما أخرجنى له الأمير ؟ فلما استقر فى داره بأصبهان جمع أهلها فقال [لهم] : مالكم تَعْصُونَ ربكم وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم ؟ فقال قائلهم: جَوْرُ مَنْ كان قبلك ، وظلم من ظلم، قال : فما الأمر الذى فيه صلاحكم ؟فقالوا: تؤخر نا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك ، قال : لكم عشرة وتأتونى بعشرة ضمناء يضمنون ، فأتوه بهم، فلما توثقَ منهم أمهلهم ، فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما يدنو[3] من الأجل ، فقال لهم ، فلم ينتفع بقوله ، فلما طال به ذلك جمع الضمناء وقال لهم: المال ، فقالوا : أصابنا من الآفة ما نقض ذلك ، فلما رأى ذلك منهم آلى أن لا يفطر — وكان فى شهر رمضان — حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم ، ثم قَدَّم أحدهم فضرب عنقه ، وكتب عليه فلان بن فلان أدى ما عليه ، وجعل رأسه فى بدرة وختم عليها ، ثم قَدَّم الثانى ففعل به مثل ذلك ، فلما رأى القوم الرءوس تبذر وتجعل فى الأكياس بدلا من البِدَرِ[4] قالوا: أيها الأمير، توقفْ علينا حتى نحضر لك المال

(١) فى ا « فلما أكثروا تملقه » .

(٢) فى ا « اغنوا عنى أنفسكم » .

(٣) فى ب « لما ندبوا من الأجل » .

(٤) فى ا « عوضا من البدر » .

ففعل ، فأحضروه فى أسرع وقت ، فبلغ ذلك الحجاج ، فقال : إنا معاشر آل محمد - يعنى جَدَّه - وَلَدُنَا نجيب ، فكيف رأيتم فراستى فى الأعرابى؟ ولم يزل عليها والياً حتى مات الحجاج .

إبراهيم التيمى فى سجن الحجاج

وحبس الحجاج إبراهيم التميمى(١) بواسط . فلما دخل السجن وقف على مكان مشرف ونادى بأعلى صوته : يا أهل بلاء الله فى عافيته ، ويا أهل عافية الله فى بلائه ، اصبروا ، فنادوه جميعاً : لبيك ، لبيك ، ومات فى حبس الحجاج ، وإنما كان الحجاج طلب إبراهيم النخعى فنجا ، ووقع إبراهيم التميمى(١) .

وحكى عن الأعمش قال : قلت لإبراهيم النخعى : أين كنت حين طلبك الحجاج ؟ فقال : بحيث يقول الشاعر :

عَوَى الذِّئْب فاستأنست بالذِّئْب إذ عَوَى
وَصَوَّتَ إنْسَـــان فَـكِدْتُ أطِيرُ

الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء

حدثنا الدمشقى الأموى أحمد بن سعيد وغيره ، عن الزبير بن بكار ، عن محمد بن سَلاّم الجمحى ، وحدثنا(٢) الفضل بن الحباب الجمحى [عن محمد ابن سَلاّم] قال : سأل الحجاج ابن القِرِّيَة : أىّ النساء أحمد ؟ قال : التى فى بطنها غلام ، وفى حجرها غلام ، ويسعى لها مع الغلمان غلام ، قال : فأىّ النساء شَرٌّ ؟ قال : الشديدة الأذى ، الكثيرة الشَّكْوَى ، المخالفة لما تهوى ، فقال : أىّ النساء أعجب إليك ؟ قال : الشفاء العطبول(٣) ، المنعاج الكسول ، التى لم يَشِنْهَا قصر ولا طول ، قال : فأىّ النساء أبغض إليك ؟ قال : الرعينة(٤) القصيرة ، الباهق الشريرة ، قال : فأخبرنى

(١) فى ا « إبراهيم التيمى » .
(٢) فى ا « قال : حدثنا الفضل بن الحباب» .
(٣) فى ا « البيضاء العطبول ، المعناج الكسول » .
(٤) فى ا « الرغيفة القصيرة ، البهلق الشريرة » .

Marfat.com

عن أفضل النساء [مَخْبراً وأطيبهن أعطافاً] ؟ قال : [أفضل النساء] الفَضّة البَضّة ، التى أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب ، اللَّعْساء الورهاء[١] ، التى لم تذهب طولا فى انحطاط ، ولم تلصق قصراً فى إفراط ، الجَعْدة الغدائر ، السَّبْطَة[٢] الضفائر ، الضخمة المآكم ، الطَّفْلَة البراجم ، إذا رأيت أناملها شبهتها بالمدارى ، وإذا قامت خلتها سارية من السوارى ، فتلك تهيج المشتاق ، وتُحْيِي العاشق بالعناق .

قال المسعودى : وللوليد بن عبد الملك أخبار حسان لما كان فى أيامه من الكوائن والحروب ، وكذلك الحجاج ، وقد أتينا على كثير من مبسوطها فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب مالم نورده فى ذَيْنِك الكتابين ، كما أن ما ذكرناه فى الكتاب الأوسط [هو ما] لم نورده فى كتاب « أخبار الزمان » والله أعلم .

(١) فى ا « اللعساء الدرماء » .
(٢) فى ا « الجشعة الضفائر » .

Marfat.com

ذكر أيام سليمان بن عبد الملك

[و] بويع سليمان بن عبد الملك بدمشق فى اليوم الذى كانت فيه وفاة الوليد ، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين من الهجرة ، وتوفى سليمان بمرج دَابِقٍ من أعمال جند قنسرين[1] يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ؛ فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليالٍ ، وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وعهد إلى عمر بن عبد العزيز ، وقيل : إن وفاة سليمان كانت يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من صفر سنة تسع وتسعين ، وإن ولايته سنتان[2] وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، على حسب ما وجدنا [ه] من تباين ما فى كتب التواريخ والسِّيَر ، وسنذكر جمل أيامهم فى باب نُفْرِده فيما يرد من هذا الكتاب. موجز

وقد تنوزع فى مقدار سِنِّ سليمان : فذكر بعضهم أنه قُبِض وهو ابن خمس وأربعين [سنة] ، ومنهم مَنْ زعم أنه كان ابن ثلاث وخمسين ، وقد قَدَّمنا قول مَنْ قال : إنه قُبِض وهو بن تسع وثلاثين [سنة] ، ووَجَدْتُ أكثر شيوخ بنى مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون إلى أنه كان ابْنَ تسع وثلاثين ، والله أعلم .

---

(١) فى ب « جبل قنسرين » محرفا .

(٢) فى ا « وإن ولايته كانت سنتين ــ إلخ » .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره ، وسيره

خطبته أول ما ولى الخلافة

[و] لما أفْضَى الأمر إلى سليمان صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : الحمد لله الذى ما شاء صنع ، وما شاء أعطى ، وما شاء منع ، وما شاء رفع ، وما شاء وضع ، أيها الناس ، إن الدنيا [دار] غرور وباطل وزينة وتقلُّب بأهلها ، تُضْحِك باكيها ، وتبكى ضاحكها ، وتخيف آمنها ، وتؤمن خائفها ، وتثرى فقيرها ، وتفقر مثريها [ميالة بأهلها] عباد الله ، اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارْضَوا به حكماً ، واجعلوه لكم هاديا ودليلا ، فإنه ناسخ ما قبله ، ولا ينسخه ما بعده ، واعلموا عباد الله أنه ينفى عنكم كيد الشيطان ومطامعه ، كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا أسفر ، وإدبار الليل إذا عسعس ، ثم نزل وأذن للناس [بالدخول] عليه ، وأقر عمال من كان قبله على أعمالهم ، وأقر خالد بن عبد الله القَسْرِى على مكة .

خالد القسرى فى مكة

وقد كان خالد أحْدَثَ بمكة أحداثاً : منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة ، وقد كان قبل ذلك صفوف الناس فى الصلاة بخلاف ذلك ، وبلغه قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد[1]

وحبـــذا اللاتى تزاحمننا عند استلام الْحَجَرِ الأسود

فقال خالد : أما إنهن لا يزاحمنك بعدها[2] أبداً ، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف .

كان سليمان أكولا

وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوَشْىِ ، وفى أيامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية ، ولبس

(١) فى ا « وحبذا الكعبة من مشهد » .

(٢) فى ا « بعد هذا أبدا » .

Marfat.com

الناس جميعاً الوشي جِباباً وأرْدِيَةً وسراويل[١] وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل[٢] من أهل بيته إلا فى الوَشْيِ ، وكذلك عُمَّاله وأصحابه ومَنْ فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه أحد من خُدَّامه إلا فى الوَشْيِ ، حتى الطباخ ؛ فإنه كان يدخل إليه فى صدره وشى وعلى رأسه طويلة وشى ، وأمر أن يكفن فى الوشى [المثقلة] وكان شبعه فى كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقى ، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التى فيها الدجاج المشوية وعليه جُبَّة الوشى المثقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يُدْخِل يده فى كمه حتى يقبض[٣] على الدجاجة وهى حارة فيفصلها .

وذكر الأصمعى قال : ذكرت للرشيد نَهَمَ سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد ، فقال : قاتلك الله فما أعلمك بأخبارهم ، إنه عرضَتْ علىَّ جباب بنى أمية ، فنظرتُ إلى جباب سليمان وإذا كل جبة منها فى كمها [أثر كأنه] أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى بالحديث[٤] ، ثم قال : على بجباب سليمان ، فأتى بها ، فنظرنا فإذا تلك الآثار فيها ظاهرة ، فكسانى منها جُبة ، فكان الأصمعى ربما يخرج أحيانا فيها فيقول : هذه جُبة سليمان التى كسانيها الرشيد .

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتدَّ جوعه ، فاستعجل الطعام ، ولم يكن فرغ منه ، فأمر أن يقدم [عليه] ما لحق من الشواء ، فقدم إليه عشرون خروفا ، فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئاً .

وحكى أنه كان يتخذ سلال الحلوى ، ويجعل ذلك حول مرقده ، فكان إذا قام من نومه يمدُّ يده فلا تقع إلا على سلة يأكل منها .

---

(١) فى ا « وسراويلات » . (٢) فى ا « أحد من أهل بيته »

(٣) فى ب « حتى يقضى على الدجاجة » .

(٤) فى ا « بذلك الحديث » .

Marfat.com

لبس سليمان فأعجبته نفسه

حدث المنقرى ، عن العتبى ، عن إسحاق بن إبراهيم بن الصباح بن مروان – وكان مولى لبنى أُمية من أرض البلقاء من أعمال دمشق ، وكان حافظاً لأخبار بنى أُمية – قال: لبس سليمان يوم الجمعة فى ولايته[١] لباساً شهر به ، وتعطر ، ودعا بتخت فيه عمائم ، وبيده مرآة ، فلم يزل يعتمُّ بواحدة بعد أخرى حتى رضى منها بواحدة ، فأرخى من سُدُولها ، وأخذ بيده مخصرة ، وعلا المنبر ناظراً فى عطفيه ، وجمع جمعه[٢] ، وخطب خطبته التى أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد المهاب[٣] ، الكريم الوهاب ، فتمثلت له جارية من [بعض] جواريه وكان يتحظاها ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه مُنَى النفس وقُرَّة العين ، لولا ما قال الشاعر ، قال : وما قال الشاعر ؟ قالت : قال :

أنتَ نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بَقَاء للإنسان
أنت مَنْ لا يَرِيبنا منك شىء علم الله غير أنك فانى[٤]
[ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ يا سليمان غير أنك فان][٥]

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين ؟ قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ولا دخلت عليه ، فأكبره ذلك ، ودعا بقَيِّمَةِ جواريه فصدقتها فى قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مُدَيْدَةً[٦] حتى توفى .

وكان سليمان يقول : قد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللين ، وركبنا الفَارِهَ ، ولم يبق [لى] لذة إلا صديق أطرح معه فيما بينى وبينه مؤنة التحفظ .

بين سليمان وكاتب الحجاج

وأدخل عليه يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج والمستولى عليه ، وهو

(١) فى ا « من ولايته لباسا تشهر به » . (٢) فى ا « وجمع حشمه » .
(٣) فى ا « السيد الحجاب » . (٤) فى ا « ليس أنا يريبنا منك شىء » .
(٥) هذا البيت لا يوجد فى ا .
(٦) فى ب « إلا مدة »

Marfat.com

مكبل بالحديد ، فلما رآه ازْدَرَاهُ ، فقال: ما رأيت كاليوم قط . لعَنَ الله رجلا أجَرَّكَ رَسَنَه ، وحكمك فى أمره ، فقال له يزيد : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنك رأيتنى والأمر عنى مُدْبِر ، وعليك مُقْبل ، ولو رأيتنى والأمر مقبل علىّ لاستعظمت منى ما استصغرت ، ولاستجللت منى ما استحقرت ، قال: صدقت فاجلس لاأم لك، فلما استقر به المجلس قال له سليمان : عزمت عليك لتخبرنى عن الحجاج ماظنك به أتراه يَهْوِى بعدُ فى جهنم أم قد استقر فيها ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل هذا فى الحجاج(١) ، فقد بذل لكم نصحه ، وأحْقَنَ دونكم دمه ، وأمَّنَ وليكم ، وأخاف عدوكم ، وإنه يوم القيامة لعَنْ يمين أبيك عبد الملك ، ويسار أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ، فصاح سليمان : اخْرُجْ عنى إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه فقال : قبحه الله !! ما كان أحسن ترتيبه(٢) لنفسه ولصاحبه ، ولقد أحسن المكافأة ، أطلقوا سبيله .

بين سليمان وأبى حازم الأعرج

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ، مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ، قال : فأخبرنى كيف القدومُ على الله ؟ قال: أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسروراً ، وأما المسىء فكالعبد الآبق يأتى مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعْدَلُ ؟ قال : كلمة حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعْقَلُ ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : مع باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عِظْنِى وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، نَزِّه ربك(٣) وعَظمه بحيث أن يراك تجتنب ما نهاك عنه ولا يفقدك من حيث أمرك به ، فبكى سليمان بكاء شديداً ،

(١) فى ا « لاتقل هذا للحجاج » .
(٢) فى ا « ما كان أحسن تربيته لنفسه » .
(٣) فى ا «عظم ربك وإياك أن يراك بحيث نهاك عنه ويفقدك من حيث أمرك»

Marfat.com

فقال له بعض جلسائه : أسرفت ويحك على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم: اسكت فإن الله عز وجل أَخَذَ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج ، فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمالٍ ، فرده ، وقال للرسول: قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ .

بين سليمان وأعرابى

وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : حدثنى الأصمعى ، عن شيخ من المَهَالِبَة ، قال : دخل أعرابى على سليمان فقال له: يا أمير المؤمنين ، إنى أريد أن أكلمك بكلام فافهمه ، فقال له سليمان : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غِشّه ، وأرجو أن تكون الناصح جَيْباً ، المأمون غيباً ، فهات ، قال : يا أمير المؤمنين ، أما إذ أمنتُ بادرة غضبك فسأطلق لسانى بما خَرِسَتْ به الألسُنُ من عظتك[1] تأديَةً لحق الله وحق أمانتك[2] ، يا أمير المؤمنين ، إنه قد تَكَنَّفَكَ رجال أساءوا الاختيار[3] لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، حَرْب للآخرة وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه ، فإنهم لم يأتوا إلا ما فيه تضييع وللأمة خسف وعسف ، وأنت مسئول عما اجترموا ، ولَيْسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبناً[4] بائع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سَلَلْتَ [علينا] لسانَكَ ، وهو أقطع من سيفك ، فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك ، فقال سليمان : أما وأبيك يا أعرابى لا تزال العربُ بسلطاننا لأكناف العز مُتَبَوِّئَةً ، ولا تزال أيام دولتنا بكل خير مُقْبلة ، ولئن ساسكم ولاة غيرنا ليُحْمَدُنَّ منا ما أصبحتم تذمُّونَ ، فقال الأعرابى : أما إذا رجع الأمر إلى ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصِنْو أبيه ووارث ماجعله الله له أهلا فلا ،

(١) فى ب « من عظمتك » .
(٢) فى ا « وحق إمامتك » .
(٣) فى ب « وأساءوا الإحسان » (٤) فى ب « فإن أعظم الناس عيبا »

Marfat.com

فتغافل سليمان كأنْ لم يسمع شيئاً ، وخرج الأعرابى فكان آخر العهد به ، هذا الخبر أخبرنى به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة أبى جعفر المنصور ، وهو ابن ديهة المنصورى(١) ، عن أبيه ، عن على بن جعفر النوفلى ، عن أبيه ، وذلك فى سنة ثلثمائة .

سليمان يصف معاوية

وذُكِرَ معاوية بن أبى سفيان فى مجلس سليمان ، فصلّى على روحه وأرواح من سلف من آبائه ، وقال : كان والله هَزْلُه جِدًّا ، وجِدْه علماً ، والله ما رُئى مثل معاوية ، كان والله غضبه حلماً ، وحلمه حكما ، وقيل : إن هذا الكلام لعبد الملك .

خالد القسرى فى العراق

وكتب سليمان إلى خالد بن عبد الله القَسْرِى وهو على العراق(٢) فى رجل استجار به من قريش ، وكان هرب من خالد ، أن لا يعرض له ، فأتاه بالكتاب فلم يَفُضّه حتى ضربه مائة سوط ، ثم قرأه ، فقال : هذه نقمة أراد الله أن ينتقم بها منك لتركى قراءة الكتاب ، ولو كنت قرأته لأنفذت ما فيه ، فخرج القرشى راجعاً إلى سليمان ، فسأله الفرزدق وأناس ممن كان بالباب عما صنع خالد ، فأخبرهم ، فقال الفرزدق فى ذلك :

سَلُوا خَالداً لا قَدّس الله خالداً ... مَتَى وَلِيت قَسْرٌ قُرَيْشاً تَدِينُهَا
أَقَبْلَ رسول الله أم بَعْدَ عهده ... فأَضْحَت قُرَيْشٌ قد أغثّ سَمِينُهَا؟
رَجَوْنا هُدَاه لا هَدَى الله سَعْيَهُ ... وما أُمه بالأم يُهْدَى جَنِينُهَا

فلما بلغ سليمان ذلك وجّه إلى خالد مَنْ ضربه مائة سوط ، فقال الفرزدق فى ذلك من أبيات :

لعمرى لقد صُبّتْ على ظهر خالدٍ ... شآبِيبُ لَيْسَتْ من سَحَاب ولا قَطْرِ
أتضرب فى العصيان من ليس عاصياً ... وتَعْصِي أمير المؤمنين أخَا قَسْرِ

(١) فى ب « وهو ابن بريهة » .
(٢) فى ا « وهو على الحجاز » .

Marfat.com

فلولا يَزِيدُ بْنُ المهلب حَلَّقَتْ بكفك فَتْخَاءُ إلى الفرخ فى الوَكْرِ [(١)]
لعمرى لقد سار ابن شيبة سِيرَةً أرَتْكَ نجومَ الليل مُظْهِرَةً تجرى
[نخذ بيديك الخِزْىَ حقاً ؛ فإنما جُزِيتَ قصاصاً بالمرجرجة السُّمْرِ] [(٢)]

بين سليمان وعمر ابن عبد العزيز

وقال سليمان لعمر بن عبد العزيز يوماً وقد أعجبه سلطانه : كيف ترى ما نحن فيه ؟ قال : سرور لولا أنه غرور ، وحياة لولا أنه موت ، وملك لولا أنه هلك ، وحسن لولا أنه حزن ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم ، فبكى سليمان من كلامه .

سليمان على الضد من الوليد

وكان سليمان بخلاف الوليد ، وعلى الضد منه فى الفصاحة والبلاغة ، وقد كان الوليد أفسد فى أرضٍ لعبد الله بن يزيد بن معاوية ، فشكا ذلك أخوه خالد بن يزيد إلى عبد الملك ، فقال [له عبد الملك] : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) الآية ، فقال له خالد : (وإذا أردنا أنْ نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) الآية ، فقال عبد الملك : أفى عبد الله تتكلم وبالأمس دخل علىَّ فغير فى لسانه [(٣)] ولحن فى كلامه ؟ فقال : أفعلى الوليد تعول ؟ قال : إن كان الوليد يلحن فسليمان أخوه ، قال خالد : وإن كان عبد الله لحاناً فأخوه خالد ، فقال الوليد : أتتكلم ولست فى العير ولا فى النفير ، قال خالد : ألم تسمع ما يقول أمير المؤمنين ، أنا والله ابن العير والنفير ، ولو قلت حُبَيْلَات وغُنَيْمَات والطائف [ورحم الله عثمان] ، قلنا : صدقت ، أراد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَى الحكم بن أبى العاص إلى الطائف فصار راعياً حتى رَدَّه عثمان .

غضب سليمان على خالد القسرى

وغضب سليمان على خالد القَسْرِى ، فلما دخل عليه قال : ياأمير المؤمنين ، إن القدرة تُذْهِب الحفيظة ، وإنك تَجِلُّ عن العقوبة ، فإن تَعْفُ فأهل لذلك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا ، فعفا عنه .

---

(١) فى ا « بكفك فتخاء إلى الفرخ بالوكر » .
(٢) هذا البيت لا يوجد فى ا .
(٣) فى ا « وبالأمس دخل إلى يعثر فى لسانه ويلحن فى كلامه » .

Marfat.com

وذم رجل فى مجلس سليمان الكلام ، فقال سليمان : إنه من تكلم فأحسن قَدَر على أن يصمت فيحسن [وليس مَنْ صمت فأحسن قَدَر على أن يتكلم فيحسن](١) .

ووقف سليمان على قبر ولده أيوب وبه [كان] يكنى ، فقال : اللهم إنى أرجوك له ، وأخافك عليه فحقق رجائى ، وآمن خوفى .

قال المسعودى : ولما دُفن سليمان سمع بعض كتابه وهو يقول أبياتاً منها :

بعض الكتاب ينعى سليمان

وما سالم عما قليل بِسَالم ... وإن كَثُرَتْ أحْرَاسه وكتائبه
وَمَنْ يَكُ ذا بَأسٍ شديد ومنعة ... فعمَّا قليلٍ يهجر الباب حاجبه(٢)
ويصبح بعد الحجب للناس مقصياً ... رهينة بيت لم تستر جَوَانبه(٣)
فما كان إلا الدَّفْن حتى تفرقت ... إلى غَيْرِهِ أحْرَاسه ومواكبه
وَأصْبَحَ مسروراً به كل كاشح ... وأسلمه أحْبَابه وأقاربه
فنفسكَ أكْسِبْهَا السَّعَادَةَ جاهداً ... فكل امرىء رَهْن بما هو كاسبه

قال المسعودى : ولسليمان أخبار حسان لما كان فى مدة ملكه من الكوائن ، [و] قد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً طلباً للإيجاز ، وميلا إلى الاختصار ، وبالله التوفيق .

(١) زيادة عن ا .
(٢) فى ا « ومن يك ذا باب شديد ومنعة » .
(٣) فى ا « رهينة باب لم تستر جوانبه » .

Marfat.com

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

موجز

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ، وهو اليوم الذى مات فيه سليمان ، وتوفى بِدَيْرِ سِمْعَانَ من أعمال حمص مما يلى بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بَقِينَ من رجب سنة إحدى ومائة ؛ فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وقُبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وقبره مشهور فى هذا الموضع إلى هذه الغاية ، مُعَظَّم يَغْشَاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ، لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور[١] غيره من بنى أمية .

وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه !

وقيل : إنه قُبض وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : إحدى وأربعين سنة .

وقد تنوزع أيضاً فى مقدار مدته فى الخلافة ، وقد أتينا على المحصَّلِ من ذلك فى باب مقدار المدة من الزمان وما تملكت فيه[٢] بنو أمية من الأعوام ، فيما يرد من هذا الكتاب .

---

(١) فى ا « كما عرض لقبور غيره » .

(٢) فى ا « وما ملكت فيه بنو أمية » .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره ، وسيره ، وزهده

[رضى الله عنه !]

كيف آلت الخلافة لعمر

لم تكن خلافة عمر فى عَهْدٍ تقدم(١) ، وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حَيْوَة ومحمد بن شهاب الزهرى ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان فى عسكره غازياً ونافراً ، فكتب وصيته ، وأشهدهم عليها ، وقال : إذا أنا مُتُّ فأذِّنوا بالصلاة جامعة ، ثم اقرؤا هذا الكتاب على الناس ، فلما فُرِغ من دَفْنه نودى : الصلاةَ جامعةً ، فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فاشرأبُّوا للخلافة ، وتَشَوَّفُوا نحوها(٢) ، فقام الزهرى فقال : أيها الناس ، أرضيتم مَنْ سَمَّاه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته ؟ فقالوا : نعم ، فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز ومِنْ بعده يزيد بن عبد الملك ، فقام مكحول فقال : أين عمر [بن عبدالعزيز] ؟ وكان عمر فى أواخر الناس ، فاسترجع حين دُعِيَ باسمه مرتين أو ثلاثاً ، فأتاه قوم فأخذوا بيده وعَضُدَيه ، فأقاموه ، وذهبوا به إلى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية ، وللمنبر خمس مَرَاقِيَ ، فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك ، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا ، وبايع الناس جميعاً ، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين .

خلق عمر ودينه

وكان عمر فى نهاية النسك والتواضع ، فصرف عُمَّال مَنْ كان قبله من بنى أمية ، واستعمل أصْلَحَ من قدر عليه ، فسلك عُمَّاله طريقته ، وترك لَعْنَ على عليه السلام على المنابر ، وجعل مكانه (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك غفور رحيم) وقيل : بل جعل مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء

(١) فى ا « عن عهد تقدم » . (٢) فى ا « وتشوقوا نحوها » .

Marfat.com

ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) الآية ، وقيل: بل جعلهما جميعاً ، فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة إلى هذه الغاية .

بين السدى وعمر

ولما استخلف عمر دخل عليه سالم السدى ، وكان من خاصته ، فقال له عمر : أسَرَّكَ ما وَلِيتُ أم ساءك ؟ فقال : سرنى للناس وساءنى لك ، قال : إنى أخاف أن أكون [قد] أوْبَقْتُ نفسى ، قال : ما أحْسَنَ حالك إن كنت تخاف ، إنى أخاف عليك أن لا تخاف[1] ، قال : عِظْنِى ، قال : أبونا آدم أُخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

من طاوس إلى عمر

وكتب طاوس إلى عمر : إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير ، فقال عمر : كفى بها موعظة .

أول خطبة لعمر

ولما أفضى إليه الأمر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال : أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت ، وبقيت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض تنتضل[2] فيهم المنايا ، وهم فيها نُصُب المصائب[3] مع كل جَرْعة شَرَقٌ ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله .

بين عمر وعامله على المدينة

وكتب إلى عامله بالمدينة أن أقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار ، فكتب إليه : إن علياً قد وُلِدَ له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده ؟ فكتب إليه : لو كتبت إليك فى شاة تذبحها لكتبت إلىَّ أسوداء أم بيضاء ، إذا أتاك كتابى هذا فاقْسِمْ فى ولد علىٍّ من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار ، فطالما تَخَطَّتهم حقوقهم ، والسلام .

خطبة أخرى

وخطب فى بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه : أيها

---

(١) فى ا « ما أحسن ذلك إن كنت تخاف ، إنما أخاف عليك ألا تخاف » .

(٢) فى ا « أعراض تنتصل فيهم المنايا » محرفا .

(٣) فى ا « وهم فيها نهب المصائب » .

Marfat.com

الناس إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإنى لست بقاضٍ ، ولكنى منفذ(١) ، ألا وإنى لست بمبتدع ، ولكنى مُتَّبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ ، ولكن الإمام الظالم هو العاصى ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

تقدير ملك الروم لعمر

وبعث عمر وفداً إلى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين ، وحَقٍّ يدعوه إليه ، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسِّرُ عليه ، وهو جالس على سرير ملكه ، والتاج على رأسه ، والبطارقة عن يمينه وشماله ، والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى إليه ما قصدوا له ، فتلقاهم بجميل ، وأجابهم بأحسن الجواب ، وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم ، فلما كان فى غداة غَدٍ أتاهم رسوله ، فدخلوا عليه ، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه ، وقد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة ، فقال : هل تدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : إن صاحب مسلحتى التى تلى العرب جاءنى كتابه فى هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات ، فما ملكوا أنفسهم أن بَكَوْا ، فقال : [ألكم تبكون ، أو لدينكم ، أو له ؟ قالوا : نبكى لأنفسنا ولديننا وله ، قال](٢) لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم ، فإنه [قد] خرج إلى خيرٍ مما خلف ، قد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة ، لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يُحْيِى الموتى لظننت أنه يُحْيِى الموتى ، ولقد كانت تأتينى أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدميهِ(٣) فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب ، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا .

(١) فى ا « ولكنى مقتد » (٢) زيادة عن ا .
(٣) فى ا « تحت قدميه » .

Marfat.com

وصية الأعرج

وكتب عمر إلى أبى حازم المدنى الأعرج أن أوصنى وأوْجِزْ ، فكتب إليه : كأنك يا أمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل ،والسلام .

توقيع لعمر إلى عامل له

ووقّعَ إلى عامل من عماله : قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عَدلْتَ ، وإما اعتزلت ، والسلام .

زهده بعد الخلافة

وذكر المدائنى قال : كان يُشترى لعمر قبل خلافته الحلّة بألف دينار ، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ، فلما أتته الخلافة كان يُشترى له قميص بعشرة دراهم فإذا لبسه استلانه .

وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة فقال لهم : قِفُوا حتى آتى قبور الأحِبَّةِ فأسلم عليهم ، فلما توسَّطها وقف فسلم وتكلم وانصرف إلى أصحابه فقال : ألا تسألونى ماذا قلت لهم وما قيل لى ؟ فقالوا : وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك ؟ قال : مررت بقبور الأحبة فسلمت [عليهم] فلم يردُّوا ، ودعوت[1] فلم يجيبوا ، فبينا أنا كذلك إذا نوديت : يا عمر ، أما تعرفنى ؟ أنا الذى غيرت محاسن وجوههم ، ومزقت الأكفان عن جلودهم ، وقطعت أيديهم ، وأَبَنْتُ أكفهم عن سواعدهم ، ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ ، فوالله ما مضى بعد ذلك إلا أيام حتى لحق بهم .

من مطرف إلى عمر

وذكر المدائنى قال : كتب مطرف إلى عمر : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، لها يجمع مَنْ لا عقل له ، وبها يغتر مَنْ لا علم له ، فكن بها[2] كالمداوى جرحه ، واصبر على شدة الدواء ، لما تخاف من عاقبة الداء .

بين عمر وعبد له

وذكر بعض الأخباريين أن عمر فى عنفوان حداثته جنى عليه عبدٌ له أسود جناية ، فبطحه [وهمّ] ليضربه ، فقال له العبد : يا مولاى ، لم تضربنى ؟ قال : لأنك جنيت كذا وكذا ، قال : فهل جَنَيْتَ أنت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟ قال عمر : نعم ، قال : فهل عَجّل عليك

(١) فى ا « ودعوتهم فلم يجيبوا ، فبينما أنا كذلك إذ نادانى التراب » .

(٢) فى ا « فكن فيها » .

العقوبة ؟ قال : اللهم لا ، قال العبد : فلِمَ تعجل على ولم يعجل عليك ؟ فقال له : قم فأنت حر لوجه الله ، وكان ذلك سبب توبته .

وكان عمر يكثر هذا الكلام فى دعائه فيقول : يا حليما لا يَعْجَلُ على مَنْ عصاه .

بين عمر وغلام ورد عليه فى وفد الحجاز

وذكر جماعة من الأخباريين أن عمر لما ولى الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاماً منهم ، فقدَّموه عليهم ليبدأ بالكلام، فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سناً قال عمر : مهلا يا غلام ، ايتكلم من هو أَسَنُّ منك [فهو أولى بالكلام] فقال : مهلا يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريْهِ لسانه وقلبه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحلية[1] ، يا أمير المؤمنين ، ولو كان التقدم بالسن لكان فى هذه الأمة من هو أسن منك ، قال : تكلم غلام ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى مَنَّ بك علينا ، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا ، وأما الرهبة فقد أَمَّنَنَا الله بعدلك مِنْ جورك ، فقال : عظنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً [من الناس] غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلايغرنّكَ حلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن ثناء الناس عليك، فتزلَّ قدمك ، فنظر عمر فى سن الغلام ، فإذاهو قد أتت عليه بِضْعَ عَشْرَةَ سنةً ، فأنشأ عمر رحمه الله يقول :

تَعَلَّم فليس المرء يُولَدُ عالمـاً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفّتْ عليه المحافل

وقد كان رجل من أهل العراق أتى المدينة فى طلب جارية وصفت له قارئة قوّالة ، فسأل عنها فوجدها عند قاضى المدينة ، فأتاه وسأله أن يعرضها

(١) ا « استجاد له الحلة » .

قصة جارية عند قاضى المدينة

عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أبْعَدْتَ الشقّة فى طلب هذه الجارية ، فما رغبتك فيها ؟ لما رأى من شدة إعجابه بها ، قال : إنها تغنى فتجيد ، فقال القاضى : ما علمت بهذا ، فألح عليه فى عَرْضها ، فعرضت بحضرة مولاها القاضى ، فقال لها الفتى : هات ، فغنت :

إلى خالد حتى أَنَخْنَ بخالد فنعم الفتى يُرْجى ونعم المؤمَّلُ

ففرح القاضى بجاريته وسُرَّ بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها على فخذه ، وقال : هات شيئاً بأبى أنت ، فغنت :

أروح إلى القُصَّاص كل عشية أرجِّى ثواب الله فى عَدَد الخُطَا

فزاد الطرب على القاضى ، ولم يدر ما يصنع ، فأخذ نعله[1] فعلقها فى أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها ، و [هو] يقول : أهدونى إلى البيت الحرام ، فإنى بَدَنَة ! حتى أدْمى أذنه ، فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال [له] : يا حبيبى ، انصرف ، قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب ، فانصرف الفتى ، وبلغ ذلك [إلى] عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ، وأمر بصرفه من عمله ، فلما صرف قال : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبونى فإنى مطية ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا على عمر قال له : أعِدْ ما قلتَ ، قال : نعم ، فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولى ، فغنت :

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ ، ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ
بلى ، نحن كنا أهلها ، فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

---

(١) فى ا « فأخذ نعليه فعلقهما » .

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طربا بينا[١]، وأقبل يستعيدها، ثلاثا، وقد بلت دموعه لحيته، ثم أقبل على القاضى فقال : قد قاربت فى يمينك، ارجع إلى عملك راشدا .

بين فتى أموى وجارية لبعض قريش

حدثنا الطوسى والأموى الدمشقى وغيرهما، عن الزبير بن بكار، عن عبد الله ابن أحمد المدينى[٢]، قال : كان بالمدينة فتى من بنى أمية من ولد عثمان، وكان ظريفا يختلف إلى قَيْنة لبعض قريش، وكانت الجارية تحبه ولا يعلم، ويحبها ولا تعلم، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة، فأراد يوما أن يبلو ذلك، فقال لبعض من عنده : امض بنا إليها، فانطلقا، ووافاها وُجُوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما، وما كان فيهم فتى يَجِدُ بها وَجْدَه، ولا تجد بواحد منهم وَجْدَهَا بالأموى، فلما [أن] أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولى :

أحبكمُ حبا بكل جوارحى ... فهل عندكم علم بما لَكُمُ عندى
أتجزون بالود المضاعف مثله ... فإن كريماً مَنْ جزَى الود بالود[٣]

قالت : نعم، وأحسن منه، وقالت :

للذى وَدَّنَا المودَّةُ بالضعـ ... ـف، وفَضْلُ البادى به لا يُجَازَى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأر ... ض وأقطار شامها والحجازا

قال : فعجب الفتى من حِذْقها[٤] مع حسن جوابها وجودة حفظها فازداد كَلَفا بها، وقال :

أنت عذر الفتى إذا هتك الستـ ... ـر وإن كان يُوسُفَ المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز، فاشتراها بعشر حدائق ووهبها له بما يصلحها

---

(١) فى ا « اضطرب عمر اضطرابا بينا » .
(٢) فى ا « عن عبد الله المزنى » .
(٣) فى ا « فإن الكريم مَن جزى الود بالود » .
(٤) فى ا « من ذهنها » .

Marfat.com

فأقامت عنده حَوْلاً ثم ماتت ، فرثاها ، وقضى فى حاله تلك [نَحْبَه] فدفنا معا ، وكان من مَرْثيته لها قولُه :

قد تمنيت جنة الخلد للخلـــــد فأُدْخِلْتُهَا بلا استئهال[1]

ثم أخرجت إذ تطمَّعْتُ بالنعـــــمة منها والموتُ أحمدُ حال

وقال أشعب الطامع [المدنى] : هذا سيد شهداء [أهل] الهوى ، انحروا على قبره سبعين بَدَنَة ، وقال أبو حازم الأعرج المدنى : أما محب لله يبلغ هذا.

عمر والخوارج وقد كان خرج فى أيام عمر شوذب الخارجى ، وقوى أمره فيمن خرج معه [من المحكمة] من ربيعة وغيرها ، فحدث عباد بن عباد المهلبى ، عن محمد بن الزبير الحنظلى ، قال : أرسلنى عمر إليهم ، وأرسل معى عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وكان خروجهم بالجزيرة ، وكتب عمر معنا إليهم كتاباً ، فأتيناهم فأبلغناهم كِتابه ورسالته ، فبعثوا معنا رجلين منهم أحدهما من بنى شيبان والآخر فيه حبشية[2] وهو أحدُهما لساناً وعارضة ، فقدمنا بهما على عمر [بن عبد العزيز] وهو بخناصرة ، فصعدنا إليه إلى غرفة هو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مُزَاحم ، فذكَرنا مكانهما ، فقال : فَتِّشوهما لئلا يكون معهما حديد[3] ، ففعلنا ، فلما دخلا قالا : السلام عليك ، ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبرانى ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نَقَمتم علينا ؟ فتكلم الذى فيه حبشية[2] فقال : والله ما نقمنا عليك فى سيرتك ، وإنك لتجرى بالعدل والإحسان ، ولكن بيننا وبينك أمر إن [أنت] أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتَنَاه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قال : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها المظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم

(١) فى ا « قد تمنيت أن أرى جنة الخلد فأدخلتها — إلخ » .

(٢) فى ب « والآخر فيه حبسة » .

(٣) فى ا « لئلا يكون معهما مدية » .

Marfat.com

على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر فقال : إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لِدُنْيًا ، ولكن أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها ، وإنى سائلكم عن أمور ، فبالله لتصدقننى[1] عنها ، أرأيتما أبا بكر وعمر ، أليسا من أسلافكم وممن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة ؟ قالا : بلى ، قال : فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتَدَّتْ العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسَبَى الذرارى ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن عمر [حين قام بعد أبى بكر رد تلك السبايا إلى أصحابها ؟ قالا : نعم ، قال : فهل] برىء عمر من أبى بكر ؟ قالا : لا ، قال : أفرأيتم أهل النهروان ، أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى ، قال : فهل علمتم أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كَفُّوا أيديهم فلم يسفكوا دماً ولم يخيفوا آمناً ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع الشيبانى وعبد الله بن وهب الراسبى وأصحابه استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خَبَّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صَبَّحُوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يُلقُون الصبيان فى قدور الأَقِطِ وهى تفور ؟ قالا : قد كان ذلك ، قال : فهل تبرأ أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا : لا ، قال : فهل تَبَرَّءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا ، قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالا : بل واحداً ، قال : فهل يَسَعُكم فيه شىء يعجز عنى ؟ قالا : لا ، قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء فى الدماء

(١) فى ا « لتصدقُنى فيها » .

Marfat.com

والفروج والأموال ، ولا يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل[١] بيتى والتبرؤ منهم ؟ أرأيتم لَعْنَ أهل الذنوب فريضةً مفروضةً لابُدَّ منها ، فإن كانت كذلك فأخبرنى أيها المتكلم متى عَهْدُك بلعن فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته ، قال: ويحك !! لم لا تلعن فرعون[٢] وهو أَخْبَثُ الخلق ويسعنى فيما زعمت لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ ويحكم ! إنكم قوم جُهَّال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تردُّون على الناس ما قَبِلَه منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده ، قالا : ما نحن كذلك ، قال عمر : بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِث إلى الناس وهم عَبَدَة أوثان فدعاهم إلى خَلْع الأوثان وشهادة أن لا إِلَهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حقَنَ دمه ، وأَحْرَزَ ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين؟ قالا: نعم ، قال: أفلستم أنتم تَلْقَوْنَ من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إِلَهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله فتستحلوا دمه وماله ، وتلقون مَنْ ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه ، قال الحبشى : ما سمعت كاليوم قَطُّ حُجَّةً أَبْيَنَ وأقرب مأخذاً من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برىء منك ، فقال عمر للشيبانى : فأنت ماتقول؟قال : ما أَحْسَنَ ماقلت ، وأَبْيَنَ ما وصفت، ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم ، قال : فأنت أعلم ، فانصرف ، وأقام الحبشى ، فأمر له عمر بعطائه ، فمكث خمسة عشر يوماً ثم مات ، ولحق الشيبانى بأصحابه فقتل معهم[٣] بعد موت عمر رحمه الله تعالى .

(١) فى ا « إلا أن ألعن أهل بيتى وأتبرأ منهم » .

(٢) فى ا « ويسعك ألا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق ، ولا يسعنى فيما زعمت إلا لعن — إلخ » .

(٣) فى ا « فقتل منهم » .

Marfat.com

ولعمر مع الخوارج أخبار غير ما ذكرنا ، ومراسلات ، ومناظرات ، وكذلك لمن سلف من بنى أمية وغيرهم من ولاة الأمصار ، وقد أتينا على ذكرها وذكر [كل] من سَمَّتَه الخوارج بأمير المؤمنين وخاطبته بالإمامة من الأزارقة والأباضية والحمرية والنجدات والخلقية[1] والصفرية وغيرهم من أنواع الحرورية ، وذكرنا مواضعهم من الأرض فى هذا الوقت مثل مَنْ سكن منهم من بلاد شهرزور وسجستان وإصطخر من بلاد فارس وبلاد كَرْمَان وأذربيجان وبلاد مكران وجبال عمان وهراة من بلاد خراسان والجزيرة وتاهرت السفلى وغيرها من بقاع الأرض ، فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وما ذكرنا من الرد عليهم فى التحكيم ، وغير ذلك فى كتابنا المترجم بكتاب « الانتصار » المفرد لفرق الخوارج ، وفى كتاب « الاستبصار » .

بعض شعراء الخوارج

وقد ذكرنا جماعة من شعرائهم ممن سلف من أئمتهم : من ذلك قول مَصْقَلة بن عتبان الشيبانى ، وكان من عِلْية[2] الخوارج :

وأبلغ أمير المؤمنين رسالةً ... وذو النصح إن لم يرع منك قريب
فإنك إن لا تَرْضَ بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب[3]
فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ... ومنّا أميرُ المؤمنين شَبيبُ
غَزَالة ذات النَّذرِ منا حميدة ... لها فى سهام المسلمين نصيب[4]
ولا صُلْحَ مادامت مَنَابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيفَ خطيبُ

وكذلك ذكرنا أخبار أم شبيب ، وما كانت عليه من الاجتهاد فى ديانة المحكمة ، وفيها يقول الشاعر :

أمُّ شبيب وَلَدَتْ شبيباً ... هل تلد الذئبَةُ إلا ذيباً

(١) فى ب « والخليفة » (٢) فى ا « غلبة » (٣) فى ا « فإنك إن لم ترض بكر بن وائل » (٤) فى ب « غزالة ذات البدر » محرفا ، وانظر (ص ١٤٧ من هذا الجزء) وفيها نذر غزالة وما قيل فيه من الشعر .

Marfat.com

بعض علماء الخوارج

وأخبار علمائهم كاليمان ، وله كتب مصنفة فى مذاهبهم ، وعبد الله بن يزيد الأباضى ، وأبى مالك الحضرمى ، وقعنب ، وغير هؤلاء من علمائهم ، وقد كان اليمان بن رباب من علية[1] علماء الخوارج ، وأخوه على بن رباب من علية علماء الرافضة ، هذا مقدَّم فى أصحابه ، وهذا مقدَّم فى أصحابه ، يجتمعان فى كل سنة ثلاثة أيام يتناظران فيها ، ثم يفترقان ، ولا يسلم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه ، وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحُذَّاقها وزهادها ، وأخوه حنش[2] بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر ، وطالت بينهما المناظرة والمباغضة والتباين ، وآلى كل واحد منهما ألا يخاطب الآخر إلى أن لحق بخالقه ، وجعفر بن المبشر وجعفر بن حرب من علماء البغداديين من المعتزلة ، وكان عبد الله ابن يزيد الأباضى بالكوفة تختلف إليه أصحابه يأخذون منه ، وكان [خرازاً] شريكا لهشام بن الحكم ، وكان هشام مقدَّماً فى القول بالجسم والقول بالإمامة على مذهب القطيعية يختلف إليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه ، وكلاهما فى حانوت واحد ، على ما ذكرنا من التضاد فى المذهب من التشرى والرفض [و] لم يجر بينهما مُسَابَّة ، ولا خروج عما يوجبه العلم وقضية العقل وموجب الشرع وأحكام النظر والسير .

وذكر أن عبد الله بن يزيد الأباضى قال لهشام بن الحكم فى بعض الأيام : تَعلَم ما بيننا من المودَّة ودوام الشركة ، وقد أحببتُ أن تُنْكِحنى ابنتك فاطمة ، فقال له هشام : إنها مؤمنة ، فأمسك عبد الله ، ولم يُعاوده فى شىء من ذلك ، إلى أن فرَّقَ الموت بينهما .

---

(١) فى ا « من غلبة علماء الخوارج » محرفا .

(٢) فى ب « حسن بن المبشر » .

Marfat.com

وكان من أمر هشام مع الرشيد وابن بَرْمَك ما [قد] أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

رأى عمرو ابن عبيد فيه

وذكر عن عمرو بن عُبَيْد أنه يقول : أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق [لها] ، ثم استحقّها بالعدل حين أخذها .

الفرزدق يرثى عمر

وفى وفاة عمر رضى الله عنه يقول الفرزدق من أبيات يَرْثيه بها :

أقول لمّا نَعَى النّاعُون لى عُمَراً ... لَقَدْ نَعَيْتُمْ قِوَامَ الحق والدين

قد غَيَّبَ الرّامِسُون اليوم إذْ رَمَسُوا ... بِدَيْرِ سِمْعَان قِسْطَاسَ المَوَازِينِ

لم يُلْهِهِ عمْرَهُ عَيْنٌ يُفَجِّرُهَا ... ولا النخيل ولا رَكْضُ البراذين

ولعمر رحمة الله عليه خطب وأخبار حسان غير ما ذكرنا فى هذا الكتاب ، وفى الزهد وغيره ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا ، والحمد لله رب العالمين .

Marfat.com

ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز

ومَلَكَ يزيد بن عبد الملك فى اليوم الذى توفى فيه عمر بن عبد العزيز ، وهو يوم الجمعة لخمس بَقِين من رجب سنة إحدى ومائة ، ويكنى أبا خالد ، وأُمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وتوفى يزيد بن عبد الملك بإربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بَقِين من شعبان سنة خمس ومائة ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، فكانت ولايته أربع سنين وشهراً ويومين .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره وسيره
و [جمل من] ما كان فى أيامه

حبه سلامة القس

كان الغالبُ على يزيد بن عبد الملك حُبَّ جارية يقال لها سَلاَّمَة القَسِّ ، وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار ، فأعجب بها ، وغلبت على أمره ، وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقَيَّات :

لَقَدْ فتن الدنيا وَسَلاَّمَةُ القسا فلم يتركا للقسِّ عقلا ولا نَفْسَا

فاحتالت أم سعيد العثمانية جَدَّته بشراء جارية يقال لها حَبَابة قد كان فى نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شىء ، فغلبت عليه ، ووهب سَلاَّمَة لأم سعيد[1] ، فَعَذَلَهُ مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور ، باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو ، وقال [له] : إنما مات عُمَر أمس ، و[قد] كان من عدله ما قد علمت ، فينبغى أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عُمَّالك فى سائر أفعالك وسيرتك ، فارتَدَعَ عما كان عليه[2] ، فأظهر الإقلاع والندم ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حَبَابة ، فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومَعْبد المغنى : انظرا ما أنتما صانعان ، فقال الأحوص فى أبيات له :

ألا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتبَلدا فقد غاب المحزون أن يَتجلّدَا
إذا كنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حَجَراً من يابس الصَّلْدِ جَلْمَدَا[3]
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

وغنّاه مَعْبد ، وأخذته حبَابة ، فلما دخل عليها يزيد قالت: يا أمير المؤمنين اسمع مِنِّى صوتاً واحداً ثم افعل ما بَدَالك ، وغَنَّتْه ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

---

(١) فى ا « ورفض سلامة ووهبها لأم سعيد » .
(٢) فى ا « فانزع عما أنت عليه » .
(٣) فى ا « إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا » .

Marfat.com

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشَّنَان وَفَنَّدا[١]

وعاد بعد ذلك إلى لَهْوِه وَقَصْفِه ، وَرفَضَ ما كان عليه .

يزيد وحبابة وشعر للفند الزمانى

وذكر إسحاق بن إبراهيم المَوْصِلِيُّ قال : حدثنى ابن سلام[٢] ، قال : ذكر يزيد قول الشاعر :

صَفَحْنَا عن بنى ذُهْلٍ وَقُلْنَا : القوم إخْوَانُ
عَسَى الأيام أن يَرْجِعْـن قَوْماً كالذى كانوا[٣]
فلما صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَان
مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا والليث غَضْبَانُ
بِضَرْب فيهِ تَوْهِينٌ وَتَخْضِيع وإقران[٤]
وَطَعْن كَفَمِ الزِّقِّ وَهَى وَالزِّقُّ مَلْآن[٥]
وفى الشَّرِّ نجاة حِيـنَ لا يُنْجيك إحْسَانُ

وهو شعر قديم يقال : إنه للفِنْدِ [الزِّمَّانى] فى حرب البَسُوس ، فقال لحبابة : غنينى به بحياتى ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا شعر لا أعرف أحداً يغنى به إلا الأحول المكى ، فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك ، قالت : إنما أخذه عن فلان بن أبى لهب ، وكان حَسَنَ الأداء ، فَوَجَّهَ يزيد إلى صاحب مكة : إذا أتاك كتابى هذا فادفع إلى فلان ابن أبى لهب ألف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من

---

(١) « الشنان » أصله « الشنآن » بفتح النون الأولى فسهل الهمزة بقلبها ألفا ، ثم حذف إحدى الألفين (٢) فى ا « أبو سلام » .

(٣) هذا هو المحفوظ والثابت فى ديوان الحماسة ، وفى بعض الأصول وهو تحريف ظاهر :

عسى الأيام أن يرجعن قدما كالذى كانوا

(٤) فى ا « وتضجيع وإقران » وهى رواية فيه .

(٥) فى ا « غذا والزق ملآن » وهى رواية فيه .

Marfat.com

دَوَابَّ البريد ، ففعل ، فلما قدم عليه قال : غنني بشعر الفِنْدِ[1] ، فغناه فأجاد وأحسن ، وقال : أعِدْهُ ، فأعاده فأجاد [وأحسن] وأطرب يزيد ، فقال [له] : عَمَّن[2] أخذت هذا الغناء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذته عن أبي ، وأخذه أبي عن أبيه ، فقال : لو لم تَرِثْ إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قد وَرَّثكم خيراً كثيراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا لهب مات كافراً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : [قد] أعلم ما تقول ، ولكني دخلتني له رقة إذ كان مجيداً للغناء ، ووصله وكساه ورَدَّه إلى بلده مكرماً .

وكتب في عهد عمر إلى يزيد : إذا أمكنتك القدرة بالعزة فاذكر قدرة الله عليك ، وقيل : إن هذا الكلام كتب به عمر إلى بعض عماله ، وفيه زيادة ـ على ما ذكره الزبير بن بكار ـ وهي : إذا أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك بما تأتي إليهم[3] ، واعلم أنك لا تأتي إليهم أمراً إلا كان زائلا عنهم باقياً عليك ، وأن الله يأخذ للمظلوم من الظالم ، ومهما ظلمت من أحد فلا تظلمنَّ من لا ينتصر عليك إلا بالله تعالى .

موت حبابة وجزع يزيد عليها

واعتلّتْ حبابة فأقام يزيد أياماً لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جَيَّفَتْ ، فقيل : إن الناس يتحدثون بجزعك ، وإن الخلافة تَجِلُّ عن ذلك[4] ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تَسْلُ عنك النفس أو تدع الهَوَى ... فباليأسِ تَسْلُو النَّفْسُ لا بالتجلّد[5]

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات .

حدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن إسحاق الموصلي ، عن أبي الحُوَيْرث الثقفي قال : لما ماتت حَبَابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزنا

(١) في ا « غنني شعر الفند » . (٢) في ب « ممن أخذت هذا الغناء » .
(٣) في ب « بما يأتي عليهم » . (٤) في ا « تدق عن هذا » .
(٥) في ا « فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد » .

Marfat.com

شديداً[١] ، وضمَّ إليه جويرية [لها] كانت تحدثها[٢] فكانت تخدمه ، فتمثلت الجارية يوماً :

كفى حَزَنًا للهائم الصب أن يَرَى منازل من يهوى مُعَطَّلة قَفْرَا

فبكى حتى كاد أن يموت ، ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حَبَابة حتى مات .

وكان يزيد ذات يوم فى مجلسه وقد غنَّته حبابة وسَلاَّمة فطرب طرباً شديداً ثم قال : أريد أن أطير ، فقالت له حَبَابة : يا مولاى ، فعلى مَنْ تَدَع الأمة وتدعنا .

وكان أبو حمزة الخارجى إذا ذكَرَ بنى مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقْعَدَ حبَابة عن يمينه وسَلاَّمة عن يساره ، ثم قال : أريد أن أطير ، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه .

يزيد بن المهلب يخرج على يزيد ابن عبد الملك

قال المسعودى : و [قد] كان يزيد بن المهلَّب بن أبى صُفْرة هرب من سجن عمر بن عبد العزيز ، حين أثقل[٣] ، وذلك فى سنة إحدى ومائة ، وصار إلى البصرة وعليها عَدِىُّ بن أرْطَاةَ الفَزَارى ،فأخذه يزيد بن المهلب ، فأوثقه ثم خرج يزيد الكوفة مخالفا على يزيد بن عبد الملك ، وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحاز إليه أهله وخاصته ، وعظم أمره ، واشتدت شَوْكته ، فبعث إليه [يزيد] أخاه مَسْلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك ، فى جيش عظيم ، فلما شَارَفَاه رأى يزيد بن المهلب فى عسكره اضطرابا، فقال: ما هذا الاضطراب ؟ قيل : جاء مَسْلمة والعباسَ [قال :] فوالله ما مَسْلمة إلا جرادة صفراء ، وما العباس إلا نسطوس بن نسطوس[٤] ، وما أهل الشام إلا طَغَام قد حشدوا ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة ، فأعيرونى أكفكم ساعة [واحدة] تصفعون بها خراطيمهم،

(١) فى ا « جزع عليها يزيد جزعا شديدا » .
(٢) فى ا « كانت تخدمها » . (٣) فى ا « حين اعتل » .
(٤) فى ب « بسطوس بن بسطوس » .

Marfat.com

فما هي إلا غدوة [أ] ورَوْحَة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين ، على بفرسي ، فأتى بفرس أبلق ، فركب غير متسلح ، فالتقى الجيشان فاقتتلوا قتالا شديداً ، وولى أصحاب يزيد عنه ، فقتل يزيد فى المعركة ، وصبر [وا] إخوته أنفسهم ، فقتلوا جميعاً ، ففى ذلك يقول الشاعر :

كل القبائل بايعوكَ على الذى تَدْعُو إليه طائعين وساروا
حتى إذا حضر الوَغَى وجعلتهم نُصْبَ الأسنة أسْلَمُوكَ وطاروا
إن يقتلوكَ فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبَعْضُ قتلٍ عارُ

فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك استبشر ، وأخذ الشعراء جميعا يهجون آل المهلب ، إلا كثيرا ، فإنه امتنع [من ذلك] فقال له يزيد : حرَّكتك الرحم يا أبا صخر ، لأنهم يمانيون ، ففى ذلك يقول جرير [يمدح يزيد ، و] يهجو آل المهلب :

يارُبَّ قوم وقوم حاسدين لكم ما فيهم بَدَلٌ منكم ولا خَلَفُ
آل المهلّب جَزَّ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصْلٌ ولا طرف
ما نالت الأزد من دعوى مُضِلِّهم إلا المعاصم ، والأعناق تختطف
والأزد قد جعلوا المنتوف قائدهم فَقَتَّلتهمْ جنود الله ، وانتُسِفوا

وهي طويلة ، وفى ذلك يقول جرير أيضاً ليزيد من كلمة :

لقد تركت فلا نَعْدَمْكَ إذ كفروا آل المهلب عَظْماً غير مجبور (١)
يا ابن المهلب ، إن الناس قد علموا أن الخلافة للشُّمِّ المغاوير

وبعث يزيد هلال بن أحْوَزَ المازنى فى طلب آل المهلب ، وأمره أن لا يلقى منهم من بلغ الحلم إلا ضرب عنقه ، فأتبعهم حتى [أتى] قندابيل من أرض السند وأتى هلال بغلامين من آل المهلب ، فقال لأحدهما : أدركت؟ قال : نعم ، ومدَّ عنقه ، فكان الآخر أشفق عليه فعضَّ شفته لئلا يظهر جزعا فضرب عنقه ، وأثخن القتل فى آل المهلب حتى كاد أن يفنيهم ، فذكر أن آل المهلب مكثوا بعد إيقاع

صنيع يزيد فى آل المهلب

(١) فى ا « لابن المهلب عظما غير مجبور » .

Marfat.com

هلال بهم عشرين سنة يُولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد ، وفى مدح هلال بن أحْوَزَ وما فَعَلَ يقول جرير :

أقول لهـا من ليلة ليس طولها كطول الليالى: لَيْتَ صُبْحكِ نَوَّرا
أخاف على نفسى ابن أحْوَزَ ، إنه جلا كل هَمٍّ فى النفوس فأسْفرَا
جعلت بقبر بالحسـان ومالك وقبر عدى فى المقـابر أقبرا[1]
فلم يبق منهم راية تعرفونهـا ولم يبق من آل المهلب عسكرا[2]

وهى أبيات .

بين ابن هبيرة والشعبي وابن سيرين والحسن البصرى

وقد كان يزيد بن عبد الملك — حين ولى عمر بن هُبَيْرة الفزارى العراق ، وأضاف إليه خراسان واستقام أمره هنالك — بعث ابن هُبَيْرة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى وعامر بن شرحبيل الشعبى ومحمد بن سيرين ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ ميثاقهم بطاعته ، وأخذ عَهْدَنا بالسمع والطاعة ، وقد وَلاَّنى ماترون ، يكتب إلى بالأمر من أمره فأنفذه ، وأقلده ما تقلَّدَه من ذلك ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبى قَوْلاً فيه تقية ، فقال عمر : ما تقول ياحسن ؟ فقال الحسن : يا ابن هُبَيْرة خَفِ الله فى يزيد، ولا تَخَفْ يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملـكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة ، إنى أحذرك أن تعصى الله ؛ فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تتركَنَّ دين[3] الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(١) فى ب « جعلت لقبر بالحساب — إلخ » .
(٢) فى ا « فلم يبق منهم راية يعرفونها » .
(٣) فى ا « فلا تركبه دين الله وعباده بسلطان الله »

Marfat.com

وحكى فى هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي : سفسفنا فسفسف لنا .

بين يزيد وأخيه هشام

وذكر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشام بن عبد الملك ينتقصه ، ويتمنَّى موته ، ويعيب عليه لهوه بالقَيْنات ، فكتب إليه يزيد : أما بعد فقد بلغنى استثقالك حياتى ، واستبطاؤك موتى ، ولعمرى إنك بعدى لواهى الجناح ، أَجْذَمُ الكف ، وما استوجَبْتُ منك ما بلغنى عنك ، فأجابه هشام : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين متى فَرَّغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك أن يقدح ذلك فى فساد ذات البين ، وتقطع الأرحام ، وأمير المؤمنين بفضله وما جعله الله أهْلاً له أولى أن يتغمد ذنوبَ أهْلِ الذنوبِ ، فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك أو أستبطىء وفاتك ، فكتب إليه [يزيد] نحن مغتفرون ما كان منك[1] ، ومكذِّبون ما بلغنا عنك ، فاحفظ وصية عبد الملك إيانا ، وقوله لنا فى ترك التباغى والتخاذل ، وما أمر به وحَضَّ عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء ؛ فهو خير لك ، وأمْلَكُ بك ، وإنى لأكتب إليك و [أنا] أعلم أنك كما قال[2] الأول :

وإنى على أشياء منك تَرِيبنى ... قديماً لذو صَفْحٍ على ذاك مُجْمِلُ
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينَكَ ، فانظر أى كف تبدَّلُ
وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

فلما أتى الكتاب هشاماً ارتحل إليه ، فلم يزل فى جواره مخافة أهل البغى والسعاية[3] حتى مات [يزيد].

وفاة عطاء ابن يسار

وممن مات فى أيام يزيد بن عبد الملك عطاء بن يَسَار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكنى أبا محمد ، وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة .

(١) فى ا « نحن معترفون ما كان منك » محرفا .
(٢) الأبيات لمعن بن أوس .
(٣) فى ا « أهل البغى والفساد » .

Marfat.com

موت جماعة من العلماء

وفيها مات مجاهد بن جبر[١]، مولى قيس بن السائب المخزومى، ويكنى أبا الحجاج، وهو ابن أربع وثمانين سنة.

وجابر بن زيد، مولى الأزد، من أهل البصرة، ويكنى أبا الشَّعْثاء.

ويزيد بن الأصم، من أهل الرقة، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم.

ويحيى بن وَثّاب الأسدى، مولى بنى كنانة كان[٢].

وأبو بُرْدَةَ بن أبى موسى الأشعرى، واسمه عامر، كوفى.

وفى سنة أربع ومائة مات وهب بن مُنَبِّه، ويقال: مات سنة عشر ومائة[٣]

وفى سنة أربع ومائة هذه أيضاً مات طاوس.

[وفى سنة خمس ومائة مات عبد الله بن جبير، مولى العباس بن عبد المطلب، ويقال: إنه مولى مولى العباس].

وقيل: إن طاوس بن كَيْسَان – ويكنى أبا عبد الرحمن — مولى بحير الحميرى[٤] مات بمكة سنة ست ومائة، وصلى عليه هشام بن عبد الملك.

وفى سنة سبع ومائة مات سليمان بن يسار، مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم [وهو أخو عَطَاء بن يسار] ويكنى أبا أيوب، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، بالمدينة، وقيل: إنه مات فى سنة [ثمان و] مائة.

وفى سنة ثمان ومائة مات القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق.

ومات الحسن بن أبى الحسن البصرى، ويكنى أبا سعيد، فى سنة عشر ومائة، واسم أبيه يَسَار مولى لامرأة من الأنصار، ومات وله تسع وثمانون سنة وقيل: تسعون سنة، وكان أكبر من محمد بن سيرين، ومات محمد بعده بمائة

---

(١) فى ا « مجاهد بن جابر » وفى ب « مجاهد بن جبير ».

(٢) فى ا « كاهن كوفى » فى موضع « كان ».

(٣) فى ا « ويقال: مات سنة ستة عشر ومائة ».

(٤) فى ا « مولى بحير الحميرى » والمعروف عن طاوس أنه جندى، وأنه طاوس ابن كيسان اليمانى الجندى، بفتح الجيم والنون.

Marfat.com

محمد بن سيرين وإخوته

ليلة فى هذه السنة وهو ابن إحدى وثمانين سنة ، وقيل: ابن ثمانين . وكان أولاد سيرين خمسة إخوة : محمد ، وسعيد ، ويحيى ، وخالد ، وأنس بنى سيرين ، وسيرين مولى أنس بن مالك ، والخمسة قد رَوَوْا السنن ، ونقلت عنهم .

ووجدت أصحاب التواريخ متباينين [ومختلفين] غير متفقين فى وفاة وَهْب بن مُنَبِّه ، ويكنى أبا عبد الله ؛ فمنهم من ذكر وفاته على حسب ما قَدَّمنا فى هذا الباب ، ومنهم مَنْ رأى أنه مات سنة عشر ومائة بصنعاء ، وكان من الأبناء ، وهو ابن تسعين سنة .

وفى سنة خمس عشرة ومائة مات الحكم بن عتبة الكندى[١] ، وقيل : إنه مات فيها عَطَاء بن أبى رباح .

وفى سنة ثلاث وعشرين ومائة مات أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن عبد الله بن شهاب الزهرىّ ، وذكر الواقدى أنه مات سنة أربع وعشرين ومائة .

وليزيد بن عبد الملك أخبار حسان ، ولما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث ، وقد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وإنما ذكرنا وفاة من سمينا من أهل العلم ونَقَلَة الآثار وحَمَلَة الأخبار[٢] ليكون ذلك زيادة فى فائدة الكتاب ، فتكون فوائده عامة ؛ إذ كان الناس فى أغراضهم متباينين ، وفيما يتيممونه من مآخذ العلم مختلفين؛ فمنهم طالبُ خَبَرٍ ، ومقلد لأثر ، ومنهم ذو بحث ونظر ، ومنهم صاحب حديث ، ومُنَقِّر عن علل ، ومُرَاعٍ لوفاة مثل من ذكرنا ، فجعلنا فيه لكل ذى رأى نصيباً ، وبالله التوفيق .

---

(١) فى ا « الحكم بن عتيبة الكندى » .

(٢) فى ا « ونقلة الأخبار ، وحملة الآثار » .

Marfat.com

ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان

موجز وبويع هشام بن عبد الملك فى اليوم الذى توفى فيه أخوه يزيد بن عبد الملك ، وهو يوم الجمعة لخمسٍ بَقِينَ من شوال سنة خمس ومائة ، وقُبض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون [سنة] ، وتوفى هشام [بن عبد الملك] بالرُّصَافة من أرض قنسرين يوم الأربعاء لست خَلَوْنَ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ؛ فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره ، وسيره

أوصافه وأخلاقه

وكان هشام أحْوَلَ خشناً فظاً غايظاً ، يَجْمَعَ الأموال ، ويعمر الأرض، ويستجيد الخيل ، وأقام الحلْبَة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، ولم يُعْرَفْ ذلك فى جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل ، واستجاد الكُسَى(1) والفُرُشَ ، وعُدَدَ الحرب ولأمتها واصطنع الرجال ، وقَوَّى الثغور ، واتخذ القُنِيَّ والبِرَكَ بطريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التى أتى عليها داود بن على فى صدر الدولة العباسية .

وفى أيامه عُمِلَ الخز والقُطُف الخز ، فسلك الناس جميعاً فى أيامه مذهبه ، ومنعوا ما فى أيديهم ، فقلَّ الإفضال ، وانقطع الرِّفْدُ ، ولم ير زمان أصعب من زمانه .

استشهاد زيد بن على

وفى أيامه استشهد زيد بن على بن الحسين بن على كرم الله وجهه ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل: [بل] فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقد كان زيد بن على شَاوَرَ أخاه أبا جعفر بن على بن الحسين بن على، فأشار عليه بأن لا يركن إلى أهل الكوفة ؛ إذ كانوا أهل غَدْرٍ ومَكْرٍ، وقال له : بها قتل جَدُّكَ على ، وبها طعن عمك الحسن [وبها قتل أبوك الحسين] وفيها وفى أعمالها شُتِمْنَا أهْلَ البيت ، وأخبره بما كان عنده من العلم فى مدة ملك بنى مروان ، وما يتعقبهم من الدولة العباسية ، فأبى إلا ما عزم(2) عليه من المطالبة بالحق ، فقال له : إنى أخاف عليك يا أخى أن تكون غداً(3) المصلوبَ بكُنَاسة الكوفة ، وودَّعه أبو جعفر ، وأعلمه أنهما لا يلتقيان .

(1) فى ا « واستجاد الكساء والفرش » .
(2) فى ا « فأبى إلا مازعم عليه » محرفا .
(3) فى ا « أن تكون عند المصلوب » محرفا .

Marfat.com

وقد كان زيد دخل على هشام بالرُّصَافَة، فلما مَثَلَ بين يديه لم يرَ موضعاً يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله ، فقال هشام : اسكت لا أم لك ، أنت الذى تنازعك نفسُكَ فى الخلافة ، وأنت ابن أمَةٍ ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن لك جوابا إن أحببت أجبتك به ، وإن أحببت أمسكت[١] عنه ، فقال : بل أجِبْ ، قال : إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم إسماعيل أمَةً لأم إسحاق صلى الله عليهما وسلم، فلم يمنعه ذلك أن بعثه[٢] الله نبياً ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صُلْبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم ، فتقول لى هذا وأنا ابن فاطمة وابن على ، وقام وهو يقول :

شَرَّدَهُ الخوف وأزْرَى به ... كذاك من يكره حَرَّ الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مَرْوٍ حِدَاد[٣]
قد كان فى الموت له راحة ... والموت حَتْم فى رقاب العباد
إن يُحْدِث الله له دولة ... يترك آثار العدا كالرماد

فمضى عليها إلى الكوفة وخرج عنها ، ومعه القراء والأشراف ، فحاربه يوسف بن عمر الثَّقَفى ، فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد ، وبقى فى جماعة يسيرة ، فقاتلهم أشدَّ قتال ، وهو يقول متمثلا :

أذُلَّ الحياة وعز الممات ... وكُلاًّ أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لا بدَّ من واحد ... فَسِيرِى إلى الموت سيراً جميلا

وحال المساء بين الفريقين ، فراح زيد مُثْخَنًا بالجراح[٤] ، وقد أصابه سهم فى جبهته ، فطلبوا من ينزع النصل ، فأتى بحجام من بعض القرى ،

---

(١) فى ا « وإن شئت أن أسكت سكت عنك » .
(٢) فى ا « أن ابتعثه الله نبيا » . (٣) فى ا « تنكبه أطراف مرحداد » .
(٤) فى ا « وانصرف زيد مثخنا بالجرح » .

Marfat.com

فاستكتموه أمره ، فاستخرج النصل ، فمات من ساعته ، فدفنوه فى ساقية ماء ، وجعلوا على قبره التراب والحشيش ، وأجرى الماء على ذلك ، وحضر الحجَّامُ مواراته فعرف الموضع ، فلما أصبح مضى إلى يوسف متنصحاً ، فدله على موضع قبره ، فاستخرجه يوسف ، وبعث برأسه إلى هشام ، فكتب إليه هشام : أن اصلبهُ عريانا ، فصلبه يوسف كذلك ، ففى ذلك يقول بعض شعراء بنى أمية يخاطب آل أبى طالب وشيعتهم من أبيات :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أرَ مَهْدِيًّا على الجذع يصلب

وبَنَى تحت خشبته عموداً ، ثم كتب هشام إلى يوسف [يأمره] بإحراقه وذَرْوِهِ فى الرياح .

صنيع العباسيين بقبور الأمويين

قال المسعودى : وحكى الهيثم بن عدى الطائى ، عن عمرو بن هانىء[1] ، قال : خرجت مع عبد الله بن على لنَبْش قبور بنى أُمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا خورمة[2] أنفه ، فضربه عبد الله [بن على] ثمانين سوطاً ، ثم أحْرَقَه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئاً إلا صُلْبه وأضلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين ، ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وَجَدْنا فى قبره قليلا ولا كثيراً ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه إلا عظما[3] واحداً ، ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد فى الطول فى لحده ، ثم اتبعنا قبورهم[4] فى جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

وإنما ذكرنا هذا الخبر فى هذا الموضع لقتل هشام زَيْدَ بن على[5] ،

---

(١) فى ا « قال : حدثنى عمر بن هانى الطائى » . (٢) فى ب « حثمة أنفه » .
(٣) فى ا « فما وجدنا منه إلا عظما واحدا » . (٤) فى ا « ثم تتبعنا قبورهم » .
(٥) فى ا « لفعل هشام بزيد بن على » .

Marfat.com

ومانال هشاما من المُثْلَة بما فعل بسلفه[١] من الإحراق كفعله بِزَيد بن على .

وقد ذكر أبو بكر بن عياش[٢] وجماعة [من الأخباريين] أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً[٣] عريانا ،فلم ير له أحد عورة ، ستراً من الله له ، وذلك بالـكُنَاسة بالـكوفة، فلما كان فى أيام الوليدبن يزيد بن عبد الملك وظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد إلى عامله بالـكوفة : أن أحرق زيداً بخشبته ، ففعل ذلك [به] ، وأذرى [رماده] فى الرياح على شاطىء الفرات .

فرق الزيدية من الشيعة

وقد أتينا فى كتابنا « المقالات ، فى أصول الديانات » على السبب الذى من أجله سميت الزيدية بهذا الاسم ، وأن ذلك بخروجهم مع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، هذا ، وقد قيل غير ذلك مما قد أتينا عليه فيما سلف من كتبنا ، والخلاف بين الزيدية والإمامية ، والفرق بين هذين المذهبين ، وكذلك غيرهم من فرق الشيعة وغيرهم [وقد ذكر جماعة من مصنفى كتب المقالات والآراء والديانات من آراء الشيعة وغيرهم] كأبى عيسى محمد بن هارون الوَرَّاق وغيره ، أن الزيدية كانت فى عصرهم ثمانية فرق : أولها الفرقة المعروفة بالجارودية وهم أصحاب أبى الجارود زياد ابن المنذر العبدى، وذهبوا إلىأن الإمامة مقصورة فى ولد الحسن والحسين ، دون غيرهما ، ثم الفرقة الثانية المعروفة بالمرئية[٤] ، ثم الفرقة الثالثة المعروفة بالأبرقية ، ثم الفرقة الرابعة المعروفة باليعقوبية ، وهم أصحاب يعقوب بن على الـكوفى ، ثم الفرقة الخامسة المعروفة بالعقبيَّة[٥]، ثم الفرقة السادسة المعروفة بالأبترية ، وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن يحيى ، ثم الفرقة السابعة المعروفة بالجريرية ، وهم أصحاب سليمان بن جرير ، ثم الفرقة الثامنة المعروفة باليمانية ، وهم أصحاب محمد بن اليمان الـكوفى ، وقد زاد هؤلاء فى المذهب ، وفرَّعُوا مذاهب على ما سلف من أصولهم ، وكذلك فرق أهل الإمامة فـكانوا على ما ذكَرَ مَنْ سلف من أصحاب الـكتب ثلاثاً وثلاثين

(١) فى ا « بما فعل بشلوه من الإحرق » .
(٢) فى ا « أبوبكر بن عباس » . (٣) فى ا « خمس سنين » .
(٤) فى ا « المعروفة بمرئدية » . (٥) فى ا « المعروفة بالعميمية » .

Marfat.com

فرقة ، وقد ذكرنا تنازع القطيعية بعد مضى الحسن بن على[1] بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن [الحسين بن على بن][2] أبى طالب رضى الله [عنهم] ، وما قالت الكيسانية ، وما تباينت فيه وغيرها من سائر طوائف الشيعة ، وهم ثلاث وسبعون فرقة ، دون ما تباينوا فيه من التفريع، وتنازعوا فيه من التأويل ، والغُلاة أيضاً ثمان فرق : المحمدية منهم أربع ، والمعتزلة أربع ، وهم العلوية ، ولولا أن كتابنا هذا كتاب خبر لبسطنا من مذاهبهم ووصفنا من آرائهم ماتقدم قبلنا وحَدَثَ فى وقتنا هذا ، وما قالوه من دلائل ظهور المنتظر الموعود بظهوره ، وماذهب إليه كل فريق منهم فى ذلك من أصحاب الدور والسرو[3] والتشريق ، وغيرهم من أهل[4] الإمامة .

بين هشام ورجل من أهل حمص

وعرض هشام يوماً الجند بحمص ، فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نَفور ، فقال له هشام : ما حملك على أن تربط فرساً نَفُوراً ؟ فقال الحمصى : لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين ، ما هو بنَفُور ، ولكنه أبصر حَولتك فظن أنها عين غزوَان البيطار ، فقال له هشام : تنحَّ فعليك وعلى فرسك لعنة الله ، وكان غزوان البيطار نصرانياً ببلاد حمص كأنه هشام فى حولته وكشفته[5] .

هشام والأبرش الكلبى وجارية من جوارى هشام

وبينما هشام ذات يوم جالساً خالياً وعنده الأبرش الكلبى إذ طلعت وصيفة لهشام عليها حُلّة ، فقال للأبرش : مازحها ، فقال لها [الأبرش] هَبِى لى حُلّتك ، فقالت له : لأنت أطمع من أشعَبَ ، فقال لها هشام : ومن أشعب ؟ فقالت : كان مضحكا بالمدينة ، وحدثته بعض أحاديثه ، فضحك هشام ، وقال : اكتبوا إلى إبراهيم بن هشام — وكان عامله على المدينة — فى حَمْله إلينا ، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلا ، ثم قال : يا أبرش ،

(١) فى ا « الحسين بن محمد بن موسى – إلخ » .
(٢) سقط هذان الاسمان من ا . (٣) فى ب « والثروة » .
(٤) فى ا « من الإمامية » . (٥) فى ا « وكسفته » بالسين مهملة .

Marfat.com

هشام يكتب إلى بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل إليه [منه] مضحك ؟ لاها الله ، ثم تمثل :

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

وأوقف[1] الكتاب .

أمثلة من بخل هشام

وذكر أن هشاما أهدى له رجل طائرين ، فأعجب بهما ، فقال له الرجل: جائزتى يا أمير المؤمنين ، قال [ويلك] وما جائزة طائرين ؟ قال له : ماشئت ، قال : خذ أحدهما ، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه ، فقال له هشام: وتختار أيضا ؟ قال : نعم والله أختار ، فقال : دَعْه ، وأمر له بدريهمات .

ودخل هشام بستانا له ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبه من كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين ، فقال : وكيف يبارك لى فيه وأنتم تأكلونه ؟ ! ثم قال : ادع قيمه[2] ، فدعا به ، فقال له : اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئا .

وكتب إليه ابنه سليمان : إن بَغْلَتى قد عجزت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بدابة ، فكتب إليه [هشام] : قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، وما ذكرت من ضعف دابتك ، وقد ظن أن ذلك من قلة تعاهدك لعلفها ، وضياع العلف ، فقم عليها بنفسك ، ولعلّ أمير المؤمنين يرى رأيه فى حملانك .

ونظر هشام إلى رجل على برذَوْن طخارى، فقال : من أين لك هذا ؟ قال : حَمَلَنِى عليه الجنيد بن عبد الرحمن ، قال : وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة ؟ لقد مات عبد الملك وفى مربطه برذون واحد طخارى ، فتناوله فيه ولده ، حتى ظن مَنْ فاته أن الخلافة فاتته ، قال الرجل : فحسدنى إياه[3] .

---

(١) فى ا « ومزق الكتاب » (٢) فى ا « ثم دعا قيمه »
(٣) فى ا « تحسدنى إياه » .

Marfat.com

وقد كان أخوه مسلمة مازحه قبل أن يلى الأمر ، فقال له : يا هشام ، أتؤمِّلُ الخلافة وأنت جبان بخيل(١) ! فقال : والله إنى عليم حليم .

السواس من بنى أمية

وذكر الهيثم بن عدىّ والمدائنى وغيرهما أن السُّوَّاس من بنى أمية ثلاثة: معاوية ، وعبد الملك ، وهشام ، وختمت [به] أبواب السياسة وحسن السيرة، وأن المنصور كان فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام [بن عبد الملك] فى أفعاله ، لكثرة [ما] كشفه عن أخبار هشام وسيره(٢).

وقد أتينا على غُرَرِ أخباره وسيره وسياسته ، وما حفظ من أشعاره وخطبه ، وما كان فى أيامه ، فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وكذلك ذكرنا بَدْء الكلام الذى أثار تصنيف الكتاب(٣)، المعروف بكتاب الواحدة فى مناقب العرب ومَثَالبها مفردة لا يشاركها فيها غيرها ، وما أُضيف إلى كل حى من [أحياء] العرب من قَحْطَان وغيرهم من نِزَارٍ ، وما جرى فى مجلس هشام فى أوقات مختلفة بين الأَبْرَش الكلبى والعباس بن الوليد [بن عبد الملك وخالد بن مَسْلَمة المخزومى والنضر بن(٤) مريم الحميرى ، وما أورده الحميرى من مَنَاقب قومه [من حِمْيَر وكَهْلاَن ، وما أورده المخزومى من مَنَاقب قومه](٥) من نزار بن معد بن عدنان ، وما ذكره كل واحد منهم من المَثَالِبِ فيما عدا قومه ، وبان عن عشيرته ورَهْطه ، وقد قيل : إن هذا الكتاب ألّفه أبو عُبَيْدَة مَعْمَر بن المُثَنَّى مولى آل تَيْم بن مرة بن كعب بن لُؤَىّ ، على لسان مَنْ ذكرنا ، وعزاه إلى من وصفنا ، أو غيره من الشعوبية .

(١) فى ا « أتلى الخلافة وأنت بخيل جبان ، الله إنى حكيم عليم » .

(٢) فى ا « عن أخبار هشام وسيرته » .

(٣) فى ا « وكذلك ذكرنا فصلا منتزعا من الكتاب المعروف بكتاب الوحدة إلخ »

(٤) فى ا « والنصر بن مريم الحميرى » بالصاد مهملة .

(٥) سقطت هذه العبارة من ب ، ولا يتم الكلام بدونها .

Marfat.com

ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن [مروان]

موجز وبويع الوليد بن يزيد فى اليوم الذى توفى فيه هشام ، وهو يوم الأربعاء لست خَلَوْنَ من [شهر] ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، ثم قُتل بالبخراء(١) يوم الخميس لليلتين بَقِيَتا من [شهر] جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ؛ فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً ، وقُتل وهو ابن أربعين سنة ، والموضع الذى قُتل فيه دُفن فيه ، وهى قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء(١)، على ما ذكرنا ، وقد أتينا على خبر مقتله فى كتابنا الأوسط .

(١) فى ب « بالبحراء » بالحاء مهملة ، وهو تحريف ، وقال ياقوت : « البخراء : ماءة منتنة على ميلين من القليعة فى طرف الحجاز » وذكر قتل الوليد بها وكيفيته .

Marfat.com

ذكر لمع من أخباره ، وسيره

ظهور يحيى ابن زيد ومقتله

ظهر فى أيام الوليد بن يزيد : يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن [على بن] أبى طالب عليهم السلام ، بالجوزجان من بلاد خراسان ، مُنْكِراً للظلم وما عَمَّ الناسَ من الجور ، فسير إليه نَصْرُ بن سيار سَلْمَ بن أحْوَزَ المازنى ، فقتل يحيى فى المعركة بقرية يقال لها أرعونة ، ودفن هنالك ، وقبره مشهور مَزُورٌ إلى هذه الغاية ، وليحيى وقائع كثيرة ، وقتل فى المعركة بسهم أصابه فى صُدْغه ، فولى أصحابه عنه يومئذ ، واحْتُزَّ رأسه(1) ، فحمل إلى الوليد ، وصلب جسده بالجوزجان ، فلم يزل مصلوباً إلى أن خرج أبو مسلم صاحب الدولة العباسية ، فقتل أبو مسلم سَلْم بن أحوز ، وأنزل جثة يحيى فصلى عليها [فى جماعة أصحابه] ودفنت هناك ، وأظهر أهل خراسان النِّيَاحة على يحيى بن زيد سبعة أيام فى سائر أعمالها فى حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بنى أمية ، ولم يُولَدْ فى تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمى بيحيى أو بزَيْد ؛ لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه .

وكان ظهور يحيى فى آخر سنة خمس وعشرين ، وقيل : [فى] أول سنة ست وعشرين ومائة ، وقد أتينا على أخباره وما كان من حروبه فى الكتاب الأوسط ، وفى غيره مما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن إعادته.

وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثل بشعر الخنساء:

نُهِينُ النفُوس ، وَهَوْنُ النفو ... س يوم الكريهة أوْفَى لها(2)

لهو الوليد وخلاعته

وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، وهو أول من حَمَلَ المغنين من البلدان إليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشرب والملاهى

(1) فى ا « واجتز رأسه » .

(2) فى ب « نهين النفوس وهول النفوس » .

Marfat.com

وَالعَزْف ، وفى أيامه كان ابن سُرَيج المغنى ، وَمَعْبَد ، وَالْغَرِيض ، وابن عائشة ، وابن مُحْرز ، وَطُوَيس ، ودحمان ، وغلبت [عليه] شهوة الغناء فى أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القِيان ، وكان متهتكا ماجناً خليعاً، وطرب الوليد لليلتين خلتا من ملكه وأرق فأنشأ يقول :

طَالَ لَيْلِي وَبِتُّ أُسْقَى السُّلافَهْ وأتانى نَعِيُّ مَنْ بالرُّصَافَهْ(١)
وأتانى ببردة وقضيب وأتانى بخاتم لِلْخِلافَه

ومن مجونه قوله عند وفاة هشام ، وقد أتاه البشير بذلك ، وَسلّم عليه بالخلافة ، [فقال] :

إنى سمعت ، خليلى ، نحو الرُّصَافَة رَنَّهْ
أقبلت أسْحَبُ ذَيلِي أقول : ما حَالُهُنَّهْ
إذا بنات هشام يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّهْ
يدعون وَيْلاً وَعَوْلاً وَالوَيْلُ حَلَّ بِهِنَّهْ
أنا المُخَنَّثُ حَقًّا إن لم أنيكَنْهُنَّهْ

وقيل للوليد : ما بقى من لذاتك ؟ قال : محادثة الإخوان فى الليالى القُمْر ، على الكثبان العُفْر .

الوليد وشراعة ابن زيد

وبلغ الوليد عن شراعة بن زيد ورود(٢) حسن عشرة وحلاوة مجالسة، فبعث فى إحضاره ، فلما [أ] دخل إليه قال : إنى ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب ولا سُنَّة ، قال : ولست من أهلهما، قال: إنما أسألك عن القهوة ، قال : سل عن أى ذلك شئت يا أمير المؤمنين ، قال : ما تقول فى الشراب ؟ قال: عن أيه تسأل ؟ قال : ماتقول فى الماء؟قال: يشاركنى فيه البغل و الحمار، قال:فنبيذ الزبيب؟ قال: خُمار وَأذى ، قال : فنبيذ التمر؟ قال: ضُراط كله ، قال : فالخمر؟ قال : شقيقة

(١) فى ا « وأتانى مبشرى بالرصافة » وهو أقرب إلى البيت بعده .
(٢) فى ا «شراعة بن زيد بود» وربما كان الأصل « ود وحسن عشرة ـ إلخ ».

روحى ، وأليفة نفسى ، قال : فما تقول فى السَّماع ؟ قال : يبعث مع التأنى على ذكر الأشجان[١] ، ويجدِّدُ اللهو[٢] على مواقع الأحزان ، ويؤنس الخلىَّ الوحيد ، ويَسُرُّ العاشق الفريد ، ويبرد غليل القلوب ، ويثير من خواطر الضمائر خطرة ليست من الملاهى لغيره ، يسرع ترقيها فى أجزاء الجسد ، فتهيج النفس ، وتقوى الحس ، قال : فأى المجالس أحب إليك ؟ قال : ما رأيت فيه السماء من غير أن ينالنى فيه أذى ، قال : فما تقول فى الطعام ؟ قال : ليس لصاحب الطعام احتيار ما وجده أكله ، فاتخذه [الوليد] نديماً .

من قوله فى الشراب

ومن مليح قوله فى الشراب من أبيات :

وصَفْرَاءَ فى الكأس كالزعْفَرَانِ ... سَبَاهَا لنا التَّجْرُ مِنْ عَسْقَلَانَ[٣]

تُرِيك القَذَاةَ وعرض الإنا ... ء سَتْرٌ لها دون مَسِّ البَنَانِ[٤]

لها حَبَبٌ كلما صُفِّقَتْ ... تراها كلمعة بَرْقٍ يمانى

ومن مجونه أيضاً على شرابه قوله لساقيه :

أُسْقِنى يا يزيد بالقرقاره ... قَدْ طَرِبْنَا وَحَنَّت الزُّمَّارَهْ

اسقنى اسقنى ؛ فإن ذنوبى ... قد أحاطت فما لها كَفَّارَهْ

سمير الوليد يتحدث عنه

وأخبَرَنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى القاضى ، عن محمد بن سلام الجمحى ، قال : حدثنى رجل من شيوخ أهل الشأم عن أبيه ، قال : كنت سميراً للوليد بن يزيد[٥] ، فرأيت ابن عائشة القرشى عنده وقد قال له : غنى ، فغناه :

إنى رأيت صبيحة النَّحْرِ ... حُوراً نَفَيْنَ عزيمة الصَّبْرِ[٦]

(١) فى ا « إلى ذكر الأشجان » (٢) فى ا « ويمحو النهى عن مواقع الأحزان » .
(٣) فى ا « سناها لنا البحر من عسقلان » محرفا .
(٤) فى ا « تريك القداح – إلخ » .
(٥) فى ا « كنت صاحب ستر الوليد بن يزيد »
(٦) فى بعض النسخ « حورا نعين عزيمة الصبر » ولها وجه ، وفى ا « حورا تفك عزيمة المصبر »

Marfat.com

مثل الـكواكب فى مطالعها عند العشاء أَطَفْنَ بالبَدْرِ
وخرجت أَبغِى الأجر مُحْتَسِباً فرجعت مَوْقُوراً من الوِزْرِ

فقال له الوليد : أحسنت والله يا أميرى ، أعِدْ بحقٍّ عبدِ شمس ، فأعاد، فقال : أحسنت والله ، بحق أمية أعد ، فأعاد ، فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة ، حتى بلغ نَفْسَه ، فقال : أعد بحياتى ، فأعاد ، فقام إلى ابن عائشة فأكَبَّ عليه ولم يُبْقِ عضواً من أعضائه إلا قَبَّله ، وأهْوَى إلى أيره [يقبله] ، فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه ، فقال الوليد : والله لا زلت حتى أُقَبِّلَهُ ، [فأبرأه] فقبل رأسه وقال : واطرباه واطرباه ، ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة ، وبقى مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها[(1)] ، ودعا له بألف دينار فدفعت إليه ، وحمله على بغلة [له] وقال : اركبها على بساطى ، وانصرف فقد تركتنى على أحر من جمر الغَضَى.

ورث الوليد الخلاعة عن يزيد أبيه

قال المسعودى : وقد كان ابن عائشة غَنَّى بهذا الشعر يزيد بن عبد الملك أباهُ فأطربه ، وقيل : إنه ألحد وكفر فى طربه ، وكان فيما قال لساقيه : اسقنا بالسماء الرابعة ، فكأن الوليد بن يزيد قد ورث الطرب فى هذا الشعر عن أبيه ، والشعر لرجل من قريش ، والغناء لابن سريج ، وقيل : لمالك ، على حسب ما فى كتب الأغانى[(2)] من الخلاف فى ذلك مما ذكره إسحاق ابن إبراهيم الموصلى فى كتابه فى الأغانى وإبراهيم بن المهدى المعروف بابن شَكْلة فى كتابه فى الأغانى أيضاً ، وغيرهما ممن صنف فى هذا المعنى ، والوليد يُدْعَى خليع بنى مروان .

فعله بالمصحف وقد استفتح به

وقرأ ذات يوم (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فدعا بالمصحف فنصبه غرَضاً للنشّابِ ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبار عنيدٍ فها أنا ذاك جبَّار عنيد

---

(١) فى ا « إلى أن جاءوه بثياب غيرها » .
(٢) فى ا «على حسب ما فى كتاب الأغانى » وما هنا عن ب أدق لما سيأتى بعده .

إذا ما جِئْتَ ربك يوم حَشْرٍ   فَقُلْ يا رب خَرَّقَنِي الوليد

شعر له ألحد فيه

وذكر محمد بن يزيد المبرد [النحوى] أن الوليد ألحد فى شِعْرٍ له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الوحى لم يَأْتِهِ عن ربه ، كَذَبَ أخزاه الله ! ! من ذلك الشعر :

تَلَعَّبَ بالخلافة هاشمىٌّ   بلا وَحْيٍ أتاه ولا كتاب

فقل للهِ يمنعنى طعامى ،   وقل للهِ يمنعنى شرابى !

فلم يُمْهَلْ بعد قوله [هذا] إلا أياماً حتى قتل .

نسب أمه

وأم الوليد بن يزيد : أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثَّقَفِيَّة ، ويكنى أبا العباس .

من خواص اليشب

وقد كان حمل إليه جفنة من البلور — وقيل : من الحجر المعروف باليشب[(١)] — وقد ذهب جماعة من الفلاسفة إلى أن مَنْ شَرِبَ فيه الخمر لا يسكر ، وقد ذكرنا خاصية ذلك فى كتاب « القضايا والتجارب » وأن من وضع تحت رأسه منه قطعةً أو كان فص خاتمه منه لم ير إلا رؤيا حسنة ، فأمر الوليد فملئت خمراً وطلع القمر وهو يشرب وندماؤه معه ، فقال : أين القمر الليلة ؟ فقال بعضهم : فى البرج الفلانى ، فقال له آخر منهم : بل هو فى الجفنة — وقد كان القمر تبين فى شعاع الجوهر وصورته فى ذلك الشراب — فقال [له] الوليد : واللهِ ما تَعَدَّيت[(٢)] ما فى نفسى ، وطرب طرباً شديداً ، وقال : لأصطبحنّ ، هفت هفته ، وهذا كلام فارسى تفسيره لأصطبحن سبعة أسابيع ، فدخل عليه بعض حجابه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بالباب جمعاً من وفود العرب وغيرهم من قريش ، والخلافة تجلُّ عن هذه المنزلة ، وتبعد عن هذه الحال[(٣)] ، فقال : أسقوه ، فأبى ، فوضع فى فمه قِمَعٌ وجعلوا يسقونه حتى خَرَّ ما يعقل سكراً .

(١) فى ا « المعروف بالجمست » . (٢) فى ا « والله ما عدوت ما فى نفسى » .
(٣) فى ا « وتبعد عن هذه الحالة » .

Marfat.com

وقد كان أبوه أراد أن يعهد إليه ، فلاستصغاره لسنه عهد إلى أخيه هشام ، ثم إلى الوليد من بعده .

كان مغرى بالخيل

وكان الوليد مُغْرًى بالخيل وحبها وجمعها ، وإقامة الحَلْبة ، وكان السندى فرسه جواد زمانه ، وكان يسابق به فى أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد ، وربما ضامَّه ، وربما جاء مُصَلِّياً .

مراتب خيل الحلبة

وهاك مراتب السوابق[1] من الخيل إذا جَرَتْ ، فأولها السابقُ ، ثم المُصَلِّى ، وذلك أن رأسه عند صَلاَ السابق ، ثم الثالث والرابع ، وكذلك إلى التاسع ، والعاشر السُّكَّيت ، مشدد ، وما جاء بعد ذلك لم يعتد به ، والفِسْكِل : الذى يجىء فى الحَلْبة آخِرَ الخيل .

وأجرى الوليد الخيل بالرصافة ، وأقام الحَلْبة ، وهى يومئذ ألفُ قارِح ، ووقف بها ينتظر الزائد ، ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان له فيها جواد يقال له المصباح[2] ؛ فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خَيْلِى وَرَبِّ الكعبة المحرمه سبقْنَ أفْرَاس الرِّجَال اللُّوَّمَهْ

كَمَا سبقناهم وَحُزْنَا المكْرُمَه

[كذاك كُنَّا فى الدُّهُور القدمه أهل العُلاَ والرُّتب المعظَّمَهْ]

فأقبل فرس ابن الوليد — ويقال له : الوضاح — أمام الخيل ؛ فلما دنا صرع فارسه ، وأقبل المصباح فرسُ سعيدٍ يتلوه وعليه فارسه ، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقاً ، فقال سعيد [والوليد يسمع] :

نحن سبقنا اليوم خيل اللُّوَّمَه وَصَرَفَ الله إلينا المكْرُمَه[3]

---

(١) فى ا « وهذه مراتب السوابق — إلخ » .

(٢) فى ا « جواد يسمى المصباح » .

(٣) فى ا « وضرب الله علينا المكرمه » .

Marfat.com

كذاك كُنّا فى الدُّهُورِ القدمه أهل العُلاَ والرُّتَب المعظمه

فضحك الوليد لما سمعه ، وخشى أن تسبق فرس سعيد ، فركض فرسَهُ حتى ساوى الوضاح ، فقذف بنفسه عليه ، ودخل سابقاً ، فكان الوليد أول من فعل ذلك وَسَنَّه فى الحلبة ، ثم تلاه فى الفعل كذلك المهدىُّ فى أيام المنصور ، والهادى فى أيام المهدى ، ثم عرضت على الوليد الخيل فى الحَلْبة الثانية ، فمرّ به فرس اسعيد ، فقال : لا نسابقك [يا] أبا عنبسة ، وأنت القائل :

* نَحْنُ سَبَقْنَا اليوم خيل اللومه *

فقال سعيد : ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين ، وإنما قلت :

* نَحْنُ سَبَقْنَا اليوم خيلا لومه *

فضحك الوليد ، وضمه إلى نفسه ، وقال : لاعدمَتْ قريش أخاً مثلك .

وللوليد بن يزيد أخبار حسان فى جمعه الخيولَ فى الحَلْبَة ، فإنه اجتمع له فى الحلبة ألف قارح ، وجمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف بالسندى ، وكانا قد برزا فى الجرى على خيول زمانهما ، وقد ذكر ذلك جماعة من الأخباريين وأصحاب التواريخ ، مثل ابن عفير والأصمعى وأبى عبيدة وجعفر بن سليمان ، وقد أتينا على الغُرَر من أخباره فى أخبار الخيل ، وأخبار الحَلْبَات ، وخبر الفرس المعروف بالزائد والسندى وأشقر مروان ، وغير ذلك من أخبار من سلف من الأمويين ، ومن تأخر ، فى كتابنا المترجم بالأوسط ، وإنما الغرض من هذا الكتاب إيراد جوامع تاريخهم ، ولُمَع من أخبارهم وسيرهم ، وكذلك أتينا على ذكر ما يستحب من معرفة خلق الخيل وصفاتها من سائر(١) أعضائها وعيوبها(٢) وخلقها ،

(١) فى ا « وسائر أعضائها » .

(٢) فى ب « وعيونها » .

Marfat.com

والشاب منها والهرم ، ووصف ألوانها ودوائرها ، وما يستحسن من ذلك ، ومقادير أعمارها ، ومنتهى بقائها ، وتنازع الناس فى أعداد هذه الدوائر ، والمحمودة منها والمذمومة ، وَمَنْ رأى أنها ثمانىَ عَشَرَةَ أو أقل من ذلك أو أكثر على حسب ما أدرك من طرق العادات بها والتجارب ، ووصف السوابق من الخيل ، وغير ذلك مما تكلم الناس به فى شأنها[1] وأعرافها ، فيما سلف من كتبنا .

وفاة أبى جعفر محمد بن على ابن الحسين

وفى أيام الوليد بن يزيد كانت وفاة أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب [رضى الله عنهم] ، وقد تنوزع فى ذلك : فمن الناس من رأى أن وفاته كانت فى أيام هشام ، وذلك سنة سبعَ عشرةَ ومائة ، ومن الناس من رأى أنه مات فى أيام يزيد بن عبد الملك ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، بالمدينة ، ودُفن بالبقيع مع أبيه على بن الحسين ، وغيره مِن سَلَفِهِ عليهم السلام ، مما سنورد ذكرهم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، والله ولى التوفيق .

---

(١) فى ا « مماتكلم الناس فيه من شأنها ومعرفتها ، فيما سلف » .

Marfat.com

ذكر أيام يزيد وإبراهيم ابنى الوليد

ابن عبد الملك بن مروان

ولى يزيد بن الوليد بدمشق[1] ليلة الجمعة لسبع بَقِين من جمادى الآخرة ، فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد، وتوفى يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذى الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته من مقتل الوليد ابن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليلتين، وقد كان إبراهيم بن لوليد أخوه قام بالأمر من بعده ، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر ، وقيل : شهرين ، ثم خُلِعَ، وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط ، واختلاف الكلمة ، وسقوط الهيبة ، وفيه يقول بعض أهل[2] ذلك العصر : موجز

نبايع إبراهيم فى كلِّ جمعة ألا إن أمْراً أنت وَالِيهِ ضائعُ

ودُفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير ، وهو ابن سبع ثلاثين سنة ، ويقال : [ابن] ست وأربعين سنة [على الخلاف فى ذلك].

(١) فى ا « ووثب يزيد بن الوليد بدمشق » .
(٢) فى ا « بعض شعراء ذلك العصر » .

Marfat.com

ذكر لمع مما كان فى أيامهما

وصف يزيد الناقص

كان يزيد بن الوليد أَحْوَلَ ، وكان يلقب بيزيد الناقص ، ولم يكن ناقصًا فى جسمه ولا عَقْله ، وإنما نَقَصَ بعضَ الجندِ من أرزاقهم ، فقالوا : يزيد الناقص ، وكان يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه فى الأصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والأسماء والأحكام — وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين — والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قول المعتزلة فى التوحيد

وتفسير قولهم فيما ذهبوا إليه من الباب الأول — وهو باب التوحيد — وهو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبغداديين وغيرهم ، وإن كانوا فى غير ذلك من فروعهم متباينين ، من أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عَرَضٍ ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر ، وأن شيئًا من الحواس لا يدركه فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، وأنه لا يحصره المكان ، ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولا [له] زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حَدّ ، وأنه الخالق للأشياء المُبْدِع لها لا من شىء ، وأنه القديم ، وأن ما سواه محدث .

قولهم فى العدل

وأما القول بالعدل — وهو الأصل الثانى — فهو أن الله لا يحبُّ الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونُهُوا عنه(1) بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولىُّ كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يطيقونه ، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه ، وأن أحداً لا يقدر على قَبْض ولا بَسْط إلا بقدرة الله التى أعطاهم إياها .

---

(1) فى ا « وتجنبوا مانهوا عنه » .

Marfat.com

وهو المالك لها دونهم ، يُفنيها إذا شاء ، وَيُبْقِيها إذا شاء ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطرارا عن معصيته ، ولكان على ذلك قادراً ، غير أنه لا يفعل ؛ إذ كان فى ذلك رفع للمحنة[1] ، وإزالة البلوى .

قولهم فى الوعيد

أما القول بالوعيد[2] — وهو الأصل الثالث — فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، وإنه لصادق فى وعده ووعيده ، لا مُبَدِّلَ لكلماته .

قولهم فى المنزلة بين المنزلتين

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين — وهو الأصل الرابع — فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقاً ، على حسب ما ورد التوقيف بتسميته ، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

قال المسعودى : وبهذا الباب سميت المعتزلة ، وهو الاعتزال ، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام ، مع ما تقدم من الوعيد فى الفاسق من الخلود فى النار .

قولهم فى الأمر بالمعروف

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهو الأصل الخامس — فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب ، على حسب استطاعتهم فى ذلك ، بالسيف فما دونه ، وإن كان كالجهاد ، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ، ومن اعتقد ما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزليًا ؛ فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال ، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة ، وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم .

وقد أتينا على سائر قولهم فى أصولهم وفروعهم وأقاويلهم وأقاويل غيرهم من فرق الأمة من الخوارج والمرجئة والرافضة والزيدية والحشوية وغيرهم فى كتابنا « المقالات فى أصول الديانات » وأفردنا بذلك كتابنا المترجم بكتاب « الإبانة » اجتبيناه

(١) فى ا « دفع للمحنة » .

(٢) فى ا « وأما القول بالوعد والوعيد » .

Marfat.com

لأنفسنا ، وذكرنا فيه الفرق بين المعتزلة وأهل الإمامة ، وما بان به كل فريق منهم عن الآخر ؛ إذ كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه [ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه] ، وأن اختيار ذلك مفوَّضٌ إلى الأمة تختار رجلا منها ينفِّذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان ، ولم يراعوا فى ذلك النّسَبَ ولا غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .

الاختلاف فى الإمامة

والذى ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هو المعتزله بأسرها ، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن يحيى ، ومن قال بقوله ، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب فى أخبار هشام .

ويوافق على هذا القول جميع الخوارج من الأباضية وغيرهم ، إلا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها ، ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخَّر ، إلا أنهم قالوا : إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يُحْتَجْ إلى إمام .

وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ؛ منها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن سالماً حَىٌّ دخلتنى فيه الظنون ، وذلك حين فَوَّضَ الأمر إلى أهل الشُّورَى ، قالوا : وسالم مولى امرأة من الأنصار ، فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة فى سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبى حذيفة .

قالوا : وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة ، منها قوله « اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أَجْدَعَ » وقد قال الله عز جل : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

Marfat.com

وذهب أبو حنيفة ، وأكثر المرجئة ، وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها ، وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية ، إلى أن الإمامة لا تجوز إلا فى قريش [فقط] ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم «الإمامة فى قريش » وقوله عليه السلام : « «قَدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها» ولما احتج المهاجرون به على الأنصار يوم ثقيفة بنى ساعدة من أن الإمامة فى قريش لأنهم إذا ولوا عدلوا ، ولرجوع كثير من الأنصار إلى ذلك .

ولما انفرد به أهل الإمامة من أن الإمامة لا تكون إلا نصاً من الله ورسوله على عَيْنِ الإمام واسمه واشتهاره كذلك ، وفى سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجةٍ لله فيهم ظاهراً [أ] وباطناً ، على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه ، واستدلوا بالنص على الإمامة[1] ، وبدلائل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص فى وجوبها ، وفى النص عليهم ، وفى عصمتهم ، من ذلك قوله عز وجل مخبراً عن إبراهيم : (إنى جاعلك للناس إماما) ومسألة إبراهيم بقوله : (ومن ذريتى) وإجابة الله له بأنه (لا ينال عهدى الظالمين) .

قالوا : ففيما تلونا دلائل على أن الإمامة نص من الله ، ولو كان نصها إلى الناس ما كان لمسألة إبراهيم ربه وجه ، ولما كان الله قد أعلمه أنه اختاره ، وقوله (لا ينال عهدى الظالمين) دلالة على أن عهده يناله من ليس بظالم .

ووصف هؤلاء الإمام فقالوا : نعت الإمام فى نفسه: أن يكون معصوما من الذنوب ، لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ؛ فيحتاج أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام ، إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه أيضاً أن يكون فى الباطن فاسقاً فاجراً كافراً ؛

---

(١) فى ب «واستدلوا بالنص على أن الإمامة فى قريش وبدلائل كثيرة - إلخ» وظاهر أن كلمة « فى قريش » لا معنى لها عند هؤلاء ، وما أثبتناه موافق لما فى ا

Marfat.com

وأن يكون أعلم الخليقة ؛ لأنه إن لم يكن عالما لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله وأحكامه ، فيقطع من يجب عليه الحد ، ويحد من يجب عليه القطع ، ويضع الأحكام فى غير المواضع التى وضعها الله ، وأن يكون أَشْجَعَ الخلق ؛ لأنهم يرجعون إليه فى الحرب ، فإن جبن وهرب يكون [قد] باء بغضب من الله ، وأن يكون أَسْخَى الخلق ؛ لأنه خازن المسلمين وأمينهم ، فإن لم يكن سخيا تاقت نفسه إلى أموالهم ، وشَرِهَتْ إلى ما فى أيديهم ، وفى ذلك الوعيد [الشديد] بالنار ، وذكروا خصالا كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد ، وأن ذلك كله وجد فى على بن أبى طالب وولده رضى الله عنهم : من السبق إلى الإيمان ، والهجرة ، والقرابة ، والحكم بالعدل ، والجهاد فى سبيل الله ، والورع ، والزهد ، وأن الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل ، ووصفه لهم فيما صنعوه من الإطعام للمسكين واليتيم والأسير ، وأن ذلك لوجهه تعالى خالصاً ، [لأنهم أَبْدَوْهُ بألسنتهم فقط] وأخبر عن أمرهم فى المنقلَبِ ، وحسن المَوْئِلِ فى المحشر ، ثم إخباره عز وجل عما أذهب عنهم من الرجس ، وفعل بهم من التطهير ، وغير ذلك مما أوردوه دلائل لما قالوه ، وأن عليا نص على ابنه الحسن ، ثم الحسين ، والحسين على على بن الحسين ، وكذلك مَنْ بعده إلى صاحب الوقت الثانى عشر ، على حسب ما ذكرنا وسمينا فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب .

ولأهل الإمامة من فرق الشيعة فى هذا الوقت –وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – كلام كثير فى الغيبة واستعمال التقية ، وما يذكرونه من أبواب الأئمة والأوصياء ، لا يسعنا إيراده فى هذا الكتاب ، إذ كان كتاب خبر ، وإنما تغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع من هذه المذاهب والآراء .

وكذلك ما عليه غير أهل الإمامة من أصحاب الدور والسيرورة[1] ، وما

(١) فى ب « من أصحاب دين الهجرة والمشورة » .

Marfat.com

يراعونه من الظهور ، وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا ، وما وصفنا فيها من الأقاويل فى الظاهر والباطن والسائر والدائر والوافر[١] ، وغير ذلك من أمورهم وأسرارهم .

قال المسعودى : وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع شائعة[٢] من المعتزلة وغيرهم من أهل دَارَيَّا والمِزَّة من غُوطة دمشق على الوليد بن يزيد ، لما ظهر من فسقه ، وشمل الناس من جوره ، فكان[من] خبر مقتل الوليد ما قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا مفصلا ، وذكرناه فى هذا الكتاب مجملا.

أم يزيد أم ولد

وكان يزيد بن الوليد أول من ولى هذا الأمر وأمُّهُ أم ولد ، وكانت أمه سارية[٣] بنت فيروز[بن كسرى] ، وهو الذى يقول فى ذلك :

أنا ابْنُ كِسْرَى ، وأبى مَرْوان وَقَيْصَرٌ جَدِّى ، وجَدِّى خَاقَان

وكان يكنى بأبى خالد ، وأم أخيه إبراهيم أم ولد تدعى بدبرة[٤] ، والمعتزلة تفضل فى الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز ، لما ذكرناه من الديانة .

ظهور مروان ابن محمد (الحمار)

وفى سنة سبع وعشرين ومائة أقبل مَرْوَان بن محمد بن مروان من الجزيرة فدخل دمشق ، وخرج إبراهيم بن الوليد هارباً من دمشق ، ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه ، وقتل مَنْ مالأه ووالاه ، وقتل عبد العزيز بن الحجاج ، ويزيد ابن خالد القَسْرى ، وبدأ أمر بنى أمية يؤول إلى ضعف .

وذكر اليحصبى عن الخليل بن إبراهيم السبيعى ، قال : سمعت ابن الجحى يقول: قال لى العلاء ابن بنت ذى الكلاع : إنه كان مؤانساً لسليمان[٥] بن عبد الملك

---

(١) فى ا « والواقف » . (٢) فى ب « مع سابقة » .
(٣) فى « وكانت أمه شافرند » .
(٤) فى ب « تدعى بريرة » .
(٥) فى ا « لسليمان بن هشام بن عبد الملك » وهى أوفق بما يلى .

Marfat.com

لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المُسَوِّدة بخراسان والمشرق قد بان ، ودنا من الجبل ، وقرب من العراق ، واشتد إرْجَافُ الناس ، ونطق العدو بما أَحَبَّ فى بنى أمية وأوليائهم ، قال العلاء : فإنى لَمَعَ سليمان وهو يشرب حذاء رصافة أبيه ، وذلك فى آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده حَكَم الوادى ، وهو يُغَنِّيه بشعر العَرْجِىّ :

إن الحَبِيب تَرَوَّحَتْ أحمَالُه أُصُلاً ؛ فدمعك دائم إسْبَالُهُ
أَقْنَ الحَيَاءَ فقد بكَيتَ بِعَوْلَةٍ لو كان ينفع باكيا إعْوَالُهُ
يا حَبَّذَا تلك الحمول ، وحَبَّذَا شَخْص هُنَاكَ ، وحَبَّذَا أَمثَالُهُ

فأجاد بما شاء ، فشرب سليمان بالرطل ، وشربنا معه ، حتى توسدنا أيدينا ، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياى ، فقمت إليه مسرعا ، فقلت [له] : ما شأن الأمير ؟ فقال لى : على رِسْلِكَ ، رأيت كأنى فى مسجد دمشق ، وكأن رجلا فى يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص ما فيه من جوهر ، وهو رافع صوته بهذه الأبيات :

أبَنِى أُمَيَّة قَدْ دَنَا تشتيتكم وذَهَابُ مُلْكِكُمُ وأن لا يرجع
وينالُ صفوتَهُ عـــدوٌّ ظالم للمحسنين إليـــه ثمة يفجع
بعـد الممات بكل ذكر صالح يا وَيْلَهُ من قُبح ما قد يَصْنَعُ

فقلت : بل لا يكون ذلك ، وعجبت من حفظه ، ولم يكن من أصحاب ذلك ، فوَجَم ساعة ثم قال : ياحميرى ، بَعِيدُ ما يأتى به الزمان قريبٌ ، قال : فما اجتمعنا على شرابٍ بعد ذلك .

---

(١) فى بعض الأصول « أفن الحياء » بالفاء والنون الموحدتين . وما أثبتناه أنسب ، ومعنى « اقن الحياء » الزمه ولا تفارقه ، وتقول : قنى الرجل الحياء يقناه مثل رضى الأمر يرضاه ، وتقول أيضا : أقنى الحياء يقنيه ، مثل أولى الجميل يوليه ، والمعنى فيهما واحد .

Marfat.com

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكان من أمر المُسَوِّدة ومروان ابن محمد الجَعْدى ما كان .

سبب زوال ملك الأمويين

وذكر المنقرى قال : سئل بعض شيوخ بنى أمية وَمُحَصِّليها عقيب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شُغِلْنَا بِلَذَّاتِنَا عن تفقدِ ما كان تَفَقُّده يلزمنا ، فَظَلَمْنَا رعيَّتَنَا ؛ فيئسوا من إنصافنا ، وتمنوا الراحة مِنَّا ، وتحومل على أهل خراجنا ؛ فَتَخَلَّوْا عنا ، وخربت ضياعنا ، نخلَتْ بيوتُ أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا، فآثَرُوا مرافقهم على منافعنا ، وَأَمْضَوْا أُموراً دوننا أَخْفَوْا علمها عنا ، وتأخَّرَ عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا[1] ، فتظافروا معهم على حربنا ، وَطَلَبنَا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوْكَدِ أسباب زوال ملكنا .

---

(١) فى ا « واستدعاهم عداتنا » .

Marfat.com

ذكر السبب فى العصبية بين النزارية واليمانية[1]

الكميت يعرض شعره على الفرزدق

ذكر أبو الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى ، قال : حدثنى أبى ، قال : لما قال الكميت بن زيد الأسدى — من أسد مضر بن نزار — الهاشميات قَدِمَ البصرة ؛ فأتى الفرزدق فقال : يا أبا فراس ، أنا ابن أخيك ، قال : ومَنْ أنت ؟ فانتسب له . فقال : صدقت فما حاجتك ؟ قال : نُفِثَ على لسانى ، وأنت شيخ مضر وشاعرها ، وأحببت أن أعرض عليك ما قلت ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بسَتْرِهِ وَسَتَرْتَه عَلَىَّ ، فقال : يا ابن أخى ، أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت راشداً ، فأنشده :

طَرِبْتُ وَمَا شوقاً إلى البِيضِ أطْرَبُ ... ولا لَعِباً مِنِّى ، وَذُو الشيب يَلْعَبُ

قال : بلى فَالْعَبْ ، فقال :

وَلَمْ يُلْهِنِى دَارٌ ، ولا رَسْمُ مَنْزِلٍ ... ولم يَتَطَرَّبْنِى بَنَانٌ مُخَضَّبُ

قال : فما يُطْرِبك إذاً ؟ قال :

وما أنا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطير هَمُّهُ ... أصاح غُرَابٌ أو تَعَرَّضَ ثعلَبُ[2]

قال : فما أنت وَيْحك ؟ وإلى مَنْ تَسْمُو ؟ فقال :

وَمَا السانحات البَارِحَاتُ عَشِيَّةً ... أَمَرَّ سليمُ القَرْنِ أم مَرَّ أَعْضَبُ

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل وَالنُّهى ... وَخَيْرِ بنى حَوَّاء ، وَالْخَيْرُ يُطْلَبُ

قال : ومَنْ هم وَيْحك ؟ قال :

إلى النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ بحبهم ... إلى اللهِ فيما نابنى أَتَقَرَّبُ

(١) ا « بين اليمانية والنزارية » .

(٢) فى ا « ولا أنا ممن يزجر الطير » .

قال : أرِحْنِي وَيْحك ! ! مَنْ هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رَهْطِ النبيِّ ؛ فإننى بِهِمْ وَلَهُمْ أرْضَى مِرَاراً وأغْضَبُ

قال : للهِ دَرُّك يا بُنَيَّ ، أصبت فأحسنت ، إذ عدلت عن الزعانف والأوباش ، إذاً لا يُصَرَّد سهمك ، ولا يُكَذَّبُ قولك ، ثم مَرَّ فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر وكِدِ الأعداء ، فأنت والله أشعر مَنْ مضى وأشعر مَنْ بَقِيَ .

الكميت يعرض شعره على أبى جعفر محمد بن على

فحينئذ قدم المدينة ؛ فأتى أبا جعفر محمد بن على [بن الحسين بن على] رضى الله عنهم ، فأذن له ليلا وأنشده ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وَقَتِيلٍ بالطَّفِّ غُودِرَ منهم بين غوغاء أُمَّة وَطَغَام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كميت ، لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنا أهْلَ البيت ، فخرج من عنده .

ثم يعرضه على عبد الله ابن الحسن

فأتى عبد الله بن الحسن بن على ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهل ، إن لى ضيعة [قد] أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشْهَدْتُ لك بذلك شهوداً ، وناوله إياه ، فقال : بأبى أنت وأمى ، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ما قلت فيكم [شيئاً] إلا لله ، وما كنت لآخُذَ على شىء جعلته لله مالا ولا ثمناً ؛ فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه ؛ فأخذ الكميت الكتاب ومضى ؛ فمكث أياماً ، ثم جاء إلى عبد الله فقال : بأبى أنت وأمى يا ابن رسول الله إن لى حاجة ، قال : وما هى ؟ وكل حاجة لك مَقْضِيَّة ، قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ، قال : هذا الكتاب تقبله وترتجع الضيعة ، ووضع الكتاب بين يديه ؛ فقَبِلَه عبد الله .

عبد الله ابن جعفر يثيب الكميت

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ؛ فأخذ ثوباً

Marfat.com

جلداً فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بنى هاشم ، ويقول: يا بنى هاشم، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَتَ الناسُ عن فضلكم ، وعَرَّض دَمَه لبنى أمية ، فأثيبوه بما قدرتم ، فيطرح الرجل فى الثوب ما قدر عليه من دنانير ودراهم ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلى عن جسدها ، فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم ، فجاء بها إلى الكميت ، فقال: يا أبا المستهل، أتيناك بجهد المُقِلّ ، ونحن فى دولة عدونا ، وقد جمعنا [لك] هذا المال وفيه حلى النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك ، فقال : بأبى أنت وأمى ، قد أكثرتم وأطيبتم[1] ، وما أردت بمدحى إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك[2] ثمناً من الدنيا ، فاردده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة ، فأبى ، فقال : إن أبيت[3] أن تقبل فإنى رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس ، لعلَّ فتنةً تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب ، فابتدأ الكميت وقال قصيدته التى يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن مَعَدّ وربيعة بن نزار وإيادٍ وأنمار ابنى نزار ، ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويُطْنِب فى وصفهم ، وأنهم أفضل من قَحْطَان ؛ فغضب بها بين اليمانية والنزارية [فيما ذكرناه] وهى قصيدته التى أولها :

أول إثارة العصبية

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا وَهَلْ نَاسٌ نقول مُسَلِّمينا

إلى أن انتهى إلى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها ، وهو قوله :

لَنَا قَمَرُ السَّمَاءِ وكلُّ نجم تُشِيرُ إليه أَيْدِى المُهْتَدِينا

---

(١) فى ا « قد أكثرتم وأطبتم » وأحسبه محرفا عما أثبتناه ، موافقا لما فى ب

(٢) فى ا « لآخذ على ذلك ثمنا » .

(٣) فى ا « أما إذ أبيت أن تقبل » .

Marfat.com

وَجدْتُ الله إذ سَمَّى نزاراً وأسْكَنَهُمْ بمكة قاطنينا
لنا جُمَلُ المكارم خالصاتٍ وللناس القَفا ولنا الجبينا
وما ضربت هِجانُ من نزار فوالج من فُحُولِ الأعجمينا
وما حملوا الحميرَ على عِتَاقٍ مُطَهَّرةٍ فيلفوا مُبْلِغينا
وما وجدت نساء بنى نزار حلائل أسْوَدِينَ وَأَحْمرينا

دعبل الخزاعى يرد على الكميت

وقد نقض دِعْبِل بن على الْخُزَاعِى هذه القصيدة على الكميت وغيرها، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها، وصَرَّح وعَرَّض بغيرهم، كما فعل الكميت، وذلك فى قصيدته التى أولها :

أفيقى من مَلاَمِكِ يا ظعينا كَفاكِ اللَّوْمَ مَرُّ الأربعينا
ألم تحزُنْكِ أحْدَاثُ اللّيَالى يُشَيِّبْنَ الذوائب وَالْقُرُونَا
أحَيِّ الْغُرَّ من سَرَوَاتِ قومى لقد حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا
فإن يَكُ آل إسرائيل منكم وكُنتم بالأعاجم فَاخِرِينَا
فلا تَنْسَ الخنازير اللَّوَاتِى مُسِخْنَ مع القُرُودِ الْخَاسِئِينَا
بأيلة والخليج لهم رُسُومٌ وآثار قدُمْنَ وما مُحِينَا
وَمَا طلبُ الكميت طِلابُ وِتْرٍ ولكنّا لنصرتنا هُجِينَا
لقد علمت نِزَارٌ أن قومى إلى نَصْرِ النبوة فَاخِرِينَا

كانت العصبية من دواعى زوال ملك بنى أمية

وهى طويلة . ونمى قول الكميت فى النزارية واليمانية ، وافتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر ؛ فنتج بذلك أمر مَرْوَان بن محمد الجعدى ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية ثم إلى بنى هاشم ، ثم ما تلا ذلك من قصة مَعن بن زائدة باليمن ، وَقَتْلِهِ أهلها

Marfat.com

تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وَقطْعه الحلف الذى كان بين اليمن وربيعة فى القِدَم ِ(١) ، وفعل عقبة بن سالم بعُمان والبحرين ، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة [وسائر نزار ممن بأرض البحرين وعُمان] كياداً لمعن ، وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان .

(١) فى ا « فى القديم » .

Marfat.com

ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان
ابن الحكم ، وهو الجَعْدِيّ

موجز

[و] بويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأَرْبَعَ عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ من صفر سنة سبع وعشرين ومائة ، وقيل : إنما دعا(١) إلى نفسه بمدينة حَرَّان من ديار مُضَر ، وبويع له بها ، وأمه أم ولد يقال لها رَيّا ، وقيل : طرونة(٢) ، كانت لمصعب بن الزبير ، فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه ، وكان مروان يكنى أبا عبد الملك ، واجتمع أهْلُ الشام على بيعته ، إلا سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بنى أمية ؛ فكانت أيامه منذْ بويع بمدينة دمشق من أرض الشام إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيام ، وقيل : خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكان مقتله فى أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك كان فى المحرم ، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك كان فى صفر ، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريخ والسير على حسب تنازعهم فى مقدار ملكه ؛ فمنهم من ذهب إلى أن مُدَّتَه خمس سِنِينَ وثلاثة أشهر ، ومنهم من قال : خمساً وشهرين وعشرة أيام ، ومنهم من قال : خمساً وعشرة أيام ، وكان مقتله ببوصير قريةٍ من قرى الفيوم بصعيد مصر(٣) ، وقد تنوزع فى مقدار سنه كتنازعهم فى مقدار ملكه ؛ فمنهم من زعم أنه قُتل وهو ابن سبعين سنة ، ومنهم من قال : ابن تسع وستين ، [ومنهم من قال : اثنتين وستين] ، ومنهم من قال : ثمان وخمسين ، وإنما نذكر هذا الخلاف من قولهم لئلا يظن ظَانٌّ أننا [قد] أغفَلْنَا ما ذكروه أو تركنا شيئاً مما وصفوه ، مما إليه قصدنا فى كتابنا هذا ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ما قيل فى ذلك ، فى] كتابينا أخبار الزمان والأوسط .

---

(١) فى ا « إنه دعا إلى نفسه » .

(٢) فى ا « طروبة » (٣) فى ا « من صعيد مصر » .

Marfat.com

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جُمَلاً من كيفية مَقْتَله وأخباره ، وجوامع من سيره وحروبه ، وما كان من أمر الدولتين فى ذلك من الماضية — وهى الأموية — والمستقبلة فى ذلك الزمان — وهى العباسية — مع إفرادنا باباً نذكر فيه جَوَامِعَ تاريخ ملك الأمويين ، وهو الباب المترجم بذكر [مقدار] المدة من الزمان ، وما ملكت [فيه] بنو أمية من الأعوام ، ثم نُعَقِّبُ ذلك بلمع من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبى مُسْلم ، وخلافة أبى العباس السَّفّاح ومَنْ تلا عَصْره من خلفاء بنى العباس، إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من خلافة أبى إسحاق المتقى لله إبراهيم بن المقتدر بالله ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى التوفيق .

***

ذكر مقدار المدة من الزمان

وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام

المدة إجمالا

كان جميع مُلك بنى أمية إلى أن بويع أبو العباس السَّفَّاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص؛ لأنهم ملكوا تسعين سنة، وأحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً.

تفصيل المدة

قال المسعودى: والناس متباينون فى تواريخ أيامهم، والمعَوَّلُ على ما نورده[1]، وهو الصحيح عند أهل البحث وَمَنْ عُنِيَ بأخبار هذا العالم، وهو أن معاوية بن أبى سفيان مَلَكَ عشرين سنة، ويزيد بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومعاوية بن يزيد شهراً وأحد عشر يوماً، ومروان بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيام، وعبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، والوليد بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر ويومين، وسليمان بن عبد الملك سنتين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، ويزيد بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوماً، وهشام ابن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام، والوليد بن يزيد ابن عبد الملك سنة وثلاثة أشهر، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيام، وأسقطنا أيام إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك كإسقاطنا أيام إبراهيم بن المهدى أن يُعَدَّ فى الخلفاء العباسيين، ومروان بن محمد بن مروان خمس سنين وشهرين وعشرة أيام، إلى أن بويع السفّاحُ، فتكون الجملة[2] تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، يضاف إلى ذلك الثمانية أشهر[3]

---

(١) فى ا «والمعول عليه ما نورده» (٢) فى ا «فذلك تسعون سنة – إلخ».

(٣) هذا خطأ بإجماع البصريين والكوفيين، والبصريون يوجبون أن تقول «ثمانية الأشهر» والكوفيون يجيزونه ويجيزون أيضا أن تقول «الثمانية الأشهر».

التى كان مروان يقاتل فيها بنى العباس إلى أن قتل ، فيصير مُلْكهم إحدى وتسعين سنة وسبعة[١] أشهر وثلاثة عشر يوماً .

يُوضَع من ذلك أيام الحسن بن على — وهى خمسة أشهر وعشرة أيام — وتوضع أيام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذى قتل فيه — وهى سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام — فيصير الباقى بعد ذلك ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ، يكون ذلك ألف شهر سواء .

وقد ذكر قوم أن تأويلَ قوله عز وجل : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ما ذكرناه من أيامهم .

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : والله ليملكَنَّ بنو العباس ضعف ما ملكته بنو أمية : باليوم يومين ، وبالشهر شهرين ، وبالسنة سنتين ، وبالخليفة خليفتين .

مدة ملك بنى العباس

قال المسعودى : فملك بنو العباس فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانقضى مُلْك بنى أمية ؛ فَلِبَنِي العباس من وقت ملكهم[٢] إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — مائتا سنة ، وذلك أن أبا العباس السفاح بويع له بالخلافة فى ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانتهينا من تصنيفنا من هذا الكتاب إلى هذا الموضع فى شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى خلافة أبى إسحاق المتقى لله ، والله أعلم بما يكون من أمرهم فيما يأتى به الزمان المستقبل بعد هذا الوقت من الأيام .

وقد أتينا بحمد الله فيما سلف من كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط على الغُرَرِ من أخبارهم ، والنوادر من أسمائهم ، والطرائف مما كان فى أيامهم وعهودهم ووصاياهم ، ومكاتباتهم ، وأخبار الحوادث والخوارج فى أيامهم من الأزارقة

(١) فى ب « وتسعة أشهر » .
(٢) فى ا « مذ ملكوا إلى هذا الوقت » .

Marfat.com

والأباضية وغيرهم ، ومن ظهر من الطالبيين طالباً بحق أو آمراً بمعروف أو ناهياً عن منكر ، فقتل فى أيامهم ، وكذلك مَنْ تلاهم من بنى العباس إلى خلافة المتقى لله من سنتنا هذه — وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — وما ذكرنا فى هذا الباب[١] من جوامع التاريخ قد يخالف ما تقدم بَسْطه باليوم أو العشرة أو الشهر عند ذكرنا لدولة كل واحد منهم وأيامه ، وهذا هو المُعَوَّل عليه من تاريخهم وَسِنِيهِمْ ، والمفصل[٢] من مدتهم ، والله أعلم ، ومنه التوفيق .

* * *

(١) فى ب « فى هذا الكتاب » .
(٢) فى ا « والمحصل من مدتهم »

Marfat.com

ذكر الدولة العباسية

ولمع من أخبار مروان ، ومقتله
وجوامع من حروبه ، وسيره

قول الراوندية فى الخلافة

قد قَدَّمْنَا فى الكتاب الأوسط ما ذكرته الراوندية – وهم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب ، من أهل خراسان وغيرهم – [من] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ، وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه عَمُّه ووارثه وعَصَبَته ، لقول الله عز وجل : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) وأن الناس اغتصبوه حقه ، وظلموه أمره ، إلى أن رَدَّهُ الله إليهم ، وتبرؤا من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأجازوا بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه بإجازته[1] لها ، وذلك لقوله : يا ابن أخى ، هَلُمَّ إلى [أن] أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ، ولقول داود بن علىّ على منبر الكوفة يوم بويع لأبى العباس : يا أهل الكوفة ، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علىّ بن أبى طالب ، وهذا القائم فيكم – يعنى أبا العباس السفاح – .

من حوار فاطمة الزهراء وأبى بكر الصديق

وقد صنف هؤلاء كتباً فى هذا المعنى الذى ادَّعَوْهُ هى متداولة فى أيدى أهلها وَمُنْتَحِلِيها ، منها كتاب صَنَّفه عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو المترجم بكتاب «إمامة ولد العباس» يحتج فيه لهذا المذهب ، ويذكر فعل أبى بكر فى فَدَكَ وغيرها وقصته مع فاطمة رضى الله عنها ، ومطالبتها بإرثها من أبيها صلى الله عليه وسلم ، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أَيْمَنَ ، وما جرى بينها

(١) فى ا « بإجازة ابن العباس له » والعبارة التى ذكرها قد قالها العباس بن عبد المطلب لعلى بن أبى طالب عقب انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى

Marfat.com

بين أبي بكر من المخاطبة ، وما كثر بينهم من المنازعة ، وما قالت ، وما قيل لها عن أبيها عليه السلام ، من أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء نَرِثُ ولا نورث »[١] وما احتجَّتْ به من قوله عز وجل : (وورث سليمانُ داوُدَ) على أن النبوة لا تورث ، فلم يبق إلا التوارث ، وغير ذلك من الخطاب ، ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحِجَاجَ للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ، ولا كان يعتقده ، ولكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً .

العثمانية للجاحظ

وقد صنف [أيضاً] كتاباً استقصى فيه الحِجَاجَ عند نفسه ، وأيَّدَهُ بالبراهين وَعَضَّده بالأدلة فيما تصوره من عقله ، وترجمه بكتاب العثمانية ، يحل فيه عند نفسه فضائل على عليه السلام ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، طلباً لإماتة الحق ، ومضادة لأهله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

كتب أخرى للجاحظ

ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم ، ورأيته مترجما بكتاب [إمامة] أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، فى الانتصار له من على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ، ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم .

ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية ، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه ، من فضائل أمير المؤمنين على ومناقبه فيما ذكرنا .

نقض الشيعة لكتب الجاحظ

وقد نقضتُ عليه ما ذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره ، وقد نقضها جماعة من متكلمى الشيعة : كأبى عيسى الوراق ، والحسن بن موسى النخعى ، وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك فى كتبه فى الإمامة مجتمعاً ومفترقاً .

والمعتزلة تنقض العثمانية

وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضاً رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم ، وأهل الزهد والديانة منهم ، ممن يذهب إلى تفضيل على

---

(١) فى ا « لا نرث ولا نورث » والمعروف فى الحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » وانظر تحقيقنا على مقالات الإسلاميين للأشعرى .

Marfat.com

والقول بإمامة المفضول — وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى — وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين ، وفيها مات أحمد بن حنبل ، وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب ، ووفاة غيره من المعتزلة ، وإن كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

رأى الجريانية فى الإمامة

والذى ذهب إليه مَنْ تأخر من الراوندية وانتقل وتحير عن جملة الكَيْسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية —وهم الجريانية[1] أصحاب أبى مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية ، وكان يلقب بجريان[1] — أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد على بن أبى طالب ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه أبى هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى إلى على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وأن على بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن على ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران ، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبى العباس بن عبد الله بن الحارثية [المقتول] .

أصل أبى مسلم الخراسانى

وقد تنوزع فى أمر أبى مسلم : فمن الناس من رأى أنه كان من العرب ، ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق ، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة[٢] ، وإليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية[٢] ، وتلك من أعمال الكوفة وسَوَادها ، وكان قهرماناً لإدريس ابن إبراهيم العجلى ، ثم آل أمره ونمت به الأقدار إلى أن اتصل بمحمد بن على ، ثم بإبراهيم بن محمد الإمام ، فأنفذه إبراهيم إلى خُرَاسان ، وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد إلى أمره ورأيه، فقوى أمره وظهر سلطانه ، وأظهر السواد ، وصار زينة فى اللباس والأعلام والبنود ، وكان أول من سَوَّدَ من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبد الله ، ثم نمى ذلك فى الأكثر من المدن والكُوَر بخراسان ، وقوى أمر أبى مسلم ، وضعف أمر نصر بن سَيَّار صاحب مروان بن محمد الجعدى على بلاد خراسان ،

(١) فى ب « الحريانية » بالحاء مهملة . وفيها « وكان يلقب بحريان » .
(٢) فى ب « حرطينة » وفيها « المعروفة بالحرطينية » .

وكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحِيَلَ والمكايد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه ، وقد كان لنصر بن سَيَّار حروب كثيرة مع الكرماني إلى أن قتل، أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وذكرنا بدء أخبار الكرماني جديع بن علي ، وما كان بينه وبين سَلْم بن أَحْوَزَ صاحب نصر ابن سَيَّار ، وما كان من أمر خالد بن بَرْمَكٍ ، وقَحْطبة بن شبيب، وغيرهما من الدُّعَاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية : كسليمان بن كثير ، وأبي داود خالد بن إبراهيم ، ونظرائهم ، وما كان من شعارهم عند إظهار الدعوة ، وندائهم حين الحروب : محمد يا منصور ، والسبب الذي له ومن أجله أظهروا استعمال السواد دون سائر الألوان .

بين نصر ابن سيار ومروان بن محمد الجعدي

وطالت مكاتبة نصر بن سَيَّارٍ مروانَ ، وإعلامه بما هو فيه ، وإظهار أمر العباسية ، وتزايده في كل وقت ؛ فكان فيما كتب [به] إليه إعلامه بحال أبي مسلم وحال مَنْ معه ، وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله ، فوجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وضمن كتابه أبياتاً من الشعر ، وهي :

أرى بين الرَّمَادِ وميض جَمْر ... ويوشك أن يكون له ضرام[(١)]
فإن النـار بالعودين تُذْكَى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفؤها تَجْنِ حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام[(٢)]
أقول من التعجب : ليت شعري ... أأيقاظٌ أميةُ أم نيام ؟
فإن يَكُ قومنا أضحوا نياماً ... فقل : قوموا ؛ فقد حان القيام
ففري عن رحالك ، ثم قولي : ... على الإسلام والعرب السلام

فلما ورد الكتاب على مروان وَجَدَه مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة

(١) في ا « أرى خلل الرماد وميض نار » وهو المحفوظ .
(٢) في ا « تجر حربا » و « يشيب له الغلام » .

Marfat.com

وغيرها ، وما كان من خبره فى حروبه مع الضحاك بن قيس الحَرُورى حتى قتله مروان بعد وقائع كثيرة بين كفر توثى ورأس العين ، وكان الضحاك خرج من بلادشهرزور ، ونصبت الخوارج بعد قتل الضحاك عليها الحرى(١) [الشيبانى] فلما قتل الحرى(١) ولَّتِ الخوارج عليها أبا الذلفاء شيبان الشيبانى ، وما كان من حروب مروان مع نعيم بن ثابت الجذامى ، وكان خرج عليه ببلاد طبرية والأردن من بلاد الشام حتى قتله مروان ، وذلك فى سنة ثمانية وعشرين ومائة ، فلم يدر مروان كيف يصنع فى أمر نصر بن سَيَّار وخراسان وإنجازه لما هو فيه من الحروب والفتن ، فكتب إليه مروان مجيباً عن كتابه : إن الشاهد يَرَى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلولَ قِبَلكَ(٢) ، فلما ورد الكتاب على نصر قال لخواص أصحابه : أمّا صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نَصْرَ عنده .

بعض خلال وأعمال مروان ابن محمد الجعدى

وأقامَ مروان أكثر أيامه لا يدنو من النساء إلى أن قتل ، وبرزت له جارية(٣) من جواريه ، فقال لها · وأللهِ لادنوت منك ، ولاحَلَلْتُ لك عقدة ، وخراسَانُ ترجُفُ وتتضرم بنصر بن سيار ، وأبو مجرم قد أخذ منه بالمخنَّقِ .

وكان مع ما هو فيه يُدِيم قراءة سير الملوك ، وأخبارها فى حروبها ، من الفرس وغيرها من ملوك الأمم .

وَعَذَلَه بعضُ أوليائه ممن كان يأنس إليه فى ترك النساء والطيب وغير ذلك من اللذات ، فقال له مروان : يمنعنى منهن مامنع أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال له الرجل : وماذاك ياأمير المؤمنين ؟ قال : حَمَل صاحب إفريقية إليه جارية ذات بهاء وكمال ، تامة المحاسن ، شهية للمتأمِّلِ ، فلما وقَفَتْ بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجاج وهو بدَيْرِ الجماجم مُوَاقعاً لابن الأشعَثِ(٤) ،

(١) فى ا « الخبيرى » .
(٢) فى ب « فاجشم التولات تملك » (٣) فى ا « وتراءت له جارية » .
(٤) فى ا « مواقفا لابن الأشعث » .

فرمى بالكتاب عن يده ، وقال لها : أنت والله مُنْيَةُ النفس ، فقالت الجارية : ما يمنعك يا أمير المؤمنين إذ كنتُ بهذا الوصف ؟ قال : يمنعني والله منك بَيْتٌ قاله الأخطل :

قوم إذا حارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُم دونَ النساء ولو بَاتَتْ بأطْهَارِ

أألتذ بالعيش وابن الأشعث مُصَافٌّ لأبى محمد وقد هلكتْ [فيه] زعماء العرب ؟ لاها الله إذاً ، ثم أمر بصيانتها ، فلما قتل ابن الأشعث كانت أول جارية خَلا بها .

نصر يكتب لابن هبيرة يستنجده

ولما يئس نصر بن سَيّار من إنجاد مروان كتب إلى يزيد بن عمر[1] بن هُبَيرة الفَزَارى عامل مروان على العراق يستمدُّه ، ويسأله النُّصْرَة على عدوه ، وضَمّن كتابه أبياتاً من الشعر ، وهى :

أَبْلِغْ يزيد ، وخيرُ القولِ أَصْدَقُه وقد تَبَيَّنْتُ أن لاخَيْرَ فى الكَذِبِ

بأنَّ أرضَ خُرَاسان رأيتُ بها بَيْضاً لَوَ افْرَخ قد حُدِّثت بالعَجَب

فِرَاخُ عامين إلا أنها كَبِرَت لما يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ

فإنْ يَطِرْنَ ولم يُحْتَلْ لَهُنَّ بها يُلْهِبْنَ نيرانَ حرب أيما لهبِ

فلم يجبه يزيد بن عمر[1] عن كتابه ، وتشاغل بدفع فتن[2] العراق .

دعاة إلى طالب الحق بالحجاز

ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى وبلخ[3] بن عقبة الأزدى ، وهما فيمن معهما يدعون إلى عبد الله بن يحيى الكندى ، وكان قد سمى نفسه بطالب الحق ، وخُوطِبَ بأمير المؤمنين ، وكان أباضِيَّ المذهب من رؤساء[4] الخوارج ، وذلك فى سنة تسع وعشرين ومائة .

مروان يجهز لحرب الخوارج

وفى سنة ثلاثين ومائة جَهَّز مروان بن محمد جيشاً مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ، فلقى الخوارج بوادى القرى ، فقُتِلَ بلخ[3] ، وفَرَّ أبو حمزة [فى بقيتهم إلى مكة ، فلحقه عبد الملك ، فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة] وأكثر من كان معه من الخوارج ، وسار عبد الملك فى جيش مروان من أهل

(١) فى ب « يزيد بن عمرو » (٢) فى ا « يدفع فتن العراق » .
(٣) فى ا « وبلج بن عقبة » (٤) فى ا « من رأى الخوارج » .

Marfat.com

الشام يريد اليمن ، وخرج عبد الله بن يحيى الكندى الخارجى من صنعاء ، فالتقوْا بناحية الطائف وأرض جرش ، فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبد الله بن يحيى وأكثر من كان معه من الأباضية ، ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت ، فأكثرها أباضية إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — ولا فرق بينهم وبين من بعُمَانَ من الخوارج فى هذا المذهب ، وسار عبد الملك فى جيش مروان فنزل صنعاء ، وذلك فى سنة ثلاثين ومائة ، وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفاً من مروان ، واحتوى عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على بلاد إصْطَخْرَ وغيرها من أرض فارس ، إلى أن رفع عنها[1] وصار إلى خراسان ، فقبض عليه أبو مسلم ، وقد ذكرنا من يقول بإمامته ، وينقاد إلى دعوته ، فى كتابنا « المقالات ، فى أصول الديانات » فى باب تفرق الشيعة ومذاهبهم .

موت نصر ابن سيار

وقوى أمر أبى مسلم ، وغلب على أكثر خراسان ، وضعف [أمر] نصر بن سيار من عدم النَّجْدة ، فخرج عن خراسان حتى أتى الريَّ ، وخرج عنها ، فنزل ساوة بين بلاد همذان والرى ، فمات بها كمدا .

و [قد] كان نصر بن سيار — لما صار بين الريِّ وخُرَاسان — كتب كتاباً إلى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذى أزْعَجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضَمَّنَ ذلك أبياتاً من الشعر ، وهى :

إنا وما نَكتُمُ من أمرنا كالثور إذ قُرِّبَ للناخع
أو كالتى يحسبها أهلها عَذْرَاء بكراً وَهْىَ فى التاسع
كنا نرقِّعها فقد مُزِّقَتْ واتسع الخرق على الراقع
كالثَّوْب إذ أنهج فيه البلى أعيا على ذى الحيلة الصانع

فلم يستتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكل بالطرق رسولا من خراسان من أبى مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره

(١) فى ا « إلى أن دفع عنها » .

Marfat.com

فيه خبره ، وما آل إليه أمره ، فلما تأمل مروان كتاب أبى مسلم قال للرسول: لا تُرَعْ ، كم دفع لك صاحبك؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً ، وامضِ بهذا الكتاب إلى إبراهيم، ولا تعلمه بشىء مما جرى ، وخذ جوابه فائتِنى به ، ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبى مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونَهْيِه ، فاحتبس مروان الرسول ، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكرار[1] والحُمَيْمة ليأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقاً ، ويبعث به إليه فى خيل كثيفة ، فوجَّه الوليد إلى عامل البلقاء فأخذ [إبراهيم][2] وهو جالس فى مسجد القرية فأخذ وهو مُلَفَّفٌ، وحمل إلى الوليد ، فحمله إلى مروان فحبسه فى السجن شهرين[3] ، وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خطب طويل حين مَثَلَ بين يديه ، وأغلظ له إبراهيم ، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبى مسلم ، فقال له مروان : يا منافق ، أليس هذا كتابك إلى أبى مسلم جواباً عن كتابه إليك ، وأخرج إليه الرسول ، وقال : أتعرف هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمْسَكَ ، وعلم أنه أُتى من مَأْمَنِه .

خديعة مروان للقبض على إبراهيم الإمام

واشتدَّ أمر أبى مسلم ، وكان فى الحبس مع إبراهيم جماعة من بنى هاشم وبنى أمية : فمن بنى أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، والعباس بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشى أن يخرجا عليه ، ومن بنى هاشم : عيسى بن على ، وعبد الله بن على ، وعيسى بن موسى؛ فذكر أبو عبيدة الثعلبى — وكان معهم فى الحبس — أنه هَجَمَ عليهم فى الحبس وذلك بحران جماعة من موالى مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذى كان فيه إبراهيم والعباس وعبد الله، فأقاموا عندهم ساعة ، ثم خرجوا وأغلق باب البيت ، فلما أصبحنا دخلنا عليهم ، فوجدناهم قد أتى عليهم ، ومعهم غلامان

مقتل إبراهيم وجماعة معه

---

(١) فى ب « المعروفة بالكداد » (٢) فى ا « فأتى إبراهيم » .
(٣) فى ا « فحبسه بالسجن بحران » وهو صحيح .

Marfat.com

صغيران من خَدَمِهم كالموتى ، فلما رأونا أنسوا بنا ، فسألناهم الخبر ، فقالا : أما العباس وعبد الله فجعل على وجوههما مخاد وقعد فوقهما فاضطربا ثم بَرَدا ، وأما إبراهيم فإنهم جعلوا رأسه فى جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة، فاضطرب ساعة ثم خمد .

وكان فى الكتاب الذى قرأه مروان من إبراهيم إلى أبى مسلم أبيات من الرجز بعد خطب طويل ، منها :

دونك أمراً قد بَدَتْ أشْرَاطُهُ إن السبيل واضح صِرَاطُه
لم يَبْقَ إلا السيف واخْتِرَاطُه

وقد ذكر فى كيفية قتل إبراهيم الإمام من الوجوه غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على جميع ما قيل فى ذلك فى الكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان من قَحْطَبة وابن هُبَيْرة على الفرات ، وغرق قحطبة فيه ، ودخول ابنه الحسن [بن قحطبة] الكوفة.

موقعة الزاب بين عبد الله ابن على ومروان

وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير ، وعقد عليه الجسر ، وأتاه عبد الله بن على فى عساكر أهل خراسان وقُوّادهم ، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فالتقى مروان وعبد الله بن على ، وقد كَرْدَسَ مروان خيله كراديس ألفاً وألفين ، فكانت على مروان ، فانهزم ، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم ، فكان فيمن غرق فى الزاب من بنى أمية ذلك اليوم ثلثمائة رجل ، دون من غرق من سائر الناس ، وكان فيمن غرق فى الزاب فى ذلك اليوم من بنى أمية إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك المخلوع ، وهو أخو يزيد الناقص ، وقد قيل فى رواية أخرى: إن مروان كان قد قَتَلَ إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصَلَبه ، وكانت هزيمة مروان من الزاب فى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

أهل حران ومروان

ومضى مروان فى هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهلها من الدخول إليها ، وأظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه ، وأتى حران ــ وكانت داره ، وكان مقامه بها ــ وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبى تراب ــ يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه ــ عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا من إزالته ، وقالوا :

Marfat.com

لاصلاة إلا بلعن أبي تراب ، وأقاموا على [ذلك] سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسوِّدة ما كان، وامتنع مروان من ذلك لانحراف الناس عنهم، وخرج مروان فى أهله وسائر بنى أمية عن حران ، وعَبَرَ الفرات ، ونزل عبد الله بن على على باب حران ، فهدم قصر مروان ، وقد كان أنفق عليه عشرة آلاف [ألف] درهم ،واحتوى على خزائن مروان وأمواله ، وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى إلى نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه ، وسار عبد الله بن على حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك فى خمسين ألف مقاتل ، فوقعت بينهم العصبية فى فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن [فقتل الوليد بن معاوية ، وقد قيل : إن أصحاب عبد الله بن على قتلوه] وأتى عبدالله بن على يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد ابن عبد الملك بن مروان ، فحملهما إلى أبى العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وقَتَلَ عبد الله بن على بدمشق خلقاً كثيراً ، ولحق مروان بمصر ، ونزل عبد الله بن علىّ عَلَى نهر أبى فطرس ، فقتل من بنى أمية هناك بضعاً وثمانين رجلا ، وذلك فى يوم الأربعاء للنصف من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك ، وحمل رأسه إلى عبد الله بن علىّ ، ورحل صالح بن على فى طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد ، وعامر بن إسماعيل المَذْحِجى ؛ فلحقوه بمصر وقد نزل بُوصِيرَ ، فبايتوه ،وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول ، وكبروا ونادوا : يالثارات إبراهيم ، فظن مَنْ فى عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسوِّدة فقتل مروان ، وقد اختلف فى كيفية قتله فى المعركة فى تلك الليلة ، وكان قتله ليلة الأحد لثلاث بَقِينَ من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

دخول عبد الله بن على دمشق ، وقتله كثيرا من بنى أمية وشيعتهم

مقتل مروان

ولما قَتَلَ عامرُ بن إسماعيل مروانَ وأراد الكنيسة التى فيها بنات مروان ونساؤه إذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن ، فأخذوا الخادم، فسئل عن أمره ،فقال : أمرنى مروان إذا هو قُتِل أن أضرب رقاب بناته ونسائه فلا تقتلونى ؛ فإنكم والله إن قتلتمونى ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

فقالوا له : انظر ماتقول ، قال : إن كذبت فاقتلونى ، هلموا فاتبعونى ؛ ففعلوا، فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فإذا البُرْد وَالقَضِيب ومِخْصَر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بنى هاشم،فوجَّه بها عامر ابن إسماعيل إلى عبدالله بن على ، فوجَّهَ بها عبد الله إلى أبى العباس السفاح، فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس إلى أيام المقتدر ، فيقال : إن البُرْد كان عليه فى يوم مقتله ، ولست أدرى أ كل ذلك باق مع المتقى لله إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — فى نزوله الرقَّة أم قد ضيع ذلك.

بنات مروان بين يدى صالح ابن على

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن على،فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى،فقالت : يا عَمَّ أمير المؤمنين ، حفظ الله لك [من أمرك ما يحبُّ لك حفظه ، وأسعدك فى الأمور كلها بخواص نعمه ، وَعَمَّك بالعافية] فى الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك [وابن عمك] ، فليسعنا من عفوكم ماوسعكم من جورنا ، قال : إذا لانستبقى منكم أحداً رجلا ولا امرأة ألم يقتل أبوك بالأمس ابْنَ أخى إبراهيمَ بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الإمام فى محبسه بحران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين ابن على وصلبه فى كُنَاسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدى يوسف ابن عمر الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعىُّ مسلم بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسينَ بن علىّ عَلَى يدى عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحُرَم رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبَايَا حتى ورد بهنَّ على يزيد بن معاوية وقبل مَقْدَمِهِنَّ بعث إليه رأس الحسين بن علىّ قد نقب[1] دماغه على رأس رُمْحٍ يُطَاف به كُوَرَ الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حُرَم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبى يتصفحهن جنودُ أهل الشام الجُفَاةُ الطَّغام ويطلبون منه أن يهب لهم حُرَم رسول الله صلى الله

(١) فى ب « قد نصب دماغه » .

Marfat.com

عليه وسلم ، استخفافاً بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجراءةً على الله عز وجل ، وكفراً لأنْعُمِه ، فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ لو عدلتم فيه علينا ! ! قالت : يا عَمِّ أمير المؤمنين ليسعنا عفوكم إذاً ، قال : أما العفو فنعم قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على ، وزوّجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح ، فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، وأىّ أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحرَّان ، قال : فإذاً أفعل ذلك بكُنَّ إن شاء الله ، فألحقهنَّ بحرَّان ، فَعَلَتْ أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشَقَقْنَ جيوبهن ، وَأَعْوَلْنَ بالصياح والنحيب ، حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

فكان مُلك مروان إلى أن بويع أبو العباس السَّفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام على حسب ما قَدَّمنا [ذكره] فى هذا الكتاب من التنازع فى مدة أيامه ، ومن وقت أن بويع أبو العباس السَّفاح إلى أن قتل ببوصير ثمانية أشهر ، فكانت مدة أيامه إلى أن قتل خمس سنين وعشرة أشْهُر وعشرة أيام ، وقد قَدَّمنا ما تنازعوا فيه من مقدار سنه وغير ذلك من أخباره ، وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتبنا .

عبد الحميد ابن يحيى الكاتب

وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، واستعمل الناسُ ذلك بعده .

وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد — حين أيقَنَ بزوال ملكه — : قد احْتَجْتُ أن تصير مع عدوى وتظهر الغَدْرَ بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمِى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرتَ به علىَّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله أو أُقتل معك ، وقال :

أسِرُّ وَفَاءً ثم أظهر غَـدْرَةً فمن لى بعذرٍ يُوسِـعَ الناسَ ظاهره ؟

Marfat.com

مروان يعزم الفرار إلى أرض الروم فيرده إسماعيل القشيرى

وقد أتينا على خبر أبى الورد ومقتله ، وخبر بشر بن عبد الله الواحدى ومقتله، فى كتابنا الأوسط ، فأغْنَى ذلك عن ذكره .

وذكر إسماعيل بن عبد الله القشيرى قال: دعانى مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حران ، فقال : يا أبا هاشم ، وما كان يكنينى قبلها، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ، ولا مخبأ [لِعِطْرٍ] بعد عَرُوس(1) ، فما الرأى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين، علام أجْمَعْتَ ؟ قال : على أن أرتحل بموالىَّ ومَنْ تبعنى من الناس حتى أقطع الدَّرْبَ وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب صاحبها ، وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعةٌ من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً بالملوك ، فلا يزال يأتينى [من أصحابى] الخائفُ والهاربُ والطامعُ فيكثر مَنْ معى ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمرى وينصرنى على عدوى ، فلما رأيت ما أجمع عليه وكانَ الرَّأْىَ ، ورأيت آثاره فى قومى من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأى ، تحكم أهل الشرك فى بناتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدرى ما تأتى به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية ـ ولا يحدث عليك إلا خير ـ ضاع مَنْ بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر [أهل] الشام جنداً [جنداً] فإنك فى كنف وعزة ، ولك فى كل جند صنائع ، يسيرون معك حتى تأتى مصر ، فإنها أكثر أرض الله مالا وخيلا ورجالا ، ثم الشام أمامك وإفريقية خلفك ؛ فإن رأيت ما تحبُّ انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية قال : صدقت ، وأستخير الله ، فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حمزة(2) السلمى ، وكان أخاه من الرضاعة ، والكوثر بن الأسود الغنوى ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببلاد قنسرين وَخُنَاصرة أوقعت تَنُوخُ القاطنةُ بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن

(1) فى ب « ولا مخبأ بعد بؤس » (2) فى ب « ابن جندة » .

Marfat.com

عبد الرحمن الحرشى ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسى (١) ، والذحجيون جميعاً ، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم بن صنعان بن روح بن زنباع ؛ لما رأوا من إدبار الأمر عنه ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله القشيرى قد غَشَّه فى الرأى ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرّط فى مشورته إياه ؛ إذ شاور رجلا من قحطان موتوراً متعصباً مع قومه على أضدادهم من نزار، وأن الرأى [كان] الذى هَمَّ بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حُصُون الروم ومكاتبته ملكها إلى أن يرتئى فى أمره .

وذكر المدائنى والعتبى وغيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جَرَّدَ من رجاله ، وَمَنِ اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم ، مائةَ ألفِ فارس [على مائة ألف قارح] ، فلما كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله ابن علىّ فى المسودة ، وفى أوائلهم البنود السُّودُ يحملها الرجال على الجمال البُخْت ، وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب ، قال مروان لمن قَرُبَ منه : أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا ؟ أما ترون إلى أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود ؟ فبينا هو كذلك إذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود ، فاجتمعت على أول رايات عبد الله ابن علىّ ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر ؛ فتطير من ذلك فقال : أما ترون السواد قد اتصل بالسواد ؟ وكأنَّ الغرابيب كالسحب سواداً ، ثم نظر إلى أصحابه المحاربين ــ وقد استشعروا الجزَعَ [والفزع] والفشَل ــ فقال : إنها لعُدَّة ، وما تنفع العدة إذا انقضت المدة ؟

ولمروان على الزاب أخبار غير هذه قد أتينا على ذكرها فى كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط ، فأغنَى ذلك عن إعادة ذكرها ، والله ولى التوفيق .

---

(٣) فى ب « هاشم بن عمر العنسى » .

Marfat.com

ذكر خلافة أبى العباس عبد الله بن محمد السَّفَّاح

موجز [و] بويع أبو العباس السَّفَّاح — وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب — ليلةَ الجمعة لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، [وقيل : إنه بويع يوم الأربعاء لإحدى عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة] ، وقيل : فى النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأُمه رَيْطَة[(١)] بنت عبيد الله بن عبد المَدَانِ الحارثية ، وركب إلى المسجد الجامع فى يوم الجمعة ؛ فخطب على المنبر قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قُعُوداً ، فضجَّ الناسُ وقالوا : أحييت السُّنة يا ابن عَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر [وعشرين يوماً] ، ومات بالأنبار فى مدينته التى بَنَاهَا ، وذلك فى يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل: ابن تسع وعشرين سنة ، وكانت أُمه تحت عبد الملك بن مروان ، فكان له منها الحجاج بن عبد الملك ، فلما توفى عبد الملك تزوجها محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فولدت منه عبد الله بن محمد السفاح ، وعبيد الله ، وداود ، وميمونة .

---

(١) فى ب « وأمه رائطة » .

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه

وصية إبراهيم الإمام له

ولما حبس إبراهيم الإمام بحرَّان ، وعلم أن لا نجاة له من مروان ، أثبت وصيته وجعلها إلى أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد ، وأوصاه بالقيام بالدولة والجدِّ والحركة وأن لا يكون له بعده بالحميمة لُبثٌ ولا عَرْجَة حتى حتى يتوجَّه إلى الكوفة فإنّ هذا الأمر صائر إليه لامحالة ، وأنه بذلك أتتهم الرواية ، وأظهره على أمر الدُّعَاة بخراسان والنُّقَبَاء ، ورسم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعدَّاه ، ودفع الوصية بجميع ذلك إلى سابق الخوارزمى مولاه ، وأمره إنْ حَدَثَ به حَدَثٌ من مروان فى ليل أو نهار [أن يجدَّ السير إلى الحميمة حتى يدفع وصيته إلى أخيه أبى العباس ، فلما قضى إبراهيم نَحْبَهَ] أسرع سابق فى السير حتى أتى الحميمة فدفع الوصية إلى أبى العباس ونَعَاه إليه ، فأمره أبو العباس بستر الوصية وأن ينعاه ، ثم أظهر أبو العباس أهلَ بيته على أمره ، ودعا إلى موازرته ومكاشفته أخاه أباجعفر عبد الله بن محمد ، وعيسى بن موسى بن محمد ابن أخيه ، وعبد الله بن على عمه ، وتوجَّه أبو العباس إلى الكوفة مسرعاً ، وهؤلاء معه فى غيرهم ممن خَفَّ من أهل بيته ، فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب فى طريقهم إلى الكوفة ، وقد تقدَّم أبو العباس وأخوهُ أبو جعفر وعمه عبدالله بن على فيمن كان معهم إلى الماء ، فقالت الأعرابية : تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه مابين خليفة وخليفة وخارجى ، فقال لها أبو جعفر المنصور : كيف قلت ياأَمَةَ الله ؟ قالت : والله ليلينّهَا هذا ، وأشارت إلى السفاح ، ولتخلُفَنَّهُ أنت ، وليخرجَنَّ عليك هذا ، وأشارت إلى عبد الله بن على ، فلما انتهوا إلى دومة الجندل لقيهم داود بن على وموسى بن داود ، وهما منصرفان من العراق إلى الحميمة من أرض الشراة ، فسأله داود عن مسيره ، فأخبره بسببه ، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبى مسلم ، وأنه يريد الوثوب بالكوفة ، فقال له داود : يا أبا العباس ، تَثِبُ بالكوفه ومروان شيخ بنى أمية وزعيمهم فى أهل الشام والجزيرة مُطِلٌّ على أهل العراق ، وابن هُبَيْرة شيخ العرب فى

Marfat.com

جِلّة العرب بالعراق ؟ فقال أبو العباس : يا عَمّاه ، من أحب الحياة ذل ، وتمثل بقول الأعشى :

فما مِيْتَةٌ إن مُتُّها غير عاجز بِعَارٍ ، إذا ما غالت النفسَ غُولُهَا

فالتفت داود إلى ابنه موسى ، فقال : أيْ بنى ، صدق [ابن] عمك ، ارجع بنا معه نحيا أعزاء أو نموت كراما ، فعطفا ركابهما معه ، وسار أبو العباس حتى دخل الكوفة .

وقد كان أبو سَلَمة حفص بن سليمان – حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام – أضْمَرَ الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية إلى آل أبى طالب .

مقدم السفاح الكوفة

وقدم أبو العباس الكوفة فيمن ذكرنا من أهل بيته سرا ، والمسوِّدة مع أبى سلمة بالكوفة، فأنزلهم جميعاً دار الوليد بن سعد فى بنى أَوْدٍ حى من اليمن ، وقد ذكرنا مناقب أود وفضائلها فيما سلف من هذا الكتاب فى أخبار الحجاج، وبراءتهم من علىّ والطاهرين من ذريته ، ولم أر إلى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ فيما دُرْتُ من الأرض وتغربت من الممالك رجلا من أود إلا وجدته ـ إذا استبطنت ما عنده ـ ناصبيا متوليا لآل مروان وحزبهم.

وأخفى أبو سَلَمة أمر أبى العباس ومن معه ، ووكل بهم [وكيلا] ، وكان قدوم أبى العباس الكوفة فى صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس ، وقد كان أبو سَلَمة لما قتل إبراهيم الإمام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه ، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن ابن أسلم [وكان أسلم] مولًى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وإلى أبى محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ! يدعو كلَّ واحد منهما إلى الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه ، ويجتهد فى بيعة أهل خراسان له ، وقال للرسول : العَجَلَ العَجَلَ ، فلا تكونَنَّ كوافد عاد ، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبى عبد الله جعفر . . محمد فلقيه ليلا ، فلما وصل إليه

Marfat.com

أعلمه أنه رسول أبى سَلَمة ، ودفع إليه كتابه ، فقال له أبو عبد الله وما أنا وأبو سَلَمة ؟ وأبو سَلَمة شيعة لغيرى ، قال : إنى رسول ، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت ، فدعا أبو عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب أبى سلمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول : عرف صاحبك بما رأيت ، ثم أنشأ يقول متمثلا بقول الكميت بن زيد :

أيا مُوقِداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً فى غير حبلك تحطب

فخرج الرسول من عنده وأتى عبدالله بن الحسن فدفع إليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج به ، فلما كان [من] غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتابُ ركب عبدالله حماراً حتى أتى منزل أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، فلما رآه أبو عبدالله أكبر مجيئه ، وكان أبو عبدالله أَسَنَّ من عبدالله ، فقال له : يا أبا محمد ، أمْرٌ ما أتى بك ، قال ، نعم وهو أَجَلُّ من أن يوصف ، فقال : وما هو يا أبا محمد ؟ قال : هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى ما أقبله ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له أبو عبدالله : يا أبا محمد ، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان ؟ وأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وَجَّهت فيهم ؟ وَهل تعرف منهم أحداً ؟ فنازعه عبدالله بن الحسن الكلام ، إلى أن قال : إنما يريد القوم ابنى محمداً لأنه مهدىُّ هذه الأمة . فقال أبو عبد الله جعفر : والله ما هو مهدى هذه الأمة ، وَلئن شهر سيفه ليقتلن ، فنازعه عبد الله القول ، حتى قال له : وَالله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد ، فقال أبو عبد الله : وَالله ما هذا إلا نصح منى لك ، وَلقد كتب إلىَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك ، فلم يجد رسوله عندى ما وَجد عندك ، ولقد أحرقتُ كتابه من قبل أن أقرأه ، فانصرف عبدالله من عند جعفر مغضباً ، ولم ينصرف رسول أبى سلمة إليه إلى أن بويع السفاح بالخلافة وَذلك أن أبا حميد الطوسى دخل ذات يوم من العسكر إلى الكوفة فاتى سابقاً الخوارزمى فى سوق الكناسة [فقال له : سابق ؟ قال : سابق] فسأله عن إبراهيم

Marfat.com

كيف آلت الإمامة للسفاح

الإمام ، فقال : قتله مروان فى الحبس ، وكان مروان يومئذ بحرّان ، فقال أبو حميد: فإلى مَنِ الوصية ؟قال: إلى أخيه أبى العباس ،قال: وأين هو؟ قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عُمُومته وأهل بيته ، قال : مُذْ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين ، قال : فتمضى بنا إليهم ، قال : غداً بينى وبينك الموعد فى هذا الموضع، وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس فى ذلك، فانصرف إلى أبى العباس فأخبره ، فلامه إذ لم يأت به معه إليهم ، ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قُوَّاد خراسان فى عساكر أبى سَلَمة بذلك ، منهم أبو الجهم (١) وموسى بن كعب ، وكان زعيمهم ، وغدا سابقٌ إلى الموضع ، فلقى أباحميد ، فمضَيَا حتى دخلا على أبى العباس ومن معه فقال : أيكم الإمام ؟ فأشار داود ابن على إلى أبى العباس ، وقال : هذا خليفتكم ، فأكبَّ على أطرافه يقبلها، وسلّم عليه بالخلافة ، وأبو سلمة لايعلم بذلك ، وأتاه وجوهُ القواد فبايعوه ، وعلم أبو سلمة بذلك] فبايعه ، ودخلوا إلى الكوفة فى أحسن زى ، وضربوا له مصافا ، وقُدِّمت الخيول ، فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الإمارة ، وذلك فى يوم الجمعة لاثنتى عشرَةَ ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازُعَ الناس فى أى شهر بويع [له] من هذه السنة .

ثم دخل المسجد الجامع من دار الإمارة ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر تعظيم الرب ومننه ، وفضل النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت إليه ، ووعَدَ الناس خيراً ، ثم سكت ، فتكلم عمه داود بن على وهو على المنبر دون أبى العباس ، فقال : إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة إلا علىٌّ عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذى خلفى ، ثم نزلا .

ثم خرج أبو العباس إلى عسكر أبى سَلَمة فنزل فى حجرته ، واستخلف على الكوفة وأرضها عَمَّه داود بن على ، وبعث بعمه عبد الله بن على إلى أبى عون

(١) فى ب « منهم الجهم وموسى بن كعب » .

Marfat.com

بد الملك بن يزيد ، فسارا معاً إلى مروان ، فكان من أمرهم ما قدمنا ذكره من التقائهم على الزاب ، وهزيمة مروان بن محمد .

عامر ابن إسماعيل قاتل مروان

واتصل بأبى العباس السفاح ما كان من عامر بن إسماعيل وقتله لمروان ببوصير وقيل : إن ابن عم لعامر يقال له نافع بن عبد الملك كان قتله فى تلك الليلة فى المعركة وهو لا يعرفه ، وإن عامراً لما احتز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل [إلى] الكنيسة التى كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، وكانت أسَنَّهُنَّ ، فقالت : يا عامر إن دهراً أنزل مروان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت فى مملكته ؛ لقادر أن يغير مابك [من نعمة] .

بين السفاح وعامر بن إسماعيل

وبلغ السفاحَ فعلُه وكلامها ، فاغتاظ من ذلك ، وكتب إليه : « ويلك ! أما كان لك فى أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان ، وتقعد على مهاده ، وتتمكن من وساده ؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول مافعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لَمَسَّك من غضبه وأليم أدبه مايكون لك زاجراً ، ولغيرك واعظاً ، فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين فتقرب إلى الله تعالى بصدقة تطفىء بها غَضَبه ، وصلاة تظهر بها الاستكانة ، وصُمْ ثلاثة أيام ، ومُرْ جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

رأس مروان بين يدى السفاح

ولما أتى أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رَهْطِك ، والحمد لله الذى أظفرنى بك ، وأظهرنى عليك ، ثم قال : ما أبالى متى طرقنى الموت ، قد قتلتُ بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ؛ وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم . وتمثل :

لو يشربون دمى لَمْ يُرْوِ شاربهم ... ولا دماؤهمُ للغيظ تروينى

ثم حَوَّلَ وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه ، وتمثل

Marfat.com

بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له :

أبى قومُنَا أن ينصفونا،فأنْصَفَتْ قَوَاطِـعُ فى أيماننا تقطر الدما

تورثن من أشياخ صدق تقربوا بهنّ إلى يوم الوغى فتقــدما

إذا خالَطَتْ هام الرجال تركنها كَبَيْضٍ نعام فى الوغى متحطما

وقالت الشعراء فى أمر مروان فأكثرت

وذكر أبو الخطاب عن أبى جعدة بن هبيرة المخزومى ـ وكان أحَدَ وزراء مروان وسُمَّاره ، وقد كان لمـا ظهر أمر أبى العباس انضاف إلى جملته وصار فى عداد أصحابه وخواصه الذين اتخذهم ـ أنه كان فى ذلك اليوم حاضراً لمجلس أبى العباس ورأسُ مروان بين يديه ، وهو يومئذ بالحميمة[1] ، وأن أبا العباس التفت إلى أصحابه فقال : أيكم يعرف هذا ؟ قال أبو جعدة : فقلت أنا أعرفه ، هذا رأس أبى عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضى الله عنه ، قال : فحدقت إلىَّ الشيعة فأخذتنى بأبصارها ، فقال لى أبو العباس : فى أى سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغير لونه غيظاً على[2] ، وتفرق الناس من المجلس ، وانصرفْتُ وأنا نادم على ما كان مِنِّى ، وتكلم الناس فى ذلك وتحدثوا به ، فقلت : [هذه] زلّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً ، فأتيت منزلى ، فلم أزل باقى يومى أعهد وأوصى ، فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة ، وكان أبو العباس إذا هَمَّ بأمر بعث فيه ليلا ، فلم أزل ساهراً حتى أصبحت ، فلما أصبحت ركبت بغلتى واستعرضت بقلبى إلى مَنْ أقصد فى أمرى ، فلم أجد أحداً أوْلى من سليمان بن خالد مولى بنى زُهْرَةَ ، وكانت له من أبى العباس منزلة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأتيته ، فقلت : أذَكَرَنى أمير المؤمنين البارِحَةَ ؟ فقال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا، وَفّى لصاحبه، ونحن إن أوليناه خيراً كان لنا أشْكَرَ،فشكرت ذلك له ، وجزيته خيراً ، ودعوت له ، وانصرفت ، فلم أزل آتى أبا العباس

(١) فى ب « بالحيرة » (٢) فى ا « غضبا على » .

على ما كُنتُ عليه لا أرى إلا خيراً ، ونُمِيَ الكلام الذى كان فى مجلس أبى العباس - حين أتى برأس مروان - فبلغ أبا جعفر وعبدَ الله بن على ، فكتب عبدُ الله بن على إلى أبى العباس يُعْلمه بما بلغه من كلامى ، وأنه ليس هذا يحتمل ، وكتب أبو جعفر يخبر بما بلغه من ذلك ، ويقول : هو ابن أختنا ، ونحن أولى باصطناعه واتخاذ المعروف عنده ، وبلغنى ما كان منهما فأمسكت ، وضرب الدهر ضربانه ، فبينا أنا ذات يوم عند أبى العباس بعد حين وقد تزايدت حالى عنده وأحْظَانِى ، فنهض الناس ونهضتُ ، فقال لى أبو العباس : [على رِسْلِكَ] يا ابن هُبَيْرة ، اجلس ، فجلست ، ونهض ليدخل فقمت لقيامه ، فقال : اجلس ، فرفع الستر ودخل ، وثبتُّ فى مجلسى ، فأقام مَلِيًّا ثم رفع الستر فخرج فى ثوبَىْ وَشْى رداء وجبة ، فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قَطُّ ، فلما رفع الستر نهضت ، فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : يا ابن هُبَيْرة ، إنى ذاكر لك أمراً فلا يخرجَنَّ من رأسك إلى أحدٍ من الناس ، ثم قال : قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قَتَلَ مروان ، وعبد الله بن على عمى هو الذى قتله ؛ لأن ذلك كان بجيشه وأصحابه ، وأخى أبو جعفر - مع فضله وعلمه وسنه وإيثاره لأمر الله - كيف يسوغ إخراجه عنه ؟ قال : فأطال فى مديح أبى جعفر ، فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ! ! لا أشير عليك ، ولكنى أحدثك حديثاً تعتبره ، فقال : هاته ، فقلت : كنا مع مَسْلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية إذ ورد عليه كتاب عمر بن عبد العزيز بنعى سليمان ومصير الأمر إليه ، فبعث إلىَّ ، فدخلت عليه ، فرمى بالكتاب إلى فقرأته ، ثم اندفع يبكى ، فقلت : أصلح الله الأمير ! ! لا تَبْكِ على أخيك ، ولكن ابْكِ على خروج الخلافة من ولد أبيك إلى ولد عمك ، فبكى حتى اخضلت لحيته ، قال : فلما فرغت من حديثى قال لى أبو العباس : حسبك قد فهمت عنك ، ثم قال : إذا شئت فانهض ، فما مضيت غير بعيد حتى قال لى : يا ابن هبيرة ، فالتفت راجعاً ، فقال لى : امض ، أما إنك قد

Marfat.com

كافأت هذا ، وأدركت بثأرك من هذا ، قال : فما أدرى من أى الأمرين أعجب ؟ أمن فِطْنته أم من ذكره لما كان ؟

وأبو جعدة بن هُبَيْرة هذا هو من ولد جعدة[1] بن هبيرة المخزومى من فاختة أم هانىء بنت أبى طالب ، وعلىٌّ وجعفر وعقيل أخْوَالُه ، وقد قدمنا خبَرَه فيما سلف من هذا الكتاب .

بين عبد الله ابن على وأخيه داود فى ولاية عهد السفاح

قال المسعودى : ووجدت فى أخبار المدائنى ، عن محمد بن الأسود ، قال : بينما عبد الله بن على يُسَايِر أخاه داود بن على ومعهما عبد الله بن الحسن [بن الحسن] : فقال داود لعبد الله : لم لا تأمر ابنيك بالظهور ؟ فقال عبد الله : هيهات لم يَئِنْ لهما بعدُ فالتفت إليه عبد الله بن على فقال : كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان ، فقال : إن ذلك كذلك ، فقال عبد الله : هيهات ، وتمثل :

سيكفيك المقالَةَ مستميت خفيف اللحم من أولاد حام

أنا والله قاتله .

وقيل لعبد الله بن على : إن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يذكر أنه قرأ فى بعض الكتب [أنه يقتل مروان] عَيْنٌ ابن عين ، وقد أمَّلَ أن يكون هو ، فقال عبد الله بن على : أنا والله ذلك ، ولى عليه فضل ثلاثة أعين ، أنا عبد الله بن على ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو عمرو بن عبد مناف . فلما صافَّ مروان عبد الله بن على أقبل مروان على رجل إلى جنبه فقال : من الرجل الذى كان يخاصم عندك عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الأفنى[2] الحديد البصر الحسن الوجه ؟ فقلت : يرزق الله البيان من يشاء ، قال : إنه لهو ، قلت : نعم ، قال : من [ولد] العباس بن عبد المطلب هو ؟ قلت : أجَلْ ، فقال مروان : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ويحك ! إنى ظننت أن الذى يحاربنى من ولد أبى طالب وهذا الرجل من ولد العباس واسمه عبد الله أتدرى لم صيرت الأمر بعدى لابنى عبيد الله بعد عبد الله ومحمد أكبر من عبد الله ؟ [قلت : لم ؟ قال :] لأنا خُبِّرْنَا أن

(١) فى ا «هو من ولد جعفر بن هبيرة» (٢) فى ا «الفتى الحديد البصر» .

Marfat.com

الأمر صائر بعدى إلى عبد الله وعبيد الله ، فنظرت فإذا عبيد الله أقرب إلى عبد الله من محمد ، فوليته دونه .

قال : وبَعَثَ مروان بعد أن حَدَّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله ابن علىّ فى خِفية : إن الأمر يا ابن عم صائر إليك فاتق الله فى الحرم ، قال : فبعث إليه عبد الله : إن الحق لنا فى دمك ، والحق علينا فى حرمك .

زواج السفاح بأم سلمة بنت يعقوب

وذكر مصعب الزبيرى [عن أبيه] قال : كانت أم سلمة بنت يعقوب ابن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، فهلك عنها ، ثم كانت عند هشام فهلك عنها ، فبيناهى ذات يوم [جالسة] إذ مر بها أبو العباس السفاح، وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه ، فنسب لها ، فأرسلت له مولاةً لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لها: قولى له هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك ، وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك ، فقال: أنا مُمْلِقٌ لا مال عندى ، ودفعت إليه المال ، فأنعم لها ، وأقبل إلى أخيها فسأله التزويج فزوجه إياها، فاصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى مائتى دينار ، ودخل عليها من ليلته ، وإذا هى عَلَى مِنَصَّةٍ ، فصعد عليها ، فإذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل إليها ، فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثيابا مصبغة وفرشت له فراشاً عَلَى الأرض دون ذلك[1] ، فلم [يقدر] يصل إليها ، فقالت : لا يضرك هذا ، كذلك [الرجال] كان يصيبهم مثل ما أصابك، فلم تزل به حتى وصل إليها من ليلته ، وحَظِيت عنده ، وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى ، فولدت منه محمداً ورَيْطَة، وغلبت عليه غلبة شديدة، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى أفضت الخلافة إليه ، فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة ، ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها، فلما كان ذات يوم فى خلافته خلا به خالد بن صفوان فقال: يا أمير المؤمنين، إنى فكرت فى أمرك، وسعة ملكك، وقد ملَّكْتَ نفسك امرأة واحدة [واقتصرت عليها] فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت ، وحرمت

(١) فى ا « دون الذى كانت عليه »

Marfat.com

خالد يصف النساء للسفاح ويغريه بالزواج

نفسك التلذذ باستظراف الجوارى ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهى منهن فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغَيْداء ، وإن منهن البَضَّة البيضاء[١] ، والعتيقة الأدْماء ، والدقيقة السمراء[٢] ، والبربرية العَجْزاء ، من مولدات المدينة ، تفتن بمحادثتها ، وتلذ بخلوتها ، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ، ذوات الألسن العَذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المُزَرْفَنة ، والعيون المكحلة ، والثدى المحققة وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئاً حسناً ، وجعل خالد يجيد فى الوصف ، ويكثر فى الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ! ! ما صَكَّ مسامعى والله قط كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعِدْ على كلامك فقد وقع منى موقعاً ، فأعاد عليه [كلامه] خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقى أبو العباس مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه أم سلمة امرأته ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حَدَث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارتَعْتَ له ؟ قال : لم يكن من ذلك شىء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له ، فقالت : فما قُلْتَ لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحنى وتشتميه ؟ فخرجت من عنده مُغْضَبة ، وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية ومعهم الكافر كوبات[٣] ، وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً ، قال خالد : فانصرفت إلى منزلى ، وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين ، وإعجابه بما ألقيته إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى ، فلم ألبث حتى صار إلى أولئك النجارية وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة والصلة ، حتى وقفوا علَىَّ ، فسألوا عنى ، فقلت : ها أنا ذا خالد ، فسبق إلى أحدهم بهِرَاوة كانت معه فلما أهْوَى بها إلىَّ وثَبْتُ فدخلت منزلى ، وأغلقت الباب علَىَّ ، واستترت ،

(١) فى ا « الفضة البيضاء » (٢) فى ا « والرقيقة السمراء » .

(٣) فى ا « السكرتيات » .

Marfat.com

ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خَلَدِى أنى أوتيت من قبل أم سَلَمَة ، وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا علىَّ ، وقالوا : أجب أميرالمؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس علىَّ لحم ولادم[1] ، فلم أصل إلى الدار [حتى استقبلنى عدة رسل ، فدخلت عليه فألفيته خالياً ، فسكنت بعض السكون ، فسلمت] فأومأ إلى بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها، فقال [لى]: ياخالد ، لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك !! إنك [كنت] وصفت لى فى آخر دَخْلَة من أمر النساء والجوارى مالم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه ، فأعِدْهُ علىَّ ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جَهْد ، فقال : ويحك ! ! لم يكن هذا فى الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافىِّ القِدْرِ يُغْلَى عليهن ، قال أبوالعباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا منك فى حديثك ، قال : وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه ، قال : ويلك ! ! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولامن غيرك قبل هذا الوقت ، قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! ! وتكذبنى ؟ قال : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال: مُرَّ فى حديثك ، قال : وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لاخصى لهنَّ ، قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت : نعم وأخبرتك أيضاً أن بنى مخزوم رَيْحَانَةُ قريشٍ ، وأن عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإماء ، قال خالد : فقيل من وراء الستار : صدقت والله ياعماه وبَرِرْتَ ، بهذا حَدَّثْتَ أمير المؤمنين ، ولكنه بَدَّلَ وغير ونطق عن لسانك ، فقال لى أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل ! ؟ قال : فتركته وخرجت وقد

(١) فى ا ه « وليس لى لحم ولا دم » .

Marfat.com

أيقنت بالحياة ، قال خالد : فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا إلىَّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتَخْت وبرذون وغلام .

كان السفاح يحب مسامرة الرجال

ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلا ، فقال له أبو بكر الهذلى: ماتاويل هذا الكلام ياأمير المؤمنين؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ، ويروى نقصاً ، فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

السفاح وأبو نخيلة

ودخل عليه أبو نخيلة[1] الشاعر ، فسلم عليه، وانتسب له ، وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لى فى إنشادك ؟ فقال له : لعنك الله ! ! ألست القائل فى مسلمة بن عبد الملك بن مروان :

أَمَسْلَمَ ، إنى يا ابن كل خليفة ويافارس الهيجا وياجبل الأرض
شكرتك ، إن الشكر حَبْلٌ من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحييتَ لى ذِكْرِى وما كان خاملا ولكنَّ بعض الذكر أنبَهُ من بعض

قال : فأنا يا أمير المؤمنين الذى أقول :

لما رأينا استمسكت يداكا كنا أناساً نَرْهَبُ الملاكا[2]
ونركب الأعجاز والأوراكا من كل شيء ماخلا الإشراكا
فكلما قد قلت فى سواكا زُورٌ ، وقد كفَّرَ هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنت أنت للرجاء ذاكا

قال : فرضى عنه ووَصَله وأجازه .

كان أبسط وجها إذا حضر طعامه

وكان أبو العباس إذا حضر طعامه أبْسَطَ مايكون وجهاً ، فكان إبراهيم ابن مَخْرَمَةَ الكندى إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله ، فقال له يوماً : ياإبراهيم ، مادعاك إلى أن تشغلنى عن طعامى بحوائجك؟

(١) فى ب « أبو بجيلة » محرفا (٢) فى ا « نرهب الأملاكا » .

Marfat.com

قال : يدعونى إلى ذلك التماس النُّجْحِ لمـا أسأل ، قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفِطنَة .

بعض عادات وسياسات السفاح

وكان إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما فى الآخر شيئًا ولم يقبله، وإن كان القائل عَدْلاً فى شهادته ، وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه ، ويقول : إن الضغينة القديمة تولد العداوة المُمِضَّة[1] ، وتحمل على إظهار المسالمة ، وتحتها الأفعى التى[2] إذا تمكنت لم تُبْقِ .

وكان فى أول أيامه يَظْهَر لندمائه ، ثم احتجب عنهم ، وذلك لسنة خلت من ملكه ، لأمر قد ذكرناه فيما سلف [من كتبنا ، وكان قعوده من وراء الستارة ، على حسب ما ذكرناه فيما سلف] من هذا الكتاب فى سيرة أردشير بن بابك وأيامه .

وكان يطرب من وراء الستر [على حسب ماذكرنا] ، ويَصِيحُ بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، أعِدْ هذا الصوت .

وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مُطرِبيه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول : لا يكون سرورنا معجلا، ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلا، وقد سبقه إلى هذا الفعل ملك من الملوك التى للفرس ، وهو بَهْرَام جور .

وحضره أبو بكر الهذلى ذات يوم ، والسفاح مُقْبِل عليه يحادثه بحديث لأنوشروين فى بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الأمم ، فعصفت الريح فأذْرَتْ ترابًا وقطعًا من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك ، وارتاع له ، والهذلى شاخص نحو أبى العباس لم يتغير كما تغير غيره ، فقال له أبو العباس : لله أنت يا أبا بكر ، لم أر كاليوم ، أما راعك ما راعنا ولا أحسست بما ورد علينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جَوْفِهِ ، وإنما جُعل للرجل قلب واحد ، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، والله عز وجل إذا أفرد بكرامته أحداً وأحب أن يبقى

(١) فى ب « تولد العداوة المحضة » (٢) فى ب « وتحتمى الأفعى الذى إذا تمكنت ـ إلخ »

Marfat.com

له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبي أو خليفة ، وهـذه كرامة خُصِصْتُ بها فمال إليها ذهنى[(١)]، وشغل بها فكرى ، فلو انقلبت الخضراء على الغَبْراء ما أحسست بها ، ولا وَجَمْتُ لها ، إلا بما يلزمنى من نفسى لأمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، فقال له السفاح : لئن بقيتُ لك لأرفعنّ منك وضيعاً[(٢)] لاتُطِيفُ به السباع ، ولا ينحطُّ عليه العقاب .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وصية عبد الملك للشعبى فى فضل الإنصات للملوك .

من النصائح فى مخالطة الملوك

وقد حكى عن عبدالله بن عياش[(٣)] المنتوف أنه قال : لم تتقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة ، ولا العبيد بمثل الخدمة ، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وقد حكى عن روح بن زنباع الجذامى أنه كان يقول : إذا أردْتَ أن يمكنك الملك من أذنه فأمكن أذنك من الإصغاء إلى حديثه ، ولا يتعتب الرجل عندى إذا كان يصغى إلى حديثه ، ولا يقدح ما قيل فيه فى قلبى لما تقدم له من حسن الاستماع عندى .

وقد حكى عن معاوية أنه كان يقول : يُغْلَب الملك حتى يُرْكَب لشيئين: بالحلم عند سَوْرَته ، والإصغاء إلى حديثه .

ووجدت فى سير الملوك من الأعاجم أن شيروَيْهِ بن أبرويز بينا هو فى بعض منتزهاته بأرض العراق ، وكان لايسايره أحد من الناس مبتدئاً ، وأهل المراتب العالية خَلْفَ ظهره على مراتبهم ، فإن التفَتَ يميناً دنا منه صاحب الجيش ، وإن التفت شمالا دنا منه المُوبذَانُ ، فأمر مَنْ دنا منهما بإحضار مَنْ أراد مسامرته ، فالتفت فى مسيره هذا يميناً ، فدَنَا منه صاحب الجيش ، فقال : أين شداد[(٤)] بن جرثمة ؟ فأحضر ، فسايره ، فقال له شيرويه : أفكَرْتَ فى حديث جَدَّنا أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر ، فحدِّثني به إن كنت تحفظه ، وكان شداد[(٤)] قد سمع هذا الحديث من أنوشروان ، وعرف المكيدة ، وكيف كان أردشير أوقعها

(١) فى ا « إليهادمى » (٢) فى ا « لأرفعن منك صعبا » .
(٣) ب هنا « عبد الله بن عباس المنتوف » (٤) فى ا « بندار بن خرشيد » .

Marfat.com

بملك الخزر ، فاستعجم عليه شداد[1] ، وأوهمه أنه لايعرفه ، فحدثه شيرويه بالحديث ، فأصغى إليه الرجل بجوارحه كلها ، وكان مسيرهم على شاطىء نهر ، فترك الرجل لإقباله على شيرويه النَّظرَ إلى موطىء حافر دابته ، فزلّتْ إحدى قوائم الدابة ، فمالت بالرجل إلى اليمين ، فوقع فى الماء ، ونفرت الدابة ، فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأمالوها عن الرجل ، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه فاغتمَّ الملك لذلك ، ونزل عن دابته وبسط له هنالك حتى تغدَّى فى موضعه ، ودعا بثياب من خاص كسوته فألقيت على شداد[1] وأكل معه ، وقال له : غفلت عن النظر إلى موضع حافر دابتك ، فقال : أيها الملك ، إن الله إذا أنعم على عبد نعمةً قابلها بمحنة ، وعارضها ببلية ، وعلى قدر النعم تكون المحن ، وإن الله أنعم علىَّ بنعمتين عظيمتين هما إقبال الملك علىَّ بوجهه من بين هذا السواد الأعظم وهذه الفائدة وهى تدبير الحرب حتى حَدَّثَ بها عن أردشير حتى إنى لو دخلت إلى حيث تطلع الشمس أو تغرب لكنت رابحاً ، فلما اجتمعت نعمتان جليلتان فى وقت واحد قابلتهما هذه المحنة[2] ، ولولا أساورة الملك ويُمْن جَدّه لكنت بعرض هلكة ، وعلى ذلك فلو غرقت حتى ذهبت عن جديد الأرض لكان قد أبقى لى الملكُ ذكراً مخلداً ما بقى الضياء والظلام [والجنوب والصَّبا] فسُرَّ الملك بذلك ، وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذى أنت فيه ، فحشا فاه جوهراً ودراً رائقاً ثميناً ، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره .

وإنما ذكرنا هذا الخبر من أخبار من سلف مَنْ ملوك الفرس ليعلم أن أبا بكر الهذلى لم يبتدىء بحال لم يسبقه إليها غيره ، ويتقدمه بها سواه .

أحسن المواقع من الملوك

وأحسن المواقع من الملوك الاستماعُ منها ، والأخذ عنها ، وقد كانت حكماء اليونانيين تقول : إن الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياسة بحديث أن يصرف [قلبه] كله إلى ذلك ، وإن كان يعرف الحديث الذى يسمعه من الملك ، كأنه لم يسمعه قط ، ويظهر السرور [بالفائدة] من الملك والاستبشار بحديثه ، وإن فى ذلك أمرين : أحدهما ما يظهر من حسن أدبه ، فإنه يعطى[3] الملك حقه

(١) فى ا «بندار» (٢) فى ا « هذه النقمة » (٣) فى ا «يوفى الملك حقه» .

Marfat.com

بحسن الاستماع لحديثه والاستغراب له [منه] كأنه لم يسمعه ، وإظهار السرور والاستفادة منه ؛ فالنفس إلى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشْهَى وأقرب منها إلى فوائد السوقة وما أشبهها .

معاوية وابن شجرة الرهاوى

وقد ذكر جماعة من الأخباريين كابن دأب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن شجرة الرهاوى(1) ، وهو أن ابن شجرة كان يُسَاير ذات يوم معاوية وكان آنساً به ، وإلى حديثه تائقاً ، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن جزعان يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش ، كان فيه حرب عظيمة فنى فيه خلق من الناس ، وذلك قبل الإسلام ، وقيل : إن ذلك كان قبل الهجرة ، وكانت لأبى سفيان فيه مكرمة وسابقة فى الرياسة ، وهو أنه لما أشرف الفريقان على الفنَاء صعد على نَشَزٍ من الأرض ثم صاح بالفريقين ، وأشار بكمه ، فانصرف الفريقان جميعاً انقياداً إلى أمره ، وكان معاوية مُعْجَباً بهذا الحديث ، فبينما هو يحدثه به ويزيد بن شجرة(1) مقبل عليه ، وقد استخفتهما لذة المحدث والمستمع إذ صك جبين يزيد بن شجرة(1) حجر عائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ، وغير ذلك ، ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : لله أنت يابن شجرة ، أما ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا دَمٌ يسيل على ثوبك ، قال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى وغَطَّى على قلبى ، فما شعرت بشىء مما حَدَثَ ، حتى نبهنى عليه أمير المؤمنين ، فقال معاوية : لقد ظلمك من جعلك فى ألف من العطاء ، وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصِفِّينَ ، ثم أمر له وهو فى مسيره بخمسمائة ألف درهم ، وزاده فى عطائه ألفاً من الدراهم ، وجعله بين جلده وثوبه .

تعليق

وقد قال بعض أهل المعرفة والأدب من مصنفى الكتب فى هذا المعنى

(1) فى ب « يزيد بن سحرة » بمهملتين .

Marfat.com

وغيره مما حكيناه عن معاوية وابن شجرة : لئن كان ابن شجرة خَدَعَ معاوية فى هذا ومعاوية ممن لا يخادع فما مثله إلا كما قال الأول :

* من يَبِنكِ العيرينك نيا كا *

وإن كان قد بلغ من بلادة ابن شجرة ، وقلة حسه ، ما وصف به نفسه فما كان جديراً بخمسمائة ألف [درهم] صِلَةً ، وزيادة ألف فى عطائه ، وما أظن ذلك خفى عن معاوية .

حسن الاستماع

قال المسعودى : وقد قالت الحكماء فى هذا وأكثرت ، وأمرت بحسن الاستماع [والصمت] وأطْنَبَتْ ، فقالوا : لا تحسن المحادثة إلا بحسن الفهم ، وقالوا : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع هو إمهال المحدث(١) حتى ينقضى حديثه .

من أدب الحديث

ومن أدب الحديث وواجباته : أن لا يقتضب اقتضاباً ، ولا يهجم عليه ، وأن يتوصل إلى إجرائه بما يشا كله ، وأن يستنسب له ما يحسن أن يجرى فى عرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقاً ببعض ، على حسب ما قالوا فى المثل : إن الحديث ذو شجون ، يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعانى كثيرة ؛ إذ كان العيش كله فى الجليس الممتع ، وقال رجل : والله ما أَمَلُّ الحديث ، فقال السامع : إنما يمل العتيق لا الحديث .

وقد أكثرت الشعراء من الإغراق فى هذا المعنى ، ومن ذلك قول [على بن] العباس الرومى :

وسئمت كل مآربى فكأنَّ أطيبها غَثِيثُ
إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث

وأحسن ما قيل فى هذا المعنى قول إبراهيم بن العباس :

إن الزمان وما تَزَيَّنَ بمَفْرِقِى صَرَفَ الغواية فانصرفْتُ كريما
وضَجِرْتُ إلا من لقاء محدث حسن الحديث يزيدنى تعليما

(١) فى ا « وحسن الاستماع هو أشهى إلى المحدث » .

Marfat.com

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عَدَمَ إطالة الحديث من النديم ، وأن أحْلَى الحديث وأحْسَنَه موقعاً أن تجتنب [منه] الأحاديث الطِّوَال ذات المعانى المغلغلة والألفاظ الحَشْوِية التى ينقضى[1] باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحتسى على أواخرها الكؤوس ، فإن ذلك بمجالس القُصَّاص ، أشبه منه بمجالس الخواص .

وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله بن المعتز بالله ، ووصف ذلك من أصحاب الشراب على المعاقرة ، فقال :

بين أَقْدَاحِهم حديث قصير   هو سحر ، وما عَدَاهُ كلام
وكأن السُّقَاةَ بين الندامى   أَلِفَات بين السطور قيام

وهذه طريقة مَنْ ذهب فى هذا المعنى إلى استماع الملح .

أول وزير فى الدولة العباسية

وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة فى دولة بنى العباس أبو سَلَمة حفص ابن سليمان الخَلَّال الهمدانى ، مولى لسبيع ، وكان فى نفس أبى العباس منه شىء ؛ لأنه كان حاول فى رد الأمر عنهم إلى غيرهم ، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله ، ويقول له : قد أحَلَّ الله لك دمه ؛ لأنه قد نكث وغير وبدل ، فقال السفاح : ما كنت لأفتتح دولتى بقتل رجل من شيعتى ، لاسيما مثل أبى سَلَمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه ، وبذل مهجته ، وأنفق ماله ، وناصح إمامه ، وجاهد عدوه ، وكلمه أبو جعفر أخوه وداود بن على عمه فى ذلك ، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألها أن يشيرا على السفاح بقتله ، فقال أبو العباس : ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه وصالح أيامه بزلّةٍ كانت منه ، وهى خَطْرَة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الإنسان ، فقالا له : فينبغى يا أمير المؤمنين أن تحترس منه ، فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : كلا إنى لآمنه فى ليلى ونهارى وسرى وجهرى ووحدتى وجماعتى ، فلما اتصل هذا القول من أبى العباس بأبى مسلم أكبره وأعظمه ، وخاف من ناحية أبى سَلَمة أن يقصده بمكروه ، فوجّه

(١) فى ا « التى افتن باقتصاصها سمار المجلس » .

Marfat.com

جماعة من ثقات أصحابه فى إعمال الحيلة فى قتل أبى سَلَمة ، وقد كان أبو العباس يأنس بأبى سَلَمة ويسمر عنده ، وكان أبو سَلَمة فكهاً ممتعاً أديباً عالماً بالسياسة والتدبير ، فيقال : إن أبا سَلَمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالأنبار ، وليس معه أحد ، فوثب عليه أصحاب أبى مسلم فقتلوه ، فلما اتصل خبره بالسفاح أنشأ يقول :

إلى النار فليذهب ، ومن كان مثله ... على أى شىء فَاتَنَا منه نأسَفُ

وكان أبو مسلم يقال له : أمين آل محمد ، وأبو سَلَمة حفص بن سليمان يدعى وزير آل محمد ، فلما قتل غيلة على ما ذكرنا قال فى ذلك الشاعر من أبيات :

إن المساءة قد تسرُّ ، وربما ... كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمـد ... أَوْدَى؛ فمن يَشْنَاكَ كان وزيرا

وقد أتينا على خبر مقتله وكيفية أمره فى الكتاب الأوسط .

مسامرات السفاح

وكان السفاح يعجبه الحادثة ، ومفاخرات العرب من نزار واليمن ، والمذاكرة بذلك ، ولخالد بن صفوان وغيره من قحطان أخبار حسان ، ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع أبى العباس [السفاح قد أتينا على مبسوطها وما اخترناه من غررها فى كتابَيْنَا « أخبار الزمان » والأوسط] فأغنى ذلك عن ذكرها .

ومما ذكر من أخباره واستفاض من أسماره ، ما ذكره البهلول بن العباس عن الهيثم بن عدى الطائى ، عن يزيد الرقاشى ، قال : كان السفاح يعجبه مسامرة الرجال ، وإنى سمرت عنده ذات ليلة ، فقال: يا يزيد، أخبرنى بأظرف[1] ما سمعته من الأحاديث ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، وإن كان فى بنى هاشم ؟ قال : ذلك أعجب إلى ، قلت : يا أمير المؤمنين ، نزل رجل من تَنُوخَ بحى من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، فجعل لايحط شيئاً من متاعه إلا تمثل بهذا البيت :

لعمرك ما تَبلَى سرائر عامرٍ ... من اللؤم ما دامت عليها جلودها

(١) فى ا « بأطرب حديث سمعته »

فخرجت إليه جارية من الحى، فحادثته وآنسته ، وسألته حتى أنس بها، ثم قالت: ممن أنت مُتَّنِفَتْ بك ؟! قال : رجل من بنى تميم ، فقالت : أتعرف الذى يقول :

تميمٌ بِطُرْقِ اللؤم أهْدَى من القطا ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضلّتِ
ولو أن برغوثاً على ظهر قَمْلة يكر على جَمْعَىْ تميم لولتِ
ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت
أرى الليل يَجْلوه النهار، ولا أرى عظام المخازى عن تميم تجلت

فقال : لا والله ما أنا منهم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من عِجْلٍ ، قالت : أتعرف الذى يقول :

أرى الناس يُعْطُونَ الجزيل، وإنما عطاء بنى عجل ثلاث وأربَعُ
إذا مات عجلىٌّ بأرض فإنما يشق له منها ذراع وإصبع

قال : لا والله ما أنا من عجل ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى يشكر ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا يشكرىٌّ مَسَّ ثوبكَ ثوبه فلا تذكرن الله حتى تطهّرَا

قال : لا والله ما أنا من يشكر ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى عبد القيس ، قالت : أتعرف الذى يقول :

رأيت عبد القيس لاقت ذلا إذا أصابوا بصلا وخَلاَّ
ومالحاً مصنعاً قد طلا باتوا يسلون النساء سلا[1]
* سَلَّ النبيط القَصَبَ المبتلا *

قال : لا والله ما أنا من عبد القيس ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من باهلة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا ازدحم الكرام على المعالى تنحَّى الباهلىُّ عن الزحام
فلو كان الخليفة باهليا لقصر عن مناوأة الكرام
وعِرْضُ الباهلى وإن توَقّى عليه مثل منديل الطعام

(١) فى ا « ومالحا معتقا قد طلا » .

Marfat.com

قال : لا والله ما أنا من باهلة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى فَزَارَة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

لا تأمننّ فزارياً خَلَوْتَ به   على قَلُوصِكَ، واكْتُبْهَا بأسيار
لا تأمننّ فزارياً على حمر   بعدالذى امتلّ أير العير فى النار
قوم إذا نزل الأضياف ساحتهم   قالوا لأمهم : بولى على النار

قال : لا والله ما أنا من فزارة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من ثقيف ، قالت : أتعرف الذى يقول :

أضــل الناسبون أبا ثقيف   فما لهمُ أبٌ إلا الضــلال
فإن نُسِبَتْ أو انتسبت ثقيف   إلى أحد فذاك هو المحال
خنازير الحُشُوشِ فقتّلوها   فإن دماءها لـكم حلال

قال : لا والله ما أنا من ثقيف ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى عبس ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا عَبْسِية ولدت غلاماً   فبشّرها بلؤم مســتفاد

قال : لا والله ما أنا من عبس ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من ثعلبة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

وثعلبة بن قيس شرُّ قوم   وألأمهم وأغــدرهم بجار

[قال : لا والله ما أنا من ثعلبة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من غنيّ ، قالت : أتعرف الذى يقول:

[إذا غَنَوِية ولدت غلاماً   فبشرها بخياط مجيــد]

قال : لا والله ما أنا من غنيّ ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى مرة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا مُرِّية خضبت يداها   فزوجها ولا تأمن زناها

قال : لا والله ما أنا من بنى مرة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى ضبة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

Marfat.com

لقد زَرِقت عيناك يا ابن مكعبر كما كل ضَبِّيٍّ من اللؤم أزرق

قال : لا والله ما أنا من بنى ضبة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بجيلة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

سألنا عن بجيلة حين حَلت لنخبر أين قَرَّ بها القرار ؟

فما تدرى بجيلة حين تُدْعَى أقحطان أبوها أم نزار ؟

فقد وقَعت بجيلة بين بين وقد خلعت كما خلع العذار

قال : لا والله ما أنا من بجيلة ، قالت : فمن أنت ويحك ؟ ! قال : رجل من بنى الأزْدِ ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا أزدية ولدت غلاماً فبشرها بملاح مجيـــــد

قال : لا والله ما أنا من الأزد ، قالت : فمن أنت ويلك ؟! أما تستحى ؟! قل الحق ، قال : أنا رجل من خُزَاعة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا افتخرت خزاعة فى قديم وَجَدْنَا فخرها شرب الخمور

وباعت كعبة الرحمن جهراً بِزِقّ ، بئس مفتخر الفخور

قال : لا والله ما أنا من خُزَاعة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من سليم ، قالت : أتعرف الذى يقول :

فما لِسُلَيْم شَقت الله أمرها تنيك بأيديها وتَعيا أيورها

قال : لا والله ما أنا من سليم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من لقيط ، قالت : أتعرف الذى يقول :

لعمرك ما البحار ولا الفيافى بأوْسَعَ من فِقَاح بنى لقيط

لقيطٌ شر مَنْ ركب المطايا وأنذل من يدب على البسيط

ألا لعن الإلهُ بنى لقيط بقـــايا سبية من قوم لوط

قال : لا والله ما أنا من لقيط ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من كندة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا ما افتخر الـكندىُّ ذو البهجـــة والطُّرَّة:

فبالنسج وبالخف وبالسدل وبالحفره
[فدع كِنْدَةَ للنسج فأعلى فخرها عُرَّهْ]

قال : لا والله ما أنا من كِنْدَةَ ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من خَثْعَم ، قالت : أتعرف الذى يقول :

وخَثْعَم لو صَفَرَتْ بها صفيراً لَطَارَتْ فى البلاد مع الجرَاد

قال : لا والله ما أنا من خَثْعَم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من طيء ، قالت: أتعرف الذى يقول :

وما طيء إلا نَبيطٌ تجَمَّعَتْ فقالت طيانا كلمة فاستمرت
ولو أن حُرْقوصاً يمدُّ جناحه على جبلَىْ طى إذا لاستظلت

قال : لا والله ما أنا من طيء ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من مُزَينة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

وهل مزينة إلا من قبَيِّلة لا يُرْتجَى كرم فيها ولا دين

قال : لا والله ما أنا من مُزَينة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من النَخَع ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا النخع اللئام غَدَوْا جميعاً تأذّى الناس من وفر الزحام
وما تسمو إلى مجـد كريم وما هم فى الصميم من الـكرام

قال : لا والله ما أنا من النَّخَع ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من أوْدٍ ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا نَزَلْتَ بأوْدٍ فى ديارهمُ فاعلم بأنك منهم لست بالناجى
لا تركنَنَّ إلى كهل ولا حَدَث فليس فى القوم إلا كل عفّاجِ

قال : لا والله ما أنا من أوْدٍ ، قالت : فمن أنت ! قال : أنا رجل من لخم ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا ما انتمى قوم لفخر قديمهم تباعَدَ فخر القوم من لخم أجمعا[1]

(١) فى ا « تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا » .

Marfat.com

قال : لا والله ما أنا من لخم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من جُذَام ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا كَأسُ الْمُدَام أُدِيرَ يوماً   لمكرمة تنحَّى عن جُذَامِ

قال : لا والله ما أنا من جُذَام ، قالت : فمن أنت ويلك ؟!!أماتستحى؟ أكثرت من الكذب ! ! قال : أنا رجل من تَنُوخ ، وهو الحق ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا تَنُوخٌ قَطَعَت مَنْهلاً   فى طلب الغارات والثار
آبَتْ بِخِزْيٍ من إلٰهِ العلى   وشهرة فى الأهل والجار

قال : لا والله ما أنا من تَنُوخَ ، قالت : فمن أنت ثَكلَتْكَ أمك ؟! قال : أنا [رجل] من حِمْير ، قالت : أتعرف الذى يقول :

نُبِّئت حِمْير تهجونى ، فقلت لهم: ما كنت أحسبهم كانوا ولا خُلِقُوا
لأن حِمْير قومٌ لا نصاب لهم   كالعود بالقاع لا ماء ولا وَرَقُ
لا يكثرون وإن طالت حياتُهُمُ   ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قال : لا والله ما أنا من حِمْير ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من يُحَابر ، قالت : أتعرف الذى يقول :

ولو صَرَّصَرَّار بأرض يُحَابر   لماتوا وأضْحَوْا فى التراب رميا

قال: لا والله ما أنا من يُحَابر ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من قُشَيْر ، قالت : أتعرف الذى يقول :

بنى قشير قَتَلْتُ سيدكم   فاليوم لا فِدْيَةٌ ولا قَوَدُ

قال : لا والله ما أنا من قُشَيْر ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من أمية ، قالت : أتعرف الذى يقول :

وَهىْ من أميـة بنيانُهَا   فهان على الله فقدانُهَا
وكانت أمية فيما مضى   جرىء على الله سلطانها

Marfat.com

فلا آلُ حرب أطَاعُوا الرَّسُول ولم يَتَّقِ الله مَرْوَانُهَا

قال : لا والله ما أنا من بنى أمية ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى هاشم ، قالت : أتعرف الذى يقول :

بنى هاشم عُودُوا إلى نَخَلاَتِكُم فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم

فإن قُلتمُ رَهْطُ النبى محمد فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

قال : لا والله ما أنا من بنى هاشم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من هَمْدَان ، قالت : أتعرف الذى يقول :

إذا هَمْدَانُ دارت يوم حَرْبٍ رحاها فَوْقَ هامات الرجال

رأيتهمُ يحثُّونَ المطايا سراعاً هاربين مِنَ القتال

قال : لا والله ما أنا من هَمْدَانَ ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من قُضَاعَة ، قالت : أتعرف الذى يقول :

لا يفخرَنَّ قضاعىٌّ بأسرته فليس من يَمَنٍ محضاً ولا مُضَر

مُذَبْذَبين فلا قَحْطَانُ والدهم ولا نزار ، فخلوهم إلى سقر

قال : لا والله ما أنا من قُضَاعة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من شيبان ، قالت : أتعرف الذى يقول :

شيبان قومٌ لهم عديدٌ فكلهم مُقْرِف لئيم

ما فيهمُ ماجدٌ حسيب ولا نجيب ولا كريم

قال : لا والله ما أنا من شَيْبَان ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من بنى نُمَيْر ، قالت : أتعرف الذى يقول :

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كِلابَا

فلو وضعت فِقَاحُ بنى نُمير على خَبَثِ الحديد إذاً لَذَابَا

قال : لا والله ما أنا من نُمير ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من تَغْلب ، قالت : أتعرف الذى يقول :

Marfat.com

لا تطلبنَّ خؤولة فى تغلب فالزنج أكْرَمُ منهمُ أخوالا
والتغلبىُّ إذا تنحنح للقِرَى حَكَّ اسْتَه وتمثَّلَ الأمثالا

قال : لا والله ما أنا من تغلب ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من مُجَاشع ، قالت : أتعرف الذى يقول :

تبكى المُغِيبَةُ من بنات مُجَاشع ولها إذا سُمِعت نهيقُ حمارِ

قال : لا والله ما أنا من مُجَاشع ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من كَلْب ، قالت : أتعرف الذى يقول :

فلا تَقْرَبًا كلبا ولا بَاب دارها فما يطمع السارى يرى ضوء نارها

قال : لا والله ما أنا من كلب ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من تَيْم ، قالت : أتعرف الذى يقول(1) :

[تَيْمِيَّة مثلُ أنف الفيل مقبلها تهدى الرحا ببنان غير مخدوم]

قال : لا والله ما أنا من تَيْم ، قالت: فمن أنت ؟ قال : رجل من جَرْم، قالت : أتعرف الذى يقول :

تُمَنِّينِى سَوِيقَ الكَرْم جَرْم وما جَرْم وما ذاكَ السويق ؟
فما شربوه لما كَانَ حِلاًّ ولا غَالَوْا به فى يوم سوق
فلمَّا أنزل التحـــريمُ فيها إذا الجرمِىُّ منهـــا لا يفيق

قال : لا والله ما أنا من جَرْم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من سُلَيم ، قالت : أتعرف الذى يقول:

إذا ما سُـــلَيم جئتَهَا لغدائها رَجَعْت كما قد جئت غَرْثَانَ جائعا

قال : لا والله ما أنا من سُلَيم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من الموالى ، قالت : أتعرف الذى يقول :

---

(١) سقط — مما عدا ا — من الأصول التى بين أيدينا ما قالته الجارية فى بنى تيم ، والقصة مذكورة فى كثير من الكتب ، منها الطبقات الكبرى لتاج الدين السبكى (ج ١ ص ١٤٢) وفيها اختلاف فى الترتيب والشعر ، ولم يذكر فيها تيما .

Marfat.com

ألا من أراد الفُحْشَ وَاللُّؤمَ والخنا فعند الموالى الجِيـد وَالطرَفَانِ

قال : أخطأتُ نسبي وربِّ الكعبة ، أنا رجل من الخوز ، قالت : أتعرف الذى يقول :

لا بارك الله رَبِّى فِيكُمُ أبداً يا معشر الخُوزِ ؛ إن الخوز فى النار

قال : لا والله ما أنا من الخوز ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من أولاد حام ، قالت : أتعرف الذى يقول :

فلا تنكحَنْ أولاد حام ؛ فإنهم مَشَاوِيهُ خلق الله حَاشَا ابنأ كْوَع

قال : لا والله ما أنا من ولد حام ، لكنى من ولد الشيطان الرجيم ، قالت : فلعنك الله ولعن أباك الشيطان معك ، أفتعرف الذى يقول :

ألا يا عباد الله هذا عدوكم وهذا عَدُوُّ الله إبليس فاقتلوا[1]

فقال لها : هذا مقام العائذ بك ، قالت : قم فَارْحَلْ خاسئاً مذموماً ، وإذا نزلتَ بقوم فلا تنشد فيهم شعراً حتى تعرف مَنْ هم ، ولا تتعرض المباحث عن مساوى الناس ، فلكل قوم إساءة وإحسان ، إلا رسول رب العالمين ، ومن اختاره الله على عباده ، وعَصَمه من عدوه ، وأنت كما قال جرير للفرزدق :

وكُنْتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم رحلتَ بِخَزْيَةٍ وتركت عاراً

فقال لها : والله لا أنشدت بيت شعر أبداً ، فقال السفاح : لئن كُنْتَ عملتَ هذا الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار فلقد أحسنت ، وأنت سيد الكاذبين ، وإن كان الخبر صدقاً وكنت فيما ذكرته محقا فإن هذه الجارية العامرية لمن أحْضَرِ الناس جواباً ، وأبصرهم بمثالب الناس.

قال المسعودى : وللسفاح أخبار غير هذه وأسمار حسان قد أتينا على مبسوطها فى كتابينا أخبار الزمان والأوسط .

(١) فى ا « عدو نبى الله إبليس ينهق » .

Marfat.com

ذكر خلافة أبى جعفر المنصور

وبويع أبو جعفر المنصورُ عبدُ الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب وهو بطَرِيقِ مكة ، أخَذَ له البيعة عَمُّه عيسى بن علىّ ، ثم لعيسى بن موسى من بعده ، يوم الأحد لاثنتَىْ عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، والمنصور يومئذ ابن إحدى وأربعين سنة ، وكان مولده فى ذى الحجة سنة خمس وتسعين ، وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامة بربرية ، وكانت وفاته يوم السبت لست خَلَوْنَ من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ؛ فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلا تسعة أيام ، وهو حاجٌّ عند وصوله إلى مكة فى الموضع المعروف ببستان بنى عامر من جَادَّةِ العراق ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودُفن بمكة مكشوفَ الوَجْهِ لأنه كان مُحْرِماً ، وقيل : إنه مات بالبطحاء عند بئر ميمون ، ودُفن بالحَجُونِ ، وهو ابن خمس وستين سنة ، والله أعلم . موجز

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره ، وسيره
ولمع مما كان فى أيامه

رؤيا أم المنصور

ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت : رأيت لما حملت بأبى جعفر [المنصور] كأنَّ أسداً خرج من قُبُلى فأقْعَى وزَأَرَ وضرب بذنبه ، فأقبلت إليه الأسْدُ من كل ناحيةٍ ، فكلما انتهى إليه أسدٌ منها سَجَدَ له .

المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر

وحدث على بن محمد المدائنى أن المنصور قال : صحبت رجلا ضريراً إلى الشام وكان يريد مروان بن محمد بشعر قاله فيه ، قال : فسألته أن ينشدنى فأنشدنى :

ليت شعرى أفاح رائحةُ المســـك وما إن إخال بالخيف إنسى
حين غَابَتْ بنو أُميـــة عنهُ والبَهَاليل من بنى عبد شمس
خطباء على المنـــابر فُرْساَ نٌ عليها ، وقَالَةٌ غير خُرْسِ
لا يُعابون قائلين ، وإن قالوا لوا أصابوا ، ولم يقولوا بلبس
وحُلُوم إذا الحلوم اسْتُخِفّتْ ووجوه مثل الدنانير مُلْس

قال المنصور : فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت أن العمى [قد] أدركنِى ، وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة .

قال : وحججت سنة إحدى وأربعين ومائة ، فنزلت على الحمارة فى جبلى زَرُود فى الرمل أمشى لنَذْرٍ كان علىّ ، فإذا أنا بالضرير ، فأومأت إلى من كان معى أن يتأخروا ، فتأخروا ، ودنوت منه ، فأخذت بيده فسلمت عليه: فقال : من أنت جعلنى الله فداك فما أثبتك معرفة ؟ قلت : رفيقك إلى الشام فى أيام بنى أمية وأنت متوجه إلى مروان ، فسلم علىّ وتنفس وأنشأ يقول :

آمَتْ نساء بنى أُمية منهمُ وبناتهم بمضيعـــة أيتامُ
نامت جدودهُمُ وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيام
خَلَتِ المنابر والأسِرّةُ منهمُ فعليهمُ حتى الممات ســـلام

فقلت له : كم كان مروان أعطاك ؟ فقال : أغنانى فلا أسأل أحداً بعده ،

Marfat.com

فقلت : كم ؟ فقال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان ، قلت : وأين ذاك ؟ قال : بالبصرة ، قلت : أتثبتني معرفةً ؟ فقال : أما معرفة الصحبة فقدلعمري وأما معرفة النسب فلا ، فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فوقع عليه الإفكل ، وقال : يا أمير المؤمنين اعذر فإن ابن عمك محمداً صلى الله عليه وسلم قال « جُبِلَت النفوسُ على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها » ، قال أبو جعفر : فهمَمْت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة، فقلت للمسيب : أطلقه [فأطلق] ثم بدا لى فى مُسامرته رأى ، فأمرت بطلبه فكأن البيداء أبادته .

المنصور وأهله يتحدثون عن سير بنى أمية

وحدث الربيع قال : اجتمع عند المنصور عيسى بن على ، وعيسى بن موسى، ومحمد بن على ، وصالح بن على ، وقُثَم بن العباس ، ومحمد بن جعفر ، ومحمد بن إبراهيم ، فذكروا خلفاء بنى أُمية وسيرهم وتدبيرهم ، والسبب الذى به سُلِبُوا عزهم ، فقال المنصور : أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالى ما صنع ، وأما سليمان فكانت همته بطنه وفرجه ، وأما عمر [بن عبد العزيز] فكان أعْوَرَ بين عُمْيَان ، وكان رجل القوم هشام ، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مُهِّدَ لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ، ويصونون ماوهب الله لهم منه مع كسبهم معالى الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات ، من معاصى الله عزوجل ؛ جهلا منهم باستدراجه ، وأمناً منهم لمكره ، مع اطّراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق [الله تعالى وحق] الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل ، ونَفَى عنهم النعمة ؛ فقال صالح ابن على : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النُّوبَةِ هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم ومانزل بهم ، وكيف كانت سيرتهم ، فأخبره بجميع ذلك ، فركب إلى عبد الله ليسأله عن شىء من أمورهم ، والسبب الذى به زالت النعمة عنهم ، وكلمهُ بكلام سقط عنى حفظه، ثم أشْخَصَه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه عن أمره فعل، فأمر المنصور بإحضاره فى مجلسه ، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : ياعبدالله

Marfat.com

قصَّ علىَّ قصتك وقصة ملك النُّوبَة ، قال : يا أمير المؤمنين ، قدمت إلى النُّوبَةِ ، فأقمت بها ثلاثاً ، فأتانى ملكها ، فقعد على الأرض وقد أعددت له فراشاً [له قيمة] فقلت له : مامنعك من القعود على فراشنا ؟ فقال : لأنى ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عزوجل إذ رفعه الله ، ثم قال : لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا ، قال : فلم تطئون الزرع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ فقلت : ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دَخَلُوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا ، فأطرق إلى الأرض يقلب يده مرة وينكت فى الأرض أخرى ، ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا فى ديننا ، ثم رفع رأسه فقال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرَّم الله ، وركبتم ما عنه نُهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ؛ فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذلَّ بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحلَّ بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالنى معكم ، وإنما حق الضيافة ثلاث ؛ فتزوَّدْ ما احتجْتَ إليه وارحل عن أرضى ففعلت ، فتعجب المنصور وأطرق ملياً ، فرقَّ له وهم بإطلاقه ، فأعلمه عيسى ابن على أن فى عنقه بيعة له ، فأعاده إلى الحبس .

وفاة محمد بن جعفر الطالبى

قال المسعودى : ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفى أبو عبدالله [محمد بن][(1)] جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، سنة ثمان وأربعين ومائة ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجدِّه ، وله خمس وستون سنة ، وقيل : إنه سم ، وعلى قبورهم فى هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله مُبيد الأمم ، ومحيي الرمم ، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين ، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب ، وعلى بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد رضى الله عنهم !

(١) سقط هذا الاسم من ا ، وسقوطه يوافق ماذكر أنه كتب على رخام القبر.

Marfat.com

وزراء المنصور

واستوزر أبو جعفر المنصور ابنَ عطية الباهلى ، ثم استوزر أبا أيوب المورياني الخوزى ، وكان له بأبى جعفر(١) أسباب : منها أنه كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلّب ، وقد كان سليمان ضرب المنصور بالسوط فى أيام الأمويين ، وأراد هتكه ، فخلصه كاتبه أبو أيوب من يده ، فكان ذلك سبب الاتصال به ، فلما استوزره اتُّهِمَ بأشياء منها احْتِجَان الأموال وسوء النية ، فكان على الإيقاع به ، وتطاول ذلك ، فكان كلما دخل عليه ظن أنه سيوقع به ، ثم يخرج سالماً ، فقيل : إنه كان معه دهن قد عمل فيه شيئاً من السحر يطليه على حاجبيه إذا أراد الدخول على المنصور ، فسار فى العامة دهن أبى أيوب لما ذكرنا ، ثم أوقع به ، واستكتب أبان بن صدقة إلى أن مات .

المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك

وذكر لأبى جعفر تدبير هشام فى حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان ينزل برُصَافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقدم عليه الرجل ، فقال له : أنت صاحب هشام ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرنى كيف فعل فى حرب دبرها فى سنة كذا وكذا ، قال : فعل رضى الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا ، فأغاظ ذلك المنصور ، فقال له : قم عليك غضب الله ، تطأُ بِساطى وتترحَّم على عدوى ؟ فقام الشيخ وهو يقول: إن لعدوك قلادة فى عنقى ، ومنَّة فى رقبتى لا ينزعها إلا غاسلى ، فأمر المنصور برده ، وقال : كيف قلت : قال : إنه كفانى الطَّلَبَ ، وصان وجهى عن السؤال ، فلم أقف على باب عربى ولا عجمى منذ رأيته ، أفلا يجب لى أن أذكره إلا بخير وأتبعه بثنائى : فقال : بلى ، لله أمٌّ نهضت عنك ! أشهد أنك نهيض حرة وغِرَاسُ كريم ، ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما آخذها لحاجة ، وما هو إلا أن أتبجَّحَ بحبائك وأتشرف بصلتك ، فأخذ الصلة ، فقال له المنصور : مت إذا شئت ، لله أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً ، وقال لجلسائه بعد خروجه

(١) فى ا « وكان له بأبى أيوب أسباب » ومؤدى العبارتين واحد .

Marfat.com

عنه : فى مثل هذا تحسن الصَّنِيعة ، ويُوضَعُ المعروف ، ويُجاد بالمَصُونِ ، وأنّى فى عسكرنا مثله ؟

المنصور ومعن ابن زائدة

ودخل معن بن زائدة على المنصور ، فلما نظر إليه قال : هِيهِ يامعن ، تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله :

مَعْنُ بن زائدة الذى زيدت به   شَرَفاً على شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله :

ما زِلْتَ يومَ الهاشمية مُعْلِناً   بالسيف دونَ خليفةِ الرحمنِ

فمَنَعْتَ حَوْزَتَهُ ، وكُنْت وِقَاءه   مِنْ وَقْعِ كلِّ مُهَنَّدٍ وسِنَانِ

فقال : أحسنت يامَعْن ، وكان مَعْن مِنْ أصحاب [يزيد بن] عمر بن هُبَيْرَة ، وكان مستتراً حتى كان يوم الهاشمية — وقد كان سَعَت[1] فيه عدة من أهل خراسان — فإنه حضر وهو مُعْتَم متلثم ، فلما نظر إلى القوم قد وَثَبُوا على المنصور تقدم ، ثم جعل يضربهم بالسيف قدامه ، فلما أفرجوا وتفرقوا عنه قال : مَنْ أنتَ : فحسر عن وجهه ، وقال : أنا طَلِبَتُكَ يا أمير المؤمنين مَعْن بن زائدة ، فلما انصرف المنصور آمَنَهُ وحَبَاه وأكرمه وكساه ورتبه .

[ودخل مَعْن بن زائدة يوماً على المنصور ، فقال له : ما أسْرَعَ الناسَ إلى حسد قومك ! فقال : يا أمير المؤمنين .

إن الغَرَانيقَ تَلْقَاها محسَّدَة   ولن ترى للئام الناس حُسَّادا]

المنصور يقع بين يديه سهم كتب عليه شعر وظلامة

وذكر ابن عياش المنتوف أن المنصور كان جالساً فى مجلسه المبنى على طاق باب خراسان من مدينته التى بناها وأضافها إلى اسمه ، وسماها مدينة المنصور ، مُشْرِفا على دجلة ، وكانَ قد بنى على كل باب من أبواب المدينة فى الأعلى من طاقه المعقود مجلساً يُشرِفُ منه على مايليه من البلاد من ذلك الوجه ، وكانت أربعة أبواب شوارع محدقة وطاقات معقودة ، وهى باقية إلى وقتنا هذا الذى هو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فأول أبوابها باب خراسان ، وكان يسمى باب

(١) « وقد كان شغب فيه — إلخ » .

Marfat.com

الدولة ؛ لإقبال الدولة العباسية من خُرَاسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة ، وهو تلقاء البصرة ، وقد أتينا على كيفية خبر بناء تلك المدينة ، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ودُجَيْل والصَّرَاة ، وهذه أنهار تأْخذ من الفرات ، وأخبار بغداد وعلة تسميتها بهذا الاسم ، وماقاله الناسُ فى ذلك ، وخبر القبة الخضراء وسقوطها فى هذا العصر ، وقصة قبة الحجاج الخضراء التى كان الحجاج بناها بواسط العراق ، وبقاؤها إلى ذلك الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فى كتابنا الأوسط الذى كتابُنَا هذا تالٍ له ، فبينما المنصور جالس فى هذا المجلس مِنْ أعالى باب خُرَاسان إذ جاء سهم عائر حتى سقط بين يديه ، فذُعِرَ منه المنصور ذعراً شديداً ثم أخذه فجعل يقلبه فإذا هو مكتوب عليه بين الريشتين :

أتطمعُ فى الحيــاة إلى التَّنَادِ وتحسبُ أن مالك مِنْ مَعَادِ
سَتُسْأَلُ عن ذنوبكَ والخطَايَا وتُسْأَلُ بعد ذاكَ عن العِبَادِ

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

أحسنْتَ ظنّك بالأيام إذْ حَسُنَتْ ولم تخَفْ سوء ما يأْتى به القــدر
وسالَمَتْكَ الليالى فاغْتَرَرْتَ بها وعند صفو الليالى يحدُثُ الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هى المقاديرُ تجرِى فى أعِنَّتها فاصبر فليس لها صَبْرٌ على حال
يوماً تُريك خَسِيس القوم ترفعه إلى السماء ، ويوماً تخفض العالى

وإذا على جانب السهم مكتوب : همذان منها رجل مظلوم فى حبسك ، فبعث مِنْ فَوْره بعدة مِنْ خاصته ، ففتشوا الحبوس والمَطَابِقَ ، فوجدوا شيخاً فى بَنِيَّةٍ من الحبس فيه سراج يسرج وعلى بابه بارية مسبلة ، وإذا الشيخ مُوثَقٌ بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآيةَ (وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون) فسألوه عن بلده ، فقال : همذان ، فحمل ، ووضع بين يدى المنصور ، فسأله عن حاله فأخبره أنه رجل من أبناء مدينة همذان ،

Marfat.com

وأرباب نعمها ، وأن واليك علينا دخل بلدنا ، ولى ضَيْعَةٌ فى بلدنا تُساوى ألف ألف درهم ، فأراد أخذها منى ، فامتنعت فكبلنى فى الحديد ، وحملنى وكتب إليك أنى عاص ، فطرحت فى هذا المكان ، فقال : منذ كم [لك فى الحبس] ؟ قال : منذ أربعة أعوام ، فأمر بفَكِّ الحديد عنه ، والإحسان إليه ، والإطلاق له ، وأنزله أحسن منزل ، ورده إليه ، فقال له : ياشيخ قد رَدَدْنَا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا ، وأما مدينتك همذان فقد وليناك عليها ، وأما الوالى فقد حكمناك فيه ، وجعلنا أمره إليك ، فجزاه خيراً ، ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين أما الضيعة فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه ، فأمر له المنصور بمال جزيل ، وبر واسع ، واستحله وحمله إلى بلده مكرماً ، بعد أن صرف الوالى وعاقبه على ماجنى من انحرافه عن سنة العدل وواضحة الحق ، وسأل الشيخ مكاتبته فى مهماته وأخبار بلده ، وإعلامه بما يكون من وُلاته على الحرب والخراج ، ثم أنشأ المنصور يقول :

من يصحب الدهر لا يأمن تَصَرُّفه ... يوماً ، وللدهر إحلاء وإمرار
لكل شىء وإن دامت سلامته ... إذا انتهى فله لا بُدَّ إقصار

المنصور يستشير فى أمر أبى مسلم

وقال المنصور يوماً لسالم بن قتيبة : ماترى فى أمر أبى مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فقال : حسبك يا ابن قتيبة ، لقد أودعتها أذناً واعية .

وذكر ابن دأب وغيره عن عيسى بن على قال : مازال المنصور يشاورنا فى جميع أموره حتى امتدحه إبراهيم بن هَرْمَة فقال فى قصيدة له :

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره ... فناجى ضميراً غير مختلف العقل
ولم يشرك الأدنين فى سر أمره ... إذا انتقضت بالأصبعين قوى الحبل

ولما أراد المنصور قتل أبى مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشورة فيه ، فأرقه ذلك ، فقال :

تَقَسَّمَنى أمران لم أمتحنهما ... بحزم ، ولم تعرك قواى الكراكر
وما ساور الأحشاء مثل دفينة ... من الهم رَدَّتْهَا عليك المصادر
وقد علمت أبناء عدنان أننى ... على مثلها مِقْدَامَةٌ متجاسر

لك مُرْتَقَى صعباً ، فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر إليه ، فقال المنصور ، وهو آخر ما كلمه به : قتلنى الله إن لم أقتلك ، وذكر له قتله لسليمان ابن كثير ، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى ، فخرج إليه القوم ، فَبَدَرَهُ عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبى مسلم ، وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله ، واعتورته السيوف ، فخلطت أجزاؤه، وأتوا عليه ، والمنصور يصيح : اضربوا قطع الله أيديكم ، وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال : استبقنى ياأمير المؤمنين لعدوك ، قال : لاأبقانى الله أبداً إن أبقيتك ! وأى عدو أعدى لى منك ؟

وكان قتله فى شعبان من سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور ، وهزيمة عبد الله بن على ، وأدرج أبو مسلم فى بساط .

ودخل عيسى بن موسى فقال : ياأمير المؤمنين ، أين أبو مسلم؟ فقال : قد كان ههنا آنفاً ، فقال : ياأمير المؤمنين ، قد عرفت طاعته ونصيحته ، ورأى إبراهيم الإمام فيه ، فقال له المنصور : ياأنوك خلق الله ما أعلم فى الأرض عدواً أعدى لك منه، هاهو ذاك فى البساط ، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور : ماتقول فى أمر أبى مسلم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل ، فقال المنصور: وفقك الله ! هاهو فى البساط ، فلما نظر إليه قتيلا قال: يا أمير المؤمنين ، عُدَّ هذا اليوم أول خلافتك ، وقد كان السفاح هم بقتله برأى المنصور ثم رجع عن قتله ، وأقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم بين يديه طريحاً فقال :

زعمت أن الدَّيْنَ لا ينقضى فاسْتَوْفِ بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقى بها أَمَرَّ فى الحلق من العلقم

ودعا المنصور بنصر بن مالك ، وكان على شرطة أبى مسلم ، فقال: استشارك أبو مسلم بالمسير إلىَّ فنهيته؟ قال: نعم، قال: ولم ؟ قال : سمعت أخاك إبراهيم

Marfat.com

الإمام يحدث عن أبيه قال : لا يزال المرء يزداد فى عقله إذا ما مَحَضَ النصيحة لمن شاوره ، فكنتُ له كذلك ، وأنا الآن لك كذلك .

واضطرب أصحاب أبى مسلم ففرقت فيهم الأموال ، وعلموا بقتله ، فأمسكوا رَغْبَةً ورَهْبَةً .

خطبة المنصور بعد قتل أبى مسلم

وخطب المنصور الناسَ بعد قتله أبا مسلم فقال : أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة[1] إلى وَحْشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غِشَّ الأئمة ، فإن من أسرَّ غش إمامه أظهر الله سريرته فى فَلَتَات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه الذى بادر بإعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلجه ، إنا لم نَبْخَسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم ، إن من نازعنا [عروة] هذا القميص أوطأناه ما فى هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايَعَنَا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيعته هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

الخرمية الفرقة التى تتولى أبا مسلم

ولما نمى قتل أبى مسلم إلى خُرَاسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية ، وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلون بأبى مسلم وإمامته ، وقد تنازعوا فى ذلك بعدوفاته : فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا ، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة ، وهؤلاء يُدْعَوْنَ الفاطمية ، وأكثر الخرمية فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — الكردكية واللودشاهية[2] وهاتان الفرقتان أعظم الخرمية ، ومنهم كان بابك الخرمى الذى خرج على المأمون والمعتصم بالبدين من أرض الران وأذربيجان ، وسنأتى على خبره وخبر مقتله فى أخبار المعتصم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله ، وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والرى وإصبهان وأذربيجان وكرج أبى دُلَفَ والبرج الموضع المعروف بالرذ والورسنجان ثم ببلاد الصيروان والصيمرة وأريوجان من بلاد ماسبذان وغيرها

(١) فى ا « لاتخرجوا من أنس الطاعة — إلخ »
(٢) فى ب « الكوركية والنور ساعية » .

Marfat.com

من تلك الأمصار ، وأكثر هؤلاء في القرى والضياع ، وسيكون لهم عند أنفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه في المستقبل من الزمان، ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية ، وقد أتينا على مذاهبهم وذكر فرقهم في كتابنا [«المقالات ، في أصول الديانات» وإن كان قد سبقنا إلى ذلك مؤلفو الكتب] في «المقالات»

بين الخرمية وجيش المنصور

فاجتمعت الخرمية — حين علمت بقتل أبي مسلم — [بخراسان ، فخرج فيهم رجل يقال له بسنفاد من نيسابور يطلب بدم أبي مسلم] فسار في عسكر عظيم من بلاد خراسان إلى الري ، فغلب عليها وعلى قُومَس وما يليها ، وقبض على ما كان بالري من خزائن أبي مسلم ، فكثر جمع بسنفاد بمن حوله من أهل الجبال وطبرستان ، ولما اتصل خبر مسيرهم بالمنصور سَرَّحَ إليه جهور بن مرار العجلي في عشرة آلاف رجل ، وتلاه بالعساكر ، فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، فقتل بسنفاد ، وولى أصحابه ؛ فقتل منهم ستون ألفاً وسبى منهم سبايا وذراري كثيرة ، وكان بين خروجه إلى مقتله سبعون ليلة ، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل أبي مسلم بأشهر .

ظهور محمد ابن عبد الله ابن الحسن (النفس الزكية)

وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة ، وكان قد بويع له في كثير من الأمصار، وكان يُدْعَى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور ، ولم يظهر حتى قَبَضَ المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم ، ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي ، وكان شيخاً ذا رأي وتجربة ، فقال له : أشِرْ عليَّ في خارجي خرج علي، قال : صف لي الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد علي وولد جعفر عَقِيل وولد عمر ابن الخطاب وولد الزبير [بن العوام] وسائر قريش وأولاد الأنصار ، قال له : صف لي البلد الذي قام به ، قال : بلد ليس به زَرْع ولا ضَرْع ولا تجارة واسعة ، ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور في نفسه:

Marfat.com

قد خَرِف الرجل ، أسأله عن خارجى خرج بالمدينة يقول لى اشحن البصرة بالرجال ، فقال له : انصرف ياشيخ ، ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : على بالعقيلى ، فلما دخل عليه أدْنَاهُ ثم قال له : إنى كنت قد شاورتك فى [أمر] خارجى خرج بالمدينة فأشرت على أن أشحن البصرة [بالرجال] أوكان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت لى خروج رجل إذا خرج مثلُه لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لى البلد الذى هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلتُ : إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت فى مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت فى البصرة فخفت عليها منه [لخلوها]، فأشرت بشحنها ، فقال له المنصور : أحسنت ، وقد خرج بها أخوه ، فما الرأى فى صاحب المدينة ؟ قال : ترميه بمثله ، إذا قال : أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المنصور لعيسى بن موسى : إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدُّكَ بالجيوش ، وإما أن تكفينى ما أخلف ورائى وأخرج أنا إليه ، فقال عيسى : بل أقيك بنفسى يا أمير المؤمنين ، وأكون الذى يخرج إليه، فأخْرَجَه إليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس وألفَىْ راجل ، وتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ، ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه محمد [بن عبد الله] وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه وتمثل:

أبا المنازل يا خير الفوارس من ... يُفْجَعْ بمثلك فى الدنيا فقد فُجِعا

الله يعلم أنى لو خشيتهم ... وأوْجَسَ القلب من خوف لهم فزعا

لم يقتلوه ولم أسلم أخَىَّ لهم ... حتى نموت جميعاً أو نعيش معا

تفرق إخوة محمد بن عبد الله فى البلاد

وقد كان تفرق إخوة محمد وولده فى البلدان يدعون إلى إمامته ؛ فكان فيمن توجه ابنه على بن محمد إلى مصر ، فقتل بها ، وسار [ابنه] عبد الله إلى خراسان فهرب لما طلب إلى السند ، فقتل هناك ، وسار ابنه الحسن إلى اليمن ؛ فحبس

Marfat.com

فمات فى الحبس ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ، ومضى أخوه يحيى إلى الرى ثم إلى طبرستان ، فكان من خبره فى أيام الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب ، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس ، وبعث المنصور من اغتاله [بالسم] فيما احتوى عليه من مدن المغرب،وقام ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه، فعرف البلد بهم ، فقيل : بلد إدريس بن إدريس ، وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا لخبر عبيد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمَهْدِية ، وخبر أبى القاسم ابنه بعده ، وانتقالهم من مدينةَ سلمية من أرض حمص إلى المغرب ، فى الكتاب الأوسط ، ومضى إبراهيم أخوه إلى البصرة وظهر بها ، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار [وسار من البصرة] فى عساكر كثيرة من الزَّيْدِية وجماعة ممن يذهب إلى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم ، ومعه عيسى بن زيد بن [على بن] الحسن بن على بن [الحسين بن على] بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فسير إليه المنصور عيسى ابن موسى وسعيد بن سلم فى العساكر ، فحارب حتى قتل فى الموضع المعروف بباخَمْرَى، وذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطَّف ، وهو الموضع الذى ذكرته الشعراء ممن رثى إبراهيم ، فممن ذكر ذلك دِعْبِلُ بن على [الخزاعى ، فقال] فى قصيدة [له] أولها : الأدارسة

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوة ومنزل وَحْىٍ مُقْفِر العرصات

ومنها قوله فيهم :

قبور بكوفان ، وأخرى بطيبة وأخرى بفَخٍّ ، ينالها صلوات

وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بباخَمْرَى لدى الغرَبَاتِ

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل ، وقيل : خمسمائة [رجل].

وروى بعض الأخباريين عن حماد التركى قال : كان المنصور نازلا فى دَيْرٍ على شاطىء دجلة فى الموضع الذى يسمَّى اليوم الخلد ، ومدينة السلام ، إذ أتى الربيع فى وقت الهاجرة ، والمنصور [نائم] فى البيت الذى هو فيه ، وحماد قاعد على الباب [والخريطة بيد الربيع ، بخروج محمد بن عبد الله] فقال :

Marfat.com

يا حماد افتح الباب ، فقلت : الساعة هجع أمير المؤمنين ، فقال : افتح ثَكِلَتْكَ أمك ، قال : فسمع المنصور كلامه ، فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة ، فقرأ ما فيها من الكتب وتلا هذه الآية (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويَسْعَوْنَ فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين) ثم أمر بإحضار الناس والقُوَّاد والموالى وأهل بيته وأصحابه ، وأمر حمادا التركى بإسراج الخيل ، وأمر سليمان ابن مجالد بالتقدم ، [والمسيب بن زهير فأخرج الأقوات] ثم خرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال:

مالى أكفكف عن سعد ويشتمنى   وإن شتمت بنى سعد لقد سكنوا ؟
جهلا علينا وجُبْناً عن عدوهم   لبئست الخَصْلَتَان الجهلُ والجُبُنُ

أما والله لقد عجزوا عن أمرٍ قمْنَا له ، فما شكروا [القائم] ولا حمدوا الكافى ، ولقد مهدوا فاستوعروا ، وغبطوا فغمطوا ، فماذا تحاول منى ؟ أسقى رنقاً على كدر ؟ كلا والله ، لأن أموت معززاً أحب إلى [من] أن أحيا مستذلا ، ولئن لم يرض العفو منى ليطلبَنَّ مالا يوجد عندى ، والسعيد من وعظ بغيره ، ثم نزل ، فقال : ياغلام ، قدم ، فركب من فوره إلى معسكره ، وقال : اللهم لا تَكِلْنَا إلى خلقك فنضيع ، ولا إلى أنفسنا فنعجز [فلا تكلنا إلا إليك].

وذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها ، فقال : أراد إبراهيم [أن] يحرمنى هذا وأشْبَاهَه .

وذكر [أن] المنصور قال يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وإبراهيم : تالله ما رأيتُ رجلا أنصح من الحجاج لبنى مروان ، فقام المسيب بن زهير الضبى : يا أمير المؤمنين ماسبقَنَا الحجاج بأمر تخلّفْنَا عنه ، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرتَنَا بقتل أولاده فأطعناك ، وفعلنا ذلك ، فهل نصحناك أم لا ؟ فقال له المنصور : اجلس لا جلست.

وقد ذكرنا أنه كان قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على

Marfat.com

رضى الله عنه [ومحمد وإبراهيم ابنى عبد الله] وعلى كثير من أهل بيته ، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة فى مُنْصَرَفِهِ من الحج ، فحملوا من المدينة إلى الربَذَةِ من جادَّةِ العراق ، وكان ممن حمله مع عبد الله بن الحسن إبراهيمُ بن الحسن بن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن ، وعلى الخير ، وأخوه العباس ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن [والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن] ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن على ، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجرد المنصور بالربَذَةِ محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان فضربه ألف سوط ، وسأله عن ابنَيْ أخيه محمد وإبراهيم ، فأنكر أن يعرف مكانهما ، فسألت جدته العثمانى فى ذلك الوقت ، وارتحل المنصور عن الربذة وهو فى قبة ، وأوهن القوم بالجهد(1) ، فحملوا على المحامل المكشوفة ، فمر بهم المنصور فى قبته على الجمازة فصاح به عبد الله بن الحسن : يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر ، فصيرهم إلى الكوفة ، وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وخَلَّى منهم سليمان وعبد الله ابنَيْ داود بن الحسن ابن الحسن وموسى بن عبد الله بن الحسن والحسن بن جعفر ، وحبس الآخرين ممن ذكرنا[هم] حتى ماتوا ، وذلك على شاطئ الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة ، ومواضعهم بالكوفة تُزَار فى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وكان قد هدم عليهم الموضع ، وكانوا يتوضئون فى مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة ، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل إليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة ، وكان الورم [يبدو] فى أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه وذكر [من وجه آخر] أنهم لما حبسوا فى هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة فجزؤا القرآن خمسة أجزاء ، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كلِّ واحد منهم من حزبه ، وكان عدد من بقى منهم خمسة ، فمات إسماعيل بن الحسن ، فترك عندهم حتى جَيَّف ، فصعق داود بن الحسن فمات ، وأتى برأس إبراهيم بن عبد الله

(1) فى ا « وأوثق القوم فى الحديد »

فوجه به المنصور مع الربيع إليهم ، فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلى فقال له إدريس أخوه : أسرع فى صلاتك يا أبا محمد ، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه فى حجره وقال له : أهلا وسهلا يا أبا القاسم ، والله لقد كنت ماعلمتُك من الذين قال الله عز وجل فيهم : (الذين يوفُونَ بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يَصِلُون ما أمر الله به أن يوصل ــ إلى آخر الآية) فقال له الربيع : كيف أبو القاسم فى نفسه ؟ قال : كما قال الشاعر :

فتًى كان يحميه من الذل سَيْفه ويكفيه أن يأتى الذنوبَ اجْتِنابها(١)

ثم التفت إلى الربيع فقال [له] : قل لصاحبك قد مضى من [بؤسنا أيام ، ومن نعيمك] أيام ، والملتقى يوم القيامة ؛ قال الربيع : فما رأيت المنصور قطُّ أشد انكساراً منه فى الوقت الذى بلغته فيه هذه الرسالة ، فأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف فقال :

فإن تلحظى حالى وحالَكِ مَرَّةً بنظرة عين عن هَوَى النفس تحجب

تَرَى كل يوم مَرَّ من بؤس عيشتى تمر بيوم من نعيمك يُحْسب

قال المسعودى : ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن و [إخوته والنفر الذين كانوا معه من] أهل بيته صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل خُرَاسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا ، إن ولد ابن أبى طالب تركناهم والذى لا إلهَ إلا هو والخلافةَ فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه فما أفلح ، وحكم الحكمين ؛ فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة ، ثم وَثَبَ عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودَسَّ إليه معاوية إنى أجعلك ولىَّ عهدى ، فخلعه وانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل

(١) فى ا « ويكفيه سوآت الذنوب اجتنابها » .

Marfat.com

الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن ، أهل هذه المَدَرَة السوء ، وأشار إلى الكوفة ، فوالله ما هى لى بحرب فأحاربها ، ولا هى لى بسلم فأسالمها ، فرق الله بينى وبينها ! فخذلوه وأرؤوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن على فخدَعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسْلَمُوه ، وقد كان أبى محمد بن على ناشده الله فى الخروج ، وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة فإنا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصْلَبُ بالكُنَاسه ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمى داود وحَذّره رحمه الله غَدْرَ أهل الكوفة . فلم يقبل ، وتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكُنَاسة ، ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كان لهم عندنا تِرَةٌ يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشَّرَاة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم ، [يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل] وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا [أمرناو] ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصارهُ ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبُوا علينا حسداً منهم لنا وبغياً علينا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبناً من بنى أمية ، وجراءة علينا ، إنى والله يا أهل خراسان ما أتيت ما أتيت من هذا الأمر من جهالة [ولا عن ظنة] ولقد كنت يبلغنى عنهم بعض السقم ولقد كنت سميت لهم رجالا فقلت : قم أنت يا فلان ، فخذ معك من المال كذا وكذا ، وقم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوا المدينة فلقوهم فدسوا ذلك المال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم لى ، فاستحللت به دماءهم ، وحلّت عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على ؛ ثم قرأ فى درج المنبر (وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب)

Marfat.com

بين المنصور والربيع

قال المسعودى: وقال المنصور للربيع يوماً: اذكر حاجتك، قال: يا أمير المؤمنين، حاجتى أن تحب الفضل [ابنى] فقال له: ويحك!! إن المحبة إنما تقع بأسباب، قال: يا أمير المؤمنين، قد أمكنك الله من إيقاع السبب، قال: وما ذاك؟ قال: تُفضِل عليه، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك، وإذا أحبك أحببته [قال: والله قد أحببته قبل إيقاع السبب، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شىء؟ قال: لأنك] إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجته إليك كحاجة الشفيع العريان.

وقال المنصور يوما للربيع: ويحك يا ربيع!! ما أطيب الدنيا لولا الموت، قال له: ما طابت إلا بالموت، قال: وكيف ذلك؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد، قال: صدقت.

بين المنصور وعمرو بن عبيد

وذكر إسحاق بن الفضل قال: بينا أنا على باب المنصور إذ أتى عمرو بن عبَيْدٍ فنزل عن حماره، وجلس، فخرج إليه الربيع، فقال له: قم أبا عثمان، بأبى أنت وأمى؟. فلما دخل على أبى جعفر أمر أن تفرش له لُبُود بقربه، وأجلسه إليه بعد ما سلم، ثم قال: يا أبا عثمان، عِظْنِى بموعظة، فوعظه بمواعظ، فلما أراد النهوض قال: أمرنا لك بعشرة آلاف، قال: لا حاجة لى فيها، قال أبو جعفر: والله لتأخذَنّهَا، قال: لا والله لا آخذها، وكان المهدى حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو إلى أبى جعفر فقال: مَنْ هذا الفتى؟ قال: هذا محمد ابنى، وهو المهدىُّ، وهو ولىُّ عهدى، قال: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، ولقد سميته باسم ما استحقّه عملا، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه، ثم أقبل عمرو على المهدى فقال: نعم يا ابن أخى، إذا حلف أبوك أحْنَثَه عمك؛ لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك، فقال له المنصور: هل لك من حاجة يا أبا عثمان؟ قال: نعم، قال: ما هى؟ قال: أن لا تبعث إلىّ حتى آتيك، قال: إذاً لا نلتقى، قال: هى حاجتى، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه، ثم قال:

Marfat.com

كلكم يَمْشِي رُوَيْدْ كلكم يطلب صَيْدْ
غير عمرو بن عُبَيْدْ

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد مابايع للمهدى ، فقال له: يا أباعثمان هذا ابن أمير المؤمنين ، وولىُّ عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطَّدْتَ له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ، فاستعبر المنصور وقال له: عظنى يا عمرو ، قال: ياأمير المؤمنين ، إن الله [قد] أعطاك الدنيا بأسرها، فاشْتَرِ نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى [أصبح] فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ، وأنشد :

يا أيها ذا الذى قد غرَّهُ الأمل ودون ما يأمل التنغيص والأجل
ألا ترى إنما الدنيا وزينتها كمنزل الركب حلُّوا ثُمَّتَ ارتحلوا
حُتُوفها رَصَدٌ ، وعيشها نكد وصفوها كدر ، وملكها دُوَلُ
تظل تقرع بالروعات ساكنها فما يسوغ له لين ولا جذل
كأنه للمنايا والرَّدَى غَرَضٌ تظل فيه بنات الدهر تنتضل
والنفس هاربة ، والموت يَرْصُدُها وكل عثرة رِجْلٍ عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه والقبر وارث مايسعى له الرجل

موت عمرو ابن عبيد

ومات عمرو بن عبيد فى أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائة [وقيل : سنة خمس وأربعين ومائة] ويكنى أبا عثمان ، وهو عمرو بن عبيد بن باب، مولى بنى تميم ، وكان جده باب من سَبْى كابل من رجال السند ، وكان شيخ المعتزلة [فى وقته] ومفتيها ، وله خُطَب ورسائل ، وكلام كثير فى العدل والتوحيد وغير ذلك . وقد أتينا على أخباره والغرر من كلامه ومناظراته فى كتابنا فى المقالات فى أصول الديانات] .

وفى سنة إحدى وأربعين ومائة شخص المنصور إلى بيت المقدس فصلَّى فيه لنذر كان عليه وانصرف .

موت هشام ابن عروة

وفى سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة [بن الزبير] وهو ابن خمس

Marfat.com

وثمانين ، وكان إذا أسمعه رجل كلاماً قال: أنا أرفع نفسي عنك ، ثم نازع على بن الحسن ، فأسرع إليه هشام ، فقال له على : إنى أدعوك إلى ما كنت تدعو إليه .

موت أبى حنيفة النعمان وجماعة

وفى سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى تَيْم اللات من بكر بن وائل فى أيام المنصور ببغداد ، توفى وهو ساجد فى صلاته ، وهو ابن تسعين سنة (١) [وفيها مات عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج المكىُّ ، مولى خالد ابن أسيد، ويكنى أبا الوليد، وهو ابن سبعين سنة ، وفيها مات محمد بن إسحاق بن يَسَار مولى قيس بن مَخْرَمَة من بنى المطلب ، ويكنى أبا عبد الله . ويقال : مات سنة إحدى ، ويقال : سنة اثنتين وخمسين ومائة] .

وفى سنة سبع وخمسين مات الأوزاعى ، ويكنى أبا عمرو عبد الرحمن بن عمرو من أهل الشام ، وإنما كان منزله فيهم — أعنى الأوزاع — ولم يكن منهم ، وذلك بدمشق [فأضيف إليهم ، وكان من سبى أهل اليمن] فى آخر أيام المنصور ، وله تسعون سنة (١) .

[وفى أيام المنصور مات ليث بن أبى سُلَيم الكوفى ، مولى عَنْبَسة بن أبى سفيان ، سنة ثمان وخمسين ومائة] وفى سنة ست وخمسين ومائة مات سَوَّار بن عبد الله القاضى ، وفى سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو ابن العلاء فى أيام المنصور .

مقتل عبد الله ابن على ، عم المنصور

وطال حبس عبد الله بن على بأمر المنصور ، وأقام فى محبسه تسع سنين ، [وقيل غير ذلك] فلما أراد المنصور الحجَّ فى سنة تسع وأربعين ومائة حَوَّله من عنده إلى عيسى بن موسى ، وأمره بقتله ، وأن لا يعلم بذلك أحداً ، فبعث عيسى ابن موسى إلى ابن أبى ليلى وابن شبرمة ، فشاورهما فى ذلك ، فقال ابن [أبى ليلى: امض بما أمرك به أمير المؤمنين ، وقال ابن] شبرمة : لا تفعل ، فأبى أن يقتله ، وأظهر لأبى جعفر أنه قتله ، وشاع ذلك ؛ فكلم بنو على [المنصورَ] فى أخيهم عبد الله ، فقال لهم : هو عند عيسى بن موسى ، فلما قدموا مكة أتوا عيسى بن موسى فسألوه عنه؛ فقال : قد قتلته ، فرجعوا إلى أبى جعفر ، فقالوا: زعم عيسى أنه قد قتله، فأظهر أبو جعفر الغضب على عيسى، وقال: يقتل عمى؟ والله لأقتلنه ،

(١) فى ا « وهو ابن سبعين سنة » وهو أقرب .

Marfat.com

وكان أبو جعفر أحبَّ أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعاً ، قال : فدعا به ، فقال : لِمَ قتلت عمى ؟ قال : أنت أمرتنى بقتله ، قال : لم آمرك بذلك ، فقال : هذا كتابُكَ إلىَّ فيه ، قال : لم أكتبه ، فلما رأى الجدَّ من المنصور ، وتخوف على نفسه قال : هو عندى لم أقتله ، قال : ادفعه إلى أبى الأزهر المهلب بن أبى عيسى ، فدفعه إليه ، فلم يزل عنده محبوساً ، ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ومعه جارية له فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ، ثم مَدَّهُ عَلَى الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها فقالت : ياعبدالله ، قِتْلَةَ غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : مارحمت أحداً قتلته غيرها ، فصرفت وجهى عنها ، وأمرت بها نخنقت ، ووضعتها معه على الفراش ، وأدخلت يدها تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين ، ثم أمرت بالبيت فهدم عليهما، ثم أحضرنا القاضى ابن علاثة وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية معتنقين على تلك الحال ، ثم أمر به فدفن فى مقبرة أبى سويد بباب الشام من بغداد فى الجانب الغربى .

قال المسعودى : وذكر عبد الله بن عياش المنتوف قال : قال المنصور يوماً ونحن عنده : أتعرفون جباراً أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين ، وجباراً أول اسمه عين ؟ قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال المنصور : أفتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين ، وجباراً أول اسمه عين ، وجباراً أول اسمه عين ؟ قلت : نعم ، أنت يا أمير المؤمنين ، قتلت عبد الرحمن بن مسلم ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن ، وعمك عبدالله ابن على سقط عليه البيت ، قال : فما ذنبى إن كان سقط عليه البيت ؟ قلت: لا ذنب لك ، فتبسم ثم قال : هل تحفظ الأبيات التى قالتها زوجة الوليد ابن عبد الملك أُخت عمرو بن سعيد حين قتل عبد الملك أخاها ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين،خَرَجَتْ فى اليوم الذى قتل فيه أخوها عمرو وهى حاسرة تنشد :

Marfat.com

أيا عين جودي بالدموع على عمرو | عَشِيَّةَ يُبْتَزُّ الخلافةَ بالقهر
غدرتم بعمرٍو يابنى خيط باطلٍ | وكلكم يبنى البيوت على غَدْرِ
وما كان عمرو عاجزاً ، غير أنه | أتته المنايا بَغْتَةً وَهْوَ لا يدرى
كأن بنى مروان إذ يقتلونه | خَشَاشٌ من الطير اجتمعن على صَقْرِ
لحى الله دنيا تعقب النار أهلها | وتهتك ما بين القرابة من ستر
ألا يا لقومى للوفاء وللغدر | وللمُغْلِقِينَ الباب قَسْراً على عمرو
فرُحْنَا وراح الشامتون عَشِيَّةً | كأن على أعناقهم فلق الصخر

قال ابن عياش : فقال المنصور : فما الأبيات التى بعث بها عمرو بن سعيد إلى عبد الملك بن مروان ؟ قال : قلت: نعم يا أمير المؤمنين كتب إليه :

يريد ابْنُ مروان أموراً أظنها | ستحمله منى على مركب صَعْبِ
لينقض عهداً كان مروان شَدَّه | وأدرك فيه بالقطيعة والكذب
فقدمته قبلى ، وقد كنت قبله | ولولا انقيادى كان كرب من الكرب
وكان الذى أعطيت مروان هفوةً | غلبت بها رأياً ، وخَطْباً من الخطب
فإنْ تُنْفِذُوا الأمر الذى كان بيننا | فَقُلْنَا جميعاً بالسُّهُولة والرَّحْبِ
وإنْ يُعْطِهَا عَبْدُ العزيز ظُلاَمَةً | فأوْلَى بها مِنَّا ومنه بنو حَرْبِ

وفاة المنصور

وكان مولد المنصور فى السنة التى مات فيها الحجاج بن يوسف ، وهى سنة خمس وتسعين ، وكان يقول : ولدت فى ذى الحجة ، وأعذرت فى ذى الحجة ، ووليت الخلافة فى ذى الحجة ، وأحسب المنية تكون فى ذى الحجة ، فكان كما ذكر .

وحدث الفضل بن الربيع قال : كنت مع المنصور فى السفر الذى مات فيه فنزل منزلا من المنازل ، فبعث إلىَّ وهو فى قبة ووجْهه إلى الحائط ، فقال لى : ألم أنْهَكَ أن تَدَعَ العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبوا فيها مالاخير فيه ؟ قلت : وماهو ياأمير المؤمنين ؟ قال : أما ترى على الحائط مكتوباً .

أبَا جعفرٍ حانَتْ وفاتكَ ، وانقضَتْ | سِنُوكَ ، وأمْرُ الله لا بُدَّ نَازِلُ

Marfat.com

أبا جعفر ، هل كاهنٌ أو مُنَجِّمٌ يردُّ قضاء الله ، أم أنت جاهل ؟

قال : قلت : والله ما أرى على الحائط شيئاً ، وإنه لنقىٌّ أبيض ، قال : والله ، قلت : الله ، قال : إنها والله إذاً نفسى نعيت إلى الرحيل ، بادر بى إلى حَرَمِ ربى وأمنِهِ هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى . فرحلنا وقد ثقل ، حتى إذا بلغنا بئر ميمون ، قلت له : هذه بئر ميمون ، وقد دخلت الحرم [قال : الحمد لله] فتوفى بها .

صفات المنصور وكان [المنصور] من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وكان كما قال زياد : لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام مَنْ لا يملك غيره ، وخاف أبو جعفر ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرءوس والأكارع والجلود ، وعليه الحطب والتوابل ، ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة فى يوم واحد بعشرة آلاف درهم ، وأسماؤهم : عبد الله بن على ، وعبد الصمد بن على ، وإسماعيل بن على ، وعيسى بن على ، وداود بن على ، وصالح بن على ، وسليمان بن على ، وإسحاق بن على ، ومحمد بن على ، ويحيى بن على ، وكان يعمل فى بناء مدينة بغداد التى بناها وعرفت به فى كل يوم خمسون ألف رجل .

أولاده وكان له من الولد : المهدى وجعفر ، وأمهما أم موسى الحميرية ، وتوفى جعفر فى حياة أبيه المنصور ، وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الأصغر ، من كردية ، وصالح الملقب بالمسكين ، وبنت تسمى عالية .

قال المسعودى : وللمنصور أخبار حسان مع الربيع وعبد الله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم ، وله خطب ومواعظ وسير وسياسات فى الملك ، قد أتينا على أكثرها فى كتابنا أخبار الزمان [والأوسط] ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً تدلُّك على ما سبق فى كتبنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

Marfat.com

ذكر خلافة المهدى محمد بن عبد الله بن محمد بن على

ابن عبد الله بن العباس

موجز

ويكنى أبا عبدالله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبدالله بن [ذى][1] سهم بن أبى سَرْح ، من ولد ذى رُعَيْنٍ من ملوك حِمْيَر .

أخذ له البيعة بمكة الرَّبيعُ مولاه يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ، وأتاه بنعى أبيه وبيعته منارةُ مولاه ، فأقام يومين بعد ذلك ، ثم خطب الناس [فنعى أباه ودعا إلى بيعته] وبويع بيعة العامة ، وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة ، وخرج من مدينة السلام فى سنة تسع وستين[2] ومائة يريد بلاد قرماسين من بلاد الدِّينَوَرِ ، وقد وصف له طيب ماسبذان من بلاد السيروان وجرجان ، فعدل إلى الموضع المعروف بأرزن والران ، فمات بقرية يقال لها ردين ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين[2] ومائة ، فكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً ، وقبض وله ثلاث وأربعون سنة ، وصلى عليه هرون الرشيد ، وكان موسى الهادى غائباً بجرجان ، وقيل : إنه مات مسموماً فى قطائف أكلها ، ولبست حُسنة [جاريته] وغيرها من حَشَمه المسوحَ والسواد جزعا عليه ، فقال فى ذلك أبو العتاهية :

رُحْنَ فى الوَشْىِ وأصبحـــنَ عليهنَّ المسُوحُ
كل نَطَّاح وإن عا ش ، له يوماً نَطُوحُ
لستَ بالباقى ولو عُمِّـــرْتَ ما عُمِّرَ نوحُ
فعَلَى نفسكَ نُحْ إن كنت لا بُدَّ تنوحُ

---

(١) فى ب « بن سهم بن أبى سرح » .

(٢) فى ب « سبع وستين » وليس يلتئم مع الإحصاء .

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه

المهدى وشريك القاضى

ذكر الفضل بن الربيع قال : دخل شريك [القاضى] على المهدىّ يوماً ، فقال له: لابد أن تجيبنى إلى خَصْلَة من ثلاث [خصال] قال : وماهن يا أمير المؤمنين ؟ قال : إما أن تلى القضاء ، أو تحدِّثَ وَلَدِى وتعلمهم ، أو تأكل عندى أكلة ، ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل ، فلما فرغ من غَدَائه قال له القيم على المطبخ : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً ، قال الفضل بن الربيع : فحدثهم والله شريكٌ بعد ذلك ، وعَلّم أولادهم ، وولى القضاء لهم ، ولقد كتب بأرزاقه إلى الجهبذ فضايقه فى النقص ، فقال له الجهبذ : إنك لم تبع بزاً ، قال له شريك : بلى والله لقد بعت أكبر من البز ، لقد بعت دينى .

المهدى وعمرو ابن الربيع يجوعان فى طريقهما للصيد

وقال الفضل بن الربيع : خرج المهدى متنزهاً ومعه عمرو بن ربيع مولاه، وكان شاعراً ، فانقطع عن العسكر ، والناس فى الصيد ، وأصاب المهدىَّ جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك ! ارتَدْ لى إنساناً نجد عنده ما نأكل ، فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحب مَبْقَلة وإلى جانبها كوخ له ، فصعد إليه فقال له : هل عندك شىء يؤكل؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير ورثيثة[1] ، وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدى : إن كان عندك زيت فقد أكملت ، قال : نعم ، عندى فضلة منه ، فقدم إليهما ذلك ، فأكلا أكلا كثيراً ، وأمعن المهدى حتى لم يبق فيه فصلة ، فقال لعمرو : قل شعراً تصف به ما نحن فيه ، فقال عمرو :

إنَّ من يُطْعِمُ الرثيثة بالزيـ ـت وخُبْزَ الشعير بالكُرَّاث
لحقيقٌ بصَفْعَةٍ أو بثنتـ ـين لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى : بئس والله ما قلت ، ولكن أحسن من ذلك :

لحقيقٌ ببدرة أو بثنتـ ـين لحسن الصنيع أو بثلاث

(١) فى ب « وزبيب » وكذا فى أول البيتين ، وفى ا « وربيث » وكلاهما تحريف ، والرثيثة : اللبن الحامض يخلط بالحلو .

Marfat.com

ووافى العسكر ، ولحقته الخزائن والخَدَمُ والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بِدَرٍ دراهم .

ومرة أخرى يجوع المهدى فى طريقه للصيد

قال : وعار[(١)] بهفرسُهمرةأخرى ، وقد خرج للصيد ، فدفع إلى خِبَاء أعرابى وهو جائع ، فقال: ياأعرابى هل عندك قِرًى فإنى ضيفك؟ قال: أراك [طريرا][(٢)] جسيما عميا ، فإن احتملت [الموجود][(٢)] قَرَّبْنَا لك ما يحضرنا ، قال : هات ماعندك [فأخرج له خبز مَلَّةٍ ،فأكلها،وقال: طيبة، هات ماعندك ، فأخرج إليه لبناً فى كرش فسقاه،فشرب ، وقال :طيب ، هات ماعندك][(٢)] فأخرج له فضلة نبيذ فى ركوة ، فشرب الأعرابى واحداً وسقاه ، فلما شرب قال المهدى :أتدرى من أنا؟ قال: لا والله ، قال: أنا من خدم الخاصة ، قال : بارك الله فى موضعك وحَيَّاك من كنت ، ثم شرب الأعرابى قدحاً وسقاه ، فلماشرب قال له :ياأعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ذكرت أنك من خدم الخاصة ، قال : لست كذلك قال :فمن أنت ؟ قال: أنا أحد قُوَّاد المهدى، قال :رَحُبَتْ دارك،وطاب مزارك، ثم شرب الأعرابى قدحاً وسقاه ، فلماشرب الثالث قال: يا أعرابى،أتدرى من أنا ؟ قال: نعم ، زعمت أنك أحد قُوَّاد المهدى،قال: فلست كذلك [قال: فمن أنت؟] قال: أمير المؤمنين [بنفسه][(٢)] ، فأخذ الأعرابى ركوته فوكاها،فقال له المهدى : اسقنا ، قال: لا والله لاتشرب منها جرعة فما فوقها ،قال: ولم ؟ قال : سقيتك قدحاً[(٣)] فزعمت أنك من خدم الخاصة ، فاحتملناها لك،ثم سقيناك آخر فزعمت أنك أحد قُوَّاد المهدى [فاحتملناها لك][(٢)] ،ثم سقيناك الثالث فزعمت أنك أمير المؤمنين ، ولا والله ما آمَنُ أن أسقيك الرابع فتقول : إنك رسول الله، فضحك المهدى ، وأحاطت به الخيل ، فنزل إليه أبناء الملوك والأشراف،فطار قلب الأعرابى ، فلم يكن همه إلا النجاة [بنفسه ، وجعل يشتد فى عَدْوه] فقال له المهدى : لا بأس عليك ، وأمر له بصلة [جزيلة من مال] وكسوة وبزة وآلة ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة والخامسة لخرجت منها،فضحك

---

(١) فى ا « وغاربه » . (٢) الزيادة عن ا . (٣) فى ا «سقيتك واحدا » .

Marfat.com

المهدى منه حتى كاد أن يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة والخامسة ، وجعل له رزقاً ، وألحقه بخواصه[1] .

وزراء المهدى

وكان وزيره أبو عبيدالله[2] معاوية بن عبدالله الأشعرى ، وهو جد محمد ابن عبد الوهاب [الكاتب] وكان كاتبه قبل الخلافة ، فقتل المهدى ابناً لأبى عبيد الله[3] على الزندقة ، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه [فعزله] وعاش أبو عبيد الله[4] إلى سنة سبعين ومائة ، ثم اختص المهدى يعقوب بن داود السلمى ، وخرج كتابه على الدواوين : إن أمير المؤمنين قد آخاه ، وكان يصل إليه فى كل وقت دون الناس كلهم ، ثم اتّهمه بشىء من أمر الطالبيين ، فَهَمّ بقتله ، ثم حبسه [فبقى فى حبسه] إلى أيام الرشيد ، فأطلقه الرشيد ، وقد قيل فى أمره : إنه كان يرى الإمامة فى الأكبر من ولد العباس ، وأن غير المهدى من عمومته كان أحَقّ بها منه .

خصال المهدى وأعماله

وكان المهدى محبباً إلى الخاص والعام؛ لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم[3] ، والكف عن القتل ، وأمْنِ الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبَسْطِ يده فى الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، سوى ما جباه فى أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة النهرى[4] خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه ، وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فُرّغ؟ ففرق المهدى عشرين خادماً فى جباية الأموال[5] ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة [النهرى بقبضها وتصحيحها] عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام فلما دخل عليه قال : ما أخّرك ؟ فقال : الشغل بتصحيح الأموال ، فقال : أنت أعرابى أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا إذا احتجنا إليها ، قال أبو حارثة : إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجّهَ فى استخراج الأموال وحملها ، وقيل : إنه فرّق فى عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف [ألف] درهم ، فعند ذلك قام

(١) فى ا «وضمه فى خواصه وأجرى له رزقا» .

(٢) فى ب «أبو عبد الله»

(٣) فى ا «برد المظالم» .

(٤) فى ب «أبو حارثة الهندى» .

(٥) فى ا «فى استحثاث الأموال»

Marfat.com

شبة بن عقال على رأسه خطيباً فقال : وللمهدى أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه[1] ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه.

الخيزران وامرأة مروان ابن محمد

وكانت الخيزران أم الهادى والرشيد فى دارها المعروفة [اليوم] بأشناس[2] ، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات [بنى] هاشم ، وهى على بساط أرمنى وهُنَّ على نمارق أرمنية ، وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبة ، فبينماهن كذلك إذ دخل خادم لها فقال: بالباب امرأة ذات حسن وجمال فى أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن، وتروم الدخول عليكن، وقد كان المهدى تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على ، وقال لها: اقتبسى من آدابها ، وخذى من أخلاقها؛ فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا ، فقالت الخيزران للخادم: ائذن لها ، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال فى أطمار رَثَّةٍ ، فتكلمت فأوضحت عن بيان [على لسان] فقالوا لها : من أنت ؟ قالت : أنا مزنة[3] امرأة مروان بن محمد، وقد أصار نى الدهر[4] إلى ماتَرَيْنَ، ووالله ما الأطمار [الرثة] التى علىَّ إلا عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالة كانت، حتى تأتى دعوة مَنْ له الدعوة ، فاغرورقت عَيْنَا الخيزران ونظرت إليها زينب بنت سليمان بن على، فقالت [لها] : لا خَفَّفَ الله عنك يامزنة[1] ، أتذكرين وقد دخلْتُ عليك بحَرَّانَ وأنت على هذا البساط بعينه ، [ونساء قرابتكم على هذه النمارق] فكلمتك فى جُثَّة إبراهيم الإمام، فانتهرتِنى وأمرتِ بإخراجى ، وقلت : ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم ؟

(١) فى ا «صدامته ومضاه» وربما كان الأصل صرامته (٢) فى ب «بأساس»
(٣) فى ب «مزينة» (٤) فى ا «وقد صار بى الدهر» .

Marfat.com

فوالله لقد كان مروان أرْعى للحق منك ؛ لقد دخلْتُ إليه فحلف أنه ما قتله، وهو كاذب ، وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع إلى جثته [فاخترت جثته] وعَرَضَ علىَّ ما لا فلم أقبله ؛ فقالت مزنة : والله ما نظن هذه الحالة أدتنى إلى ما ترينه إلا بالفعال التى كانت منى؛ وكأنك استحسنته فحرَّضْتِ الخيزران على فعل مثله، إنما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر ؛ لتحرز بذلك نعيمها ، وتصون بها دينها ؛ ثم قالت لزينب : يا بنت عم ؛ كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق فأحببت[1] التأسِّىَ بنا ؛ ثم وَلَّتْ باكية [وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها] فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها إلى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها ، فلما دخل المهدى عليها — وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية — قَصَّتْ عليه الخيزران قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالها ، فدعا بالجارية التى ردتها ؛ فقال لها : لما رَدَدْتِها[2] إلى المقصورة ما الذى سمعتها تقول ؟ قالت : لحقتها فى الممر الفلانى وهى تبكى فى خروجها مؤتسية وهى تقرأ (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ؛ ثم قال للخيزران : والله والله لو لم تفعلى بها ما فعلت ما كلمتك أبداً ، وبكى بكاء كثيراً ، وقال : اللهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة ؛ وأنْكَرَ فعل زينب ، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت ألا أكلمها ؛ ثم بعث إليها بعض الجوارى إلى مقصورتها التى أخليت لها ، وقال للجارية : اقرئى عليها السلام [منى] وقولى لها يا بنت عم إن أخَوَاتِكِ قد اجتمعن عندى ؛ ولولا أنى أغمك لجئناك ؛ فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدى ؛ وقد حضرت زينب بنت سليمان ؛ فجاءت

(١) فى ا « فاجنبت التأسى بنا » محرفا .

(٢) فى ب « رددتيها » بإشباع كسرة التاء حتى تولد منها ياء ، وهو وجه فى العربية

مزنة تسحب أذيالها ؛ فأمرها بالجلوس ؛ ورحَّب بها [واستدناها] ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على ، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم ، وأيام الناس ، والدول وتنقلها ، فما تركت لأحد فى المجلس كلاماً ، فقال لها المهدى : يا بنت عم ، والله لولا أنى لا أحبُّ أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئاً لتزوجتك ، ولكن لا شىء أصْوَنُ لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى : لك مالهن ، وعليك ما عليهن ، إلى أن يأتيك أمر مَنْ له الأمر فيما حكم به على الخلق ، ثم أقْطَعَها مثل مالهن من الإقطاع وأخدمها وأجازها ، فأقامت فى قصره إلى أن قبض[1] المهدى وأيام الهادى وصَدْراً من أيام الرشيد ، وماتت فى خلافته ، لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم [وخواص حرائرهم وجواريهم] فلما قُبِضَتْ جزع الرشيد والحرم[2] جزعا شديداً .

عبد الله بن عمرو بن عتبة يعزى المهدى ويهنئه

وحدثنا الرياشى عن الأصمعى : دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى يعزيه بالمنصور ، فقال : آجَرَ الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خَلَّفه فيه ، ولا مصيبة أعظم من [فقد] إمام والد ، ولا عُقْبى أجل من خلافة الله على أولياء الله ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين [من الله أفْضَلَ] العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية .

عتبة الجارية وأبو العتاهية

ولما كثر تَشْبِيبُ أبى العتاهية بعتبة جارية الخيزران شكت إلى مولاتها ما يَلْحَقُهَا من الشناعة ، ودخل المهدىُّ وهى تبكى بين يدى الخيزران ، فسألها عن خبرها ، فأخبرته ، فأمر بإحضار أبى العتاهية ، فأدخل إليه ، فلما وقف بين يديه قال : أنت القائل فى عتبة :

الله بينى وبين مولاتى أبْدَت لى الصَّدَّ والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صَدَّها عنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين [ما قلت ذلك بل] أنا الذى أقول :

---

(١) فى ب « إلى أن قضى المهدى » (٢) فى ب « والخدم » .

يا ناق حُثِّى بنــا ولا تَهِنِى نفسك فيما ترين راحات[1]

حتى تجيئى بنا إلى ملك توَّجَهُ الله بالمَهــــابات[2]

يقول للريح كلما عصفت : هل لك يا ريح فى مُبَارَاتِى

عليه تاجان فوق مَفْرِقِهِ تاج جمال وتاج إخْبَاتِ.

قال : فنكس [المهدىُّ] رأسه ، ونكت بالقضيب [الذى كان فى يده] ثم رفع رأسه فقال : أنت القائل:

ألا ما لسيدتى مالهـــــا أدلّتْ فأجْمِـــلَ إدلالها ؟

وجارية من جوارى الملو ك قد أسْكِنَ الحسنُ سربالها

[قال : وما علمك بما حواه سربالها ؟ فأجابه معارضاً له فيه :

أتته الخــــلافَةُ منقادةً إليــــــه تجرُّ أذيالها

فلم تك تَصْــلُحُ إلا له ولم يك يصلح إلا لها]

ثم سأله عن أشياء ، فأفحم أبو العتاهية [فى الجواب] ، فأمر المهدىُّ بجلده نحوا من حد ، وأخرج مجلوداً ، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال ، فقال :

بَخٍ بَخٍ يا عتب من أجلكم قد قَتَلَ المهدىُّ فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها ، وفاض دمعها ، وصادفت المهدىَّ عند الخيزران ، فقال : مالعتبة تبكى ؟ قالوا له : رأت أبا العتاهية مجلوداً ، وقال لها كيت وكيت ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، ففرقها أبو العتاهية على مَنْ [كان] بالباب ، فكتب صاحب الخبر بذلك ، فوجَّه إليه : ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ؟ قال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ، فوجَّهَ إليه بخمسين ألفاً أخرى ، وحلف عليه أن لا يفرقها ، فأخذها وانصرف .

من أبى العتاهية إلى المهدى

قال المبرد : أهدى أبو العتاهية إلى المهدىِّ فى يوم نوروز [أو مهرجان] برنية صينية فيها ثوب ممسَّك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدىُّ يكفيها

(١) فى ا «ياناق جدى بنا» (٢) فى ا «توجه الله بالكرامات» .

Marfat.com

إنى لأيأس منها ثم يُطْمِعنى   فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهمَّ أن يدفع إليه عتبة ، فقالت له : أمير المؤمنين ، مع حرمتى [وحق] وخدمتى تدفعنى إلى بائع جرار يكتسب بالشعر ؟ فبعث إليه : أما عتبة فلا سبيل لك إليها ، وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا ، فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب ، ويقول : إنما أمر لى بدنانير ، وهم يقولون : بدراهم ، فقالت : أما لو كنت عاشقاً لعتبة لشغلت عن العَيْن والوَرِقِ .

من طرف أبى العتاهية

وكان أبو العتاهية [وهو إسماعيل بن القاسم] بائع جرار ، وكان [من أسهل الناس لفظاً] وأقدرهم على وزن الكلام ، وكان حُلوَ الألفاظ ، حتى إنه يتكلم بالشعر [فى جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس] قد جعله شعراً ونثاراً .

واجتمع أبو نُوَاسٍ وجماعة ، فدعا أحدهم بماء فشرب ثم قال :

* عَذُبَ المـاء وطابا *

ثم قال : أجيزوا [فترددوا] فلم يحضر أحداً ما يجانسه فى سهولته وقرب مأخذه ، حتى جاء أبو العتاهية فقال : فيم أنتم ؟ فأعلموه وأنشدوه القسم ، فقال :

* حبذا المـاء شرابا *

ومن مختار شعره فى عتبة :

بالله يا حلوة العينين زورينى   قبل الممات ، وإلا فاستزيرينى
هذان أمران ، فاختارى أحبَّهما   إليك ، أو لا فداعى الموت يدعونى
إن شئت موتاً فأنت الدَّهْرَ مالكة   روحى ، وإن شئت أن أحيا فأحيينى (١)
يا عُتْبَ ما أنت إلا بِدْعَةٌ خلقت   من غير طين ، وخَلْقُ الناس من طين
إنى لأعجب من حب يقربنى   ممن يباعدنى عنــه ويُقْصينى
[لو كان ينصفنى مما كلفت به   إذا رضيت وكان النصف يرضينى] (٢)
[يا أهل ودىَ إنى قد لطفت بكم   فى الحب جهدى ولكن لا تبالونى] (٢)

(١) فى ا « إن شئت مت »

(٢) سقط هذا البيت من ا .

Marfat.com

[الحمد لله قد كنا نظنكمُ من أرحم الناس طراً بالمساكين](١)
أما الكثير فلا أرجوه منك، ولو أطْمَعْتِنِى فى قليل كان يكفينى

ومن مختار شعره فيها قوله :

ألا يا عتب يا قمر الرصافهْ ويا ذات الملاحة والنَّظَافهْ
رُزِقْتِ مودتى، ورزقتِ عطفى، ولم أرزق فديتك منك رَافَهْ
وصرتُ من الهوى دَنِفاً سقيماً صريعاً كالصريع من السُّلافه
أظَلُّ إذا رأيتك مستكيناً كأنك قد بعثتِ عَلَىَّ آفه

[ومما اخترناه من شعره واستحسنه ذوو الحجا قوله(١) :

ما أغفلَ الناسَ عن بلائى وعن عنائى وعن شقائى
يلومُنِى الناسُ فى حبيب والناس لا يعرفون دائى
يا لهف نفسى على خليل أصبح فى كفه شفائى
صيرنى حُبُّه غريباً فى غير أرض، ولا سماء
قد بلغ الجهد بى مَدَاه فما اصطبارى ؟ وما عزائى ؟
أنت بلائى، وأنت دائى وأنت تَدْرِينَ ما دَوَائِى
والله ما تُذْكَرِين إلا فاضت دموعى على ردائى
تبارك الله، ما دعاكم يا أهل وُدِّى إلى جفائى ؟
فأنتمُ الهمُّ فى صباحى وأنتم الهمُّ فى مسائى
إنى على ما لقيت منكم لعجَبٌ منكم بدائى
شَتَّان ما بينكم وبينى فى نصح حبى، وفى وفائى
منحتكم صَبْوتى وودى فكان ذا منكمُ جزائى](١)

وحدث المبرد محمد بن يزيد أن رَيْطَةَ بنة أبى العباس السفاح وجَّهت إلى عبدالله بن مالك الخزاعى فى شراء رقيق للعتق؛ وأمرت جاريتها عتبة — وكانت،

(١) سقطت هذه القطعة كلها من ب .

لها ثم صارت إلى الخيزران بعدها ـ أن تحضُرَ ذلك ، فإنها لجالسة إذ جاء أبو العتاهية فى زى متنسك فقال : جعلنى الله فداك ! ! أنا شيخ ضعيف كبير لا يَقْوَى على الخدمة ، فإن رأيت أعزك الله [أن تأمرى] بشرائى وعتقى فعلت مأجورة ، فأقبلت على عبد الله فقالت : إنى لأرى هيئة جميلة ، وضعفاً ظاهراً ، ولساناً فصيحاً ، ورجلاً بليغاً ، فاشتره وأعتقه، فقال: نعم ،فقال أبو العتاهية : أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يدك [شكراً لك على جميل فعلك وما أوليتنى] فأذنت له ، فقَبَّلَ يدها وانصرف ، فضحك عبد الله بن مالك ، وقال : أتدرين مَنْ هذا ؟ قالت : لا ، قال : هذا أبو العتاهية ، وإنما احتال عليك حتى قَبَّلَ يدك] فَسَتَرَتْ وجهها خجلا ، وقالت : سَوْأَة لك يا أبا العباس ، أمثلك يعبث ؟ إنما اغتررنا بكلامك ، وقامت فلم تَعُدْ إليه .

ولأبى العتاهية أشعار حسان سنذكرها فى أخبار مَنْ يرد من الخلفاء ، [وسنذكر لمعاً من أخباره وما استحسناه من أشعاره وذكر وفاته] ولو لم يكن لأبى العتاهية سوى هذه الأبيات التى أبان فيها عن صدق الإخاء ومحض الوفاء [لـكان مبرزاً على غيره ، ممن كان فى عصره] وهى :

إنَّ أخاك الصِّدْقَ من كانَ معك ... ومن يَضُرُّ نفسه لينفعك
ومن إذا رَيْبُ الزمان صدعك ... شَتَّتَ شمل نفسه كى يجمعك(١)

وهذه الصفة فى عصرنا معدومة ، ومستحيل وجودها ، ومتعذر كونها [ومتعسر رؤيتها] .

محمد المهدى والشرقى بن القطامى

وروى ابن عياش [وابن دأب] أن المنصور كان قد ضم الشَّرْقِى بن القَطَامى إلى المهدى ، حين خَلَّفَه بالرى ، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب ، ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار ، فقال له المهدى ذات ليلة : يا شرقى أرِحْ قلبى بشىء يُلْهِيه ، قال : نعم أصلح الله الأمير ، ذكروا أنه كان فى ملوك الحيرة ملك له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مَسكِينة(٢)، وكانا

(١) فى ا «شتت فيك شمله ليجمعك »وهو المحفوظ (٢) فى ا« منزلة نفسه »

Marfat.com

لا يُفارِقانِه فى لهوه [وأنسه] ومنامه ويقظته ، [ومُقامه وظعنه] وكان لا يقطع أمراً دونهما ، ولا يصدر إلا عن رأيهما ، فغبر بذلك دهراً طويلا ، فبينا هو ذات ليلة فى شربه ولهوه إذ غلب عليه الشرابُ فأزال عقله ، فدعا بسيفه وانتضاه ، وَشَدَّ عليهما فقتلهما ، وغلبته عيناه فنام ، فلما أصبح سأل عنهما ، فَأُخْبِرَ بما كان منه ، فَأَكَبَّ على الأرض عاضا لها تأسفاً عليهما وجزعاً[(1)] لفراقهما ، وامتنع من الطعام والشراب ، ثم حلف لا يشرب شراباً يزعج قلبه[(2)] ما عاش ، وواراهما ، وبنى على قبريهما قُبَّة ، وسَمَّاهما الغريَّيْنِ ، وَسَنَّ أن لا يمر بهما أحد [من الملك فمن دونه] إلا سجد لهما ، وكانا إذا سَنَّ الملك [منهم] سُنَّة توارثوها ، وَأَحْيَوْا ذكرها ولم يميتوها ، وجعلوها عليهم حكماً واجباً ، وفرضاً لازماً ، وأوصى بها الآباء أعْقَابَهُمْ ، فغبر الناس بذلك دهراً طويلا ، لا يمر [بقبريهما] أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما ؛ فصار ذلك سُنَّة لازمة [وأمراً] كالشريعة والفريضة ، وحكم فيمن أبى أن يسجدلهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصلتين يجاب إليهما كائناً ما كانتا . قال : فمرَّ يوماً قَصَّار معه كارة ثياب وفيها مُدُقَّته . فقال الموكلون بالغريَّيْنِ للقَصَّار : اسجد فأبى أن يفعل ، فقالوا له : إنك مقتول إن لم تفعل ، فأبى ؛ فرفعوه إلى الملك وأخبروه بقصته ، فقال : مامنعك أن تسجد ؟ قال : سجدت ولكن كذبوا علىَّ ، قال : الباطِلَ قلت ؛ فاحتكم فى خصلتين فإنك مُجَابٌ إليهما ، وإنى قاتلك [بعد] ، قال : لابد من قتلى بقول هؤلاء [علىَّ] ؟ قال : لابد من ذلك ، قال : أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتى هذه ، قال له الملك : يا جاهل ، لو حكمت على أن أجرى على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان أصلح لهم ، قال : ما أحكم إلا بضربةٍ لرقبة الملك ، فقال الملك لوزرائه : ماترون فيما حكم به هذا الجاهل ؟ قالوا : نرى أن هذه سنة [أنت سننتها] وأنت أعلم بما فى نقض السنن من العار والنار وعظم الإثم ، وأيضاً إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى.

(1) فى ا « وحزنا لفراقهما » (2) فى ا « شرابا يزيل عقله » .

Marfat.com

ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك ، فتبطل السنن ، قال : فارغبوا إلى القَصَّار أن يحكم بما شاء ويعفينى من هذه ؛ فإنى أجيبه إلى ما شاء الله ولو بلغ حكمه شَطْر مُلْكى ، فرغبوا إليه ، فقال : ما أحكم إلا بضربة فى عنق الملك قال : فلما رأى الملك ذلك وماعزم عليه القَصَّار قعد له مقعداً عامًّا وأحضر القَصَّار فأبدى مُدُقَّته وضرب بها عنق الملك(١) فأوهنه وَخَرَّ مغشياً عليه ، فأقام وقيذاً ستة أشهر(٢) ، وبلغت به العلة إلى أن كان يسقى الماء بالقطر ، فلما أفاق وتكلم وأكل وشرب واستقَلَّ سأل عن القَصَّار ، فقيل : إنه محبوس ، فأمر بإحضاره فحضر ، فقال : لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها ، فإنى قاتلك لا محالة إقامة للسنة قال القَصَّار : فإذا كان لا بد من قتلى فإنى أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى ، فلما سمع ذلك خَرَّ على وجهه من الجزع ، وقال : ذهبت نفسى والله إذاً ، ثم قال للقَصَّار : وَيْلَكَ ! ! دَعْ عنك مالا ينفعك فإنه لم ينفعك منه ما مضى ، واحكم بغيره وأنفذه لك كائنا ما كان ، قال : ما أرى حقى إلا فى ضربةٍ أخرى ، فقال الملك لوزرائه : ما ترون ؟ قالوا : تموت على السنة [أصلح لك] ، قال : ويلكم ! ! إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبداً لأنى أعلم ما قد نالنى ، قالوا : فما عندنا حيلة ، فلما رأى ماقد أشرف عليه قال للقَصَّار : أخبرنى ، ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغَرِيَّيْنِ إنك قد سجدت وإنهم كذبوا عليك ، قال : قد كنت قلت ذلك فلم أصدق ، قال : فكنت سجدت ؟ قال : نعم ، فوثب [الملك] من مجلسه وقبل رأسه ، وقال : أشهد أنك صادق(٣) ، وأنهم كذبوا عليك ، وقد وليتك موضعهم ، وجعلت إليك [بأسهم ، و] أمرهم [فى تأديبهم] فضحك المهدى حتى فحص برجليه ، وقال : أحسنت ، وَوَصَلَه .

(١) فى ا « ضربة أزالته عن سريره ، فخر مغشيا عليه » .

(٢) فى ب « فأقام لما به سنة » .

(٣) فى ا « أشهد أنك أصدق من أولئك الفجار ، وأنهم قد كذبوا عليك » .

Marfat.com

المهدى ومروان بن أبى حفصة

قال الهيثم بن عدى : كُنت فى مجلس المهدى ، فأتاه الحاجب فقال : ابن أبى حَفْصَة بالباب ، فقال: لا تأذن له فإنه منافق كَذاب ، فـكلمه الحسن بن قَحْطَبَة(١) فيه ، فأدخله، فقال له المهدى : يا فاسق(٢) ألست القائل فى معن :

جَبَل تلوذ به نزار كلها صَعْبُ الذُّرَى متمنع الأرْكانِ

قال : بل أنا الذى أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يَا ابن الذى ورث النبيّ محمداً دون الأقَارِب من ذوى الأرْحَام

وأنشده الأبيات كلها ، فرضى عنه وأجازه .

بين المهدى وسفيان الثورى

وقال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدىّ ، وأتى سفيان الثورى ، فلما دخل عليه سَلّمَ تسليم العامة ، ولم يسلم تسليم الخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكىء على سيفه [يرقب أمره] ، فأقبل المهدى بوَجْهٍ طَلْق وقال له : يا سفيان ، تفر منا ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لى أن أضرب عنقه ، فقال له : اسكت ويلك ، ما يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يُعْتَرَض عليه فى حكم ، فـكتب عهده ودفعه إليه ، فأخذه وخرج ورمى به فى الدجلة وهرب ، فطلب فى كل بلد ، فلم يوجد .

رؤيا المهدى قبيل وفاته

وقال على بن يقطين : كُنا مع المهدى بماسبذان ، فقال لى يوماً : أصبحت جائعاً فَأْتِنِي بأَرْغِفَةٍ ولحم بارد ، ففعلت ، فأكل ثم دخل البهو(٣) ونام ، وكُنّا نحن فى الرواق ، فانتبهنا لبكائه ، فبادرنا إليه مسرعين ، فقال

---

(١) فى ب « الحسن بن أبى عطية » (٢) فى ا « يامنافق »

(٣) فى ب « دخل النهر » محرفا .

أما رأيتم ما رأيت ؟ قلنا : ما رأينا شيئاً ، قال : وقف عليّ رجلٌ لو كان فى ألف [رجل] ما خفى على صوته [ولا صورته] فقال :

كأنى بهذا القصر قد بَادَ أهله وَأَوْحَشَ منه رَبْعُه وَمَنَازِلُهْ
وصار عميد القوم من بعد بهجة وَمُلْكٍ إلى قبر عليه جَنَادِلُهْ
فلم يبق إلا ذكْره وحديثه تنادى عليه مُعْوِلَاتٍ حَلَائِلُهْ

قال [علی] : فما أتت على المهدىّ بعد رؤياه إلا عشرة أيام حتى توفى.

وفاة زفر ابن الهذيل وجماعة من العلماء

قال المسعودى : وكانت وفاة زفر بن الهُذَيْل الفقيه صاحب أبى حنيفة النعمان ابن ثابت سنة ثمان وخمسين ومائة ، وفيها كانت بيعة المهدىّ كما قدمناه .

ومات سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى بالبصرة ، وكان من تميم ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ويكنى أبا عبد الله ، فى أيام المهدى ، وذلك فى سنة إحدى وستين ومائة .

ومات ابن أبى ذئب ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ، ويكنى أبا الحارث ، بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة ، وذلك فى أيام المهدى .

وفى سنة ستين ومائة مات شعبة بن الحجاج ، ويكنى أبا بسطام ، وهو مولى لبنى شقرة من الأزد ، وفيها توفى عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، وفى سنة ست وستين ومائة مات حماد بن سَلَمة فى أيام المهدى .

قال المسعودى : وللمهدى أخبار حسان ، ولما كان فى أيامه من الكوائن والحروب وغيرها ، قد أتينا على مبسوطه(١) فى الكتاب الأوسط ، وكذلك مَنْ مات فى سُلْطَانِهِ من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم ، وبالله التوفيق .

---

(١) فى ا « قد أتينا على مبسوط ذلك » .

ذكر خلافة موسى الهادى

موجز

وبويع موسى بن محمد الهادى [يوم الخميس](١) لسبع بَقِينَ من المحرم ، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر ، صَبِيحَةَ الليلة(٢) التى كانت فيها وفاة والده المهدى ، وذلك فى سنة تسع وستين ومائة ، وتوفى بعيساباذ(٣) نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة ، لاثنتى عشرة ليلة بَقِيَتْ من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكانت خلافته سنةً وثلاثة أشهر ، وكان يكنى أبا جعفر ، وأُمه الخيزران بنت عطاء ، أم ولد حرشية ، وهى أم الرشيد ، وأتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان فى حرب كانت هناك ؛ فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارون البيعة . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

لما أتَتْ خَيْرَ بنى هاشم خِلَافَةُ الله بجرجَانِ
شَمَّرَ للحربِ سَرَابِيلَهُ برأى لا غُمْرٍ ولا وَانِ

---

(١) زيادة فى ا وحدها .

(٢) فى ب « صبيحة الثلاثاء التى كانت ، إلخ » محرفا .

(٣) فى ب « بفساباذ » محرفا .

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره وسيرة ، ولمع مما كان فى أيامه

أوصاف الهادى

كان موسى قاسى القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب ، محباً له ، وكان شديداً ، شجاعاً [بطلا](١) جواداً ، سخياً .

مثل من شجاعته

حدث يوسف بن إبراهيم الكاتب وكان صاحب [إبراهيم بن](٢) المهدى ، عن إبراهيم ، أنه كان واقفاً بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف [به] ببغداد إذ قيل له : قد ظفر برجل من الخوارج ، فأمر بإدْخَالِهِ ، فلما قرب منه الخارجى أخذ سيفاً من بعض الحرس ، فأقبل يريد موسى ، فتنحيت وكلُّ مَنْ معى عنه ، وإنه لواقف على حماره مايتحلحل(٢) ، فلما أن قرب منه الخارجى صاح موسى : اضربا عنقه ، وليس وراءه أحد ، فأوهمه ، فالتفت الخارجى لينظر ، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه(٣) فصرعه ، فأخذ السيف من يده ، فضرب عنقه ، قال : فكان خوفنا منه أكْثَرَ من الخارجى ، فوالله ما أنكر علينا تنحينا ، ولا عَذَلنَا على ذلك ، ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم ، ولا فارقه سيفه .

بين المهدى وعيسى بن دأب

وكان عيسى بن دأب يجالسه ، وكان من أهل الحجاز ، وكان أكثر أهل عصره أدباً وعلماً ومعرفة بأخبار الناس ، وأيامهم ، وكان الهادى يدعو له مُتَّكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه فى ذلك ، وكان يقول له : ياعيسى ، ماًاستطلت بك(٤) يوماً ولا ليلة ، ولا غِبْتَ عنى إلا ظننت أنى لا أرى غيرك .

جريمة غلام سندى

وذكر عيسى بن دأب أنه رفع إلى الهادى أن رجلا من بلاد المنصورة — من بلاد السند من أشرافهم وأهل الرياسة فيهم من آل المهلب بن أبى صفرة — رَبَّى غلاماً سندياً أو هنديًا ، وأن الغلام هَوِىَ مولاته ، فراودها عن نفسها ، فأجابته ، فدخل مولاه فوجدها معه ، فجبَّ ذكر الغلام وخَصَاه ، ثم عالجه إلى أن برىء فأقام مدة ، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفلٌ والآخر يافع ، فغاب الرجل عن منزله وقد أخذ السندىُّ الصبيين

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) فى ب « ما يتخلخل » بخاءين معجمتين

(٣) فى ا « ثم ظفر عليه » (٤) فى ا « ما استبطأت »

فصعد بهما إلى أعالى سور الدار إلى أن دخل مولاه [فرفع رأسه] فإذا هو بابنيه مع الغلام على السور، فقال: يافلان ، عرضتَ ابنيَّ للهلاك ، فقال: دَعْ ذا عنك ، والله لو لم تَجُبَّ نفسك بحضرتى لأرمينَّ بهما ، فقال له : اللهَ اللهَ فىَّ وفى ابنيَّ، قال : دع عنك هذا ، فوالله ماهى إلا نفسى ، وإنى لأسمح بها من شربة ماء ، وأهوى ليرمى بهما ، فأسرع مولاه فأخذ مُدْية فجبَّ نفسه ، فلما رأى الغلام أنه قد فعل رمى بالصبيين فتقطعا ، وقال: ذاك الذى فعلت لفعلك بى ، وقَتْلُ هذين زيادةٌ ، فأمر الهادى [بالكتاب إلى صاحب السند] بقتل الغلام وتعذيبه بأفظع مايمكن من(١) العذاب ، وأمر بإخراج كل سندى فى مملكته(٢) ، فرخص السند فى أيامه حتى كانوا يتداولون بالثمن اليسير .

وزراء المهدى

وكان الهادى قد استوزر الربيع ، وضم إليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ثم [إنه] ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل ، وأفرد الربيع بالزمام ، فمات الربيع فى هذه السنة ، وقيل : إن الهادى سقاه شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدى كانت قبل ذلك للربيع ، وقيل غير ذلك .

ظهور الحسين ابن على ابن الحسين

وظهر فى أيامه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وهو المقتول بفخ ، وذلك على ستة أميال من مكة ، يوم التَّرْوِية(٣) وكان على الجيش الذى حاربه جماعة من بنى هاشم : منهم سليمان بن أبى جعفر ، ومحمد بن سليمان بن على ، وموسى بن عيسى(٤) ، والعباس بن محمد بن على ، فى أربعة آلاف فارس ؛ فقتل الحسين وأكثر مَنْ كان معه ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير ، وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، فأسِرَ فى هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبراً ، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على ، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن

(١) فى ا « بأفظع ما يكون من العذاب » (٢) فى ا « من مملكته » .
(٣) يوم التروية : هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة .
(٤) فى ب « وموسى بن على » .

Marfat.com

[بن الحسن بن على] وضرب عنقه صبراً[1] ، وأخذ لعبد الله بن الحسن ابن على وللحسين بن على الأمانَ ، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَكٍ ، وقتلا بعد ذلك ، فسخط الهادى على موسى بن عيسى لقتل الحسين ابن على [بن الحسن بن الحسن] وترك المَصِير به إليه ليحكم فيه بما يرى[2] وقبض أموال موسى ، وأظهر الذين أتَوْا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادى وزَجَرَهم ، وقال : أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتمونى برأس رجلٍ من الترك أو الديلم ، إنه رجل من عِتْرَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندى ألاّ أُثيبكم شيئاً .

من مراثى الحسين بن على صاحب فخ

وفى الحسين بن على صاحب فَخٍّ ، يقول بعض شعراء ذلك العصر من أبيات :

فلأَبكينَّ عَلَى الحسـين بعَوْلَةٍ وعلى الحَسَنْ

وعلى ابن عاتكة الذى أثْوَوْهُ ليس له كَفَنْ

تركوا بفخّ غُدْوة فى غير منزلة الوطن

كانوا كراما قتلوا لا طائشين ولا جُبُنْ

غسَلوا المذلّةَ عنهمُ غسل الثياب من الدرَنْ

هُدِيَ العبادُ بجدهم فلهم على الناس المِنَنْ

طاعة الهادى لأمه الخيزران

وكان الهادى كثير الطاعة لأمه الخيزران ، مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ؛ ففى ذلك يقول أبو المعافى :

يا خيزران هَنَاكِ ثم هَنَاكِ أن العباك يسوسهم إبناك

فكلمتْهُ ذات يوم فى أمر ، فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلا ، فاعتلَّ عليها بعلة ، فقالت : لا بد من إجابتى ، قال : لا أفعل ، قالت : فإنى قد ضمنت هذه الحاجَةَ لعبد الله بن مالك ، فغضب الهادى ، وقال : وَيْلٌ لابن

(١) فى ا « فضربت رقبته صبرا » (٢) فى ا « بما رأى » .

Marfat.com

الفاعلة[١] ، قد علمت أنه صاحبها ، [والله] لاقضيتها لك ، قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ،قال : إذاً والله لا أبالى [وحمِىَ] وقامت [وهى] مُغْضَبة ، فقال : مكانك ، فاستوعبى كلامى ، والله ، وإلاَّ نُفِيتُ من قرَابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك[٢] أحد من قُوَّادى ، أو من خاصتى، أو من خدمى ، لأضربَنَّ عنقه ، ولأقبضَنَّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ، ماهذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم ؟ أمالك مِغْزَلٌ يَشغلك ، أو مُصْحَف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم[٣] ولا ذِمّىّ ، فانصرفت وما تعقل مانطاً ؛ فلم تنطق [عنده] بحلو ولا مر بعدها .

أخذ العباسيون ثأر بنى هاشم من بنى مروان

وذكر ابن دأب ، قال : دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تَجْرِ العادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى ، وقدامه جزء صغير[٤] ينظر فيه ، فقال لى : ياعيسى ، قلت : لبيك ياأمير المؤمنين ، قال : إنى أرقت فى هذهِ الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتملت على الهموم ، وهاج[٥] لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حَرْب وبنى مَرْوان فى سَفْك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبدالله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلاناً وفلاناً حتى أتيت على تسمية [أكثر] من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القائل بعد سَفْكه[٦] دماءهم :

ولقد شَفَى نَفْسِى وأبرأ سُقْمَهَا ... أخْذِى بثأرى من بنى مروان
ومِنَ آلِ حرب ، ليت شيخى شاهد ... سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسُرَّ والله الهادى ، وظهرت منه أريحية ، فقال : ياعيسى داود بن على هو القائل ذلك والقاتل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد

(١) فى ا « ويلى على ابن الفاعلة » (٢) فى ا « وقف على بابك » .
(٣) فى ا « لملى ولاذمى » (٤) فى ا « وقدامه دفتر ينظر فيه » .
(٥) فى ا « وسنح لى » (٦) فى ب « القاتل لسفك دمائهم » .

Marfat.com

أذكرتنيهما ، حتى كأنى ما سمعتهما ، قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل : إنهما لعبد الله بن على قالهما على نهر أبى فطرس ، قال : قد قيل ذلك .

بعض فضائل مصر وبعض أخبارها وبعض عيوبها

قال ابن دأب : ثم تغلغل بنا الكلام والحديث إلى أخبار مصر وعيوبها وفضائلها وأخبار نيلها ، فقال لى الهادى : فضائلها أكثر ، قلت : يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين [لها] بغير برهانٍ أو رَدُوه ، والبينة على الدعوى ، وأهل العراق يأبَوْنَ هذه الدعوى ، ويذكرون أن عيوبها أكثر من فضائلها ، قال : مثل ماذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين من عيوبها أنها لا تمطر ، وإذا أمطرت كرهوا [ذلك] ، وابتهلوا إلى الله بالدعاء [وقد] قال الله عز وجل (وهو الذى يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بين يدَىْ رحمته) فهذه رحمة مجللة لهذا الخلق وهم لها كارهون ، وهى لهم ضارة غير موافقة لا يزكو عليها زرعهم ولا تخصب [عليها] أرضهم ، ومن عيوبها الريح [الجنوبية] التى يسمونها المَرِيسِيَّةَ ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعالى الصعيد إلى بلاد النوبة مَرِيس ، فإذا هبت الريح المريسية – وهى الجنوبية – ثلاثةَ عشرَ يوماً [تباعاً] اشترى أهل مصر الأكفان والحنوط وأيقنوا بالوباء القاتل ، والبلاء الشامل[1] ، ثم من عيوبها اختلاف هوائها ، لأنهم فى يوم واحد يغيرون ملابسهم مراراً كثيرة ، فيلبسون القُمُصَ مرة ، والمبطنات أُخرى ، والحشوَ مرة ، وذلك لاختلاف جواهر[2] الساعات بها ، ولتباين مَهَابِّ الهواء [فيها] فى سائر فصول السنة من الليل والنهار ، وهى تمير ولا تمتار ، فإذا أجدبوا هلكوا . وأما نيلها فكفاك الذى هو عليه من الخلاف لجميع الأنهار ، من الصغار والكبار ، وليس بالفُرَات ولا الدجلة ولا نهر بلخ ولا سيحان ولا جيحان شىء من التماسيح ، وهى فى نيل مصر ضارة بلا منفعة ، ومفسدة غير مصلحة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أظهرْتُ للنيل هِجْراناً ومَقْلِية ... إذ قيل لى إنما التمساح فى النيل

(١) فى ا « والموت الشامل » (٢) فى ا « هواء الساعاب بها » .

فمن رأى النيل رَأى العين من كَثَبٍ فما أرَى النيل إلا فى النواقيل[١]

قال : ويحك ! ! ما النواقيل[٢] التى ترى النيل فيها ؟ قلت : القلال والكِيزَان يسمونها بهذا الاسم ، قال: ومامراد الشاعر فيما وصف ؟ قال : لأنه لايتمتع بالماء إلا فى الآنية ، لخوف مباشرة الماء فى النيل من التمساح، لأنه يختطف الناس وسائر الحيوان ، قال : إن هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه ، وقد كنت متشوقاً إلى النظر إليها ، فلقد زهدتنى [عنها] بوصفك لها .

مدينة دنقلة

قال ابن دأب : ثم سألنى الهادى عن مدينة دنقلة ، وهى دار مملكة النوبة ، كم المسافة بينها وبين أسوان ؟ قلت : قد قيل أربعون يوماً على شاطىء النيل عمائر متصلة .

بين البصرة والكوفة

قال ابن دأب : ثم قال [لى] الهادى : إيهاً يا ابن دأب ، دَعْ عنك ذكر المغرب وأخباره ، وهلم بنا إلى [ذكر] فضائل البصرة والكوفة ومازادت به كل واحدة [منهما] على الأخرى ،قال: قلت : ذكر عن عبد الملك بن عمير ، أنه قال : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت[٣] شيخاً قبيحاً إلا ورأيت فى وجه الأحنف منه شبهاً ؛ كان صَعْل الرأس ، أجْخَى العين ، أعْصَف الأذن ، باخِقَ العين ، نانىء الوجه ، مائل الشِّدْق ، متراكب الأسنان ، خفيف العارضين ، أحْنَف الرِّجْلِ ، ولكنه كان إذا تكلم جَلّى عن نفسه ، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة ، فقلنا الكوفة أغْذَى وأمرأ وأفسح وأطيب ، فقال له رجل : والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها ؛ فإذا ذكرت ذكرت حاجتها ، فكفّ عنها طالبها ، وما أشبه البصرة إلا بعجوز ذات عَوَارِض موسرة ، فإذا ذكرت ذكر يسارها،وذكرت عوارضها، فكفّ

(١) فى ا « فما رأى النيل إلا فى البواقيل » .

(٢) فى ا « البواقيل » (٣) فى ا « فما رأيت شيئا » .

Marfat.com

عنها طالبها ، فقال الأحنف : أما البصرة فإن أسفلها قَصَب ، وأوسطها خَشَب ، وأعلاها رُطَب ، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، ونحن أكثر قنداً ونقداً ؛ والله ما آتى البصرة إلا طائعاً ، ولا أخرج منها إلا كارهاً ؛ قال : فقام إليه شاب من بكر بن وائل فقال : يا أبا بحر ؛ بِمَ بلغت فى الناس ما بلغت ؟ فوالله ما أنت بأجملهم ، ولا بأشرفهم[1] ، ولا بأشجعهم ؛ قال : يا ابن أخى ؛ بخلاف ما أنت فيه ، قال : وما ذاك ؟ قال : بتركى ما لا يَعْنِينى كما عناك من أمرى ما لا ينبغى أن يعنيك .

قال المسعودى : ولابن دأب مع الهادى أخبار حِسَان يطول ذكرها ، ويتّسع علينا شرحها ، ولا يتأتى لنا إيراد ذلك فى هذا الكتاب ، لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز بحذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ[2] .

ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومَنْ شرب من دجلة مناظرات كثيرة فى مياههم ومنافعها ومضارها ، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة ، فقالوا : ماؤكم كَدِر زَهِك زَفِر ، فقال لهم أهل البصرة : من أين يأتى ماءنا الكَدَرُ وماء البحر صافٍ وماء البطيحة صاف[3] ، وهما يمتزجان وسط بلادنا ؟ قال الكوفيون : من طباع الماء العذب الصافى إذا خالط ماء البحر صارا جميعاً إلى الكدورة ، وقد يُرَوِّق الإنسان ماء أربعين ليلة ، فإن جعل منه شيئاً فى قارورة أزْبَدَ وتكدَّر .

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم — الذى هو الفُرَات — على ماء دجلة ، وهو ماء البصرة ! فقالوا : ماؤنا أعذبُ المياه وأغذاها ، وهو أصح للأجسام من ماء دجلة ، والفرات خير من النيل ، فأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال ، ويذهب بصهيل الخيل ، ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها ، ونقصان قواها ، وإن لم يتدسم النازلون عليها أصابهم قحول فى عظامهم[4]

(١) فى ا « ولا بأكرمهم » (٢) فى ا « وترك الإعادة للألفاظ » .
(٣) فى ا « وماء البطيحة طاف » (٤) فى ا « أصابهم نحول فى أجسامهم » .

Marfat.com

ويبس فى جلودهم ، وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكادون يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والرّكاء ، لاختلاط مياهها[١] واختلاف أنواعها [إذ] ليست بماء واحد لمصَبّ الأنهار [إليها] كالزابَيْنِ وغيرها ، وسبيل المشروب غير المأكول ، لأن اختلاف المآكل غير ضار ، واختلاف الأشربة كالخمر والنبيذ[٢] وغيره من الأنبذة إذا شربه الإنسان كان ضاراً ، وإذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة وهو يختلط بماء البحر ، ومن الماء المستنقع فى أصول القصب الهروى ، وقد قال الله تعالى: (هذا عذب فُرَات ، وهذا مِلْحٌ أُجاج) ، والفرات أعْذَبُ المياه عذوبة ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة.

وقد طعن أيضاً أهل الكوفة على أهل البصرة ، فقالوا : البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأخبثها تراباً ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقاً .

وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه[٣] وعابوهم به ، وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا أهل الكوفة ، وذكروا عيوبها ، ومايؤثَرُ عن[٤] سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء.

وقد أتينا على وصف [جميع] ذلك فى كتابنا «أخبار الزمان» وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه ، وفصول السنة ، وانقسام الأقاليم ، وما لحق بهذه المعانى ، فيما سلف من كتبنا على الشرح والإيضاح ، وذكرنا فى هذا الكتاب من جميع ذلك لمعاً .

فلنرجع الآن إلى أخبار الهادى ونعدل عن[٥] هذا السانح .

رغبة الهادى فى خلع الرشيد من ولاية العهد

وقد كان الهادى أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويجعلها لابنه

(١) فى ب « لاختلاف مياهها » (٢) فى ا « كالخمر ونبيذ التمر »
(٣) فى ا « عما سألوهم عنه » (٤) فى ا « وما يؤثر فى سكانها » .
(٥) فى ب « وندل على هذا السانح » .

Marfat.com

جعفر بن موسى ، وحبس يحيى بن خالد البرمكى ، وأراد قتله ، فقال له يحيى وكان القيم بأمر الرشيد : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما أسأل الله أن يُعيذَنَاَ منه ، وأن لا يبلغناه ، ونَسْأ فى أجَلِ أمير المؤمنين ، أيظن أن الناس يُسَلمون لجعفر بن أمير المؤمنين الأمر ولم يبلغ الحِنْثَ[1] ، ويرضون به لصلاتهم وحَجِّهم وغَزْوهم ؟ قال : ما أظن ذلك ، قال : فتأمن أن يسمو إليها جِلةُ أهل بيتك فتخرج من ولد أبيك إلى غيرهم ؟ فتكون قد حملت الناس على النَّكْثِ ، وهَوَّنت عليهم أيمانهم ، ولو تركت بيعة أخيك على حالها ، وبُويِعَ لجعفر بعده كان آكَدَ ، فإذا بلغ مبلغ الرجال سألت أخاك أن يقدمه على نفسه ، قال : نبهتنى والله على أمر لم أكن قد انتبهت له ، ثم عزم بعد ذلك على خَلْعه رضى أم كره ، وأمر بالتضييق عليه فى الأكثر من أموره ، فأشار عليه يحيى أن يستأذنه فى الخروج إلى الصَّيْد ، وأن يطيل التشاغل بذلك ، فإن مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد ، واستأذنه الرشيد ، فأذن له ، فسار إلى شاطىء الفرَات من بلاد الأنبار وهَيْتَ ، وتوسط البر مما يلى السماوة ، وكتب الهادى إليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل ، وبسط الهادى لسانه فى شتمه ، وسنح للهادى الخروج نحو بلاد الحديثة ، فمرض هناك ، وانصرف وقد ثقل فى العلة ، فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه[2] إلا صغار الخدم ، ثم أشار إليهم أن يحضروا الخيزران أمه ، فصارت عند رأسه ، فقال لها : أنا هالك فى هذه الليلة ، وفيها يلى أخى هرون ، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدى بالرى ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك ، لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا[3] ، بل كنت لك صائنا وبراً واصلا ، ثم قضى قابضا على يدها ، واضعالها على صدره .

(١) فى ا « ولم يبلغ الحـلم » (٢) فى ا « على الدخول إليه » .
(٣) فى ا « ولم أكن لك عاقا » .

Marfat.com

وكان مولده بالرى ، وكذلك مولد [هرون] الرشيد ، فكانت تلك الليلة فيها وفاة الهادى ، وولاية الرشيد ، ومولد المأمون .

الهادى ورجل ذو ذنوب

ويقال : إن الهادى أُوْقِفَ بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام[1] كثيرة ، فجعل الهادى يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ، اعتذارى مما تقرعنى[2] به رَدٌّ عليك ، وإقرارى بما ذكرت يوجب ذنبا على ، ولكنى أقول :

فإنْ كُنْتَ تَرْجُو فى العُقُوبةِ رَاحَــةً
فَلاَ تَزْهَدَنْ عِنْدَ المُعَافَاةِ فى الأجْرِ

وأطلقه ووصله .

بين الهادى والرشيد

وحدث عدة من الأخباريين من ذوى المعرفة بأخبار الدولة ، أن موسى قال لهارون أخيه : كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَاد ، فقال له هارون : يا أمير المؤمنين من تكبر وضع ، ومن تواضع رفع ، ومن ظلم خذل ، وإن وصل الأمر[3] إلى وَصَلْتُ مَنْ قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادى ، وزوجتهم بناتى ، وقضيت بذلك حقَّ الإمام المهدىّ ، فانجلى عن موسى الغضب ، وبان السرور فى وجهه ، وقال : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، ادْنُ منى ، فقام هارون فقبَّلَ يده ، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه ، فقال موسى : والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، لا جلستَ إلا معى فى صدر المجلس ، ثم قال : يا خَزَّانى ! احمل إلى أخى الساعة ألف ألف دينار ، فإذا فتح الخراج فاحمل إليه نصفه ، فلما أراد هارون الانصراف قُدِّمت دابته إلى البساط .

---

(١) فى ا « ذو جرائم كثيرة »
(٢) فى ب « اعتذارى مما تقرعنى به » تحريف
(٣) فى ا « وإن أفضى الأمر إلى » .

رؤيا المهدى لولديه الهادى والرشيد

قال عمرو الرومى : فسألت[١] الرشيد عن الرؤيا ، فقال : قال المهدىُّ : رأيت فى منامى كأنى دفعت إلى موسى قضيباً ، وإلى هارون قضيباً ، فأما قضيب موسى فأَوْرَقَ أعلاه قليلا ، وأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره ، فقَصَّ الرؤيا على الحكيم ابن إسحاق الصيمرىّ ، وكان يَعْبُرها ، فقال له : يملكان جميعاً ، فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة ، وتكون أيامه أحسن الأيام ، ودهره أحسن الدهور .

قال عمرو الرومى : فلما أفضت الخلافة إلى هارون زَوَّج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووفى له ما وعده .

حاز الهادى سيف عمرو ابن معديكرب (الصمصامة)

وحدث عبد الله بن الضحاك ، عن الهيثم بن عدى ، قال : وهب المهدى موسى الهادى سيف عمرو بن معديكرب الصَّمْصَامة ، فدعا به موسى بعد ما ولى الخلافة ، فوضعه بين يديه ، وملء مِكْتَل دنانير[٢] ، وقال لحاجبه : ائذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف ، فبدأهم ابن يامين البصرى فقال:

حَازَ صَمْصَامَةَ الزُّبَيْدِى عمـــرو
مِنْ جَمِيعِ الأَنَامِ مُوسَى الأَمِينُ
سَيْفُ عمرو ، وكانَ فِيمَا سَمِعْنَا
خَـــيْرَ مَا أُغْمِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّـــوَاعِقُ نَاراً
ثُمَّ شَابَتْ فِيـــهِ الذُّعَافَ الْمَنُونُ

---

(١) فى ا « فد سألت الرشيد » .
(٢) فى ب « ودعا بمكتل » .

Marfat.com

وَإذَا ما شَهرْتَهُ تَبْهَرُ الشَّمْــسَ ضِياءً فَلَمْ تَـكَدْ تَسْتَبِينُ
وكأنَّ الفِرِنْدَ والجوهر الجْا رِىَ فى صفحتيه ماء مَعِينُ
ما يُبَالِى إذا الضريبة حَانَتْ أشمال سَطَتْ بِهِ أمْ يَمِينُ ؟[1]

وهى أبيات كثيرة ، فقال له الهادى : لك السيف والمكتل ، نخذهما ؛ ففرق المكتل على الشعراء ، وقال : دخلتم معى وَحُرِمْتُمْ من أجلى ، وفى السيف عوض ، ثم بعث إليه الهادى فاشترى منه السيف بخمسين ألفاً .

وللهادى أخبار حسان وإن كانت أيامه قَصُرَتْ ، وقد أتينا على ذكرها فى كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وبالله التأييد .

(١) فى ب « الضريبة خانت » وفيها « أشمال نيطت به » .

Marfat.com

ذكر خلافة هارون الرشيد

موجز وبويع هارونُ [الرشيد] بنُ المهدىِّ يومَ الجمعة صبيحةَ الليلةِ التى مات فيها الهادى ، بمدينة السلام ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بَقِيَت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ومات بِطُوسَ بقرية يقال لها سناباذ[1] ، يوم السبت لأربع لَيَالٍ خَلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وقيل : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين [وثمانية عشر يوماً] وولىَ الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة [وشهرين] ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر .

---

(١) فى ب « يقال لها ساباذ »

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره ، وسيره

[ولمع مما كان فى أيامه]

الرشيد يستوزر يحيى ابن خالد البرمكى

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا بيحيى[1] بن خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويُمْنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر ، وَدَفَعَ خاتمه إليه ، ففى ذلك يقول الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت سَقِيمَةً فلما وَلِى هارونُ أشرقَ نورها
بيُمْنِ أمين الله هارون ذى الندى فَهرُونُ وَاليها ، ويحيى وزيرها

وماتت رَيْطَة بنت أبى العباس السَّفاح لشهور خَلَتْ من أيام الرشيد ، وقيل : فى آخر أيام الهادى ، وماتت الخيزران أم الهادى والرشيد فى سنة ثلاث وسبعين ومائة ، ومشى الرشيد أمام جنازتها ، وكانت غلة الخيزران مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، وفيها مات محمد بن سليمان ، وقَبَضَ الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ؛ فكان مبلغها نيفا وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستَغلَّات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم .

محمد بن سليمان وسوار القاضى يعترضهما مجنون

وحكى أن محمد بن سليمان ركب يوماً بالبصرة وسَوَّار القاضى يسايره فى جنازة ابنة عم له ، فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف برأس النعجة ، فقال له : يا محمد ، أَمِن العدل أن تكون نحلتك[2] فى كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ ثم التفت إلى سَوَّار فقال : إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به ، فأسرع إليه غلمان محمد ، فكفَّهُمْ عنه ، وأمر له بمائة درهم ، فلما انصرف محمد وسَوَّار معه اعترضه رأسُ النعجة فقال [له] : لقد كرم الله منصبك ، وشرف أبوتك ، وحسَّن وجهك ، وعظم قدرك ، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك ، ولأن يجمع الله لك الدارين ، فدنا منه سَوَّار فقال : يا خبيث ، ما كان هذا قولك

(١) فى ا « دعا يحيى بن خالد » (٢) فى ا « أن تكون غلتك » .

Marfat.com

فى البداءة ، فقال له : سألتك بحق الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتنى فى أى سورة هذه الآية (فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون) قال : فى براءة ، قال : صدقت ، فبرئ الله ورسوله منك ، فضحك محمد ابن سليمان حتى كاد يسقط[1] عن دابته .

ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل إليه عبد الصمد بن شبيب بن[2] شبة ، فقال له محمد : كيف ترى بنائى ؟ قال : بنيت أَجَلَّ بناء ، بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرقّ هواء ، على أحسن ماء ، بين صرارى[3] وحسان وظباء ، فقال محمد : بناء كلامك أحْسَنُ من بنائنا ، وقيل : إن صاحب الكلام والبانى للقصر هو عيسى بن جعفر ، على ما حدث به محمد بن زكرياء الغلابى ، عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة[2] ، وفى هذا القصر يقول ابن أبى عُيَيْنة[4] :

زُرْ وادىَ القصر ، نعم القصر والوادى ... لا بُدَّ من زَوْرَة من غير ميعاد
زره فليس له شبـــه يُقاربه ... من منزل حاضرٍ إن شئت أو باد
[ترقى قراقيره والعيس واقفـــة ... والضب والنون والملاح والحادى]

وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد ، المصرى ، الفهمى[5] ، ويكنى أبا الحارث ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وسمع من نافع . موت الليث ابن سعد

وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك بن عبد الله بن سنان النَّخَعِىُّ القاضى ، وكان يكنى أبا عبد الله ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وكان مولده ببخارى ، وليس بشريك بن عبد الله بن أبى أنمر الليثى ، لأن ابن [أبى] أنمر مات فى سنة أربعين ومائة ، وإنما ذكرنا ذلك لأنهما يتشابهان موت شريك النخعى القاضى

(١) فى ا « كاد أن يسقط » (٢) فى ا « ابن شبيب بن شيبة » .
(٣) فى ا « بين صوارى وحسان وظباء » (٤) فى ا « ابن أبى عتبة » ولعل الأصل « ابن عيينة » وكلمة « أبى » مقحمة (٥) فى ب « اليمنى » .

Marfat.com

فى الآباء والأمهات ، وبينهما تسع وثلاثون سنة[١] ، وكان شريك بن عبد الله النخعى يتولى القضاء بالكوفة أيام المهدىّ ، ثم عزله موسى الهادى ، وكان شريك ــ مع فهمه وعلمه ــ ذكياً فطناً ، وكان قد جرى بينه وبين مصعب ابن عبد الله كلامٌ بحضرة المهدى فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر ، فقال : والله ما أنتقص جَدَّكَ وهو دونهما .

وذُكِرَ معاوية عند شريك بالحلم ، فقال : ليس بحليم من سَفِهَ الحقَّ وقاتل علىَّ بن أبى طالب .

وشم من شريك رائحة النبيذ ، فقال له أصحاب الحديث : لو كانت هذه الرائحة منا لاستحيينا ، فقال : لأنكم أهل الريبة .

موت مالك ابن أنس الإمام ومات فى أيام الرشيد أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبى عامر ، الأصْبَحِىُّ ، وهو ابن تسعين سنة ، وحمل به ثلاث سنين ، وذلك فى ربيع الأول ، وقيل : إنه صلى عليه ابن أبى ذئب ، على ما ذكر من التنازع فى وفاة ابن أبى ذئب ، وذكر الواقدىُّ أن مالكا كان يأتى المسجد ، ويشهد الصلوات والجمع والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضى الحقوق ، ثم ترك ذلك كله ، ثم قيل له فيه ، فقال : ليس كل إنسان يقدر أن يتكلم بعُذْرِه .

وسعى به إلى جعفر بن سليمان ، وقيل له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئًا فضربه بالسياط ، ومُدَّ لذلك حتى انخلع[٢] كتفاهُ .

حماد بن زيد وفى السنة التى مات فيها مالك كانت وفاة حَمَّاد بن زيد ، وهى سنة تسع وسبعين ومائة .

ابن المبارك وفى سنة إحدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك ، المروزى ، الفقيه ، بِهِيْتَ بعد منصرفه من طرسوس .

القاضى أبو يوسف وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضى وهو ابن تسع وستين سنة ، وهو رجل من الأنصار ، وولى القضاء سنة ست وستين

(١) فى ا « وبينهما سبع وثلاثون سنة » .

(٢) فى ا « انخلعت كتفاه » .

Marfat.com

ومائة فى أيام خروج الهادى إلى جُرْجَان ، وأقام على القضاء إلى أن مات خمس عشرة سنة .

قال المسعودى : وقد كانت أم جعفر كتبت مسألة إلى أبى يوسف تستفتيه فيها ، فأفتاها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأداه اجتهاده إليه ، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان [من فضة] فى كل حق لون من الطيب ، وجامَ ذهب فيه دراهم ، وجام فضة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت من ثياب ، وحمار وبغل ، فقال له بعض من حضره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » فقال أبو يوسف : تأولت الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من إمضائه ، ذاك إذ كان هدايا الناس التمر واللبن ، لا فى هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العَيْنُ والوَرِقُ وغيره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

بين عبد الله بن مصعب الزبيرى وموسى بن عبد الله بن الحسن الطالبى بحضرة الرشيد

وذكر الفضلُ بن الربيع قال : صار إلىَّ عبدُ الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، فقال : إن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على قد أرادنى على البَيْعَة له ، فجمع الرشيد بينهما ، فقال الزبيرى لموسى : سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا ، فالتفت إليه موسى فقال : ومَنْ أنتم ؟ فغلب [على] الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف حتى لا يظهر منه[1] ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا الذى ترى المُشَنِّع علىَّ خرج والله مع أخى محمد بن عبد الله [بن الحسن بن الحسن بن على] علىَّ جدك المنصور ، وهو القائل من أبيات :

قوموا ببيعتكم نَنْهَضْ بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى حسن

فى شعر طويل ، وليس سعايته يا أمير المؤمنين حُبًّا لك ، ولا مراعاة لدولتك ، ولكن بُغضاً لنا جميعاً أهل البيت ، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لكان معه ، وقد قال باطلا ، وأنا مستحلفه ، فإن حلف أنى قلت

(١) فى ا « لئلا يظهر منه »

ذلك فدمى لأمير المؤمنين حَلَالٌ ، فقال الرشيد احلف له يا عبد الله ، فلما أراده موسى[(١)] على اليمين تلكأ وامتنع ، فقال له الفضل : لم تمنع وقد زعمت آنفاً أنه قال لك ما ذكرته ؟ قال عبد الله : فأنا أحلف[(٢)] له ؛ قال موسى : قل تَقَلَّدْتُ الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولى وقوتى إن لم يكن ما حكيته عنى[(٣)] حقاً ، فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر، حدثنى أبى عن جدى عن أبيه عن جده علىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاثة » والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفى قَبْضَتك ، فتقدم بالتوكيل على ، فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمى لأمير المؤمنين حلال ، فقال الرشيد للفضل : خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر فى أمره .

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعتُ الصُّرَاخَ من دار عبد الله بن مصعب ، فأمرت من يتعرف خبره ، فعرفت أنه [قد] أصابه الجُذَام ، وأنه قد تورَّم واسْوَدَّ ، فصرت إليه ، فوالله ما كدت أعرفه لأنه صار كالزِّقِّ العظيم ثم اسودَّ حتى صار كالفحم ، فصرت إلى الرشيد فعرفته خبره، فما انقضى كلامى حتى أتى[(٤)] خبر وفاته ، فبادرت بالخروج ، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه ، وتوليت الصلاة عليه ، فلما دَلَّوْه فى حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة النتن ، فرأيت أحمال شوك تمر فى الطريق فقلت : [على بذلك الشوك ، فأتيت به ، فطرح فى تلك الوهدة ، فما استقر حتى انخسفت ثانية ، فقلت] علىّ بألواح ساج ، فطرحت على موضع قبره ، ثم طرح التراب عليها ، وانصرفت إلى الرشيد فعرفته الخبر [وما عاينت من الأمر] فأكثر التعجب من ذلك ، وأمرنى بتخلية موسى بن عبد الله رضى الله عنه ، وأن أعطيه

---

(١) فى ا « فلما راوده موسى على اليمين » .
(٢) فى ا « فإنى أحلف له » (٣) فى ا « إن لم يكن ماحكيته عليك حقا »
(٤) فى ا « حتى أتانى خبر وفاته » (٥) فى ا « والفراغ من شأنه » .

Marfat.com

ألف دينار ، وأحضر الرشيد موسى فقال [له] : لم عَدَلْتَ عن اليمين المتعارفة بين الناس ؟ قال : لأنا رَوَيْنَا عن جَدِّنا رضى الله عنه [عن النبى صلى الله عليه وسلم] « مَنْ حلف بيمين مَجَّدَ الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته . وما من أحد حلف بيمين [كاذبة] نازع الله فيها حَوْلَه وقوته إلا عَجَّلَ الله له العقوبة قبل ثلاث » .

وقيل : إن صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبد الله [بن الحسن بن الحسن بن على] أخو موسى [بن عبد الله ، رضوان الله عليهم !] .

وكان يحيى قد سار إلى الدَّيْلَم مستجيراً ؛ فباعه صاحبُ الدَّيْلَم من عامل الرشيد بمائة ألف درهم، فقتل ، رحمه الله !.

وقد روى من وجه آخر — على حسب تباين النسخ وطرق الرواية فى ذلك فى كتب الأنساب والتواريخ — أن يحيى أُلْقِىَ فى بركة فيها سباع قد جُوِّعت ، فأمسكت عن أكله ، ولاَذَتْ بناحية ، وهابت الدُّنُوَّ إليه(1) ، فبُنى عليه ركن بالجص والحجر وهو حَىٌّ .

ظهور محمد بن جعفر، ثم هربه إلى المغرب

وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على كرم الله وجهه سار إلى مصر ، فطُلِبَ ، فدخل المغرب ، واتصل ببلاد تَاهَرْتَ السفلى ، واجتمع إليه خلق من الناس ، فظهر فيهم بعدل وحسن استقامة ،فمات هنالك مسموماً ، وقد أتينا على كيفية خبره وما كان من أمره فى كتاب « حدائق الأذهان ، فى أخبار أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وتفرقهم فى البلدان » .

الرشيد يحج آخر حجة

وفى سنة ثمانية وثمانين ومائة حَجَّ الرشيد ، وهى آخر حَجَّةٍ حَجَّهَا ، فذكر عن أبى بكر بن عياش — وكان من [علية] أهل العلم — أنه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة فى حال منصرفه من هذه الحجة : لا يعود إلى هذه الطريق ، ولا خليفة من بنى العباس بعده أبداً ، فقيل له : أَضَرْبٌ من

(1) فى ا « وهابت الدنو منه » .

Marfat.com

الغيب ؟ قال : نعم ، قيل : بوَحْيٍ ؟ قال : نعم ، قيل : إليك ؟ قال : لا ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك أخبر عنه [على عليه السلام] المقتول فى هذا الموضع ، وأشار إلى الموضع الذى قتل فيه [على] بالكوفة ، رضى الله عنه !

موت الكسائى ومحمد بن الحسن الشيبانى

وفى سنة تسع وثمانين ومائة ـ وذلك فى أيام الرشيد ـ مات علىُّ بن حمزة الكسائى صاحب القراءات ، ويكنى أبا الحسن ، وكان قد شَخَصَ مع الرشيد إلى الرى فمات بها ، وكذلك مات محمد بن الحسن الشيبانى القاضى ، ويكنى أبا عبد الله ، ودفن بالرى وهو مع الرشيد ، وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا [كان] رآها فى نومه .

يحيى بن خالد

وفى هذه السنة كانت وفاة يحيى بن خالد بن بَرْمك .

سخط الرشيد على عبد الملك ابن صالح

وفى سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فحدَّثَ يموت بن المزرع[1] عن الرياشى ، قال : سمعت الأصمعى يقول : كنت عند الرشيد ، وأتى بعبد الملك بن صالح يَرْفُلُ فى قيوده ، فلما نظر إليه قال : هيه يا عبد الملك ، كأنى [والله] أنظر إليك وشؤبوبها قد همع ، و [إلى] عارضها قد لمع ، وكأنى بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ، ورؤوس بلا غلاصم ، مهلا مهلا بنى هاشم ، والله سَهُل لكم الوَعْر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أزِمَّتَهَا ، فخذوا حذركم[2] منى قبل حلول داهية خَبُوط باليد والرجل ، فقال له عبد الملك : أفذا أتكلم أم توأماً ؟ فقال : توأماً ، قال : فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما وَلاَّك ، وراقبه فى رعاياك التى استرعاك ، قد سهلت لك والله الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب[3]

---

(١) فى ب « فحدث غوث بن المدرع » تحريف .

(٢) فى ا « فخذوا حذاركم » .

(٣) فى ب « أخو كعب بن كلاب » .

ومقام ضَيِّق فرَّجْتــه   بلسان أو بيان أو جَدَلْ
لو يقوم الفيلُ أو فيَّاله   زَلَّ عن مثل مقامى أو زَحَلْ

قال : فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من مقام(١) عبد الملك عند الرشيد، فقال له : ياعبدالملك ، بلغنى أنك حَقُود ، فقال : أصلح الله الوزير !! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى إنهما لباقيان فى قلبى ، فالْتَفَتَ الرشيد إلى الأصمعى ، فقال : يا أصمعى حررها فوالله ما احتجَّ أحد للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك ، ثم أمر به فردَّ إلى محبسه ، ثم التفت إلى الأصمعى، فقال : والله والله يا أصمعىُّ لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عنقه مراراً ، يمنعنى من ذلك إبقائى على قومى فى مثله .

أهديت للرشيد سمكة فمنعها عنه ابن بختيشوع الطبيب

حدث يوسف بن إبراهيم [بن] المهدى ، قال : حدثنى سليمان الخادم الخراسانى مولى الرشيد ، أنه كان واقفاً على رأس الرشيد بالحِيرَةِ وهو يتغدَّى إذ دخل عليه عون العِبَادِىُّ ، وكان صاحب الحيرة ، وفى يده صحفة فيها سمكة منعوتة بالسمن(٢) فوضعها بين يديه ومعه محبس قد اتخذ لها ، فحاول الرشيد أكل شىء منها فمنعه جبريل بن بختيشوع ، وأشار جبريل إلى صاحب المائدة أن يشيلها عن المائدة ويعزلها له ، ففطن له الرشيد، فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرنى الرشيد باتباعه وأن أكبسه فى منزله وهو يأكل فأرجع إليه بخبره ، ففعلت ما أمرنى [به] وأحسب أن أمرى لم يَخْفَ على جبريل فيما تبينت من تحرزه ، فإنه صار إلى موضع من دار عون ، ودعا بالطعام فأحضر له ، وفيه السمكة ، فدعا بأقداح ثلاثة ، فجعل فى واحد منها قطعة من السمك وصَبَّ عليها [خمراً] من خمر طيرناباذ(٣) ـ وهى قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم وأشجار ونخل ورياض تخرقها الأنهار من كل البقاع(٤) من الفرات ، شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربلى ـ فصبه على السمكة وقال : هذا أكل

(١) فى ا « أن يضع من مقدار » . (٢) فى ا « منعوتة السمن » .
(٣) فى ب « من خمر طيربان » محرفا . (٤) فى ا « من كل العقاب » .

Marfat.com

جبريل ، وجعل فى قدح آخر قطعة منها ، وصَبَّ عليها ماء بثلج شديد البرودة[1] ، وقال : هذا أكل أمير المؤمنين أعزه الله إن لم يخلط السمك بغيره ، وجعل فى القَدَح الثالث [قطعة من السمكة وجعل] قطعاً من اللحم من ألوان مختلفة ، من شواء ومن حلوى ومن بوارد وبقول ، ومن سائر ماقدم إليه من الألوان ، من كل واحد منها جزأ يسيراً مثل اللقمة[2] ، واللقمتين ، وصَبَّ عليها ماء بثلج ، وقال : هذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره ، [من الطعام] ودفع الثلاثة الأقداح إلى صاحب المائدة ، وقال : احتفظ بها إلى أن ينتبه أمير المؤمنين أعزه الله ، ثم أقبل جبريل على السمكة فأكل منها حتى تَضَلَّع ، وكان كلما عطش دعا بقدح من الخمر الصرف فشربه ، ثم نام[3] ، فلما انتبه الرشيد من نومه سألنى عما عندى من خبر جبريل ، وهل أكل من السمكة شيئاً أم لم يأكل ؟ فأخبرته بالخبر ، فأمر بإحضار الأقداح الثلاثة فوجد ما فى القدح الأول – وهو الذى ذكر جبريل أنه أكله وصَبَّ عليه الخمر الصرف – قد تفتت وانماع واختلط ، ووجد ما فى القدح الثانى – الذى قال جبريل إنه أكل أمير المؤمنين وصب عليه الماء بالثلج – قد ربا وصار على النصف[4] مما كان ، ونظر إلى القدح الثالث – الذى قال جبريل وهذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره – قد تغيرت رائحته وحدثت له سُهُوكة [شديدة] كاد الرشيد أن يتقايأ حين قرب منه ، فأمر [لى] بحمل خمسة آلاف دينار إلى جبريل وقال : من يلومنى على محبة هذا الرجل الذى يدبرنى بهذا التدبير ؟ فأوصلتُ إليه المال.

رؤيا للرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى ابن جعفر

وذكر عبد الله بن مالك الخزاعى – وكان على دار الرشيد وشرطته – قال : أتانى رسول الرشيد فى وقت ما جاءنى فيه قط ، فانتزعنى من موضعى ، ومنعنى من تغيير ثيابى ، فراعنى ذلك [منه] فلما صرت إلى الدار سبقنى الخادم ، فعرَّفَ الرشيد خبرى ، فأذن لى فى الدخول [عليه] ، فدخلت ،

(١) فى ا « شديد البرد » . (٢) فى ا « قدر اللقمة » .
(٣) فى ب « ثم قام » .
(٤) ربما كان الأصل « وصار على الضعف » ليلتئم مع قوله : « قدربا » .

Marfat.com

فوجدته قاعداً على فراشه ؛ فسلمت ، فسكت ساعة ، فطار عقلى وتضاعفَ الجزع [علىّ] ثم قال لى : ياعبد الله ، أتدرى لم طلبتك فى هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : إنى رأيت الساعة فى منامى كأنّ حَبَشِيًّا قد أتانى ومعه حربة فقال [لى] : إن لم تخَلِّ[1] عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة ، فاذهب فخلّ عنه ، فقلت : ياأميرالمؤمنين، أطلق موسى بن جعفر ؟ ثلاثاً ، قال : نعم امض الساعة حتى تطلق موسى ابن جعفر وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له : إن أحببت المقام قِبَلنا فلك عندى ما تحب ، وإن أحببت المضىّ[2] إلى المدينة فالإذن فى ذلك إليك ، قال : فمضيت إلى الحبس لأخرجه ، فلما رآنى موسى وثب إلى قائماً وظن أنى قد أمرت فيه بمكروه . فقلت : لا تخف ، وقد أمرنى أمير المؤمنين بإطلاقك ، وأن أدفع إليك ثلاثين ألف درهم، وهو يقول لك: إن أحببت المقام قبلنا فلك ما تحب ، وإن أحببت الانصراف [إلى المدينة] فالأمر فى ذلك مُطْلَق إليك . وأعطيته الثلاثين ألف درهم ، وخليت سبيله ، وقلت : لقد رأيت من أمرك عجباً ، قال : فإنى أخبرك : بينما أنا نائم إذ أتانى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ياموسى ، حبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنك لاتبيت هذه الليلة فى الحبس ، فقلت : بأبى وأمى ما أقول ؟ فقال : قل ياسامع كل صوت[3] ، وياسابق الفَوْت ، ويا كاسى العظامِ لحما ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليما ذا أناة لا يُقْوَى على أناته ، ياذا المعروف الذى لاينقطع أبداً ، ولا يُحْصَى عدداً ، فرج عنى ، فكان ماترى .

إبراهيم ابن المهدى يغنى لأسود

وذكر حمادبن إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال:قال إبراهيم بن المهدى: حججت مع الرشيد ، فبينانحن فى الطريق وقد انفردتُ أسيرُ وحدى وأناعلى

(١) فى ا « إن موسى بن جعفر - إلخ » .
(٢) فى ا « وإن أحببت الانصراف - إلخ » .
(٣) فى ا « ياسامع الصوت » .

Marfat.com

دابتى ، إذ غلبتنى[١] عيناى ، فسلكَتْ بى الدابة غير الطريق ، فانتبهت وأنا على غير الجادَّة ، فاشتدَّ بى الحر ، فعطشْتُ عطشاً شديداً ، فارتفع لى خباء ، فقصدته ، فإذا بقُبَّةٍ وبجنبها[٢] بئر ماء بقرب مَزْرَعة ، وذلك بين مكة والمدينة ، ولم أر بها إنسياً ؛ فاطلعت فى القبة فإذا أنا بأسود نائم ، فأحَسَّ بى ففتح عينيه كأنهما إجَّانتَا دم ، فاستوى جالساً ، وإذا هو عظيم الصورة ، فقلت: يا أسود ، اسقنى من هذا الماء ، فقال: يا أسود اسقِنِى من هذا الماء ، محاكياً لى ، وقال : إن كنت عطشاناً فانزل واشرب ، وكان تحتى برذون خبيث نَفُور ، فخشيت أن أنزل عنه فينفر ، فضربت رأس البرذون، وما نفعنى الغناء قط إلا فى ذلك اليوم ، وذلك أنى رفعت عقيرتى وأنا أغنى:

كَفِّنُونِى إن مت فى دِرْعِ أرْوَى واسقوا لى من بئر عُرْوَةَ ماء[٣]
فلهـــا مربع بجنب أجاج ومصيف بالقصر قصر قباء
[سخنة فى الشتاء ، باردة فى الـــصيف ، بَدْرٌ فى الليلة الظلماء]

فرفع الأسود رأسه إلى ،وقال : أيما أحب إليك: أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء وسويقا ؟ قلت : الماء والسويق ، فأخرج قَعْباً له فصبَّ السويق فى القدح فسقانى ، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصدره ، ويقول : واحَرَّ صَدْرَاه ، وانارات اللهب فى فؤادى ، ياسولاى زدنى وأنا أزيدك ، وشربت السويق ، ثم قال لى : يا مولاى ، إن بينك وبين الطريق أميالا ، ولست أشك أنك تعطش ، لكن أملأ قربتى هذه وأحملها قدامك ، فقلت : افعل، قال : فملأ قربته وسار قُدَّامِى وهو يحجل فى مشيته غير خارج عن الإيقاع ، فإذا أمسكت لأستريح أقبل على فقال : يا مولاى ، [أما] عطشت ، فأغنيه النصب ، إلى أن أوقفنى على الجادة ، ثم قال لى : سِرْ رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم ، بكلام عجمى معناه هذا الدعاء ، فلحقت بالقافلة

(١) فى ب « إذ حملتنى عيناى » . (٢) فى ا « وتحتها بئرماء » .
(٣) فى ا « كفنانى إن مت » وفيها « واسقيانى من بئر »

والرشيد [كان] قد فقدنى ، وقد بثّ البُخْتَ والخيل فى البر يطلبوننى ، فسُرَّ بى حين رآنى ، فأتيته ، فقصصت عليه الأمر ، فقال : على بالأسود ، فما كان إلا هنيهة حتى مثل بين يديه ، فقال له : ويلك ! ! ماحر صدرك ؟ فقال : يامولاى ميمونة ، قال : ومَنْ ميمونة ؟ قال : [بنت] حبشية ، قال : ومن حبشية ؟ قال : بنت بلال يامولاى ، فأمر من يستفهمه ، فإذا الأسود عبد لبنى جعفر الطَّيَّار ، وإذا السوداء التى يهواها لقوم من ولد الحسن بن على . فأمر الرشيد بابتياعها له ، فأبى مواليها أن يقبلوا لها ثمنا ، ووهبوها للرشيد ، فاشترى الأسْوَدَ وأعتقه، وزوجه منها ، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلثمائة دينار .

ودخل ابن السماك على الرشيد [يوماً] وبين يديه حمامة تلتقط حبا ، فقال له : صفها وأوجز ، فقال : كأنما تنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفة آ ذَنَها إلفٌ ببين
ذاتُ طَوْقٍ مثل عَطْف الـــنون أقنَى الطرفين
وتراها ناظرة نحــوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاسَ من ثقــبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتــين لها قادمتين
ولها لحيانِ كالصد غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا وانِ مثل الوردتين (١)
نسجت فوق جناحيــها لهــا برنوستين (٢)
وهى طاووسية اللـــون بنان المنكبين
تحت ظل من ظلال الـــأيك صافى الكتفين
فَقَدَتْ إلفاً فناحت من تباريح وبين

(١) فى ا « حمراوان كالمرجانتين » . (٢) فى ا « برنستين » .

Marfat.com

فَهْىَ تبكيه بلا دمـــع جمود المقلتين
وهى لا تصبغ عينا ها كما تصبغ عينى

بين الرشيد ومعن ابن زائدة

ودخل مَعْنُ بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه ، فمشى فقارب الخطو[1] فقال له هرون : كبرت والله يامعن ، قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين قال : وإن فيك على ذلك لبقية ، قال : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لَجَلْدٌ ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين . فرضى عنه وولاه .

قال : وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال: وَيْحَ هذا !! ما ترك لربه شيئا .

وقال الرشيد يوماً لمعن بن زائدة : إنى قد أعددتك لأمر كبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعدَّ لك منى قلبا معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة بطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً عَلَى عدوك ، فإن شئت فقل ، وقيل : إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد .

بين الرشيد والكسائى

وقال الكسائى : دخلت عَلَى الرشيد ، فلما قضيت حقَّ التسليم والدعاء وثَبَتُّ للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خَفَّ عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق إلا خاصته ، فقال لى : ياعَلِيُّ ، ألا تُحِبُ أن ترى محمداً وعبد الله ؟ قلت : ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين ، وأمرنى بمعاينة نعمة الله عَلَى أمير المؤمنين فيهما ، فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما[2] حتى وقفا عَلَى باب المجلس ، فسلما عَلَى أبيهما بالخلافة ، ودَعَوَا له بأحسن الدعاء . فأمرهما بالدُّنو منه [فدنوَا] فصيَّرَ محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه . ثم قال لى : يا علىُّ ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين [هما] كما قال الشاعر :

---

(١) فى ا « فمشى متقارب الخطو » . (٢) فى ا « وتقارب خطوهما » .

Marfat.com

أرى قمرَىْ مَجْدٍ وفرعَىْ خلافةٍ يزينهما عرق كريم ومحتد[1]

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مَغْرِسه ، وتمكنت فى الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر ، نافذ[2] الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما[3] [ثم قلت لهما : هل ترويان من الشعر شيئا ؟ فقالا : نعم ، ثم أنشدنى محمد :

وإنى لَعَفٌّ الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلى

وأجعل مالى دون عِرْضِىَ جُنَّة لنفسى ، ومفضال بما كان من فضل

ثم أنشد عبد الله :

بكرت تلومُك مَطْلَعَ الفجر ولقد تلوم بغير ما تدرى

مَلَكَ الأمور علىَّ مقتدر يُعْطِى إذا ما شاء من يُسْر

ولربَّ مغتبط بمرزئة ومفجع بنوائب الدهر

وترى قَنَاتِى حين يغمدها عَضُّ الثقاف بطيئةَ الكسر][3]

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذْرَبَ ألسنا ولا أحسن ألفاظا ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منهما ، ودعوت لهما دعاء كثيراً ، وأمَّنَ الرشيد على دُعائى ، ثم ضمهما إليه[4] ، وجمع يده عليهما ، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، فلما خرجا أقبل علىَّ فقال : كأنك بهما وقد حُمَّ القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتّتتْ كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى ، قلت : أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما أو لأثر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما ؟ فقال : لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء .

(١) فى ا « يزينهما عرف كريم » (٢) فى ا « أبوهما أعز نافذ الأمر » .
(٣) ما بين القوسين ساقط من ب (٤) فى ا « ثم ضمهما إلى صدره » .

Marfat.com

وصية الرشيد لمؤدب الأمين الأحمر النحوى

قال الأحمر النحوى : بعث إلىَّ الرشيدُ لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصَيِّرَ يدكَ عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وَرَوِّهِ الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، وَرَفْع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تخْرُق به(١) فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيَسْتَحْلِيَ الفراغ ويألفه ، وقوِّمْهُ ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهُمَا فعليك بالشدة والغلظة.

العمانى عند الرشيد يحرضه على تجديد العهد للأمين

ويقال : إن العمانىَّ الشاعر قام بحضرة الرشيد [خطيباً] فلم يزل يقرظ محمداً ويُحَرضه(٢) على تجديد العهد له ، فلما فرغ من كلامه قال له : أبشر يا عمانىُّ بولاية العهد له ، فقال : إى والله يا أمير المؤمنين سُرُور العُشْبِ بالغيث ، والمرأة النزُورِ بالولد ، والمريض المدنف بالبرء(٣) ، لأنه نسيجُ وَحْدِهِ ، وحامى مجده ، وشبيه حده ، قال : فما تقول فى عبد الله ؟ قال : مَرْعًى ولا كالسَّعْدَان ، فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله ! [من أعرابى] ما أعرفه بمواضع الرغبة ، أما والله إنى لأتعرف فى عبد الله حَزْمَ المنصور ، ونسك المهدى ، وعز نفس الهادى ، والله لو شاء الله أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته إليها.

حرص الرشيد على ولاية عهده

قال الأصمعى : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى [أخرى] ثم أنشأ يقول :

قَلِّدْ أمور عبــاد الله ذا ثقة　　مُوحَّدَ الرأى لا نكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوى خطل　　لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيما ، ثم قال لمسرور الخادم : على بيحيى ، فما لبث أن أتاه فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والإسلام جَذَعٌ ، والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد

---

(١) فى ب « من غير أن يخرق بك » .

(٢) فى ب « فلم يزل يحرض محمدا ويحضه »　　(٣) فى ا « بالعافية » .

آمَنَهَا الله تعالى بعد الخوف ، وأعزَّهَا بعد الذل ، فما لبث أن ارْتَدَّ عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خبره ما قد علمت ، وإن أبا بكر صَيَّر الأمر إلى عمر ، فسلَّمتِ الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شُورَى ؛ فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى مَنْ أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووَهْنَه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه ؛ وعبد الله المرضِىُّ الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ؛ فإن مِلْتُ إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشِرْ علىَّ فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مُبَارَك الرأى لطيف النظر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى[1] خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة[2] ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت : ما أنصفت ابنك محمداً حيث وَلَّيْته العراق وأعرَيته عن العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه ، فقال لها : وما أنت وتميز الأعمال واختبار[3] الرجال ؟ إنى وَلَّيت ابنك السِّلْم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحْوَجُ إلى الرجال من المسالِم ، ومع هذا فإنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع .

---

(١) فى ا « وكل أمر يتلافى » . (٢) فى ا « فى محادثة ومناظرة » .
(٣) فى ا « وأخبار الرجال » .

Marfat.com

الرشيد يعلق كتاب العهد فى الكعبة

وفى سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجاً ومعه وَلِيَّا عَهْدِهِ : الأمين والمأمون ، وكتب الشرطين بينهما وعَلَّقهما فى الكعبة .

وحكى عن إبراهيم الحَجَبِى[1] أن الكتاب لما رُفع ليعلق بالكعبة وقع ، فقلت فى نفسى : [وقع] قبلَ أن يرتفع ، إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه .

وحكى عن سعيد بن عامر البصرى قال : حججت فى هذه السنة وقد استعظم الناسُ أمر الشرط والأيمان فى الكعبة ، فرأيت رجلا من هُذَيْلٍ يقود بعيره وهو يقول :

وبيعة قد نكثت أيْمَانُهَا   وفتنة قد سُعِّرَت نيرانها

فقلت له : وَيْحك ما تقول ؟ ! قال : أقول إن السيوف ستُسَل ، والفتنة ستقع ، والتنازع فى الملك سيظهر ؛ قلت : وكيف ترى ذلك ؟ قال : أما ترى البعير واقفاً والرجلان يتنازعان والغُرَابان قد وقعا[2] على الدَّم والتطخا به ، والله لا يكون آخِرُ هذا الأمر إلا محاربة وَشَرًّا .

ويروى أن الأمين لمَّا حلفَ للرشيد بما حلفَ له به ، وأراد الخروج من الكعبة رَدَّ جعفر بن يحيى ، وقال له : فإن غدرتَ بأخيك خَذَلَك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثاً [فى] كلها يحلف له ، وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى ؛ فكانت أحَدَ من حَرَّض الرشيد على أمره ، وبعثته على ما نزل به .

قال المسعودى : وفى سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه ، إن شاء أن يقرّه أقرّه ، وإن شاء أن يخلعه خلعه .

وفاة الفضيل ابن عياض

وفى هذه السنة ــ وهى سنة سبع وثمانين ومائة ــ توفى الفُضَيْلُ بن عياض

(١) فى ا « إبراهيم النخعى » .
(٢) فى ا « قد وقفا على الدم » .

Marfat.com

ويكنى أبا على ، وكان مولده بخراسان ، وقدم الكوفة ، وسمع من المنصور ابن المعتمر وغيره ، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات .

حدث سفيان بن عُيَيْنَةَ قال : دعانا الرشيد ، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه ، فقال لى : يا سفيان ، أيهم أمير المؤمنين ؟ فقلت : هذا ، وأومأت إلى الرشيد ، فقال [له] : أنت يا حَسَنَ الوجه ، الذى أَمْرُ هذه الأمة فى يدك وعنقك ؟ لقد تَقَلَّدْتَ أمراً عظيماً ، فبكى الرشيد ، ثم أتى كل رجل منا ببدرة ، فكلٌّ قبلها إلا الفضيل ، فقال له الرشيد : يا أبا على ، إن لم تستحلها فأعطها[1] ذا دين ، وأشبع بها جائعًا ، واكْسُ بها عريانًا ، فاستعفاه منها ، فلما خرجنا قلت له : يا أبا على ، أخطأت ، ألا أخذتها وصرفتها فى أبواب البر ، فأخذ بلحيتى ثم قال : يا أبا محمد ، أنت فقيه البلد [والمنظور إليه] وتغلط مثل هذا الغلط ؟ لو طابت لأولئك لطابت لى .

موت موسى ابن جعفر الطالبى

وقبض موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ببغداد مسمومًا ، لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد ، سنة ست وثمانين ومائة ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا فى رسالةِ بيانِ أسماء الأئمة القطعية من الشيعة : أسماءهم ، وأسماء أمهاتهم ، ومواضع قبورهم ، ومقادير أعمارهم ، وكم عاش كل واحد منهم مع أبيه ، ومن أدرك من أجداده عليهم السلام .

من شعر العتابى فى الرشيد

ولكلثوم العتابى فى الرشيد من أبيات :

إمَامٌ لَهُ كَفٌّ يَضُمُّ بَنَانُهَا ... عَصَا الدِّينِ ممنوعٍ مِنَ البر عُودُهَا
وَعَيْنٌ مُحِيطٌ بِالْبَرِيَّةِ طَرْفُهَا ... سَوَاءٌ عليها قُرْبُهَا وبعيدها
وأسمعَ يقظانًا يبيت مُنَاجِيًا ... له فى الحشا مُسْتَوْدَعَاتٍ يكيدها
[سَمِيعٌ إذا ناداه مِنْ قَعْرِ كُرْبَةٍ ... مُنَادٍ كَفَتْهُ دعوة لا يُعيدها]

حدث يموت بن المزرع قال: حدثنى خالد عن عمرو بن بحر الجاحظ ، قال :

---

(١) فى ا « إن لم تستحل أخذها فأعطها » .

العتابى ينال من أبى نواس

كان كلثوم العتابى يضع من قدر أبى نُوَاسٍ ، فقال له راوية أبى نُوَاس يوماً : كيف تضع مِنْ قدر أبى نُوَاس وهو الذى يقول :

إذا نَحْنُ أثنينا عليكَ بِصَالِحٍ فأَنْتَ الذى نُثْنِي وَفَوْقَ الذى نُثْنِي[1]

وإن جَرَتِ الألفاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ لغيرِكَ إنْسَاناً فأنتَ الذى نَعْنِي

قال العتابى : هذا سرقَةٌ ، قال : ممن ؟ قال : من أبى الهذيل الجمحى [قال : حيث يقول ماذا ؟ قال :] حيث يقول :

وإذا يقال لبعضهم نِعْمَ الفتى فابْنُ المُغِــيرَةِ ذلك النعم

عَقِمَ النِّسَاءُ فلا يَجِئْنَ بمثله إن النِّســــاءَ بمثله عُقْمُ

قال : فقد أحسن فى قوله :

فَتَمَشَّتْ فى مفاصـــلهم كَتَمَشِّى البرء فى السَّقَمِ

قال : سرقَةٌ أيضاً ، قال له : وممن ؟ قال : من شَوْسَةَ الفقعسى[2] ، [قال : حيث يقول ماذا ؟ قال :] حيث يقول :

إذا ما سَقِيمٌ حَلَّ عنها وِكَاءَهَا تَصَعَّدَ فِيــهِ بُرْؤُهَا وَتَصَوَّبَا

وَإنْ خَالَطَتْ منه الحشا خِلْتَ أنه على سَالِفِ الأيام لم يَبْقَ مَوصبا

قال : فقد أحسن فى قوله :

وما خُلِقَتْ إلاّ لِبَذْلٍ أكُفُّهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إلاّ لأعْوَادِ مِنْبَرِ

قال : قد سرقَهُ أيضاً ، قال : ممن ؟ قال : من مَرْوان بن أبى حفصة ، [قال : حيث يقول ماذا ؟ قال :] حيث يقول :

وما خُلِقَتْ إلاّ لِبَذْلٍ أكُفُّهُمْ وَألْسُنُهُمْ إلاّ لِتَحْبِيرِ مَنْطِقِ

فيومًا يُبَارُونَ الرِّيَاحَ سَمَاحَةً ويومًا لِبَذْلِ الخاطِبِ المُتَشَدِّقِ

قال : فسكت الرَّاوِيَةُ ، ولو أتى بشعره كله لقال سرقَةٌ .

أبو العتاهية وعتبة

وحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد فى عُتْبَةَ ، فوعده بتزويجها وأنه يسألها فى ذلك : فإن أجابت

(١) المحفوظ « فأنت كما نثنى » . (٢) فى ب « سوسة الفقعسى »

Marfat.com

جهزها وأعطاه مالا عظيما ، ثم إن الرشيد سَنَحَ له شغل استمر به ، فَحُجِبَ أبو العتاهية عن الوصول إليه ، فدفع إلى مسرور [الخادم] الكبير ثلاث مراوح ، فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم ، وكانت مجتمعة ، فقرأ على واحدة منها مكتوبًا :

ولقد تَنَسَّمْتُ الرياحَ لحاجَتِي فإذا لها مِنْ رَاحَتَيْهِ شَمِيمُ

فقال : أحسن الخبيث ، وإذا على الثانية :

أَعْلَقْتُ نفسى من رجائك ماله عَنَقٌ يحثُّ إليك بى ورسيم

فقال : قد أجاد ، وإذا على الثالثة :

ولربما اسْتَيْأَسْتُ ثم أقول: لا إن الذى ضَمِنَ النجاحَ كريم

فقال : قاتله الله ! ! ما أحْسَنَ ما قال ، ثم دعا به ، وقال : ضمنت لك يا أبا العتاهية وفى غد نقضى حاجتك إن شاء الله ، وبعث إلى عتبة إن لى إليك حاجة فانتظرينى الليلة فى منزلك ، فأكبرت ذلك وأعظمته ، وصارت إليه تستعفيه ، فحلف أن لا يذكر لها حاجته إلا فى منزلها ، فلما كان [فى] الليل سار إليها ومعه جماعة من خَوَاصِّ خدمه ، فقال لها : لست أذكر حاجتى أو تضمنين قضاءها ، قالت : أنا أَمَتُكَ وأمرك نافذ فىّ ما خلا أمر أبى العتاهية فإنى حلفت لأبيك رضى الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافيةً كلما انقضت عنى حَجَّة وجبت علىَّ أخرى لا أقتصر [منها] على الكفارة ، وكلما أفدت شيئًا تصدقت به إلا ما أصلى فيه ، وبكت بين يديه ، فَرَقَّ لها ورحمها وانصرف عنها ، وغدا عليه أبو العتاهية [وهو لا يشك فى الظفر بها] فقال له الرشيد : والله ما قَصَّرْتُ فى أمرك ، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شُهُودٌ لى بذلك ، وشرح له الخبر[1] ، قال أبو العتاهية : فلما أخبرنى بذلك مكثت مليا لا أدرى أين أنا ، ثم قلت : الآن يئست منها إذ رَدَّتْكَ ، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك ، فلبس أبو العتاهية الصوف ، وقال فى ذلك من أبيات :

(١) فى ا « وشرح له الأمر » .

Marfat.com

قَطَّعْتُ مِنْك حبَائلَ الآمَالِ وَحَطَطْتُ عن ظَهْرِ المَطِيِّ رِحَالِي

وَوَجَدْتُ بَرْدَ اليَأْسِ بَيْنَ جوَانِحِي

فَغَنِيتُ عن حِلٍّ وعن تَرْحَالِ

وذكر أنه لمَّا اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية [فى عُتْبة] :

ألا إن ظَبْياً للخليفةِ صادنى ومالى على ظبى الخليفة مِنْ عدوى[1]

غضب الرشيد. وقال : أسخر منا فعبث ، وأمر بحبسه، فدفعه إلى تَنْجاب صاحب عقوبته ، وكان فَظًّا غليظاً ، فقال أبو العتاهية :

تَنْجَاب لا تَعْجَلْ عَلَيَّ فليسَ ذَا مِنْ رَائِهِ

ما خِلْت هـذا فى مَخَا يِلِ ضَوْء بَرْقِ سَمَائِهِ

وكان من أشعاره فى الحبس بعد ما طال مكثه :

إنما أنت رَحْمَةٌ وَسَلامَهْ زادكَ اللهُ غِبْطَةً وَكَرَامَهْ

قيل لى: قد رَضِيتَ عَنِّى، فمن لى أن أرَى لى على رِضَاكَ عَلامَهْ

فقال الرشيد : لله أبوه ! لو رأيته ما حبسته ، وإنما سمحت نفسى بحبسه لأنه كان غائباً عنى ، وأمر بإطلاقه .

وأبو العتاهية الذى يقول :

نُرَاعُ لِذِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْرِه وَنَعْتَرُّ بالدُّنيا فَنَلْهُو وَنَلْعَبُ

ونحن بَنُو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها وما كُنْتَ فيهِ فهو شَيْءٌ مُحَبَّبُ

وهو الذى يقول أيضاً :

حُتُوفُهَا رَصَدٌ ، وعيشُهَا رَنَقٌ وَكَدُّهَا نَكَدٌ ، وَمُلْكُهَا دُوَلُ

وهو الذى يقول :

المَرْءُ فى تَأْخِيرِ مُدَّتِهِ كالثوب يَبْلَى بعد جِدَّتِهِ

(١) فى ب « ومالى عن ظبى الخليفة » .

Marfat.com

عجباً لمنتبه يُضَيِّــعُ ما يحتاج فيــه ليوم رَقْدَتِهِ

وقال :

لا تأمن الدنيا على غَــدْرها كم غَدَرَتْ قَبْلُ بأمثالكما
قد أجْمَعَ النــاسُ على ذمها وما أرى منهم لها تاركا(١)

وقال :

إنما أنت مستعير لمـا سَوْ فَ تردَّنَّ ، والمُعارُ يُرَدُّ
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيّا مٍ عليه الأنفاس فيهـا تُعَدُّ ؟!

وقال :

حياتك أنفاسٌ تعدُّ ، فـكلما مضى نَفَسٌ منها نقصت به جُزْءا
[يُميتُكَ مايحييك فى كل ساعة ويحدوكَ حادٍ مايريد بك الهزءا]

وقال :

ألا ياموت لم أر منك بدا أتيت بما يخيف ولا تُحَابِى
كأنك قد هجمت على مَشِيبِى كما هجم المشيب على شبـابى

وقال :

نسيت الموت فيما قد نسيت كأنى لم أجِدْ أحَـداً يموت(٢)
أليس الموت غاية كل حى فمالى لا أبادر ما يفوت

وقال :

وعَظَتْكَ أجْـدَاثٌ صُمُتْ وبكتك ساكنة خفـت
وتـكلّمت عن أعظُمٍ تَبْلَى وعن صـور سبت
وأرَتْكَ قبرك فى القبـو ر وأنت حَىٌّ لم تمتْ

وقال :

ومُشَيِّدٍ داراً ليسكن ظلها سكنَ القبورَ ، ودَارَهُ لم يَسْكُنِ

(١) فى ا « اجتمع الناس على ذمها » (٢) فى ا « كأنى لاأرى أحدا يموت »

Marfat.com

إسحاق الموصلى يغنى للرشيد

حدث إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه إذ طرب لغنائى ، وقال: لاتبرحْ ، ولم أزل أغنيه حتى نام ،فأمسكت، ووضعت العود فى حجرى[1] ، وجلست مكانى ، فإذا بشاب [صبيح الوجه] حسن القدّ عليه مقطّعات خز وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس ، فجعلت أعجب من دخوله فى ذلك الوقت إلى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت فى نفسى : عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره ، فضرب بيده إلى العود ، فأخذه ووضعه فى حجره وجَسَّه ، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله ، ثم أصلحه إصلاحًا ما أدرى ما هو ، ثم ضرب ضربًا ، فما سمعت أذنى صوتًا أجود منه ، ثم اندفع يغنى :

ألا عَلِّلَانِى قبـــل أن نتفرَّقَا وهات اسقنى صرفًا شرابًا مُرَوَّقَا
فقد كادضوءالصبح أن يَفْضَحَ الدجى وكاد قميص الليل أن يتمزَّقَا

ثم وضع العود من حجره ، وقال : ياعاضَّ بَظْرِ أمه ، إذا غنيت فغن هكذا ، ثم خرج ، فقمت على أثره ، فقلت للحاجب : من الفتى الذى خرج الساعة ؟ فقال : مادخل هنا أحد ولا خرج [قلت : نعم الساعة مرَّ بين يَدَىَّ فَتًى صفته كيت وكيت ، قال : لا والله مادخل أحد ولاخرج]فبقيت متعجبًا ، ورجعت إلى مجلسى ، وانتبه الرشيد فقال : ما شأنك ؟ فحدثته القصة ، فبقى متعجبًا ، وقال:لقد صادَفتَ شيطانًا ، ثم قال: أعِدْ علىَّ الصوت، فأعدته عليه ، فطرب طربًا شديدًا ، وأمر لى بجائزة ، وانصرفت .

جماعة المغنين عند الرشيد

وحدث إبراهيم الموصلى قال : جمع الرشيد ذاتَ يومٍ المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر ، وكنت فيهم ، وحضر معنا مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان يوقع بالقضيب ، مطبوعًا حاذقًا ، طيب العشرة ، مليح البادرة ، فاقترح الرشيد — وقد عمل فيه النبيذ — صوتًا ، فأمر صاحبُ الستارة ابنَ جامعٍ أن يغنيه ، ففعل ، فلم يطرب عليه ، ثم فعل [مثل] ذلك بجماعة ممن حضر ، فلم يحرك منه أحد ، فقال صاحب الستارة

(١) فى ا « من حجرى » .

Marfat.com

لمسكين المدنى : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنيه [؟]، قال إبراهيم : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعا متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة ، قال إبراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول [وقد رفع صوته] : يا مسكين أعده ، فأعاده بقوة ونشاط [واجتماع قلب، فأحسن فيه كل الإحسان] فقال الرشيد : أحسنت [والله يامسكين] وأجملت ، ورفعت الستارة بيننا وبينه ، قال مسكين : يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً [عجيبا] قال : وماهو ؟ قال: كنت عبداً خيّاطًا لبعض آل الزبير ، وكان لمولاى علىّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين، فإذا دفعت ضريبتى تصرفت فى حوائجى، [وكنت مُولعًا بالغناء محبًا له] نخِطْتُ يومًا قميصًا لبعض الطالبِيِّينَ ، فدفع إلىّ درهمين وتغديت [عنده] وسقانى أقداحا ، نخرجت وأنا جذلان ، فلقيتنى سوداء على رقبتها جَرّة وهى تغنى هذا الصوت ، فأذهانى عن كل مُهِمٍّ ، وأنسانى كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر إلا ألقيْتِ علىّ هذا الصوتَ ، فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ، فأخرجت [والله يا أمير المؤمنين] الدرهمين فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب فى صدرى ، ثم انصرفتُ إلى مولاى ، فقال لى : هَلُمَّ خراجك ، فقلت: كان وكان،فقال: يا ابن اللخناء ، [ألم أتقدم إليك أنى لا أقبل لك عذراً فى حبة تكسرها ؟] وبَطَحَنِى وضربنى [خمسين جريدة بأشد ضرب يكون] وحلق لحيتى ورأسى ، فبتُّ يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالا ، وأنسيت الصوت مما نالنى ، فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لاأعرف اسمها ولامنزلها ، إذ نظرتُ بها مقبلة ، فأنسيت كل مانالنى وملت إليها ، فقالت : أنُسِيت الصوت وربِّ الكعبة ، فقلت : الأمر كما ذكرت، وعرفتها مامر بى من حلق الرأس واللحية ، فقالت : وحق القبر ومن فيه لافعلت إلا بدرهمين،فأخرجت جلمى[1] ورهنته على درهمين، فدفعتهما إليها،

(١) الجلم : المقص ، وكان هو خياطا كما قال فى أول القصة .

Marfat.com

فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فمرت فيه ثم قالت : كأني بك [وقد أخذت] مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ، [من الخليفة ، ثم اندفعت تغنيه وتوقع على جرتها ، فلم تزل تردده حتى رسخ في صدري ، ثم مضت،و] انصرفت إلى مولاي وَجِلاً ، فقال : هلم خراجك ، فلويت لساني ، فقال : يا ابن اللخناء ، ألم يكفك ما مر عليك بالأمس ؟ فقلت : إني أعرفك أني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ، فقال لي : ويحك ! ! معك مثل هذا الصوت [منذ يومين] ولم تعلمني ، امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك [فأما حلق الرأس واللحية فلا حيلة لي فيهما ، وأما خراجك فقدوهبه الله لك إلى أن ينبت شعرك ، قال : فضحك الرشيد وقال : ويلك !! ما أدري أيما أحسن : حديثك ، أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشعر :

قف بالمنازل ساعة فتأمل هل بالديار لرائد من منزل ؟
ما بالديار من البلى فلقد أرى فلسوف أحمل للبلى في محمل

الرشيد يجري حلبة الخيل

وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة ، فلما أرسلت صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى إليه الخيل ، فوقف على فرسه وكان في أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها فقال: فرسي والله ، ثم تأمل الآخر فقال : فرس ابني المأمون ، قال : فجاءا يحتكان أمام الخيل ، وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية،فسر بذلك ، ثم جاء الخيل بعد ذلك ، فلما انقضى المجلس وهَمَّ بالانصراف قال الأصمعي — وكان حاضراً [وقد تبيَّنَ سرور الرشيد] — للفضل بن الربيع : يا أبا العباس ، هذا يوم من الأيام فأحبُّ أن توصلني إلى أمير المؤمنين ، وقام الفضل فقال: يا أمير المؤمنين ، هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً ، قال : هاته ، فلما دنا قال : ماعندك يا أصمعي ؟ قال: يا أمير المؤمنين ، كنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء :

جارَى أباه فأقبلا وهما يتنازعان مُلاءَةَ الحُضْرِ
وهما كأنهما وقد بَرَزَا صَقْرَانِ قد حَطا على وكر

برزت صفيحة وجه والده ومضى على غُـلَوَائِهِ يجرى
أولىٰ فأَوْلىٰ أن يقاربه لولا جلال السن والـكبر

طبق سمك يتكاف ألف درهم

حدث إبراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص [مثل] قريص السمك ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صَغَّر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك ، قال : فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئًا دون أن يُحْضِره ألفَ درهمٍ (١) فلما حضر المال أمر أن يتصدق به . وقال : أرجو أن يكون كفارة لسَرَفِكَ فى إنفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : [اخرج من دار أخى ، ثم انظر] أول سائل تراه فادفعه إليه ، قال إبراهيم : وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين دينارا ، فغمزت بعض خدمى للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه ، وفطن الرشيد فقال له : ياغلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتى دينار فإنه خير منها ، ففعل الخادم ذلك ، فوالله ما أمكن خادمى أن يخلصه من السائل إلا بمائتى دينار .

أحسن الأسماء وأسمجها

وقال إبراهيم بن المهدى : كنت أنا والرشيد على ظهر حَرَّاقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يمدون ، والشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال لى الرشيد : يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك ؟ قلت : اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فما الثانى بعده ؟ قلت : اسم هرون اسم أمير المؤمنين ، قال: فما أسمجها ؟ قلت إبراهيم ، فزأرنى (٢) وقال : ويلك ! ! [أليس هو اسم] إبراهيم خليل الرحمن جل وعز ، قلت بشؤم (٣) هذا الاسم لقى ما لقى من نمروذ ، قال : وإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : لاجَرَمَ لما

(١) فى الأصول «يحضره مراقب ألف درهم» ولاشك أن كلة «مراقب» مقحمة .
(٢) فى ا« فزحرنى » . (٣) فى ا « لشؤم هذا الاسم » .

Marfat.com

سمى بهذا الاسم لم يَعِشْ ، قال : فإبراهيم الإمام ، قلت : بحرفة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة ، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع ، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ، ولم أجد أحداً سمى بهذا الاسم إلا رأيته مقتولا أو مضروباً أو مطروداً ، فما انقضى كلامى حتى سمعت مَلَّاحاً على بعض الحَرَّاقات يهتف بأعلى صوته : يا إبراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه مدَّ ، فالتفت إلىَّ الرشيد [فقلت : يا أمير المؤمنين ، أصدقت قولى إن أشأم الأسماء إبراهيم] فضحك حتى فحص برجله .

أدب مخاطبة الأمراء

قال : وكنت يوماً عنده فإذا رسول عبد الله [قد أتى ، و] معه أطباق خيزران عليها مناديل ، ومعه كتاب ، فجعل الرّشيد يقرأ الكتاب ويقول: بَرَّه الله ووصله [فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الذى أطنبت فى شكره حتى نشركك فى جميل شكره ؟] قال : هذا عبد الله بن صالح ، ثم كشف المنديل ، فإذا [أطباق] بعضها فوق بعض : فى أحدها فستق ، وفى الآخر بندق ، إلى غير ذلك من الفاكهة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما فى هذا البر ما يستحق به هذا الدعاء ، إلا أن يكون فى الكتاب شىء قد خفى علىَّ ، فنبذه إلى ، فإذا فيه : دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً لى فى دارى عمرته بنعمتك ، وقد أينعت فواكهه ، فأخذت من كل شىء ، وصيرته فى أطباق قُضْبَان ووجهته إلى أمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه [مثل] ما وصل إلىَّ من نوافل بره ، قلت : ولا والله ما فى هذا أيضاً ما يستحق به هذا ، فقال: ياغبى أما ترى كيف كنى بالقضبان عن الخيزران إعظاماً لأمِّنَا رحمها الله تعالى.

رجل يتعرض للرشيد بقصة فيثيبه بأربعة آلاف دينار

و [يروى أنه] وقف رجل من بنى أُمية للرشيد على الطريق وبيده كتاب كالقصة ، فإذا فيه أربعة أبيات ، وهى :

يا أمين الله ، إنى قائلٌ قَوْلَ ذى لب وصدق وحَسَبْ
لكُمُ الفضل علينا ، ولنا بكُمُ الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشماً وهما بعدُ لأم ولأب
فصِلِ الأرحام منا ، إنما عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطلب

Marfat.com

[فاستحسن ذلك الرشيد] فأمر له لكل بيت بألف دينار ، وقال : لو زدتنا لزدناك.

السكر أطيب أو المشان

[وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضى وعبد الوهاب الكوفى فى مجلسه ، فتذاكروا الرُّطَبَ ، فقال أبو يوسف : السكر أطيب من المشان ، وقال عبد الوهاب : المشان أطيب ، فقال الرشيد : ليحضر الطعام ، ودعا بعدة من بنى هاشم كانوا هناك ، فأقبلوا جميعاً على السكر ، وتركوا المَشَان ، فقال الرشيد: قَضَوْا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون ، فقال أبو عبد الرحمن: إنى لم أر مشان قط أردأ من هذا ، فقال له أبو يوسف : هكذا هما إذا اجتمعا] .

تعزية وتهنئة

ودخل عبد الملك بن صالح عَلَى الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب فى هذه الليلة بولد وولد له ولد، فعزٍّ وهَنٍّ ، فلما مثل قال : يا أمير المؤمنين ، سرك الله فيما ساءك ، وجعل هذه لهذه ثواباً للصابر وجزاء للشاكر .

علة الرشيد

ولما اشتدت علة الرشيد وصار إلى طوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هَوَّنَ عليه الأطباء علَّته ، فأرسل إلى متطبب فارسى كان هناك ، فأراه ماءه مع قوارير شتى، فلما انتهى إلى قارورته قال: عَرِّفُوا صاحب هذا الماء أنه هالك فليوص؛ فإنه لا برء له من هذه العلة ، فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذى قد كان يبرىء مثله فيما مضى ؟

واشتد ضعفه ، وأُرْجِفَ الناس بموته، فدعا بحمار ليركبه ، فلما صار عليه سقطت فخذاه فلم يثبت على السرج ، فقال : أنزلونى صدق المرجفون ، ثم دعا بأكفان فاختار منها ما أراد ، وأمر بحفر قبر ، فلما اطلع فيه قال : (ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه) ثم دعا بأخى رافع ، فقال : أزعجتمونى حتى تجشَّمْتُ هذه الأسفار مع علتى وضعفى ، وكان أخو رافع ابن الليث ممن خرج عليه ، قال: لأقْتُلَنَّكَ قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك ، ثم أمر ففصل عضواً عضواً ، واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون؛ وقد ذكرنا خبره فى غير هذا الكتاب ؛ ثم دعا من كان بعسكره من بنى هاشم فقال :

Marfat.com

إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بَال ، وقد نزل بى ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ؛ وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردُّوهُ عن بغيه وقبحوا له بغيه(١) ونكثه ، وأقطع فى ذلك اليوم أموالا [كثيرة] وضياعاً [ورباعاً] .

شعر لأبى العتاهية يبكى الرشيد

قال الرياشى : قال الأصمعى : دخلت على الرشيد وهو ينظر فى كتاب ودموعُه تنحدر على خدَّيْه ، فظللت قائماً حتى سكن، وحان منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعى ، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبى العتاهية بخط جليل ، وهو :

هل أنت مُعتبرٌ بمن خَلِيَتْ ... منه غَدَاةَ مضى دساكره
وبمن أذلَّ الموت مصرعه ... فتبرأت منه عشائره
وبمن خَلَتْ منه أسِرَّتُهُ ... وبمن خلت منه منابره
أين الملوك وأين غيرهُمُ ؟ ... صاروا مصيراً أنت صائره
يا مُؤْثر الدنيا بلذته ... والمستعد لمن يفاخره
نَلْ مابدالك أن تنال من الدنيا ... فإن الموت آخره

ثم قال الرشيد : كأنى والله أخاطَبُ بذلك دون الناس ، فلم يلبث بعد إلا يسيراً حتى مات .

قال المسعودى : قد ذكرنا جملا [وجوامع] من أخبار الرشيد [فيما سلف من كتبنا ، وفى هذا الكتاب ، ولم نذكر فيما سلف من أخبار الرشيد فى هذا الكتاب شيئاً من أخبار البرامكة ، فلنذكر الآن جملا من أخبارهم فى باب نفرده له ، نذكر فيه السعود من أيامهم والنحوس ، وإن كنا قد أتينا على سائر أخبارهم والزُّهْرِ من أيامهم فيما سلف من كتبنا] والله ولى التوفيق .

---

(١) فى ا « وقبحوا له غدره » .

Marfat.com

ذكر جمل من أخبار البرامكة(١)

[وما كان منهم فى أيامهم]

أسماهم خالد ابن برمك

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله ، لا يحيى فى رأيه [ووفور عقله] ولا الفضل فى جوده [وبراعته] ولا جعفر ابن يحيى فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى فى سروه وبعد همته ، ولا موسى ابن يحيى فى شجاعته [وبأسه] ، وفيمن ذكرنا يقول [أبو الغول] الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهُمُ أربعـــة سيد ومتبوع

الخير فيهم إذا سألت بهم مُفرَّقٌ فيهمُ ومجمـــوع

سبب نكبتهم

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا(٢) الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه ، وكان إيقاعه بهم فى سنة سبع وثمانين ومائة ، واختلف فى سبب ذلك : فقيل احتياز(٣) الأموال ، وأنهم أطلقوا رجلا من آل أبى طالب كان فى أيديهم ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم

الفضل بن يحى يتشاغل بالصيد فيزجره أبوه بأمر الرشيد

ويحكى أنه ورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان ، ويحيى ابن خالد بين يديه ، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغلَ بالصيد و [إدمان] اللذات عن النظر فى أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى ، وقال له: يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه كتاباً يَرْدَعُه عن مثل هذا ، فمدّ يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد : حفظك الله يا بنى ، وأمتع بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر فى أمور الرعية ما أنكره ، فعاود ما هو أزْيَنُ بك ، فإنه من عاد إلى ما يزينه [أو يشينه] لم يعرفه أهل دهره إلا به ، والسلام ، وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

(١) فى ا « ذكر البرامكة وأخبارهم » (٢) فى ا « فاحتجنوا »

(٣) فى ا « احتجان الأموال » .

Marfat.com

انْصَبْ نهاراً فى طِلاب العلا   واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مُقْبِلاً   واستترت فيه وجوه العيوب
فبادِرِ الليـــل بما تشتهى   فإنما الليـــل نهار الأريب(١)
كم من فَتًى تحسبه ناسكا   يستقبل الليـــل بأمر عجيب
ألقَى عليه الليـــلُ أستاره   فبات فى لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفةٌ   يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب [يحيى] فلما فرغ قال [له] : أبلغت يا أبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف عن عمله.

قال إسحاق [بن إبراهيم الموصلى] : كنت عند الرشيد يوماً ، وأحضر البرامكة الشراب ، وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنت :

أرِقْتُ حتى كأنى أعشق الأرَقَا   وذُبْتُ حتى كأن السقم لى خُلِقَا
وفاض دمعى على قلبى فأغرقه   يا من رأى غرقاً فى الماء محترقا(٢)

فقال الرشيد : لمن هذا ؟ فقيل : لخالد بن يزيد الكاتب [قال : علىّ به] قال خالد : فأحضرت ، فقال للجارية : أعيدى ، فأعادت ، فقال لى : لمن هذا ؟ فقلت : لى يا أمير المؤمنين ، فبينا نحن كذلك إذ أقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية :

سرورك ألهاك عن مَوْعِدِى   فصيرتُ تفاحتى تَذْكِرَهْ

فأخذ الرشيد تفاحة [أخرى] وكتب عليها :

تقاضيت وعدى ولم أنسه   فتفاحتى هذه معـــذره

ثم قال [له] : يا خالد ، قل فى هذا شيئاً ، فقال:

تفاحة خرجت بالدر من فيها   أشهى إلىّ من الدنيا وما فيها(٣)
بيضاء فى حمرة غلت بغالية   كأنما قطفت من خَدِّ مهديها

(١) فى ا «فكايد الليل بما تشتهى» (٢) فى ا «فمن رأى غرقا فى الماء محترقا»
(٣) فى ا « أشهى إلى من الدنيا بمافيها » .

Marfat.com

جعفر البرمكي عند الأصمعي

حدث الجاحظ [عمن أخبره] عن أنس بن أبي شيخ ، قال : ركب جعفر بن يحيى ذات يوم ، وأمر خادماً له أن يحمل [معه] ألف دينار ، وقال [له] : سأجعل طريقي على الأصمعي ، فإذا حدثني فرأيتني ضحكت فاجعلها بين يديه ، ونزل جعفر عند الأصمعي ، فجعل [الأصمعي] يحدثه بكل أعجوبة ونادرة تطرب وتضحك ، فلم يضحك ، وخرج من عنده ، فقال له أنس [بن أبي شيخ] : رأيت منك عجباً ، أمرت بألف دينار للأصمعي وقد حركك بكل مضحكة ، وليس من عادتك أن ترد إلى بيت مالك ما قد خرج عنه ، فقال له : ويحك !! إنه قد وصل إليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة ، فرأيت في داره حُبًّا مكسوراً وعليه دراعة خَلَقٌ ، ومقعداً وسخا ، وكل شيء [رأيته] عنده رثا ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مدحه وهجائه ، فعلى أي وجه أعطيه إذا كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه؟

وفي الرشيد وجعفر [بن يحيى] يقول الشاعر :

[ليهن الرشيد خلافاته وأمر الذي قد وهى عقده]
أضاف إلى بيعة بيعةً فقام بها جعفر وَحْدَهُ
بنو بَرْمَكٍ أسَّسُوا ملكه وَشَدُّوا لوارثه عهْدَهُ

مجلس عند يحيى بن خالد

و (قد) كان يحيى بن خالد ذا [علم ومعرفة و] بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل [الآراء و] النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجريح [ونفي الصفات وإثباتها ، والاستطاعة والأفعال] والكمية والكيفية ، والمضاف ، والإمامة أنصٌّ هي أم اختيار ، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع ، فقولوا الآن في العشق عَلَى غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ماسنح له فيه ، وخطر [إيراده] بباله.

Marfat.com

حديث لهم عن العشق

فقال على بن هيثم [وكان إمامىّ المذهب من المشهورين من متكلمى الشيعة] : أيها الوزير ، العشق ثمر[ة] المشاكلة ، وهو دليل تَمَازُجِ الروحين ، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة ، وصفاء الجوهر [وليس يحدُّ لسعته] ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمى ، وهو خارجى المذهب [وهم الشراة] : أيها الوزير ، العشق نَفْثُ السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطَّبْعَين ، وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صَيِّب المُزْنِ فى خلل الرمل [وهو ملك على الخصال] تنقاد له العقول ، وتستكين له الآراء .

وقال الثالث : وهو محمد بن[1] الهذيل العَلاَّف ، وكان معتزلىّ المذهب وشيخ البصريين : أيها الوزير ، العشق يَخْتم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتعه فى الأجساد ، ومسرعة فى الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية[2] من حياض الشكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع ، وطلاوة توجد فى الشمائل ، وصاحبه جَوَاد لا يُصْغِى إلى داعية المنع ، ولا يسنح به نازعُ العذل .

[وقال الرابع — وهو هشام بن الحكم الكوفى شيخ الإمامية فى وقته وكبير الصنعة فى عصره — : أيها الوزير ، العشق حِبَالَةٌ نَصَبَهَا الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب ، فإذا عَلِقَ المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا ، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة ، وتكافؤ فى الطريقة ، وملاءمة فى الهمة ، له مقتل فى صميم الكبد ومهجة القلب ، يعقد اللسان الفصيح ، ويترك المالك مملوكا والسيد خَوَلا حتى يخضع لعبد عبده] .

(١) فى ب « وقال أبو الهذيل وهو مغربى » .

(٢) فى ا « ونغبة من حياض الشكل » .

Marfat.com

وقال النَّظَّام إبراهيم بن يَسَار المعتزلى [وكان من نُظَّار البصريين فى عصره : أيها الوزير] العشق أرَقُّ من السراب ، وأدبُّ من الشراب ، وهو من طينة عَطِرَة عجنت فى إناء الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد خبلا قاتلا ، وفساداً معضلا ، لا يطمع فى إصلاحه ، له سحابة غزيرة تهمى على القلوب ، فَتُعْشِب شعفاً ، وَتُثْمر كلفاً ، وصريعُه دائم اللوعة ، ضيق المتنفس ، مُشَارف الزمن ، طويل الفكر ، إذا أَجَنَّه الليل أرق ، وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى .

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر وَمَنْ يليهم ، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مر دليل عليه[1] .

قال المسعودى : تنازع الناس [ممن تقدم وتأخر] فى ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وماعلة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ؟ العشق وعلة وقوعه

فقال بقراط : هو امتزاج النفسين ، كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء ، وَأَرَقُّ مسلكا ؛ فمن أجل ذلك لا تزيله الليالى ، ولا تخلقه الدهور [ولا يدفعه دافع] دق عن الأوهام مَسْلَكه ، وخفى عن الأبصار موضعه [وحارت العقول عن كيفية تمكنه] غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير إلى سائر الأعضاء ، فتظهر الرِّعْدَة فى الأطراف ، والصفرة فى الألوان ، واللجلجة فى الكلام ، والضعف فى الرأى [والويل والعثار] حتى ينسب صاحبه إلى النقص .

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمع يتولد فى القلب [وينمى] وتجتمع إليه مواد [من الحرص] فإذا قوى زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادى

(١) ذكر فى ا أقوال هؤلاء الذين طوى فى ب ذكر مقالاتهم ، وجعل عدادهم فيها ثلاثة عشر .

Marfat.com

والتفكر والأمانى والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ ، وذلك أن التمادى فى الطمع للدَّم محرق ، فإذا احترق استحال إلى السَّوْدَاء ، فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلى الحرارة ، وتلتهب الصفراء ، ثم تستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء، وتصير مادة لها ، فتقوى ، ومن طبائع السوداء الفكر ، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات [بالفساد ، ومع الاختلاط تكون الفَدَامة ونقصان العقل ورجاء مالا يكون وَلا يتم] فحينئذ يشتد ما به ، فيموت أو يقتل نفسه، وربما شهق فتخفى روحه أربعاً وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه حَيًّا ، وربما تَنَفَّسَ الصُّعَدَاء فتخفى روحه فى تامور قلبه، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوق بالنظر ، ويرى من يحب فَجْأَة ، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذِكْرَ من يحب كيف يهرب دمه ويَحُولُ لونه .

وقال بعضهم : إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة ، وجزأها أنصافاً ، وجعل فى كل جسد نصفاً ؛ فكلُّ جسدٍ لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عِشْقٌ ضرورة للمناسبة القديمة . وتفاوت أحوال الناس فى ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم .

ولأهل هذه المقالة خَطْب طويل فيما ذكرنا . وأن النفوس نورية جوهر بسيط نزل من علو إلى هذه الأجساد فسكنها ، وأن النفوس تلى بعضاً على حسب مجاورتها فى عالم النفس فى القرب والبعد ، وذهب إلى هذا المذهب جماعة ممن يظهر الإسلام ، واعتلُّوا بدلائل من القرآن والسنن ودلائل القياس عند أنفسهم . من ذلك قوله عز وجل : (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادْخلى جنتى) قالوا : فالرجوع إلى الحال لا يكون إلا بعد كون متقدم ، ثم قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن أبى مريم قال : أخبرنا يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

Marfat.com

وذهب إلى هذا القول جماعة من الأعراب ؛ ففى ذلك يقول جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرِى فى بُثَيْنة :

تَعَلَّقَ روحى رُوحَهَا قبل خَلْقنا وَمِنْ قبل ما كُنَّا نِطَافاً، وفى المهد
فزاد كما زِدْنَا ، فأصبح ناميا وليس وإن مُتْنَا بمنتقض العهد
ولكنه بَاقٍ على كلِّ حالة وزائرنا فى ظلمة القَبْرِ واللحد

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما فى العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين فى الحمق ؛ لأن العقل يجرى على ترتيبٍ ، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة ، والحمق لا يجرى على ترتيبٍ ، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان .

وَقَسَّمَ بعض العرب الهوى فقال :

ثلاثة أَحْبَاب ، فحبٌّ عَلاَقَةٌ وَحُبٌّ تِمِلاَّقٌ، وَحُبٌّ هو القَتْل

وقال الصوفية من البغداديين : إن الله عز وجل إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ، ليشق عليهم سخطه ، وَيَسُرَّهم رضاه . فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله ، إذ كان لا مثل له ، ولا نظير [وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئاً بالمنِّ عليهم] فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه، كان تعالى أحْرَى أن يتبع رضاه .

وللباطنية المتصوفة فى هذا كلام كثير [وخطب طويل] .

وقال أفلاطون : ما أدرى ما الهوى ، غير أنه جنون إلهى ، والهوى لا محمود ولا مذموم .

وكتب بعض [ظُرَفَاء] الكُتَّاب إلى أخ له : إنى صادفت منك جوهر نفسى ، فأنا غير محمود على الانقياد إليك [بغير زمام] لأن النفس يتبع بعضها بعضا .

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والإسلاميين وغيرهم كلام كثير فى العشق ، وقد أتينا على ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان »

Marfat.com

ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية ، والممالك الداثرة »

وإنما خرجنا مما كُنَّا فيه آنفاً من أخبار البرامكة عند ذكرنا العشق ، فتغلغل بنا الكلام إلى إيراد لُمَع مما قيل فى ذلك .

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من أخبارهم ، وَاتِّسَاق أيامهم ، وانتظامها لهم بالسعود ، ثم انعكاسها إلى النحوس .

الرشيد يزوج أخته العباسة لجعفر البرمكى

ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا من الملك ، وتناهوا إليه من الرياسة ، واستقامت لهم الأمور ، حتى قيل : إن أيامهم عَرُوسٌ وسرور دائم لا يزول ، قال الرشيد لجعفر بن يحيى : وَيْحك يا جعفر !! [إنه] ليس فى الأرض طلعة أنا بها آنس ، ولا إليها أميل ، وأنا بها أشد استمتاعاً وأُنْساً منى برؤيتك وإن للعباسة أختى منى موقعا ليس بدون ذلك ، وقد نظرت فى أمرى معكما ، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك(١) يوم أكون معها ، وكذلك حكمى [منك] فى يوم كونى معك دونها ، وقد رأيت شيئاً يجتمع لى به السرور ، وتتكاثف لى به اللذة والأنس ، فقال : وفقك الله يا أمير المؤمنين ! وعزم لك على الرشد فى أمورك كلها ! قال الرشيد : قد زوجتكها تزويجاً تملك به مجالستها والنَّظَرَ إليها والاجتماع بها فى مجلس أنا معكما فيه [لا سوى ذلك] ؛ فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه فى ذلك ، وأشهد له مَنْ حضره من خدمه وخاصة مَوَاليه ، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها ، ولا يجلس معها ، ولا يظله وإياها سَقْفُ بيتٍ إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما ، فحلف له جعفر على ذلك ، ورضى به ، وألزمه نفسه ، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة [التى وصفناها] وجعفر فى ذلك صارف بصره عنها ، مزوَرٌّ بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ، ووفاء بعهده وأيمانه [ومواثيقه]

(١) فى ا « ضائع الحظ ناقص السرور — إلخ » .

Marfat.com

على ما وافقه الرشيد عليه [وعَلِقَتْه العباسة ، وأضمرت الاحتيال عليه] وكتبت إليه رقعة ، فردَّ رسولها وشتمه وتهدَّده[(١)] ، وعادت فعاد بمثل ذلك ، فلما استحكم اليأس عليها[(٢)] قصدت لأمه ، ولم تكن بالحازمة ، فاستمالتها بالهدَايا من نفيس الجواهر والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك ، حتى إذا ظنت أنها لها فى الطاعة كالأمَةِ ، وفى النصيحة والإشفاق كالوالدة ، ألقت إليها طرَفاً من الأمر الذى تريده ، وأعلمتها ما لها فى ذلك من حميد العاقبة ، وما لابنها من الفخر [والشرف] بمصاهرة أمير المؤمنين ، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها[(٣)] من زوال النعمة وسقوط مرتبته ، فاستجابت لها أم جعفر ، ووعدتها بإعمال الحيلة فى ذلك ، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما ؛ فأقبلت على جعفر يوماً فقالت له : يابنىَّ ، قد وُصفت لى وصيفة فى بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت من الأدب والمعرفة والظرْفِ والحلاوة مع الجمال الرائع والقدِّ البارع والخصال المحمودة مالم يُرَ مثله ، وقد عزمت على اشترائها لك ، وقد قرب الأمر بينى وبين مالكها ، فاستقبل [جعفر] كلامها بالقبول ، وعَلَّقت [بذلك] قلبه ، وتطلعت إليها نفسُه ، وجعلت تمطله ، حتى اشتد شوقه ، وقويت شهوته ، وهو فى ذلك يلح عليها [بالتحريك والاقتضاء] ، فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له : أنا مُهْدِيتها إليك ليلة كذا وكذا ، وبعثتْ إلى العباسة فأعلمتها بذلك ، فتأهَّبتْ [بمثل ما تتأهب به مثلها] وسارت إليها [فى] تلك الليلة ، وانصرف جعفر [فى تلك الليلة] من عند الرشيد ، وقد بقىَ فى نفسه من الشراب فضلة لما [قد] عزم عليه ، فدخل منزله ، وسأل عن الجارية ، فخبر بمكانها ، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالما ، ولا على خَلْقها واقفا[(٤)] ، فقام إليها فواقعها ، فلما قضى حاجته منها

(١) فى ب «فزال رسومها تهددها» . (٢) فى ا «فلما استحكم يأسها منه» .
(٣) فى ا « أمانها وأمان ولدها من زوال النعمة وسقوط المرتبة » .
(٤) فى ا « ولا بخلقتها عارفا »

Marfat.com

قالت له : كيف رأيت حيل بنات الملوك ؟ قال : وأىَّ بنات الملوك تعنين ؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم ، فقالت [له] : أنا مولاتك العباسة بنت المهدى ، فوثب فَزِعاً قد زال عنه سكره ورجع إليه[١] عقله، فأقبل على أمه[٢] وقال : لقد بِعْتِنِي بالثمن الرخيص ، وحملتنى على المركب الوَعْرِ ، فانظرى مايؤول إليه حالى ، وانصرفت [العباسة] مشتملة منه على حَمْلٍ ، ثم ولدت غلاماً ، فوكلت به خادما من خَدَمها يقال له رياش وحاضنة تسمى برة، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجَّهت الصبىَّ والخادم والحاضنة إلى مكة ، وأمرتهما بتربيته ، وطالت مدة جعفر ، وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة ، وكانت زبيدةُ [أم جعفر زوجُ الرشيد] من الرشيد بالمنزلة التى لايتقدَّمها أحد من نظرائها ، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة إلى الرشيد . فقال ليحيى ابن خالد : يا أبت ، مابال أم جعفر تشكوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أمتَّهم أنا فى حرمك وتدبير قصرك عندك ؟ فقال : لا والله ، فقال : لاتقبل قولها ، قال الرشيد : فلست أعاودك ، فازداد يحيى لها منعاً ، وعليها فى ذلك غِلْظَة ، وكان يأمر بقَفْلِ أبواب الحرم بالليل، ويمضى بالمفاتيح إلى منزله ، فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت : ياأمير المؤمنين، مايحمل يحيى على ما لا يزال يفعله[٣] من منعه إياى من خدمى ووَضْعه إياى فى غير موضعى ؟ فقال لها الرشيد : يحيى عندى غير متهم فى حرمى ، فقالت: إن كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه ، فقال : وماذاك ؟ فخَبَّرَته [بالخبر] وقَصَّت عليه قصة العباسة مع جعفر ، فسقط فى يده ، وقال لها : هل لك على ذلك من دليل أو شاهد ؟ قالت : وأى دليل أدل من الولد ؟ [قال : وأين الولد ؟] قالت : قد كان ههنا ، فلما خافت ظهور أمره وَجَّهته إلى مكة ، فقال لها : أفيعلم هذا أحد غيرك ؟ قالت : ما فى قصرك جارية إلا وقد علمت

(١) فى ب « وفارقه عقله » . (٢) فى ب « فأقبل عليها »

(٣) فى ب « مالا نراك تفعل من منعه – إلخ » .

Marfat.com

به ، فأمْسَكَ عن ذلك ، وطَوَى عليه كَشْحاً ، وأظهر أنه يريد الحج ، فخرج هو وجعفر بن يحيى ، وكتبت العباسة إلى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي إلى اليمن ، فلما صار الرشيد إلى مكه وَكَّلَ مَنْ يثق به بالفحص والبحث عن أمر [الصبي والداية والخادم] فوجد الأمر صحيحاً ، فلما قضى حَجَّه ورجع أضمر فى البرامكة على إزالة نعمهم (١) ، فأقام ببغداد مُدَيْدَةً ، ثم خرج إلى الأنبار ، فلما كان فى اليوم الذى عزم فيه على قتل جعفر دعا بالسندى بن شاهك ، فأمره بالمضى إلى مدينة السلام والتوكيل بدور البرامكة ودور كُتَّابهم [وأبنائهم] وقراباتهم ، وأن يجعل ذلك سراً من حيث لا يكلم [به] أحداً حتى يصل إلى بغداد ، ثم يُفْضِى بذلك لمن يثق به [من] أهله وأعوانه ، فامتثل السندى ذلك ، وقعد الرشيد وجعفر عنده فى موضع يعرف فى الأنبار بالعمر (٢) ، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش ، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ثم رجع [الرشيد فجلس على كرسى ، وأمر بما كان بين يديه فرفع] فمضى جعفر إلى منزله وفيه فضلة [من] الشراب ، ودعا بأبى زكار المغنى الطنبورى وابن أبى شيخ كاتبه (٣) ومُدَّت ستارة ، وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنين ، وأبو زكار يغنيه :

ما يريدُ الناس مِنَّا ما ينامُ الناس عَنَّا
إنمـا هِمَّتُهم أنْ يُظهروا ما قد دَفَنَّا

وأمر الرشيد من ساعته ياسراً خادِمَهُ المعروف برخلة (٤) فقال له : إنى أندبك لأمر ماأرى محمداً ولا القاسم له أهلا ولا موضعاً ، ورأيتك به مستقلا ناهضاً ، فحقق ظنى ، واحذر أن تخالف [أمرى فيكون ذلك سبباً لسقوط منزلتك عندى وفساد حالك لدىَّ] فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتنى أن أدْخِلَ السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى بين يديك لفعلت ، فمُرْ [نى] بأمرك فإنى والله مسرع ، فقال : ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكى ؟

(١) فى ا «أضمر فى البرامكة إزالة النعمة عنهم والإيقاع بهم» (٢) فى ب «بالقمر»
(٣) فى ب « بأبى بكار الأعمى الطنبورى وابن أبى نجيح كاتبه » .
(٤) فى ب « بوحله » .

Marfat.com

قال : يا أمير المؤمنين وهل أعرف سواهُ ؟ أوَ يُنكر مثل جعفر ؟ قال : ألم تر تشييعى إياه عند خروجه ؟ قال : بلى ، قال : فامض الساعة إليه فأتنى برأسه على أى حالة تجده عليها ، فأرتج على ياسر الكلام وأخذته رِعْدَة[١] ووقف لايحير جواباً ، فقال : يا ياسر ، ألم أتقدم إليك بترك الخلاف علىّ ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن الخطب أجَلُّ من ذلك ، والأمر الذى نَدَبنِى إليه أمير المؤمنين وددت لو أنى كنت مت قبل أن يجرى على يدى منه شىء ؛ فقال : دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك ؛ فمضى ياسرٌ حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرنى فيك بكيت وكيت ، فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه ، فقال : والله [ما رأيته إلا جاداً ، قال : فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذاً سكران ، قال : لا والله] ما افتقدت من عقله شيئاً ، ولاظننته شرب نبيذاً[٢] فى يومه مع مارأيت من عبادته ، قال له : فإن لى عليك حقوقاً لم تجد لها مكافأة فى وقت من الأوقات إلا هذا الوقت ، قال : تجدنى إلى ذلك سريعاً إلا فيما خالف أمير المؤمنين ، قال : فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادما كانت حياتى على يديك جارية ، وكانت لك عندى نعمة مجددة ، وإن أصبح على مثل هذا الرأى نفذت ما أمرت به فى غد ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، قال : فأصير معك إلى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك[٣] ، فإذا أبديت عذراً ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى خرجت فأخذت رأسى من قرب ، قال له : أما هذا فنعم ، فمضيا جميعاً إلى مضرب الرشيد فدخل إليه ياسر فقال : قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين ، وهاهو ذا بالحضرة ، فقال له : ائتنى به وإلا والله قتلتك قبله[٤] ، فخرج فقال [له] : أسمعت الكلام ؟ قال: فشانك وما أمرت به ، فأخرج جعفر من كمه منديلا

(١) فى ا « واستقبلته رعدة » (٢) فى ب ، ولاظننته شرب خمرا » .
(٣) فى ا « ومراجعتك إياه ، فإذا أبليت وبينت عذرا ولم يقنع - إلخ » .
(٤) فى ا « عجلتك قبله »

Marfat.com

صغيراً فنصب به عينيه ومَدَّ رقبته فضربها [ياسر] وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرأس[1] بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنوبه، ثم قال: يا ياسر ائتنى بفلان وبفلان، فلما أتى بهم قال لهم: اضربوا عنق ياسر، فإنى لا أقدر [أن] أنظر إلى قاتل جعفر .

وقال الأصمعى : وَجَّهَ إلىَّ الرشيدُ فى تلك الليلة، فلما أدخلت إليه قال: يا أصمعى، قد قلتُ شعراً فاسمعه[1]، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فأنشد:

لو أن جعفر هابَ أسبابَ الرَّدَى ... لَنَجَا بمهجته طِمِرٌّ مُلْجَمُ
ولكان من حَذَرِ المنون بحيثُ لا ... يسمو إليه به العُقَابُ القَشْعَمُ
لكنه لما تقارَبَ وقته ... لم يَدْفَعِ الحَدَثَانَ عنه مُنَجِّمُ

مدة سلطان البرامكة ورثاء الشعراء لهم

قال الأصمعى : ورجعت إلى منزلى فلم أصل إليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر، وأصيب على باب قصر على بن عيسى بن ماهان بخراسان فى صبيحة الليلة التى قتل فيها جعفر وأوقع بالبرامكة مكتوب بقلم جليل :

إن المساكين بنو بَرْمَكٍ ... صُبَّتْ عليهم غِيَرُ الدهرِ
إن لنا فى أمرهم عبرةً ... فليعتبر ساكنُ ذا القصر

قال المسعودى : وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف[2] هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر [بن يحيى بن خالد ابن بَرْمَكٍ] سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وقد رثتهم الشعراء [بمراثٍ كثيرة، وذكرت أيامهم] فمن ذلك قول [على] بن أبى معاذ :

يا أيُّها المغترُّ بالدَّهْرِ ... والدهر ذو صَرْفٍ وذو غَدْرِ
لا تأمَنِ الدَّهْرَ وصَوْلاتِه ... وكن مِنَ الدهر على حِذْرِ
إن كنت ذا جهل بتصريفه ... فانظر إلى المصلوب بالجسر
فإن فيه عِبْرة ؛ فاعتبر ... يا ذا الحِجَا والعقل والفكر

---

(١) فى ا « فلما وضعه بين يديه » .

(٢) فى ا « قد قلت شعراً أحببت عرضه عليك ، قال : فقلت : قل ياأمير المؤمنين ، فأنشدنى » . (٣) فى ا « منذ استخلف هارون » .

Marfat.com

وخذ من الدنيا صفا عيشها واجْرِ مع الدَّهْرِ كما يَجْرِي
كان وزيرَ القائم المُرْتضى وذا الحِجَا والفضلِ والذِّكْرِ (١)
وكانت الدنيا بأقطارِها إليه في البَرِّ وفي البَحْرِ
يُشَيِّدُ المُلْكَ بآرائِهِ وكان فيه نافذَ الأمرِ (٢)
فبينما جعفرُ في مُلْكِهِ عشيَّةَ الجمعةِ بالعَمْرِ
يَطيرُ في الدنيا بأجناحِهِ يَأْمُلُ طولَ الخُلْدِ والعُمْرِ
إذ عَثَرَ الدهْرُ به عَثْرَةً ، يا ويلنا مِنْ عثرةِ الدهْرِ
وزَلَّتِ النَّعْلُ بهِ زَلَّةً كانت له قاصِمَةَ الظَّهْرِ
فغُودِرَ البائسُ في ليلةِ الـ سبتِ قتيلاً مَطْلع الفجْرِ
وأصبح الفضل بن يحيى وقد أُحيطَ بالشيخ وما يَدْرِي
وجِيءَ بالشيخ وأولادِهِ يحيى معاً في الغلِّ والأسْرِ
والبَرْمَكِيِّينَ وأتباعهم مَنْ كان في الآفاقِ والمِصْرِ
كأنما كانوا على مَوْعِدٍ كموعد الناس إلى الحشْرِ
وأصبحوا للناس أُحْدُوثَةً سبحان ذي السلطان والأمْرِ

وممن رثاهم فاسْتُحسن قولُهُ أشجعُ السُّلَمِي ، فقال من قصيدة :

أَلانَ أَرَحْنَا واستراحَتْ رِكابُنَا
وأَمْسَكَ مَنْ يُجْدِي ومَنْ كان يَجْتَدِي (٣)

فَقُلْ لِلمطَايَا : قد أَمِنْتِ مِنَ السُّرَى
وطَيِّ الفيافي فَدْفَداً بعدَ فَدْفَدِ

[وقل العطايا بعد فَضْلٍ : تَعَطَّلِي وقل للرزايا : كل يوم تَجَدَّدِي
ودونَكَ سيفاً بَرْمَكِيّاً مُهَنَّدا أصيبَ بسيفٍ هاشِمِيٍّ مُهَنَّدِ

وقال فيهم سَلْم الخاسر :

(١) في ا «وذا النهى والفضل والذكر» (٢) في ا «يدبر الملك بآرائه» .
(٣) «ألان» يريد الآن ، ومثله قول الشاعر ، وهو عنترة بن شداد العبسي :
وقد كنت تخفي حب سمراء حقبة فبح لان منها بالذي أنت بائح

Marfat.com

خَوَتْ أنجُمُ الجَدْوى وشلَّتْ يَدُ النَّدَى وغَاضَتْ بحَارُ الجُودِ بعد البَرَامِكِ
هَوَتْ أنجُمٌ كانت لأبناء بَرْمَكِ بها يَعْرِفُ الهادى قَوِيمَ المسالِكِ

وقال فيهم صالح الأعرابى :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمكٍ وأىّ مُلوكٍ لم تَخُنْهَا دُهُورُها ؟
ألم يَكُ يحيى وَالِىَ الأرض كلها فأضحَى كمن وارَتْهُ منها قُبُورُهَا

وقال فيهم أبو حزرة[1] الأعرابى ، وقيل أبو نُوَاس :

ما رَمَى الدهْرُ آل برمك لمَّا أن رَمَى مُلْكَهُمْ بأمرٍ بديع
إنَّ دهْراً لم يَرْعَ حقاً ليحيى غيرُ رَاعٍ حقاً لآل الربيع

وقال [فيهم بعض الشعراء فأحسن] :

يا بنى برمك واهاً لكُمُ ولأيامكُمُ المُقْتَبَلَهْ[2]
[كانَتِ الدنيا عَرُوساً بكُمُ وَهِىَ اليوم ثَكُولٌ أرْمَلَهْ]

وقال أشْجَعُ فيهم :

ولّى عن الدنيا بنو بَرْمك فلو تَوَالَى الناس ما زادا
كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا

[ولآخر فيهم من أبيات :

كأن أيامهم من حُسْن بَهْجَتِهَا مواسم الحج والأعياد والجُمَعِ]

وقال منصور النمرى[3] :

انْدُبْ بنى برمك لدنيا تبكى عليهم بكلِّ وادِ
كانت بهم بُرْهَةً عَرُوساً فأضحَتِ اليوم فى حِدَاد

وقال دعبل [الخزاعى] :

ألم تَرَ صَرْفَ الدهر فى آل برمك وفى ابن نهيك والقُرُون التى تخلو
[لقد غَرَسَ[القوم] النخيل تمكناً فما حصدوا إلا كما حصد البقل]

---

(١) فى ب «أبو حرة» (٢) فى ا «ولأيامكم المستقبله» (٣) فى ب «اليمنى»

Marfat.com

وقال أشْجَعُ فيهم أيضا :

قد سارَ دهْرٌ ببنى بَرْمَكٍ ولم يَدَعْ فيهم لنـــا بُقْيا
كانوا أُولِى الخيرِ وهم أهله فارتفع الخـــير عن الدنيا

[ولما قتل جعفر وقبض على يحيى والفضل ، وضيق عليهما المحابس ، واشتد بهما الجهد ، وترادف عليهما البلاء] قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه :

إلى الله فيما نابنَا نرْفَعُ الشكوى ففى يده كشفُ المَضَرَّة والبَلْوَى
خرجنا من الدنيا ونحن مِنَ اهلها فلا نحن فى الأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السَّجّان يوما لحاجةٍ عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا

وكان الرشيد كثيراً ما ينشد بعد نكبة البرامكة :

إن استهانتها إذا وقعَتْ لَبِقَدْرِ ما تعلو بها رُتَبُهُ
وإذا بَدَتْ للنمل أجنحة حتى يطير فقد دَنَا عَطَبُهُ

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى : دخلت على والدتى يوم نَحْرٍ ، فوجدتها وعندها [امرأة] بَرْزَةٌ متكلمة [فى أثواب رَثَّةٍ] فقالت لى : أتعرف هذه ؟ قلت : لا ، قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى ، فأقبلت عليها بوجهى أحدثها وأعظمها ثم قلت لها : يا أماه ما أعْجَبُ ما رأيت ؟ قالت : يا بنى لقد أتى على عيدٌ مثلُ هذا وأنا على رأسى أربعمائة وصيفة ، وإنى لأعدُّ ابنى عاقًّا [لى] ولقد أتى علىَّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر ، قال : فدفعت إليها خمسمائة درهم ، فكادت تموت فرحاً بها ، ولم تزل تختلف إلينا حتى فرَّق الموت بيننا .

وحكى عن بعض عمومة الرشيد أنه صار إلى يحيى [بن خالد] عند تغيُّرِ الرشيد له قبل الإيقاع بهم ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال ، وقد كثر ولده [فهو يريد أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر] عليك وعلى أصحابك [عنده] فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقربت [إليه] بها رَجَوْتُ أن يكون لك السلامة ، وأن يرجع لك أمير المؤمنين ،

فقال له يحيى : والله لأن تزول النعمة عنى أحَبُّ إلى من أن أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم .

وذكر الخليل بن الهيثم [الشعبى] - وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل فى الحبس - قال : أتانى مسرور الخادمُ ومعه جماعة من الخدم ، ومع خادم منهم منديل ملفوف ، فسبق إلى نفسى أن الرشيد قد تعطَّفَ عليهم ، فوجَّه إليهم بلطف ، فقال لى مسرور : أخرج الفضل بن يحيى ، فلما مثل بين يديه قال [له] : إن أمير المؤمنين يقول لك : إنى قد أمرتك أن تصدقنى عن أموالكم فزعمت أنك قد فعلت ، وقد صح عندى أنك أبقيت لك أموالا ، وقد أمرت مسروراً إن لم تطلعه عليها أن يضربك مائتى سوط ، فقال له الفضل : قُتِلْتُ والله يا أبا هاشم ، فقال له مسرور : يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على مهجتك[1] ، فإنى لا آمن إن أنفذ ما أمرت به فيك أن آتى على نفسك ، فرفع الفضل رأسه إلى السماء وقال له : يا أبا هاشم ، ما كذبت بأمير المؤمنين ، ولو كانت الدنيا لى وخيرت بين الخروج منها وبين أن أقرع مقرعة لا خترت الخروج منها ، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضَنا بأموالنا ، وكيف صرنا اليوم نصون أموالنا منكم بأنفسنا ؟ فإن كنت أمرت بشىء فامض له ، فأمر بالمنديل فنفض ، فسقط منه أسواط بأثمارها ، فضرب مائتَىْ سوط ، وتولّى ضربه أولئك الخدم ، فضربوه أشد الضرب الذى يكون بغير[2] معرفة ، فكادوا يأتون على نفسه ، نخفنا عليه الموت ، فقال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بأبى[3] يحيى : إن هنا رجلا قد كان فى الحبس ، وهو بَصِيرٌ بالعلاج لمثل هذا أوشبهه ، فصر إليه واسأله أن يعالجه ، قال : فأنهيت إليه ذلك ، فقال : لعلك

---

(١) فى ا « لا تؤثر مالك على نفسك » (٢) فى ا « بعبر مغفرة » .
(٣) فى ب « المعروف بابن يحيى » .

تريد أن تعالج الفضل بن يحيى ، فقد بلغنى ما صنع به ؟ فقلت : إياه أريد ؛ قال : فامْضِ بنا إليه حتى أعالجه ؛ فلما رآه قال : أحسبه ضربه خمسين سوطا ، قال : إنه ضربه مائتى سوط ، قال : ما أظن إلا أن هذا أثر خمسين سوطا ، ولكن يحتاج أن ينام على بارِيَةٍ وأدوس صدره ساعة ، فجزع الفضل من ذلك ، ثم أجاب إليه ، ففعل ذلك به ، ولم يزل يدوس صدره ، ثم أخذ بيده فجذبه حتى أقامه عن البارية ، فتعلق بها من لحم ظهره شىء كثير ، ثم جعل يختلف إليه ويعالجه إلى أن نظر يوماً إليه فخر ساجداً ، فقلت : مالك ؟ فقال : يا أبا يحيى ، قد برىء أبو العباس ، ادْنُ منى حتى ترى ؛ قال : فدنوت منه فأرانى فى ظهره لحما نابتا ، ثم قال لى : أتحفظ قولى هذا أثَرُ خمسين سوطا ؟ قلت : نعم ، قال : والله لو ضُرِبَ ألف سوط ما كان أثرها بأشد من ذلك الأثر ، وإنما قلت ذلك لـكى تقوى نفسه فيعيننى على علاجه ، فلما خرج الرجل قال لى الفضل : يا أبا يحيى ، قد احتجت عشرة آلاف درهم ، فسِرْ إلى المعروف بالنسائى(١) وأعلمه حاجتى إليها ، قال : فأتيته بالرسالة ، فأمر بحملها إليه ، فقال : يا أبا يحيى ، أحب أن تمضى بها إلى هذا الرجل ، وتعتذر إليه ، وتسأله قبول ما وجهت به ، قال : فمضيت إليه فوجدته قاعدا على حصير وطنبور له معلق ودساتيج فيها نبيذ وأداة رثة ، فقال : ماحاجتك يا أبا يحيى ؟ فأقبلت أعتذر عن الفضل ، وأذكر ضيق الأمر عليه ، وأعلمته بما وَجَّه به إليه ، فامتعض من ذلك [ونخر] حتى أفزعنى ، وقال : عشرة آلاف درهم ، رددها ؛ فجَهَدْت كل الجهد أن يقبلها ، فأبى ؛ فصرت إلى الفضل ، فأعلمته ، فقال لى : استقلَّها والله ، ثم قال لى الفضل : أحب أن تعود إلى النسائى(١) ثانية وتعلمه أنى احتجت إلى عشرة آلاف درهم أخرى ؛ فإذا دفعها إليك فسر بالـكل(٢) إلى الرجل ، قال : فقبضت من النسائى(١) عشرة آلاف أخرى ورجعت إلى الرجل ومعى المال ،

(١) فى ب « بالسنانى » (٢) فى ا « فسر بالعشرين ألفا إلى الرجل » .

Marfat.com

وعَرَّفته الخبر ؛ فأبى أن يقبل شيئاً منه ، فقال : أنا أعالج فتى من الأبناء بِكِرَاء ؟ اذهب عنى ، فوالله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها ، فرجعت إلى الفضل وأخبرته الخبر ، فقال لى : يا أبا يحيى ، حدثنى بأحسن ما رأيت أو بلغك من أفعالنا ، قال : فجعلت أحدثه [مليا] ، فقال : دع عنك هذا ، فوالله إن ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه فى أيامنا كلها .

وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة ، [وقيل أقل من ذلك] ومات يحيى [بن خالد] بالرقة فى سنة تسع وثمانين ومائة على ماقدمنا.

قال المسعودى : وللرشيد(١) أخبار حسان وسير ، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا فى ذكر أخبار ملوك الروم بعد ظهور الإسلام ، وما كان بينه وبين نَقْفُور(٢) فيما تقدم من هذا الكتاب .

وللبرامكة أخبار حسان ، وما كان منهم من الإفضال بالمعروف واصطناع المكارم ، وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرهم وما مدحتهم الشعراء به ، ومراثيهم ، وقد أتينا على جميع(٣) ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان» والكتاب الأوسط ، وإنما نورد فى هذا الكتاب لمعاً من الأخبار لم يتقدم لها إيراد فى ما تقدم من كتبنا ، وكذلك ذكرنا بدء أخبارهم قبل ظهور الإسلام وكونهم على بيت النوبهار، وهو بيت النار ببلخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وعلة تسميته بَرْمَك ، وخبر برمك الأكبر مع ملوك الترك ، وخبرهم بعد ظهور الإسلام، وما كان منهم فى أيام بنى أمية كهشام بن عبد الملك وغيره، وما كان منهم فى أيام المنصور ، واكتفينا بما ذكرناه فى هذا الكتاب من [هذه] التلويحات من أخبارهم واللمع من آثارهم.

---

(١) فى ب « والبرامكة أخبار حسان » (٢) فى ب « يعفور » .
(٣) فى ا « قد أتينا على ذكرها على الشرح والإيضاح » .

Marfat.com

ذكر خلافة محمدٍ الأمينِ

موجز وبويع محمد بن هارون فى اليوم الذى مات فيه هارون الرشيد ، وهو يوم السبت لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من جمادى الأولى ، بطُوسَ ، سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وتقدم ببيعته رجاء الخادم . وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع ، وكان محمد يكنى بأبى موسى . وأمه زُبَيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر [بالرصافة] وكان مولده بالرصافة . وقُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [وستة أشهر] وثلاثة عشر يوماً . ودُفنت جثته ببغداد[1] . وحُمِل رأسه إلى خراسان . وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر [وقيل : تسعة أشهر ، وقيل : ثمانية أشهر وستة أيام ، على حسب ما وجدنا من اختلاف التواريخ وتباينها . وقيل : إن محمداً أفْضَتِ الخلافة إليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وسبعة أشهر وأحد وعشرين يوماً] ، وكان أصغر من المأمون بستة أشهر ، وكانت أيامه [فى الحصار] من خَلْعِهِ إلى مقتله سنة ونصفا وثلاثة عشر يوماً ، حبس فيها يومين .

---

(١) سيذكر المؤلف فيما بعد أن المأمون أمر بإعادة رأس الأمين إلى بغداد لتدفن مع جثته .

Marfat.com

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه

كيف جاءه خبر الولاية

قبض الرشيد والمأمون بمَرْوَ ، وبعثَ صالحُ بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين ، إلى محمد ، فأتاه بالخبر فى اثنى عشر يوماً إلى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة .

رؤيا زبيدة أيام حملت بالأمين وعند مولده وبعده

وذكر [جماعة من الأخباريين وممن عُنِىَ بأخبار العباسيين كالمدائنى ، و] العتبى وغيرهما أن زُبَيْدَةَ رأت فى المنام ليلة عَلِقَتْ بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهى بمجلس ، فقدت اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها ، فدنت إحداهن ، فجعلت يدها على بطن أم جعفر ، ثم قالت : ملك [نخم] عظيم البذل ، ثقيل الحمل ، نكد الأمر ، ثم فعلت الثانية كما فعلت الأولى ، وقالت : ملك ناقص الجد ، مفلول الحد ، ممذوق الود ، نجور أحكامه ، وتخونه أيامه ، ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية ، وقالت : ملك قصاف ، عظيم الإيلاف[1] ، كثير الخلاف ، قليل الإنصاف ، قالت : فاستيقظت وأنا فزِعَة ، فلما كان فى الليلة التى وضعت فيها محمداً دخلن عَلَىَّ وأنا نائمة كما كُنَّ دخلن[2] . فقعدن عند رأسى ، ونظرن فى وجهى ، ثم قالت إحداهن : شجرة نضرة ، وريحانة حسنة[3] ، وروضة زاهرة ، ثم قالت الثانية : عين غدِقَة ، قليلٌ لبثها ، سريع فناؤها ، عَجِلٌ ذهابها ، وقالت الثالثة : عدو لنفسه ، ضعيف فى بطشه ، سريع إلى غشه ، مُزَال عن عرشه ، فاستيقظت [من نومى] وأنا فزِعَة بذلك ، وأخبرت بذلك بعض قهارمتى ، فقالت : بعض ما يطرق النائم ، وعبث من عبث التوابع ، فلما تم فصاله أخذت مرقدى [ليلة] ومحمد أمامى فى مهده ، إذ بهن قد وقفن[4] على رأسى وأقبلن على ولدى محمد ، فقالت إحداهن : ملك جَبَّار ، مِتْلاَف مهذار ، بعيد الآثار ، سريع العثار ، ثم قالت الثانية : ناطق مخصوم ، ومحارب

(١) كذا . ولعله « الإتلاف » .

(٢) فى ا « فى الصورة التى وردن على فيها آنفا » .

(٣) فى ا « وريحانة جنية » (٤) فى ا « فأتينى ووقفن على رأسى » .

Marfat.com

مهزوم ، وراغب محروم ، وشقى مهموم ، وقالت الثالثة : احفروا قبره ، ثم شقوا لحده ، وقدموا أكفانه ، وأعدُّوا جهازه ؛ فإن موته خير من حياته . قالت : فاستيقظت وأنا مضطربة وَجِلَة ، وسألت مفسرى الأحلام والمنجمين ، فكل يخبرنى بسعادته وحياته وطول عمره ، وقلبى يأبى ذلك ، ثم زجرت نفسى وقلت : وهل يدفع [الإشفاق والحذر والاحترازُ واقعَ] القدر ، أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل ؟

موت ابن عياش

وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة مات أبو بكر بن عياش الكوفى [الأسدى] وهو ابن ثمان وتسعين سنة ، بعد موت الرشيد بثمانى عشرة ليلة .

عزم الأمين على خلع أخيه

ولما هَمَّ محمد بخلع المأمون شاوَرَ عبد الله بن حازم ، فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه . واستخف بيمينه ، فقال : اسكت أشكتَ الله فاك[1] ؛ فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رَأْياً حيث يقول : لا يجتمع فحلان فى هجمة[2] . وجَمَعَ القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده إلى أن بلغ إلى هرثمة بن[3] حازم ، فقال : يا أمير المؤمنين : لن ينصحك من كذبك ، ولن يغشك من صدقك ، لا تجرىء القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإن الغادر مخذول ، والناكث مغلول . ودخل على بن عيسى بن ماهان ، فتبسم محمد وقال : لكن شيخ هذه الدعوة ، وباب هذه الدولة ، لا يخالف إمامه ، ولا يوهن طاعته ، ثم رفعه إلى موضع ما رفعه إليه فيما مضى ، فكان على بن عيسى أول من أجاب إلى خلع المأمون ، فَسَيَّرَه فى جيش عظيم نحو خراسان[4] ، فلما قرب من الرى قيل له : إن طاهر ابن الحسين مقيم بها ، وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له ، فقال : [والله] ما طاهر إلا شوكة من أغصانى وشرارة من نارى ، وما مثل طاهر يؤمَّر على جيش ، وما بينه وبين الموت إلا أن تقع عينه على سوادكم ، فإن السِّخَال

(١) فى ب « اسكت لك أبوك » وليس بشىء (٢) فى ب « أجمة » .
(٣) فى ا « خزيمة بن خازم » (٤) فى ب « نحو المأمون » .

Marfat.com

لا تقوى على نِطَاح الـكِبَاش ، والثعالب لا تقدر على لقاء الأسْدِ ، فقال له ابنه : ابعث طلائع وَارْتَدْ موضعاً لعسكرك ، فقال : ليس [مثل] طاهر يستعدُّ له بالمكايد [ويستظهر له بالاحتراز] والتحفظ ، إنَّ حال طاهر يؤدى إلى أمرين : إما أن يتحصَّنَ بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته ، أو يخليها ويُدْبِر(١) راجعاً ، لو قد قربت خيولنا منه ، فقال له ابنه : إن الشرارة ربما صارت ضِرَاماً ، فقال : [اسكت] إن طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجال من أقرانها ، وسار على بن عيسى حتى دنت عساكره(٢) من الرى ، وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الأطراف ، فعدل إلى رُسْتَاق من رساتيق الرى متياسراً عن الطريق ، فنزل به ، وانبسطت عساكره ، وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس ، فأشرف على عساكر على بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها ، فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش ، فقال لخواص من معه : نجعلها خارجية ، وَكَرْدَسَ خيله كراديس ، وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان ، وخرج إليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدى ، وكان فارساً ، فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فانثنى العباس وانضم المعروف بداود سياه إلى على بن عيسى وقد اختلط الناس ، فضربه ضربة فأتى عليه ، وكان على [فى ذلك الوقت] على برذون كميت أرْجَلَ ، وتمالأ على رأسه الرجال ، وتنازعوا فى خاتمه ورأسه ، فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجى ، وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته ، وآخر على خاتمه ، وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعاً للعباس بن الليث ، وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين ؛ لجمعه يَدَيْه على السيف .

وذكر أحمد بن هشام — وكان من وجوه القواد — قال : جئت إلى مضرب طاهر وقد توهم أنى قُتِلتُ فى المعركة ومعى رأس علىّ وقد شد ،

(١) فى ا « ويرتد راجعا » (٢) فى ب « وبث عساكره من الرى » .

فقال : البشرى ، هذه خصلة من رأس علىّ مع غلامى فى المخلاة ، فطرحه قُدَّامه ، ثم أتى بجثته ، وقد شُدَّت يداه ورجلاه ، كما يفعل بالدوابّ إذا ماتت، فأمر به طاهر فألقى فى بئر ، وكتب إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل بالخبر ، فكان فى الكتاب : أطال الله بَقَاءَكَ ، وَكَبَتَ أعداءك ، كتابى إليك ، ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى ، والحمد لله رب العالمين ؛ فسر المأمون بذلك ، وَسُلِّم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة .

وقد كانت أم جعفر لاتعلق من الرشيد ؛ فشاور بَعْضَ مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك إليه ، فأشار عليه بأن يُغِيرَهَا ، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة، فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل ففارت سارة عند ذلك ، فعلقت بإسحاق ، فاشترى الرشيد أمَّ المأمون ، فاستخلاها ، فعلقت بالمأمون ، ففارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد .

قال المسعودى : وقد قَدَّمنا التنازع فى ذلك — أعنى قصص إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام ، وقول من ذهب إلى أن إسحاق هو المأمور بذبحه ، ومن قال : بل إسماعيل ، وما ذكر كل فريق منهم فى ذلك، وقد تناظر فى ذلك السلف والخلف ، فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عِكْرِمَة ، وقد قال عكرمة : مَنِ المأمور بذبحه ؟ فقال : إسماعيل ، واحتجَّ بقول الله عز وجل : (ومن وراء إسحاق يعقوب) ألا ترى أنه بَشَّرَ إبراهيم بولادة إسحاق فكيف يأمره بذبحه ؟ فقال له عِكْرِمَة : أنا أوجدك[1] أن الذبيح إسحاق من القرآن ، واحتجَّ بقول الله عز وجل : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) فنعمته على إبراهيم : أن نَجَّاه من النار ، ونعمته على إسحاق : أن فَدَاه

---

(١) فى ب « أنا أو اخذك » .

بالذَّبْح ، وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنه خمس ومائة ، ويكنى أبا عبد الله ، مات فى اليوم الذى مات فيه كُثَيِّر عزة ، فقال الناس : مات عظيم الفقهاء [وأهْلِ العلم] وكبير الشعراء ، وفيها كانت وفاة الشعبى.

الأمين ينصب مجلس غناء وهو محاصر

وحدث [يوسف بن إبراهيم الكاتب قال : حدثنى أبو إسحاق] إبراهيم بن المهدى قال: بعثَ إلىَّ الأمين محمد ، وهو محاصَرٌ ، فصرت إليه ، فإذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة ، وإذا سليمان بن [أبى جعفر] المنصور معه فى [جوف] الطارمة ، وهى قبة كان اتخذ لها فراشاً مُبَطَّناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبريسم ، فسلمت فإذا قُدَّامة قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال ، وبين يدى سليمان قدح مثله ، فجلست بإزاء سليمان ، فأتيت بقدح كالأول والثانى، قال : فقال : إنما بعثت إليكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان ، وما قد صنع فى أمرنا من المكروه ، وقابلَنَا به من الإساءة ، فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما ، فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سَلاَ عما كان يجده وفرح ، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ، قال : فتطيَّرْتُ من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنِّينا ، فوضعت العود فى حجرها وغنت :

كُلَيْبٌ لَعَمْرِى كانأَكْثَرَ ناصراً وأكثر حزماً منك ضُرِّج بالدم

فتطير من قولها ، ثم قال لها : اسكتى قبحك[1] الله ، ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب[2] فأقبلنا نحادثه ونبسطه ، إلى أن سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال [لها] : هات ما عندك ، فغنت :

هُمُ قَتَلُوه كى يكونوا مكانه كما غدرَتْ يوماً بكسرى مَرَازِبُهْ

فأسكتها وزأرها[3] وعاد إلى الحالة الأولى، فسليناه حتى عاد إلى الضحك، فأقبل عليها الثالثة فقال : غنى ، فغنت :

(١) فى ا « فعل الله بك وصنع ، ثم عاد عما كان عليه »..
(٢) فى ا « الغم والقطوب » (٣) فى ا « وزجرها » .

Marfat.com

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفَا أنيس ولم يَسْمُرْ بمكة سامر
بلى نحن كنَّا أهْلَهَا فأبادَنا صُرُوفُ الليالي والجُدُودُ العواثر

وقيل : بل إنها غنت :

أما وربِّ السُّكون والحَرَكِ إن المنايا كثيرة الشَّرَكِ

فقال لها : قومي عنى فعل الله بك [كذا وكذا] وصنع بك ، فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته ، فانهرق الشراب ، وكانت ليلة قمراء ، ونحن على شاطىء دِجْلَة في قصره المعروف بالخلد : فسمعنا قائلا يقول (قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان) قال ابن المهدي : فقمت وقد وثب ، فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبَنَّ من العَجَبْ قد جاء ما يقضى العجب[١]
قد جاء أمر فَادِحٌ فيـــه لذي عجب عجب

قال : فما قعدنا معه بعدها إلى أن قتل[٢] .

وكان الأمين معجباً بأم ولده نظم[٣] وهي أم موسى الذي كان سماه الناطق بالحق ، وأراد خلع المأمون والعَقْدله من بعده ، فهلكت أم موسى نظم ، فجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما اتصل الخبر بأم جعفر زبيدة قالت : احملوني إلى أمير المؤمنين ؛ فحملت إليه ، فاستقبلها وقال : يا سيدتي ماتت نظم ، فقالت:

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللّهفُ ففي بقائِكَ مما قد مضى خَلَفُ
عُوِّضْتَ موسى فهانت كل مرزئة ما بعد موسى على مفقودة أسَفُ

لهو الأمين وذكر إبراهيم بن المهدي قال : استأذنت على الأمين يوماً ، وقد اشتد وقت الحصار الحصار عليه من كل وجه ، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه، إلى أن كاثرت[٤] ودخلت ، فإذا هو قد تطلع إلى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة

(١) في ا « ما يفنى العجب » (٢) في ب « فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل » .
(٣) في ب « مولعا بأم ولده فطم » (٤) في ا « كابرت » .

لها مخترق إلى الماء فى دجلة ، وفى المخترق شباك حديد ، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم ، والغلمان قد انتشروا إلى تفتيش الماء ، وهو كالواله، فقال لى وقد ثنيت بالسلام وكررت : لاتدرى[1] ياعمى ؛ فمقرطتى قد ذهبت فى البركة إلى دجلة ، والمقرطة : سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حَبَّتَادر [وقيل : ياقوت] قال : فخرجت وأنا آيس[2] من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع من وقت لـكان هذا الوقت .

صفات الأمين وكان محمد فى نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال ، إلا أنه كان عاجز الرأى ، ضعيف التدبير ، غير مفكر فى أمره .

وحكى أنه اصطبح يوماً ، وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال — وهم الذين كانوا يصطادون السباع — إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر ، فاحتالوا فى السبع إلى أن أتوا به فى قفص من خشب على جمل بُختى ، فحُط بباب القصر وأدخل ، فمثل فى صحن القصر والأمين مصطبح ، فقال : خلوا عنه وشيلوا باب القفص ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه سبع هائل أسود وحش ، فقال : خلوا عنه ، فشالوا باب القفص ، فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور ، فزأر وضرب بذنبه إلى الأرض ، فتهارب الناس ، وغلقت الأبواب فى وجهه ، وبقى الأمين وحده جالساً [فى] موضعه غير مكترث بالأسد ، فقصده الأسد حتى دنا منه ، فضرب الأمين بيده إلى مرفقة أرمنية ، فامتنع منه بها ، ومَدَّ السبع يده إليه ، فجذبها الأمين وقبض على أصل أذنيه ، وغمزه ثم هَزَّه أو دفع به إلى خلف فوقع السبع ميتاً على مؤخره ، وتبادر الناسُ الأمين فإذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها ، فأتى بمجبر[3] فرد عظام أصابعه إلى مواضعها ، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً ، فشقوا بطن الأسد فإذا مرارته [قد] انشقت عن كبده .

(١) فى ب « لا تؤدونى فمقرطتى » (٢) فى ب « مؤيس »
(٣) فى ا « فأتى بجابر فرد — إلخ » .

Marfat.com

نبوءة بخلع الأمين

وحكى أن المنصور جلس ذات يوم ودخل إليه بنو هاشم من أهله ، فقال لهم وهو مستبشر ، أما علمتم أن[(١)] محمداً المهدى ولد البارحة له ولد ذكر ، وقد سميناه موسى ؟ فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما حثى فى وجوههم الرماد ، [وسكتوا] ولم يحيروا جواباً ، فنظر إليهم المنصور فقال لهم : هذا موضع دعاء وتهنئة ، وأراكم قد سكتم ، ثم استرجع ، فقال لهم : كأنى بكم لما أخبرتكم بتسميتى إياه موسى اغتممتم به ، لأن المولود المسمى بموسى ابن محمد هو الذى على رأسه تختلف الكلمة [وتسفك الدماء] وتنتهب الخزائن ، ويضطرب الملك ، ويقتل أبوه ، وهو المخلوع من الخلافة ، ليس هو ذا ، لا ، ولا هذا زمانه ، والله إن جدّ هذا المولود — يعنى هرون الرشيد — لم يولد بعد ، قال : فدعوا له وهنوه وهنوا المهدى ، وكان هذا موسى الهادى أخا الرشيد .

وكان العهد الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارجٌ من الأمر ، أيهما غدر بصاحبه ، والخلافة للمغدور به .

وذكر ياسر [خادم أم جعفر ، وكان من خوَاصها] أنه لما أحيط بمحمد دخلت [عليه] أم جعفر باكية ، فقال لها : مه ، إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقِدَتْ التيجان ، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك .

ويقال : إن محمداً قصف[(٢)] عند طاهر ، فبينا طاهر فى بستانه إذ ورد كتاب من محمد بخطه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم أنه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السيف ، فانظر لنفسك أو دع » قال : فلم يزل والله يتبين موقع الكتاب من طاهر ، فلما رجع إلى خراسان أخرجه إلى خاصته ، وقال لهم : والله ما هذا كتاب مضعوف ، ولكنه كتاب مخذول .

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين

---

(١) فى ا « أن أبا محمد المهدى » .

(٢) فى ا « إن محمداً كان متضعفا عند طاهر » .

Marfat.com

وثلثمائة — مَنْ أبوه وأمه من بنى هاشم ، إلا علىُّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومحمد بن زُبَيْدَة .

وفى محمد بن زُبَيْدَة يقول أبو الغول[١] :

ملك أبوه وَأُمُّه من نَبْعَـــة منها سِرَاجُ الأمَّـــة الْوَهَّاجُ
شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مِزَاجُ

وفى سنة أربع[٢] وتسعين ومائة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون .

عبد الملك ابن صالح ابن على

وفى سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقة عبدُ الملك بن صالح بن على فى أيام الأمين ، وكان عبد الملك أفْصَحَ ولد العباس فى عصره ، يقال : إن الرشيد لـما اجتاز ببلاد مَنْبِج من أرض الشام نظر إلى قصر مشيد ، وبستان مُغْتَمّ بالأشجار كثير الثمار ، فقال لعبد الملك : لمن هذا القصر ؟ قال : [هو] لك ولى بك يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف بناء القصر ؟ قال : دون منازلك وفوق منازل الناس ، قال : فكيف مدينتك ؟ قال : عَذْبة المـاء ، باردة الهواء ، صلبة الموطأ ، قليلة الأدواء ، قال : كيف ليلها ؟ قال : سَحَر كله ، وقال له يا أبا عبد الرحمن ، ما أحسن بلادكم ! ! قال : فكيف لا تكون كذلك وهى تربة حمراء ، وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء ، فيَافٍ فِيحٌ ، وجبال وضيح ، بين قيصوم وشيح ، فالتفت الرشيد إلى الفضل بن الربيع فقال : ضربُ السياط أهْوَنُ عَلَىَّ من هذا الكلام .

ولـما سمى محمد ابنه « موسى الناطق بالحق » وأخذ له العهد على الناس الفضلُ بن الربيع وزيرُه ، وموسى يومئذ لا ينطق بأمْر ، ولا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه فى ليله ونهاره ويقظته [ومنامه] وقيامه وقعوده ، وأحْضَنَه على بن عيسى بن ماهان ، قال فى ذلك رجل أعمى من أهل بغداد يعرف بعلى بن أبى طالب :

أضاع الخلافَةَ غِشُّ الوزير وَفِسْقُ الإمام وَرَأْىُ المشير[٣]

(١) فى ب « أبو الهذيل » (٢) فى ب « سبع وتسعين ومائة » .
(٣) فى ب « وفعل الإمام » .

Marfat.com

وما ذاك إلا طريق الغُرُور وشر المسالك طُرْقُ الغُرُور
فعال الخليفة أعجوبة وأعجب منه فعال الوزير
وأعجب من ذا وذا أننا نبايع للطفل فينا الصغير
ومَنْ ليس يُحْسِن مسح أنفه ولم يخل من متنه حِجْرُ ظِيرْ
وما ذاك إلا بباغٍ وغاوٍ يريدان نَقْضَ الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان أفى العير هذان أم فى النفير
ولكنها فِتَنٌ كالجبال نرتع فيها بصنع الحقير

ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان ، وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام ، فتعجب الناس من [زيادة] أمره ، وإدبار أصحاب الأمين وهزيمتهم على كل حال ، وأيقنت القلوب بغلبة طاهر وظهور المامون ، وأسقط فى يدى الفضل بن الربيع وأصحابه ، فقال الشاعر [الأعمى فى ذلك ، وكان مأمونياً متعصباً على محمد بن زُبَيْدة مع المأمون ، وكان من أهل بغداد ، ومقامه بها ، من أبيات]:

عجبتُ لمعشر يَرْجُون نُجْحاً لأمرٍ ما تتم له الأمور
وكيف يتم ما عَقَدُوا وراموا وأسُّ بنائهم منه الفُجُورُ
أهَابَ إلى الضلال بهم غَوِىٌّ وشيطان مواعده غرور
يصيب بهم ويلعب كل لعب كما لعبت بشاربها الخمور
وكادوا الحق والمامون غدرا وليس بمفلح أبدا غَدُورُ
هو العدل النجيب البَرُّ فينا تضمن حبه منا الصدور
وعاقبة الأمور له يقيناً به شهد الشريعة والزبور
فيملك أربعينَ لها وفاء تتم به الأهلة والشهور
فكيدوا أجمعين بكل كيد وكيدكم له فيه السرور

وبلغ محمداً فجمع قواده [وبطانته] عندما ظهر من أمر طاهر ، وشاورهم وقال : أحضروا لى غناءكم كما أحضرت خراسان لعبد الله غناءها ، وكانت كما قال أعشى ربيعة :

Marfat.com

ثم ما هابوا ولـكن قدموا　　　كبش غارات إذا لاقى نَطَحْ

أما والله لقد حُدِّثْتُ بأحاديث الأمم السالفة ، وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رأيت فى حديثهم(١) حديثاً لرجل منهم — وأبِى — كهذا الرجل فى إقدامه وسياسته ، وقد قصدنى واجترأ علىّ ، وتملى الهامة العظيمة من الجند ومجمع القواد وساسة الحروب ، فهاتوا [اليوم] ما عندكم ، فقالوا : يُبْقِى الله أمير المؤمنين، يكفيه كما كَفَى الخلفاء قبله بَغْىَ من بَغَى عليهم .

ولما انهزم جيش محمد بين يدى طاهر ، ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان ابن أبى جعفر : لعن الله الغدار ، ماذا جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه ، وأبعد الله نسبه من أهل الفضل ، ما أسْرَعَ ما انتصر الله للمأمون بكبش المشرق [يعنى طاهراً] وفى ذلك يقول الشاعر :

تَبًّا لذى الآثام والمتزندق　　　ماذا دَعَاه إلى العظيم المُوبِقِ(٢)
والغدر بالبر الزكىِّ أخى التقى　　　والسائس المأمون غير الأخرق
زين الخلافة والإمامة والنهى　　　أهل السماحة والندى المتدفق
إن تغدروا جهلا بوارث أحمد　　　ووصِىٍّ كل مُسَدَّدٍ وموفَّقِ
فالله للمأمون خير مُوَازر　　　والماجد القمقام كبش المشرق

ولما أحيط بمحمد من الجانب الشرقى والغربى ، وكان هرثمة بن أعْيَنَ نازلا مما يلى النهروان بالقرب من باب خُرَاسَان ، وثلاثة أبواب ، وطاهر من الجانب الغربى مما يلى الياسرية(٣) وباب المحول والـكُنَاسة ؛ جمع قواده فقال : الحمد لله الذى يَضَعُ من يشاء بقدرته ويرفع ، والحمد لله الذى يعطى بقدرته من يشاء ويمنع ، والحمد لله الذى يقبض ويبسط وإليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الحال ، وكسوف

(١) فى ا « فما رأيت فى ذلك كله حديثا لرجل منهم » .
(٢) روى هذا البيت محرفا فى ب هكذا :
تبا لذى الأيام والمتزندق　　　ماذا دعاه إلى العظيم الموثق
(٣) فى ب « مما يلى الناشرية وباب المحول والـكناس » .

Marfat.com

من الأمين إلى طاهر ابن الحسين

البال ، وصلى الله على محمد رسوله وآله وسلم ، وقال : إنى لأفارقكم بقلب مُوجَع ، ونفس حزينة ، وحَسْرَة عظيمة ، وإنى محتال لنفسى ، فأسأل الله أن يلطف بى بمعونته ، ثم كتب إلى طاهر : أما بعد ، فإنك [عبدٌ مأمور] تنصحت فنصحت ، وحاربت فنصرت ، وقد يُغلَب الغالب ، ويخذل المفلح ، وقد رأيت الصلاح فى معاونة أخى ، والخروج إليه من هذا السلطان؛ إذ كان أولى به وأحَقّ ، فأعطِنى الأمان على نفسى وولدى وأمى وجدتى [وخدمى] وحاشيتى وأنصارى وأعوانى حتى أخرج إليك وأتبرأ من هذا الأمر إلى أخى ، فإن رأى الوفاء لى بأمانك وإلا كان أولى وأحق ، قال : فلما قرأ طاهر الكتاب قال : الآن لما ضيق خناقه ، وهِيضَ جناحه ، وانهزم فُسَّاقُه ؟ لا والذى نفسى بيده حتى يضع يده فى يدى وينزل على حكمى ، فعند ذلك كتب إلى هرثمة يسأله النزول على حكم أمانه .

وقد كان المخلوع جَهَّزَ جماعة من رجاله من الأبناء وغيرهم ممن استأمن إليه لدفع المأمونية عنه ، فمالوا نحو هرثمة ، وكان طاهر بن الحسين يمد هرثمة بالرجال ، ولم يلق هرثمة مع ذلك كثيرَ كَيْدٍ ، فلما مال مَنْ ذكرنا إلى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشير الأزديَّانِ بعث إليهما طاهر يتوعَّدُهما، فلم يأمنا صَوْلته ، لإشرافه على الفتح ، تخليا عن الجيش وانفضّ الجمع ، وكان طاهر قد نزل فى البستان المعروف بباب الكباش الطاهرى(1) ؛ ففى ذلك يقول بعض العَيَّارين من أهل بغداد ومن أهل السجون :

لنا من طاهر يومٌ عظيمُ الشأن والخَطْبِ
علينا فيه بالأنجا دعن هَرْثمة الكَلْبِ
ومنا لأبى الطيب يوم صادق الكَرْبِ
أتاه كل طَرَّارٍ ولص كان ذا نَقْبِ(2)
وعريان على جنبيه آثار من الضَّرْبِ

(1) فى ا « المعروف بباب الكناس الطاهرى » .
(2) فى ب « أتاه كل كرار » .

Marfat.com

إذا ما حَـلَّ من شرق أتيناه من الغَرْبِ

وضاق الأمر بمحمد الأمين ففرق[١] فى قُوّاده المحدَثينَ دون غيرهم خمسمائة ألف درهم وقارورة غالية ، ولم يُعْطِ قدماء أصحابه شيئاً ، فأتت طاهراً عيونه وجواسيسه بذلك ، فراسلهم وكاتبهم ، ووعَدَهم ومَنَّاهم ، وأغرى الأصاغر بالقادة حتى غضبوا لذلك ، وشَغَّبُوا[٢] على الأمين ، وذلك يوم الأربعاء لست ليالٍ خلون من ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائة ، فقال رجل من المشَغِّبة على الأمين :

قل لأمين الناس فى نفسه ما شَتَّتَ الجُنْدَ سوى الغاليه
وطاهر — نفسى فدى طاهر — برُسْلِه والعُدَّةِ الكافيه
أضحى زِمَامُ الملك فى كفه مقابلا للفئة الباغيه
[يانا كثاً أسلمه نكثه عيوبه من حَيْنه فاشيه]
قد جاءك الليث بشَدَّاته مستكلباً فى أُسُدٍ ضاربه
فاهرب فلا مهرب من مثله إلا إلى النار أو الهاويه

ونقل طاهر من الياسرية ، فنزل بباب الأنبار ، وحاصر أهل بغداد ، وغادى القتال وراوَحَهُ ، حتى تواكل الفريقان ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وغلت الأسعار ، وذلك فى سنة ست وتسعين ومائة ، وقاتل الأخ أخاه ، والابن أباه ، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية ، وهدمت المنازل ، وأحرقت الديار ، وانتهبت الأموال ، فقال الأعمى فى ذلك [المعروف بعلى [بن]أبى طالب] :

تقَطّعت الأرحام بين العشائر وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذَاكَ انتقام الله من خلقه بهم لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظ ومُذَكِّرٍ فينجع فينا وعظُ ناه وآمر

(١) فى ا « وأنى محمداً المال ففرق فى قواده — إلخ » .

(٢) فى ب «وسعوا على الأمين»

فنبكى على الإسلام لما تقطعت رجاه ، ورَجّى خَيْرَهَا كل كافر (١)

فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم فمن بين مقهور ذليل وقاهر

وصار رئيس القوم يحمل نفسه وصار رئيساً فيهم كلُّ شاطر

فلا فاجر للبر يحفظ حرمة ولا يستطيع البَرُّ دفعاً لفاجر

فمن قائم يدعو إلى الجهد عامداً ومن أول قد سن عنا لآخر

تراهم كأمثال لذئاب رأت دماً فأَمَّتْهُ لا تلوى على زجر زاجر

إذا هدم الأعداء أول منزل بسعيهم قاموا بهَدْمِ الأواخر

فأصبحت الأغتام بين بيوتهم تحثهم بالمُرْهفَاتِ البواتر

وأصبح فُسَّاق القبائل بينهم تشدُّ على أقرانها بالخناجر

فنبكى لقتلى من صديق ومن أخ كريم ، ومن جار شفيق مجاور

ووالدة تبكى بحزن على ابنها فيبكى لها من رحمةٍ كلُّ طائر

وذات حليل أصبحت وهْىَ أَيِّمٌ وتبكى عليه بالدموع البوادر

تقول له : قد كنت عزاً وناصراً فغُيِّبَ عنى اليوم عزِّى وناصرى

وأبْتُ لإحراق وهَدْم منازل وقتل وإنهاب اللُّهى والذخائر

وإبراز رَبّات الخدور حَوَاسراً خرجن بلا خُمْرٍ ولا بمآزر

تراها حَيَارى ليس تعرف مذهباً نوافر أمثال الظباء النوافر

كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً ومَلْهًى رأته عينُ لاهٍ وناظر

بلى ، هكذا كانت فأذهب حسنها وبدَّد منها الشمل حكم المقادر

وحَلَّ بهم ماحَلَّ بالناس قبلهم فأضحوا أحاديثاً لبادٍ وحاضر

أبغداد ، يا دار الملوك ، ومجتنى صنوف المنى ، يا مستقرَّ المنابر

ويا جنة الدنيا ، ويامَطْلَبَ الغنى ومستنبط الأموال عند المتاجر

أبِينِى لنا : أين الذين عهدتهم يحلون فى روض من العيش زاهر ؟

وأين الملوك فى المواكب تغتدى تشبه حسناً بالنجوم الزواهر ؟

وأين القُضَاة الحاكمون برأيهم لورد أمور مشكلات الأوامر ؟

(١) فى ا « وحاد وأرحى حربها كل كافر » .

Marfat.com

أو القائلون الناطقون بحكمة   وَرَصْفِ كلام من خطيب وشاعر
وأين مراح للملوك عهدتها   مزخرفة فيها صنوف الجواهر
تُرَشُّ بماء المسك وَالوَرْد أرضها   يفوح بها من بعد ريح المَجَامِرِ
ورَاحَ الندامى فيه كل عشية   إلى كل فيَّاضٍ كريم العناصر
ولهو قِيَانٍ تستجيب لنغمها   إذا هو آتاها حنين المزاهر
فما للملوك الغُرِّ من آل هاشم   وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم   يروحون فى سُلْطَان بعض العشائر
تخاذل عما نَالَهُمْ كبراؤهم   فنَالَهُمُ بالكره أيدى الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تَنَاصَرُوا   لَذَلَّتْ لها خوفاً رقاب الجبابر

وبعث هرثمة بن أعين بزهير بن المسيب الضبى من الجانب الشرقى ، فنزل الماطر مما يلى كلواذا ، وَعَشّر ما فى السفن من أموال التجار الواردة من البصرة وواسط ، ونصب على بغداد المنجنيقات ، ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العَيَّارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عُرَاةً فى أوساطهم التبابين والميازر ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ ، وَدرَقاً من الخوص والبوارى قد قُيِّرَت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ؛ فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وَنَاس عُرَاة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت لهم ، ولجم وأذناب من مكانس ومَذَابٍّ ، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ [الخوص] وَدَرَقُ البوارى ، ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك ، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول الفُرَّهِ الجواشن والدروع والتجافيف [والسواعد]

قف على ألقاب قادة الجيش (الضباط)

والرماح والدرق التبتية ؛ فهؤلاء عراة وهؤلاء على ما ذكرنا [من العُدَّة] فكانت للعُرَاة على زهير ، وأتاه المَدَدُ من هرثمة ، فانهزمت العُرَاة ، ورمت بهم خُيُولُهم ، وتحاصروا جميعاً ، وأخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق ، فقال فى ذلك الأعمى (١) ، وذكر رَمْىَ زهير بالمنجنيق :

لا تقرب المنجنيق والحَجَرَا وقد رأيت القتيل إذ قبرا
بَاكَرَ كيلا يفوته خبر راح قَتيلاً وَخلَّفَ الخبرا
[أراد ألاّ يقال : كان لهم أمر ، فلم يدر ما به أمرا]
يا صاحب المنجنيق ما فعلت كفاك ؟ لم تُبْقِياً ولم تَذَرا
كَانَ هواه سوى الذى أمرا هيهات أن يغلب الهوى القدرا

فلما ضاق الأمر بالأمين فى أرْزَاقِ الجند ضرب آنية الذهب والفضة سِرًّا ، وأعطى رجاله ، وتحيز إلى طاهر الحربيةُ وغيرها من الأرباض مما يلى باب الأنبار ، وباب حرب ، وباب قطر بل ؛ فصارت الحرب فى وسط الجانب الغربى ، وعملت المنجنيقات بين الفريقين ، وكثر الحريق وَالهَدْم ببغداد وَالكَرْخ وغيره من الجانبين ، حتى درست محاسنها ، واشتد الأمر ، وتنقل الناس من موضع إلى موضع ، وعم الخوف ، فقال الشاعر :

من ذا أصابكِ يا بغداد بالعين ألم تكونى زماناً قُرَّة العين ؟
ألم يكن فيك قوم كان قربهمُ وَكَانَ مسكنهم زيناً من الزين ؟
صاحَ الزمان بهم بالبين فانقرضوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين ؟
أستودع الله قَوْماً ما ذكرتهمُ إلا تحدَّرَ ماء الدمع من عينى
كانوا ففرقهم دهر وَصَدَّعهم والدهر يصدع ما بين الفريقين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أرْبَعَةَ عَشَرَ شهراً ، وضاقت بغداد

(١) فى ب « فقال فى ذلك بعضهم » .

Marfat.com

بأهلها ، وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ، ونزل بها مالم ينزل بها قط مثله ، مذ بناها أبو جعفر المنصور ، وقد كان لأهل بغداد فى أيام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من خروج العَيَّارين إلى الحرب [وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء كالملقب بنينويه خالويه وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العَيَّارين ويسير إلى الحرب] فى خمسين ألف عُرَاة ، ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذا الحرب حرب المأمون والمخلوع ، وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم فى هذا الوقت فى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خروج أبى إسحاق المتقى لله عنهم ، وما كان قبل هذا الوقت من البريديين ، وابن رائق وتوزون التركى ، ومادفعوا إليه من الوَحْشَة بخروج أبى محمد الحسن بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان الملقب بناصر الدولة ، وأخيه على بن عبد الله الملقب بسيف الدولة عليهم ، لبعد العهد مما حلَّ بالمنازل بها ، وطول السنين ، وغيبة ذلك عنهم وبُعْدِهم منه ، وتقدم مثل أولئك العيارين الذين كانوا فى ذلك العصر ، واشتد الأمر بين المأمونية والعراة وغيرهم من أصحاب المخلوع ، وَحُوصِرَ محمد فى قصره من الجانب الغربى ، فكان بينهم فى بعض الأيام وقعة تَفَانَى فيها خلق كثير من الفريقين ، فقال فى ذلك حُسَيْن الخليع :

لنا النصر بعون الله والكَرَّة لا الفَرَّهْ
وللمُرَّاقِ أعداك يَوْمُ السُّوء وَالبرَّهْ
وكأس تلفظ الموت كريه طعمها مُرَّهْ
سَقَوْنَا وسقيناهم ولكن لهم أخرَهْ
أمِينَ الله ثق بالله تُعْطَ الصبر وَالنُّصْرَهْ
كِلِ الأمر إلى الله كَلاكَ الله ذو القُدْرَهْ
كذاك الحرب أحيَانًا علينا ولنا مَرَّهْ

وقعة دار الرقيق

وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير ، وكثر القتل فى الطرق والشوارع ، ينادى هذا بالمأمون والآخر بالمخلوع ، ويقتل بعضهم

Marfat.com

بعضا ، وانتهبت الدور ، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة بما يسلم معه إلى عسكر طاهر فيأمن على نفسه وماله ، وفى ذلك يقول الشاعر :

بَكَتْ عينى عَلَى بغداد لما فَقَدْت غضارة العيش الأنيق
تَبَدَّلنا هموماً من سرور ومن سَعَةٍ تَبَدَّلنا بضيق
أصابتنا من الحُسَّادِ عَين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قصراً ونائحة تَنُوح عَلَى غريق
وصائحة تنادى : يا صحابى وقائلة تنادى : يا شقيقى
وَحَوْرَاء المدامع ذات دَلٍّ مُضَمَّخَة المجاسد بالخَلُوق
تنادى بالشفيق ، فلا شفيق وقد فقد الشفيق مع الرفيق
وقوم أخرجوا من ظل دُنْياً متاعهمُ يباع بكل سُوقِ
ومغترب بعيد الدار مُلْقًى بلا رأس بقارعة الطريق
توسَّطَ من قتالهمُ جميعاً فما يَدْرُونَ من أىِّ الفريق
فلا ولد يقيم عَلَى أبيهِ وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنْسَ من شىء تَوَلَّى فإنِّى ذاكر دار الرقيق

صرامة العراة — وسأل قائد من قُوَّاد خراسان طاهراً أن يجعل له الحرب فى يومها له فيه، ففعل طاهر له ذلك ، فخرج القائد وقد حقرهم ، وقال : ما يبلغ من كيد هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، مع ذوى البأس والنجدة والسلاح والعُدَّة ؟ فبصر به بعض العراة وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد ، وظن أن العريان فنيت حجارته ، فرماه بحجر بقيت فى المخلاة ، وقد حمل عليه القائد ، فما أخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر ، فكاد يصرع القائد عن فرسه ، ووقعت البيضة عن رأسه ، فكرّ راجعاً وهو يقول: ليس هؤلاء بناسٍ، هؤلاء شياطين ، ففى ذلك يقول أبو يعقوب الخريمى :

الكَرْخ أسواقُه مُعَطَّلَة يستن عَيَّارُهَا وعابرها
خَرَّجَتِ الحربُ من أراذلهم أُسُودَ غِيلٍ عَلَتْ قساورها

Marfat.com

وقال على الأعمى :

خَرَّجَتْ هذه الحُرُوبُ رجالا لا لقحطان ، لا ، ولا لِنِزَارِ
معشر فى جواشن الصوف يغدو ن إلى الحرب كالليوث الضَّوَارِى
ليس يَدْرُونَ ما الفرار إذا ما الـــأبطال عاذوا من القنا بالفِرَارِ
وَاحِدٌ منهمُ يشـــدُّ على ألـــفين عُرْيَان ما له من إزَارِ
ويقول الفتى إذا طعن الطعـــنة : خُذْهَا من الفتى العَيَّارِ

الوقائع الحاسمة

واشتدَّ القتال فى كل يوم ، وصبر الفريقان جميعاً ، وصار حامية المخلوع وجنده العُرَاة أصحاب خُوَذ الخوص ودرق البوارى ، وضايق طاهر القوم ، وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، ويصير فى حيزه أهل تلك الناحية معاونين له فى حربه ، وأقبل الهدم يكثر فيما ليس من حيزه ، ثم جعل يحفر الخنادق بينه وبين أصحاب المخلوع فى مواضع الدور والمنازل والقصور ، وأصحاب طاهر فى قوة وإقبال ، وأصحاب المخلوع فى نقص وإدبار ، وأصحاب طاهر يهدمون ، وأصحاب المخلوع يأخذون بعض الدور من خشب وأثواب وغير ذلك ، وينهبون المتاع ، فقال رجل من المحمدية :

لنا كل يوم ثلمة لا نسدُّهَا يزيدون فيما يطلبون وننقص
إذا هَدَمُوا داراً أخذنا سُقُوفها ونحن لأخرى مثلها نتربَّصُ
يثيرون بالطبل القنيص ، وإن بدا لهم وَجْهُ صيدٍ من قريب تقنَّصُوا
وقد أفسدوا شرق البلاد وغربها علينا فما نَدْرِى إلى أين نشخص
إذا حَضَرُوا قالوا بما يبصرونه وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا
وقد رخصت قراؤنا فى قتالهم وما قتل المقتول إلا المرخص

ولما نظر طاهر إلى صبر أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم مَوَادَّ الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق ، فكان الخبز فى حد المأمونية عشرين رطلا بدرهم ، وفى حد المحمدية رطل بدرهم ، وضاقت النفوس وَأَيِسُوا من الفرج ، واشتد الجوع ، وسر من سار إلى حيز

Marfat.com

طاهر ، وأسف من بقى مع المخلوع ، وتقدم طاهر فى سائر أصحابه من مواضع كثيرة ، وقصد باب الكباش[١] فاشتدَّ القتال ، وتبادرت الرؤوس ، وعمل السيف والنار ، وصبر الفريقان ، وكان القتل [أعم] فى أصحاب طاهر ، وَفَنِيَ خلق من العُرَاة أصحاب مخالى الحجارة وَالآجُرِّ وخوذ الخوص ودرق الحصر والبوارى ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر ، وكان ذلك فى يوم الأحد ؛ ففى ذلك يقول الأعمى :

وقعة يَوْمِ الأحَدِ كانت حَدِيثَ الأبد
كم جَسَدٍ أبصرته مُلْقًى وكم من جَسَدِ
وناظر كَانَتْ له مَنِيَّـــة بالرَّصَدِ
أتاه سَهْمٌ عائر فَشَقَّ جوف الكبدِ
وآخـــر ملتهب مثل التهاب الأسد
وقائل : قد قتلوا ألفًا ولمَّا يَزِدِ
فقائل : أكثر ، بل ما لَهُمُ من عدد
قلت لمطعون وفيــه طعنة لم تئد ؟
من أنت ؟ ياويلك يا مسكين من محمد
فقال : لا من نسب دَانٍ ، ولا من بلد
ولا أنا للغى قا تَلْتُ ولا للرَّشَد
ولا لشىء عاجل يصير منه فى يَدِى

ولما ضاق بمحمدٍ الحالُ واشتدَّ به الحصار أمر قائداً من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة[٢] وغيرهم ، وقَرَنَ معه آخر يعرف بالهرش ، فكانا يهجمان على الناس ، ويأخذان بالظِّنَّة ، فاجتبيا بذلك السبب أموالا كثيرة ، فهرب الناس بعلة الحج ، وَفَرَّ الأغنياء من ذريح والهرش

(١) فى ا « وتوجه نحو باب الكناس ، واشتد الجلاد » .
(٢) فى ا « من أهل البلدان وغيرهم » .

Marfat.com

فنى ذلك يقول علىّ الأعمى :

أظهَرُوا الحج وما يَبْغُونَهُ بل من الهرش يريدون الهرب
كم أُنَاس أصبحوا فى غبطة رَكَضَ الليل عليهم بالعَطَبْ
[كل مَنْ زار ذريح بيته لَقِيَ الذلَّ ووافاه الحَرَبْ]

فى شعر له طويل .

ولما عَمَّ البلاد أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر أنهم ممنوعون [منه و] من الخروج إليه ، ومغلوبٌ [عليهم و] على أموالهم ، وأن العُرَاة والباعة هم الآفة ، فقال بعضهم : [إنكم] إن كاتبتم طاهراً لم تأمنوا صَوْلَة المخلوع بذلك ، فدعوهم فإن الله مهلكهم ، وقال قائلهم :

دعوا أهل الطريق فعن قريب تنالهمُ مخاليب الهَصُـــورِ
فتهتك حُجْبَ أكباد شداد وشيكا ما تصير إلى القبـــور
فإن الله مهلكهم جميعاً لأسباب التمرد والفجـــور

وثارت العُرَاة ذات يوم فى نحو مائة ألف بالرِّماح والقصب والطرادات [من] القراطيس على رؤوسها ، ونفخوا فى [بوقات] القصب وقرون البقر ، [ونهضوا مع] غيرهم من الحمدية ، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية ، فبعث إليهم طاهر بعدة قُوَّاد وأمراء من وجوه كثيرة ، فاشتد الجلاد ، وكثر القتل ، وكانت للعُرَاة على المأمونية إلى الظهر ، وكان يوم الاثنين ، ثم ثارت المأمونية على العُرَاة من أصحاب محمد ؛ فغرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف ، وفى ذلك يقول [الشاعر] الأعمى :

بالأمير الطاهر بن الحسين صَبَّحُونَا صبيحة الاثنين
جمعوا جمعهم فثار إليهم كل صُلْب القناة والساعدين(١)
يا قتيل العُرَاة مُلْقًى على الشـــطِّ تَطَاهُ الخيول فى الجانبين
[ماالذى كان فى يديك إذا ما اصـــطلح الناس أية الحلتين](٢)

(١) فى ا « ضربوا طبلهم فثاب إليهم » (٢) هذا البيت ساقط من ا .

Marfat.com

أوزيرٌ أم قائد ، بل بعيد أنتَ من ذين موضعَ الفرْقَدَيْنِ
كم بَصِير غدا بعينين كى ينــظر ما حالهم فراح بعين
[ايس يخطُون ما يريدون ،ما إن يقصدوا منهمُ سوى الناظرين]

واشتد الأمر بمحمد المخلوع ، فباع ما فى خزائنه سراً ، وفرق ذلك أرزاقاً فيمن معه ، ولم يبق معه ما يعطيهم ، وكثرت مطالبتُهم إياه ، وضيق عليه طاهر ، وكان نازلا بباب الأنبار فى بستان هنالك ، فقال محمد : وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً ؛ فما منهم إلا عدو : مَنْ مَعِى ، ومن علىَّ ؛ أما هؤلاء فيريدون مالى ، وأما أولئك فيريدون نفسى ، وقال :

تفرَّقوا ودَعُونِى يا معشر الأعوان[1]
فكلكم ذو وجوه كثيرة الألوان
وما أرى غير إفْكٍ وتُرَّهَات الأمانى
ولست أملك شيئاً فسائلوا إخوانى
فالويل فيما دهانى من نازل البستان

يعنى طاهر بن الحسين .

ولما اشتدَّ الأمر عليه [وجدّ به] ونزل هرثمة بن أعين بالجانب الشرقى ، وطاهر بالجانب الغربى[2] ، وبقى محمد فى مدينة أبى جعفر ، شاور من حضر [ه] من خواصه فى النجاة بنفسه ؛ فكل أدْلى برأى ، وأشار بوجه ؛ فقال قائل منهم : تكاتب ابن الحسين وتحلف له [بما يثق به] أنك مفوض أمرك إليه ، لعله أن يجيبك إلى ما تريد منه ، فقال : ثكلتك أمك ! لقد أخطأْتُ الرأىَ فى طلبى المشورة منك ، أما رأيت ثار رجل لا يؤول إلى عذر ؟[3] وهل كان المامون لو اجتهد لنفسه وتولّى الأمر برأيه بالغًا عُشْرَ ما بلغه له طاهر ؟ ولقد دَسَسْت وفحصتُ عن رأيه ؛ فما رأيته يطلب [إلا] تأثيل المكارم ويُعْدَ الصيت والوفاء ، فكيف أطمع فى

(١) فى ب « تفرقوا أو دعونى » .
(٢) فى ا « وحوى طاهر أكثر الجانب الغربى » .
(٣) فى ا « لا يؤول إلى غدر » .

Marfat.com

استذلاله بالأموال وفى غدره [والاعتماد فى عقله][1] ؟ ولو قد أجاب إلى طاعتى واتصرف إلىَّ، ثم ناصَبَنِى جميعُ الترك والديلم مااهتممت بمناصبتهم، ولكنت كما قال أبو الأسود الدؤلى فى الأزد عند إجارتها زياد بن أبيه :

فلما رآهم يطلبون وزيره ... وساروا إليه بعد طول تمادِ
أبَى الأزْدَ إذ خاف التى لا بَقَالها ... عليه ، وكان الرأى رأى زياد[2]
فقالوا له : أهلا وسهلا ومرحباً ... أصَبْتَ فكاشِفْ من أرَدْتَ وعادِ
فأصبح لا يخشى من الناس كلهم ... عدواً ، ولو ما لوا بقوة عاد

والله لوددت أنه أجابنى إلى ذلك فأبحته خزائنى ، وفَوَّضْتُ إليه ملكى ، ورضيت بالمعاش تحت يديه ، ولا أظننى مُفْلِته، ولوا كانت [لى] ألف نفس . فقال السندى : صدقت [والله] يا أمير المؤمنين ، ولو أنك أبوه الحسين بن مصعب ما استبقاك[3] ، فقال محمد : وكيف لنا بالخلاص إلى هَرْثَمة ولات حين مناص ؟ وراسَلَ هرثمة ، ومال إلى جنبته ، فوعده هرثمة بكل ما أحبَّ ، وأنه يمنعه ممن يريد قتله ؛ وبلغ ذلك طاهراً ، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه[4] ، ووعده هرثمة أن يأتيه فى حَرَّاقة إلى مَشْرَعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره [هو] ومن أحبَّ ، فلما همَّ محمد بالخروج فى تلك الليلة — وهى ليلة الخميس ، لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة — دخل إليه الصعاليك من أصحابه ، وهم فتيان الأبناء والجند، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة ، وفى إصطبلك سبعة آلاف فرس [يحمل كل منا على فرس] وتفتح بعض أبواب المدينة ، ونخرج فى هذه الليلة ، فما يُقْدِم علينا أحد إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنَجْبِى الأموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام، وندخل مصر، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة ، فقال : هذا والله الرأىُ ، فعزم على ذلك وهَمَّ به وجَنَح إليه ،

(١) ليست فى ا (٢) فى ا « إذ خاف التى لا سوى لها » .
(٣) فى ب « ماستقال » (٤) فى ا « وزاد غضبا » .

Marfat.com

وكان لطاهر فى جوف دار الأمين غلمانٌ وخَدَم من خاصة الأمين يبعثون إليه بالأخبار ساعة فساعة ، فخرج الخبر إلى طاهر من وقته ، فخاف طاهر ، وعلم أنه الرأى إن فعله ، فبعث إلى سليمان بن أبى جعفر وإلى ابن نهيك والسندى بن شاهك – وكانوا مع الأمين – إن لم تزيلوه عن هذا الرأى لأخربَنَّ [دياركم و] ضياعكم ولأزيلَنَّ نعمكم ولأتلفَنَّ(١) نفوسكم ، فدخلوا على الأمين فى ليلتهم ، فأزالوه عن ذلك الرأى ، وأتاه هرثمة فى الحرّاقة إلى باب خراسان ، ودعا الأمينُ بفرس يقال له الزهيرى ، أغر محجل أدهم محذوف ، ودعا الأمين بابنيه موسى وعبدالله فعانقهما وشمهما وبكى ، وقال: الله خليفتى عليكما ، فلست أدرى أألْتقى معكما بعدها أو لا ؛ وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود وقُدَّامه شمعة ، حتى أتى باب خراسان إلى المَشْرَعة والحراقة قائمة فنزل ودخل الحراقة ، فقبَّل هرثمة بين عينيه ؛ وقد كان طاهر نمى إليه خروجه ، فبعث بالرجال من الهرَوِية وغيرهم والملاحين فى الزوارق على الشط ، فدفعت الحراقة ، ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله ؛ فأتى أصحاب طاهر عُرَاة فغاصوا تحت الحرافة فانقلبت بمن فيها ، فلم يكن لهرثمة شاغل إلا [أنْ نجا] بِحُشَاشة نفسه ، فتعلق بزورق وصعد إليه من الماء ومضى إلى عسكره من الجانب الشرقى ، وشق محمد ثيابه عن نفسه وسَبَحَ فوقع نحو السراة(٢) إلى عسكر قرين الديرانى غلام طاهر ، فأخذه بعض السواس حين شم منه رائحة المسك والطيب ، فأتى به [قريناً] فاستأذن فيه طاهراً ، فأتاه الإذن فى الطريق وقد حمل إلى طاهر ، فقتل فى الطريق وهو يصيح : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أنا ابن عَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخو المأمون ، والسيوفُ تأخذه حتى بَرَدَ ؛ وأخذوا رأسه ، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

(١) فى ب « وأزيل نعمكم وأتلف » .

(٢) فى ب « نحو العراة » .

Marfat.com

وذكر أحمد بن سلام ـ وقد كان مع الأمين فى الحَرّاقة حين انقلبت ـ (١) فسبح فقبض عليه بعض أصحاب طاهر وأراد قتله ، فأرغبه فى عشرة آلاف درهم ، وأنه يحملها إليه فى صبيحة تلك الليلة ، قال : فأُدْخِلْتُ بيتاً مظلماً فبَيْنَا أنا كذلك إذ دخل عَلَىَّ رجل عُرْيان عليه سراويل وعمامة قد تلثم (٢) بها ، وعلى كتفه خِرْقة ، فجعلوه معى ، وتقدموا إلى مَنْ فى الدار فى حفظنا ، فلما استقر فى الدار حَسَر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد ، فاستعبرت واسترجعت فيما بينى وبين نفسى ، وجعل ينظر إلىّ ثم قال : أيهم أنت ؟ قلت : أنا مولاك ياسيدى ، قال : وأى الموالى أنت ؟ قلت : أحمد بن سلام ، قال : أعرفك بغير هذا ، كنت تأتينى بالرَّقة (٣) ؟ قلت : نعم ، ثم قال : يا أحمد ، قلت : لبيك يا سيدى ، قال : ادْنُ منى وَضُمَّنِى إليك فإنى أجد وَحْشَة شديدة ، قال : فضممته إلىّ ، فإذا قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، ثم قال : أَخْبِرْنِى عن أخى المأمون أَحَىٌّ هو ؟ قلت له : فهذا القتال عمن إذَنْ ؟ قال : قبحهم الله ! ذكروا أنه مات ، قلت : قبح الله وزراءك ! فهم أوردوك هذا المَوْرِدَ ، فقال لى : يا أحمد ليس هذا موضع عتاب ؛ فلا تقل فى وزرائى إلا خيراً فما لهم ذنب ، ولست بأول مَنْ طلب أمراً فلم يقدر عليه ، قلت : الْبس إزارى هذا وَارْمِ بهذه الخرقة التى عليك ، فقال : يا أحمد مَنْ كان حاله مثل حالى فهذه له كثير ، ثم قال لى : يا أحمد ما أَشُكُّ أنهم سيحملوننى إلى أخى أفَتَرَى أخى قاتلى ؟ قلت : كلا ، إن الرحم ستعطفه عليك ، فقال لى : هيهات ؟! المُلْكُ عقيم لا رحم له ، فقلت له : إن أمان هرثمة أمَانُ أخيك ، قال فلقنته الاستغفار وذكر الله ، فبينا نحن كذلك إذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح فاطّلَع (٤) فى وجه محمد مستثبتاً له ، فلما أثبته معرفةً خرج وأغلق الباب ، وإذا هو محمد الطاهرى ، قال : فعلمت أن الرجل مقتول ؛ وقد كان بقى عَلَىَّ من صلاتى الوتر ، فخفت أن أقتل ولم أوتر ، فقمت لأوتر ، فقال لى : يا أحمد لا تبعد منى

---

(١) فى ب « حين أصيبت » (٢) فى ب « متلثما بها » .
(٣) فى ا « أكنت بالحراقة » (٤) فى ا « فتطلع فى وجه محمد » .

Marfat.com

وَصَلَّ بقربى ، فإنى أجد وَحْشَة شديدة ، فدنوت منه ، فقَلَّ ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل وَدَقَّ باب الدار ، ففتح الباب فإذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مُصْلَتَة ، فلما أحَسَّ بهم محمد قام قائماً وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسى فى سبيل الله ، أما من حيلة ؟ أما من مُغيث ؟ وجاءوا حتى قاموا على باب البيت[1] الذى نحن فيه ، وجعل بعضهم يقول [لبعض] : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً ؛ فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول : أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هارون الرشيد ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى ، فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه [بالسيف] ضربة [وقعت] فى مقدم رأسه ، وضرب محمد وجهه بالوسادة التى كانت فى يده ، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده ، فصاح بالفارسية : قتلنى الرجل ، فدخل منهم جماعة فنَخَسَه أحدهم بسيفه فى خاصرته ، وَكَبُّوه فذبحوه من قَفَاه ، وأخذوا رأسه ، ومضوا به إلى طاهر .

وقد قيل فى كيفية قتله غير هذا ، وقد أتينا على التنازع فى ذلك فى الكتاب الأوسط .

وأتى بخادمه كوثر [وكان حَظِيَّه ، معه الخاتم وَالبُرْدُ والسيف والقضيب ، فلما أصبح طاهر أمر برأسه] فنصب على باب من أبواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قُطْرُبُّلَ فى الجانب الغربى ، إلى الظهر ، ودُفنت جثته فى بعض تلك البساتين .

ولما وضع رأس الأمين بين يدى طاهر قال : [اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير [وَحُمِلَ الرأس إلى خراسان إلى المأمون فى منديل والقطنُ عليه وَالأَطْلِيَةُ ، فاسترجع المأمون وبكى واشتدَّ تأسفه عليه ؛ فقال له الفضل بن سهل : الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة ؛

(١) فى ا « حتى وقفوا على باب البيت » .

Marfat.com

فإن محمداً كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته[1] ، فأمر المأمون بنصب الرأس فى صَحْنِ الدار على خشبة ، وأعطى الجند ، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه ، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس ، فقبض بعض العجم عَطَاءه ، فقيل له : ألعن هذا الرأس ، فقال : لعن الله هذا ولعن والديه [وما ولدا] وأدخلهم فى كذا وكذا من أمهاتهم ، فقيل له : لعنت أمير المؤمنين ، وذلك بحيث يسمعه المأمون منه [فتبسَّمَ] وتغافل ، وأمر بحَطِّ الرأس ، وترك ذلك المخلوع ، وطيب الرأس وجعله فى سَفَطٍ ، وردَّهُ إلى العراق فدفن مع جثته ، ورحم الله أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقتل ، ورثاه الشعراء ، وقالت زبيدة أم جعفر [والدته] :

أودى بإلفك من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لَمَّا رأيتُ المَنَايَا قد قَصَدْنَ له ... أصَبْنَ منه سواد القلب وَالرَّاسَا
فبتُّ متكئاً أرْعَى النُّجُومَ لَهُ ... إخَالُ سنته فى الليل قِرْطَاسَا[2]
والموتُ دَان له ، وَالهَمُّ قارنه ... حتى سَقَاه التى أودى بها الكَاسَا
رزئته حين بَاهَيْتُ الرِّجَالَ به ... وقد بنيت به للدهر آسَاسَا[3]
فليس مَنْ مات مَرْدُوداً لنا أبداً ... حتى يَرُدَّ علينا قبله نَاسَا

وَرَثَتْهُ زوجته لُبَابَة بنة على بن المهدى ، ولم يكن دخل بها ، فقالت :

أبكيك لا للنعيم وَالأنسِ ... بل للمعالى والسيف والترس
أبكى على سيد فُجِعْتُ به ... أرْمَلَنِى قبل ليلة العرس
يا مالكا بالعَرَاءِ مُطَّرَحا ... خانته أشْرَاطه مع الحرس[4]

ولما قتل محمد دخل إلى زبيدة بعضُ خدمها ، فقال [لها] : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد ؟! فقالت : وَيْلَكَ !! وما أصنع ؟ فقال : تخرجين فتطلبين بثأرِهِ كما خرجَتْ عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لا أم لك ،

(١) فى ا « بحيث أراك الله » (٢) فى ا « فبت مكتئبا » .
(٣) يقع هذا البيت فى ا متأخرا عن الذى يليه هنا .
(٤) فى ب « يامالكا بالعراق مطرحا » .

Marfat.com

ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال ؟ ثم أمرت بثيابها فسودت ، ولبست مسحاً من شَعَر ، ودعت بدواة وقرطاس ، وكتبت إلى المأمون :

لخير إمَامٍ قام من خير عُنْصُر وَأَفْضَلِ رَاقٍ فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم وللملك المأمون من أم جعفر
كَتَبْتُ وعينى تستهلُّ دموعُهَا إليك ابن عمى من جُفُونِى ومحجرى
أُصِبْتُ بأدنى الناس منك قرابة وَمَنْ زال عن كبدى فقلَّ تَصَبُّرِى
أتى طاهر ، لا طَهَّرَ الله طاهراً ، وما طاهر فى فعـــله بمُطَهَّرِ
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسراً وأَنْهَبَ أموالى وَأَخْرَبَ أدؤرى (١)
يعزُّ عَلَى هارون ما قد لَقِيتُهُ وما نالنى من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أَسْدَى لأمْرٍ أمرته صبرتُ لأمر من قدير مُقَدَّر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم إنى أقول كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه لـما بلغه قتلُ عثمان : « والله ما قتلت ، ولا أمرت ، ولا رضيت » اللهم جَلِّلْ قلب طاهر حزناً !

قال المسعودى : وللمخلوع أخبار وسير غير ما ذكرنا قد أتينا عليها فى كتابينا فى « أخبار الزمان » وفى الـكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكرها فى هذا الـكتاب ، والله — سبحانه — ولى التوفيق .

قد تم — بحمد اللهِ وَحُسْنِ توفيقه — الجزء الثالث من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى ، بعد مراجعته أدَقَّ مراجعة وأوفاها ، ويليه — إن شاء الله تعـالى — الجزء الرابع ، مفتتحاً بذكر خلافة المأمون بن هارون الرشيد ، نسأل الله أن يمن بإتمامه والمعونة فيه ، إنه ولى ذلك ؟

---

(١) فى ا « وأحرق أدؤرى » .

Marfat.com

فهرس الجزء الثالث من كتاب

مروج الذهب ، ومعادن الجوهر

لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي

Marfat.com

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء الثالث

من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر »
لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى

ص	الموضوع
٤	ذكر خلافة الحسن بن على رضى الله عنهما
٤	وقت البيعة له
٥	ذكر لمع من أخباره وسيره رضى الله عنه
٥	سم الحسن رضى الله عنه
٥	امرأته جعدة بنت الأشعث هى التى سمته بإيعاز معاوية
٥	النجاشى يرثى الحسن رضى الله عنه
٦	رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن بن على رضى الله عنهما
٧	سرور معاوية بموت الحسن بن على ، وتأنيب عبد الله بن عباس إياه على ذلك
٧	سرور معاوية بصلح الحسن وإياه
٨	خطبة الحسن بن على بعد صلحه لمعاوية
٩	خطبة للحسن فى حياة أبيه ، وقد أمره أن يصلى الجمعة بالناس
٩	خطبة أخرى للحسن بن على
١١	ذكر خلافة معاوية بن أبى سفيان
١١	زمان بيعته ، ووفاته ، ومكان دفنه
١٢	ذكر لمع من أخباره وسيره ، ونوادر من بعض أفعاله
١٢	مقتل حجر بن عدى الكندى

ص	الموضوع
١٣	معاوية وعدى بن حاتم الطائى ، وكان من شيعة على
١٣	تنازع أسامة بن زيد وعمرو بن عثمان ابن عفان إلى معاوية فى أرض ، فقضى بها لاسامة خوفا من آل على
١٤	معاوية يلحق زياد بن سمية بأبى سفيان
١٥	سمية أم زياد ، وأمرها فى الجاهلية
١٥	سبب إلحاق معاوية لزياد
١٦	شهادة أبى مريم السلولى على أبى سفيان
١٦	اعتراض يونس بن عبيد بن أسد على حكم معاوية بلحوق زياد لأبى سفيان
١٨	عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص يتلاحيان بين يدى معاوية ، فيشير عمرو على معاوية بقتله ، فلا يأخذ بمشورته
١٩	عبد الله بن هاشم بن عتبة يفسر لمعاوية الجود والنجدة والمروءة
٢٠	كتاب من محمد بن أبى بكر والى مصر لعلى بن أبى طالب يرسله إلى معاوية بن أبى سفيان
٢١	جواب معاوية على كتاب محمد بن أبى بكر
٢٢	كتاب من معاوية إلى على
٢٢	جواب على ، على كتاب معاوية

Marfat.com

ص	الموضوع
٢٣	وقع معاوية بن أبى سفيان فى على ابن أبى طالب بمكة ، فنهره سعد، وذكر له بعض فضل على
٢٤	السيد الحميرى الشاعر يمدح على ابن أبى طالب
٢٤	ذكر بعض القاعدين عن نصرة على
٢٥	أبو الطفيل الكنانى يصف لمعاوية حزنه على على ، ويتهم معاوية بالقعود عن نصرة عثمان فى حياته
٢٥	ضرار بن الخطاب يصف لمعاوية حزنه على على
٢٥	كتاب من معاوية لقيس بن سعد ابن عبادة ، وكان عاملا على مصر أيام حرب على ومعاوية
٢٥	جواب قيس بن سعد على كتاب معاوية
٢٦	قيس بن سعد والأنصار عند معاوية
٢٦	ورع قيس بن سعد
٢٧	عتب عمرو بن العاص على معاوية بأنه كثير التردد
٢٧	شجاعة العباس بن ربيعة
٢٩	برز معاوية للقتال فى يوم من أيام صفين ، فتقدم على لحربه ، فلما عرفه معاوية ولى الأدبار
٢٩	حوار بين معاوية وعمرو بن العاص
٣٠	نظام تعبئة على لجيوشه
٣٠	معاوية يرسل بسر بن أرطاة لقتال أهل المدينة ، ثم لقتال أهل مكة واليمن

ص	الموضوع
٣١	اجتمع معاوية وعمرو بن العاص ووردان غلام عمرو ، فتذاكروا ما بقى لهم مما يشتهونه
٣٢	وفاة عمرو بن العاص
٣٢	تركة عمرو بن العاص
٣٣	معاوية يولى زياداً البصرة
٣٣	غزاة الرادفة
٣٣	موت أبى أيوب الأنصارى
٣٣	طاعون بالكوفة ، وموت المغيرة ابن شعبة به
٣٣	المغيرة بن شعبة يخطب هند بنت النعمان بن المنذر فلا تجيبه
٣٤	زياد يجمع بين الكوفة والبصرة
٣٥	حاول معاوية نقل منبر النبى إلى الشام
٣٥	اجتمع لزياد ولاية الحجازين والعراقين ، ثم مات على ذلك
٣٥	زياد يحرض الناس بالكوفة على سب على ، ويقتل من لا يطيعه
٣٦	وفود أهل الأمصار على معاوية ، وأخذه البيعة لابنه يزيد من بعده
٣٩	ذكر جمل من أخلاق معاوية وسياسته
٣٩	كان معاوية يأذن فى كل يوم وليلة خمس مرات
٤١	إحكام معاوية للسياسة ، وأمثلة منه
٤١	أمثلة من بلاهة أهل الشام ، وتسليمهم لمعاوية

Marfat.com

ص	الموضوع
٤٣	كان بنو أمية يزعمون لأهل الشام أنهم هم ورثة رسول الله
٤٣	بعض أخلاق العامة ، وعدم اهتدائهم لوجه الصواب
٤٥	تأثير العادة
٤٦	وفد عقيل بن أبى طالب على معاوية فى حياة على
٤٦	معاوية يسأل عقيل بن أبى طالب عن بنى صوحان ، فيجيبه
٤٧	كتاب من صعصعة بن صوحان إلى عقيل بن أبى طالب
٤٧	على بن أبى طالب يستشير وجوه أصحابه فى شأن معاوية
٤٨	صعصعة بن صوحان رسول على بن أبى طالب إلى معاوية بكتاب على
٤٨	معاوية يسأل صعصعة بن صوحان عن بطون العرب ، فيجيبه
٥١	صعصعة بين يدى معاوية
٥٢	صعصعة عند عبد الله بن عباس ، يجيبه عن المكارم
٥٥	صعصعة ورجل من فزارة
٥٦	مقتل عبد الله بن وهب الراسبى
٥٧	على يمدح ربيعة
٥٧	معاوية يأسر جميل بن كعب الثعلبى
٥٨	احتضار معاوية
	ذكر الصحابة ، ومدحهم

ص	الموضوع
٦٠	معاوية يسأل ابن عباس عن أبى بكر فيجيبه
٦٠	ويسأله عن عمر فيجيبه
٦٠	ويسأله عن عثمان فيجيبه
٦٠	ويسأله عن على فيجيبه
٦١	ويسأله عن أبيه العباس فيجيبه ، ثم يذكر له فضل الصحابة جميعا
٦٣	ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان
٦٣	مجمل تاريخه: ولايته ، ومدته ، وبيعته لابنه ، ووفاته ، ورثاء الأخطل له
٦٤	ذكر مقتل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن قتل معه من آل بيته وشيعته
٦٤	دعوة أهل الكوفة الحسين إلى الخروج إليهم
٦٤	الحسين يرسل إلى أهل الكوفة مسلم بن عقيل بن أبى طالب
٦٤	ابن عباس يأتى الحسين فيسأله عما عزم عليه من الخروج إلى أهل الكوفة
٦٤	نصيحة ابن عباس الحسين ألا يخرج ، وعدم قبول الحسين إياها
٦٥	أبو بكر بن الحارث بن هشام ينصح الحسين بعدم الخروج
٦٥	يزيد بن معاوية يبلغه خبر خروج الحسين ، فيولى الكوفة عبيد الله ابن زياد . ويأمره بالسرعة إليها

Marfat.com

ص	الموضوع
٦٥	عبيد الله بن زياد يسير للكوفة فإذا بلغها ظنه الناس الحسين ، فيقبلون عليه، حتى إذا عرفوه حصبوه بالحجارة
٦٦	مقتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب وهانىء بن عروة، وصلب جثة مسلم
٧٠	خروج الحسين ومعرفته بمقتل مسلم ابن عقيل وهو بالقادسية
٧٠	مقتل الحسين بكربلاء
٧٠	رأس الحسين يرسل به إلى يزيد بن معاوية
٧١	قتلى آل أبى طالب
٧١	مسلم بن قتيبة مولى بنى هاشم يرثى الحسين
٧٣	ذكر أسماء ولد على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وذكر أمهاتهم
٧٥	ذكر لمع من أخبار يزيد وسيره ، ونوادر من أفعاله
٧٥	انقطع يزيد بعد ولايته عن الخروج ثلاثة أيام ، ثم خرج فى الرابع وخطب الناس
٧٥	تهنئة عاصم بن أبى صيفى ليزيد ، وهو أول من جمع بين التعزية والتهنئة
٧٥	تهنئة عبد الله بن مازن ليزيد
٧٦	تهنئة عبد الله بن همام ليزيد
٧٦	عبد الملك بن مروان يستقطع يزيد أرضا بالحجاز ، فيقطعه إياها

ص	الموضوع
٧٧	جلس يزيد وابن زياد يشربان
٧٧	ظهرت الملاهى بمكة والدينة فى عهد يزيد بن معاوية
٧٨	بنت عقيل بن أبى طالب ترثى الحسين ومن قتل معه من آل البيت
٧٨	أبو الأسود الدؤلى يقول كلمة فى فعل ابن زياد بالحسين ومن معه
٧٨	خروج أهل المدينة على يزيد وطردهم لعامله عليهم ولسائر بنى أمية
٧٩	وقعة الحرة
٧٩	القتلى من بنى هاشم وسائر الجيش
٨٠	شأن على بن الحسين السجاد ومسلم ابن عقبة
٨٠	شأن على بن عبد الله بن العباس
٨٠	الحصين بن نمير يرمى الكعبة بالمجانيق وبالنار
٨١	بعض مثالب يزيد بن معاوية بن أبى سفيان
٨٢	ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم ، والمختار ، وعبد الله بن الزبير ، ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وبعض ما كان فى أيامهم
٨٢	مجمل تاريخ معاويه بن يزيد بن معاوية
٨٢	معاوية بن يزيد يأبى أن يعهد بالخلافة إلى أحد

Marfat.com

ص	الموضوع
٨٢	وفاة معاوية بن يزيد ، وصلاة الوليد ابن عتبة عليه ، وموته أثناء الصلاة
٨٣	أهل العراق يبايعون عبد الله بن الزبير
٨٣	شأن المختار بن أبى عبيد الثقفى
٨٤	عبدالله بن الزبير يظهر الزهد والعبادة ويطمع فى الخلافة
٨٥	عبد الله بن الزبير يقتل أخاه عمرو ابن الزبير ، وكان قد ذهب لحربه على رأس جيش بعث به والى المدينة لحرب عبد الله فى مكة
٨٥	ابن الزبير يحبس الحسن بن محمد ابن الحنفية فى سجن عارم ، فيهرب منه
٨٥	إيذاء عبد الله بن الزبير لبنى هاشم
٨٧	الشيعة الكيسانية ، ورأيهم فى الإمامة
٨٧	كثير عزة كان شيعيا كيسانيا
٨٨	السيد الحميرى كان كيسانيا أيضاً
٨٩	ابن الزبير وعبد الله بن العباس
٨٩	ابن الزبير ومحمد بن الحنفية
٨٩	ابن الزبير وعبد الله بن العباس أيضا
٩١	الحصين بن نمير يهادن ابن الزبير حين يعلم بموت يزيد بن معاوية . وكان الحصين على حرب ابن الزبير
٩٣	بناء ابن الزبير للكعبة على قواعد إبراهيم ، وهدم الحجاج لها فى عهد عبد الملك بن مروان

ص	الموضوع
٩٢	تمكن الأمر لابن الزبير فى أكثر الأطراف
٩٢	عبيد الله بن زياد أمير البصرة يعلم الناس بموت يزيد ومعاوية ، ويخبرهم أن الأمر شورى لم ينصب له إمام
٩٣	أهل الكوفة يخلعون بنى أمية ويعلنون أن الأمر لأهل الحجاز
٩٤	مروان بن الحكم يهم بأن يبايع عبد الله بن الزبير ، فيمنعه عبيد الله ابن زياد
٩٤	البيعة لمروان بن الحكم بالأردن
٩٥	مروان يعهد بالأمر بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد الأشدق
٩٥	شروط أهل الشام على مروان بن الحكم
٩٥	مسير مروان لقتال الضحاك بن قيس الفهرى عامل عبد الله بن الزبير
٩٦	شأن زفر بن الحارث العامرى الكلابى ، وكان فى جند الضحاك
٩٦	مقتل النعمان بن بشير ، وكان والى حمص ، ممالئا للضحاك وابن الزبير
٩٧	مسير مروان بن الحكم إلى مصر
٩٧	بيعة مروان لأبنائه
٩٧	موت مروان بن الحكم
٩٨	أولاد مروان بن الحكم

Marfat.com

ص	الموضوع
٩٨	أولاد يزيد بن معاوية ، وأولاد أبيه معاوية بن أبى سفيان
٩٩	ذكر أيام عبد الملك بن مروان
٩٩	مجمل تاريخه
١٠٠	ذكر جمل من أفعاله وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه ، ونوادر من أخباره
١٠٠	وصية عبد الملك للشعبى حين أراد أن يتخذه نديما
١٠٠	سأل عبد الملك الشعبى عن مهاب الريح ، فلم يعرفها ، فذكرها له
١٠٠	ثورة للشيعة بالكوفة
١٠٤	وفاة الحارث الأعور صاحب أمير المؤمنين على بن أبى طالب
١٠٥	مقتل عبيد الله بن زياد
١٠٥	مثل من رباطة جأش عبد الملك ابن مروان
١٠٦	قتال مصعب بن الزبير للمختار بن عبيد بحروراء
١٠٨	وفاة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب
١٠٩	جواب عبد الله بن عباس لمن سأله عما منع عليا أن يبعثه مكان أبى موسى
١٠٩	ولد عبد الله بن العباس
١٠٩	مقتل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق ، وسببه
١١٢	خروج مصعب بن الزبير ـ بعد استتباب الأمر له ولأخيه فى العراق ـ إلى الشام لقتال عبد الملك بن مروان
١١٢	خروج عبد الملك يريد العراق لقتال مصعب
١١٢	التقاء الجيش بمسكن على شاطىء دجلة
١١٣	أول خيانة جيش مصعب بن الزبير ، ومقتل ابن الأشتر ، ثم حرقه
١١٤	مقتل عيسى بن مصعب بن الزبير
١١٥	محمد بن مروان يأخذ الأمان من عبد الملك لمصعب بن الزبير
١١٥	مقتل مصعب بن الزبير
١١٥	شأن مسلم بن عمرو الباهلى ، وكان فى جيش مصعب ، وهو من صنائع معاوية
١١٦	بعض ما قيل من الشعر فى مقتل مصعب
١١٦	المكان الذى جىء فيه برأس الحسين هو الذى جىء فيه برأس عبيد الله بن زياد ، ثم جىء فيه برأس مصعب بن الزبير
١١٧	بلغ ذلك عبد الملك بن مروان فأمر بهدم المجلس
١١٧	بيعة الكوفة لعبد الملك بن مروان
١١٧	بشر بن مروان وروح بن زنباع الجذامى
١١٩	خطبة عبد الله بن الزبير ، وقد نعى إليه أخوه مصعب بن الزبير
١١٩	الحجاج يحاصر مكة
١٢٠	أسماء بنت أبى بكر الصديق تشجع ابنها عبد الله بن الزبير ، وتحرضه

Marfat.com

ص	الموضوع
١٢٢	موت عبد الله بن الزبير ، وصلبه
١٢٢	موت جابر بن عبد الله الأنصارى بالمدينة
١٢٢	قدم جابر أيام معاوية بن أبى سفيان عليه ، فأغضبه
١٢٣	موت محمد بن الحنفية ، وموضع قبره ، وأولاده
١٢٣	محمد بن الحنفية يطلب إلى عبد الملك ابن مروان أن يكف الحجاج عنه فيفعل
١٢٤	الشعبى رسول عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم
١٢٤	ذكر عند عبد الملك بن مروان معاوية بن أبى سفيان ، فوصفه
١٢٤	طلب رجل إلى عبد الملك أن يخلو به ، فشرط عليه شروطاً ، فاستأذن فى الانصراف
١٢٥	بلغ عبد الملك بن مروان أن عاملا من عماله قبل هدية ، فعزله
١٢٥	غضبت زوجة عبد الملك بن مروان عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، على عبد الملك ، فاحتال له عمرو بن بلال الأسدى حتى أرضاها ، فأجزل عطاءه
١٢٦	استوصف عبد الملك الحجاج بن يوسف الفتنة ، فوصفها له
١٢٦	خطبة عبد الملك بعد أن بلغه خلع ابن الأشعث
١٢٦	كتب عبد الملك إلى الحجاج كتابا. فلم يفهم مراده فسأل قتيبة بن مسلم فأعلمه
١٢٧	خطبة عبد الملك وقد سخط أهل المدينة عطاءهم
١٢٨	جفا عبد الملك روح زنباع الجذامى فاحتال حتى أرضاه
١٣٠	جفا سليمان بن منصور عبد الملك ابن مهلهل الهمذانى ، فاحتال حتى أرضاه
١٣٢	ذكر طرف من أخبار الحجاج وخطبه وما كان منه فى بعض أفعاله
١٣٢	زواج يوسف أبى الحجاج بالفارعة أمه ، وكانت زوجا للحارث بن كلدة
١٣٢	تولية عبد الملك الحجاج أمر العراق
١٣٤	خطبة الحجاج أول ما ولى العراق
١٣٦	مقتل عمير بن ضابئ البرجمى
١٣٨	الحجاج يولى ابن الأشعث سجستان ، فيخرج عليه
١٣٩	وقعة دير الجماجم ، ومقتل ابن الأشعث ، وخطبة الحجاج بالكوفة بعد ذلك
١٤١	عبد الملك يكتب إلى الحجاج يوبخه على قسوته
١٤٢	جواب الحجاج على كتاب عبد الملك
١٤٣	أرق الحجاج ليلة فطلب محدثا ، فاختار شيخا اسمه سبرة بن الجعد
١٤٣	كان محدث الحجاج خارجيا من أصحاب قطرى بن الفجاءة ، فهرب من الحجاج لاحقا بقطرى
١٤٥	الخوارج ، وبيان ما اتفقت عليه فرقهم وما اختلفوا فيه

Marfat.com

صفحة	الموضوع
١٤٦	إشارة إلى حروب الحجاج مع شبيب الخارجى
١٤٧	غزالة الخارجية
١٤٧	مقتل شبيب الخارجى
١٤٧	مقتل ابن القرية وكان مع ابن الأشعث
١٤٨	الحجاج وليلى الأخيلية
١٤٨	ليلى الأخيلية على قبر توبة بن الحمير
١٤٩	رأى العرب فى الصدى والتطير
١٤٩	بسر بن أرطاة يغلب على اليمن فى عهد على بن أبى طالب، ويقتل ابنين لعبيد الله بن العباس، وخطبة على فى ذلك
١٥٠	الحجاج يسأل عن النعمة
١٥٠	مرض الحجاج، فأشاع أهل الكوفة أنه مات، فلما استبل خطبهم يقرعهم
١٥١	شدة الحجاج فى قيادة الشعب إلى طاعة الخليفة
١٥١	الحجاج وعبد الله بن هانىء
١٥٢	الحجاج والشعبى
١٥٣	أراد الحجاج الحج فاستعمل على العراق ابنه محمدا، وخطب الناس
١٥٤	استعمل الحجاج عبيد بن أبى المخارق على الفلوجة، فاستشار عبيد جميل ابن صهيب فيما يصنع، فأشار عليه
١٥٥	كلمة للحجاج على المنبر
١٥٥	الغضبان بن القبعثرى والحجاج بن يوسف الثقفى
١٥٧	خطبة الغضبان بن القبعثرى فى أهل الكوفة وقد سمع بولاية الحجاج عليهم
١٥٨	الغضبان يفسر للحجاج كتابا جاءه من عبد الملك، ويبين له شر الرجال والنساء، وخير الفريقين
١٥٩	أشراف أهل الكوفة والبصرة بين يدى عبد الملك يتنازعون فى أفضل البلدين، فيسأل عبد الملك الحجاج عنهما، فيجيبه بما فيه تفضيل الكوفة
١٥٩	الحجاج يصف زوال الدنيا
١٥٩	بشر بن مالك الجرشى رسول المهلب ابن أبى صفرة إلى الحجاج بعد مقتل ابن عبد ربه الصغير بكرمان
١٦٠	جرير بن عطية بن الخطفى الشاعر والحجاج وهند امرأة الحجاج
١٦٢	الحجاج وأعشى همدان
١٦٣	الحجاج وأسير من بنى عامر كان من فرسان دير الجماجم مع ابن الأشعث
١٦٤	الحجاج وأسيران أحدهما من ثقيف والآخر من السكون
١٦٥	ذكر أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان
١٦٥	مجمل تاريخه
١٦٦	ذكر لمع من أخباره وسيره، وما كان من الحجاج فى أيامه
١٦٦	أولاد الوليد
١٦٦	بناء مسجد دمشق والمسجد النبوى
١٦٦	لوح حجرى يوجد بمكان مسجد دمشق مكتوب فى عهد سليمان بن داود

Marfat.com

صفحة	الموضوع
١٦٧	الحجاج يزور الوليد بن عبد الملك
١٦٨	الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز زوج الوليد
١٦٩	وفاة زين العابدين السجاد على ابن الحسين
١٦٩	مرض عبد الملك بن مروان ، ونصيحته لولده ، ووفاته
١٧٠	خطبة الوليد بن عبد الملك بعد موت أبيه
١٧٠	موت عبيد الله بن العباس
١٧١	كرم عبيد الله بن العباس
١٧١	أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى عبيد الله بن عباس خمسة آلاف درهم ففرقها لوقته
١٧١	عبيد الله بن العباس وبسر بن أرطاة قاتل ولديه قثم وعبد الرحمن عند معاوية
١٧٢	موت عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي
١٧٣	مقتل سعيد بن جبير
١٧٣	موت الحجاج وعلته التي مات بها
١٧٣	عتب الوليد بن عبد الملك لأخيه سليمان
١٧٤	نصيحة عبد الملك لأولاده ، وتكريره عليهم أمرها
١٧٥	الوليد بن الملك يهدم بيعة للنصارى
١٧٥	مجمل مآسي الحجاج
١٧٦	موت عبد الله بن جعفر ، وحديث جوده
١٧٧	عمرو بن العاص وعبد الله بن الحارث بن عبد المطلب بين يدي معاوية بن أبي سفيان
١٧٨	كتاب من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ، يغلظ له فيه أمر الخوارج مع قطرى
١٧٩	ليلى الأخيلية عند الحجاج تسترفده
١٧٩	الحجاج يولي ابن عمه أصبهان وهو أعرابي أمي
١٨١	إبراهيم التيمي في حبس الحجاج بواسط
١٨١	الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء فيجيبه
١٨٣	ذكر أيام سليمان بن عبد الملك ابن مروان
١٨٣	مجمل تاريخه
١٨٤	ذكر لمع من أخباره وسيره
١٨٤	أول خطبة خطبها سليمان بن عبد الملك
١٨٤	خالد القسري عامل مكة ، وتفريقه في الطواف بين الرجال والنساء
١٨٤	كان سليمان بن عبد الملك أكولا شرهاً
١٨٥	الرشيد يهدي الأصمعي جبة من جباب سليمان بن عبد الملك في أكمامها آثار الدهن .
١٨٥	مثل من شراهة سليمان بن عبد الملك
١٨٦	سليمان وجارية من جواريه وقد لبس وتعطر وأعجب بنفسه
١٨٦	سليمان ويزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ، ووفاء يزيد للحجاج

Marfat.com

صفحة	الموضوع
١٨٧	سأل سليمان أبا حازم الأعرج عن سر كراهية الناس للموت، فأجابه
١٨٨	نصيحة أعرابى لسليمان فى شأن بطانته
١٨٩	ذكر معاوية بن أبى سفيان مجلس سليمان بن عبد الملك، فوصفه سليمان
١٨٩	سليمان يرسل إلى خالد القسرى عامله على العراق فى شأن رجل من قريش ألا يسىء إليه، فيسيئه خالد، فيوجه سليمان إليه من يضربه مائة سوط
١٩٠	سليمان وعمر بن عبد العزيز
١٩٠	خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان
١٩٠	خالد القسرى يستعطف سليمان بن عبد الملك وقد غضب عليه
١٩١	سليمان يمدح الصمت
١٩١	بعض ما قيل من الشعر بعد وفاة سليمان
١٩٢	ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم
١٩٢	مجمل تاريخه
١٩٣	ذكر لمع من أخباره وسيره وزهده
١٩٣	السبب فى تولية عمر الخلافة
١٩٣	ورع عمر، ونسكه، وزهده
١٩٤	عمر وسالم السدى
١٩٤	عمر وطاوس
١٩٤	أول خطبة خطبها عمر
—	كتاب من عمر إلى عامله على المدينة فى شأن أولاد على بن أبى طالب
١٩٤	خطبة لعمر
١٩٥	وفد عمر إلى ملك الروم، وثناء ملك الروم على عمر
١٩٥	وصية أبى حازم المدنى الأعرج لعمر ابن عبد العزيز
١٩٦	توقيع عمر إلى بعض عماله وقد كثرت الشكوى منه
١٩٦	حال عمر قبل الخلافة وبعدها
١٩٦	وقوف عمر على المقبرة وبكاؤه بكاء شديداً
١٩٦	نصيحة مطرف إلى عمر
١٩٦	عمر وعبد من عبيده قد جنى، فهم أن يعاقبه
١٩٧	عمر ووفد الحجاز، وقد تقدمهم إلى الكلام غلام صغير
١٩٧	عمر وقاضى الحجاز الذى هام بجارية مغنية وحلف أن عمر لو سمعها لهام بها
١٩٩	عمر وفتى من بنى أمية هام بجارية مغنية
٢٠٠	عمر وجماعة من الخوارج وقد جاءوه يطلبون منه البراءة من أسلافه من بنى أمية ليتولوه وغلبته بالحجة عليهم
٢٠٣	شعر لصقلة بن عتبة الشيبانى الخارجى فى بعض أمراء الخوارج
٢٠٣	ذكر بعض علماء الخوارج، وبعض شأنهم
٢٠٥	رثاء الفرزدق لعمر بن عبد العزيز
٢٠٦	ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
٢٠٦	مجمل تاريخه
٢٠٧	ذكر لمع من أخباره، وسيره وما كان فى أيامه

Marfat.com

صفحة الموضوع

٢٠٧ حب يزيد لسلامة القس
٢٠٧ لهو يزيد ومجونه
٢٠٩ جملة من عهد عمر بن عبد العزيز ليزيد بن عبد الملك
٢٠٩ ماتت حبابة إحدى محظيات يزيد ، فلم يدفنها حتى جيفت ولامه الناس
٢٠٩ جزع يزيد بن عبد الملك على حبابة حتى مات
٢١٠ يزيد بن المهلب فى سجن عمر بن عبد العزيز ، وهربه فى أيام يزيد ابن عبد الملك ، وخروجه إلى الكوفة مناقضا
٢١١ بعث يزيد بن عبد الملك جيشا وأمره أن يستأصل آل المهلب
٢١٢ ابن هبيرة يتولى عملا ليزيد بن عبد الملك فيستشير العلماء فينصحونه فيجيزهم
٢١٣ كان هشام بن عبد الملك ينتقص أخاه يزيد ، فكتب إليه يزيد كتابا وأجابه هشام
٢١٣ موت عطاء بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين
٢١٤ موت مجاهد بن جبير مولى قيس بن السائب المخزومى
٢١٤ موت جابر بن زيد ، ويزيد الأصم ويحيى بن وثاب ، وأبى بردة الأشعرى ، ووهب بن منبه ، وطاوس وعبد الله بن جبير ، وسليمان بن يسار

صفحة الموضوع

٢١٤ موت القاسم بن محمد بن أبى بكر والحسن بن أبى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين
٢١٥ أبناء سيرين ثلاثة
٢١٥ موت الحكم بن عتبة الكندى ، وعطاء بن أبى رباح
٢١٥ موت أبى بكر محمد بن شهاب الزهرى
٢١٦ ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان بن محمد
٢١٦ مجمل تاريخه
٢١٧ ذكر لمع من أخباره وسيره
٢١٧ بعض أعمال هشام ، وفظاظته وغلظته
٢١٧ كان هشام بن عبد الملك بخيلا ، فبخل الناس فى عهده
٢١٧ فى عهده استشهد زيد على بن الحسين
٢١٨ زيد بن على وهشام بن عبد الملك
٢١٨ خروج زيد بالكوفة ، والحرب بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى ، وانهزام أصحاب زيد
٢١٩ نبش الأمويون قبر زيد وأخرجوه ثم صلبوه عريانا
٢١٩ لما صارت الخلافة إلى بنى العباس نبشوا قبور الأمويين
٢٢٠ إحراق جثة زيد بن على بن الحسين
٢٢٠ فرق الزيدية من الشيعة
٢٢١ هشام بن عبد الملك يعرض جيشه فيمر به رجل يركب فرسا نفورا فينتقصه
٢٢١ هشام يحرض الأبرش الكلبى على أن يعارج إحدى وصائفه
٢٢٢ بخل هشام ، وأمثلة منه

Marfat.com

صفحة

٢٢٣ سواس بنى أمية ثلاثة : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام
٢٢٤ ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان
٢٢٤ مجمل تاريخه
٢٢٥ ذكر لمع من أخباره ، وسيره
٢٢٥ خروج يحيى بن زيد بن على ومقتله
٢٢٥ لهو الوليد بن زيد وحبه للغناء والطرب
٢٢٦ سأل الوليد شراعة عن الخمر ، فوصفها له ، فاتخذه نديماً
٢٢٧ بعض شعر الوليد فى الشراب والمجون
٢٢٧ الوليد وابن عائشة المغنى
٢٢٨ ورث الوليد الطرب عن أبيه يزيد بن عبد الملك
٢٢٨ الوليد يمزق المصحف ، وقد استفتح به ، ويرميه بالنشاب
٢٢٩ الوليد ينكر الوحى
٢٢٩ أم الوليد بنت عم الحجاج بن يوسف الثقفى
٢٢٩ خصائص الحجر المعروف باليشب
٢٣٠ كان يزيد بن عبد الملك يريد أن يعهد إلى ابنه الوليد من بعده ، ولكنه استصغره ، فعهد إلى أخيه هشام ، ثم إلى ابنه الوليد
٢٣٠ كان الوليد مغرى بالخيل
٢٣٠ أسماء خيل الحلبة وترتيبها
٢٣٠ أجرى الوليد الخيل يوماً ، ففخر بسبق فرسه
٢٣١ اجتمع عند الوليد ألف فرس قارح

صفحة

٢٣٢ وفاة أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على
٢٣٣ ذكر أيام يزيد وإبراهيم ابنى الوليد ابن عبد الملك بن مروان
٢٣٣ مجمل تاريخهما
٢٣٤ ذكر لمع مما كان فى أيامهما
٢٣٤ كان يزيد بن الوليد يرى رأى المعتزلة ، وبيان الأصول الخمسة التى هى أصول الاعتزال
٢٣٦ الإمامة ، واختلاف أهل النحل فيها ، وفى من يستحقها
٢٣٩ خروج يزيد بن الوليد على الوليد ابن يزيد باتفاق مع المعتزلة
٢٣٩ يزيد بن الوليد أول خليفة أمه أم ولد
٢٣٩ ظهور مروان بن محمد بن مروان
٢٣٩ مبدأ ظهور الدعوة إلى العباسيين
٢٤١ أهم أسباب ضعف بنى أمية وزوال ملكهم
٢٤٢ ذكر السبب فى العصبية بين النزارية واليمانية
٢٤٢ الكميت بن زيد الأسدى يعرض على الفرزدق شعره ، فيأمره بإذاعته
٢٤٣ عبد الله بن الحسن بن على يسمع هاشميات الكميت فيثيبه عليها بضيعة قيمتها أربعة آلاف دينار ، فيردها الكميت
٢٤٣ عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر يجمع من بنى هاشم مالا كثيراً ويعطيه الكميت
٢٤٤ الكميت يفضل النزارية على القحطانية

Marfat.com

صفحة

٢٤٥ دعبل بن على الخزاعى يرد على الكميت، ويفضل القحطانية على النزارية
٢٤٥ العصبية تجتاح بنى أمية
٢٤٧ ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم، وهو الملقب بالجعدى
٢٤٧ مجمل تاريخه
٢٤٩ ذكر مقدار المدة من الزمان، وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام
٢٥٢ ذكر الدولة العباسية، ولمع من أخبار مروان الجعدى ومقتله، وجوامع من حروبه وسيره
٢٥٢ رأى الراوندية فى الإمامة
٢٥٢ الجاحظ يؤلف كتاباً ينصر فيه رأى الراوندية فى الإمامة وهو غير مذهبه
٢٥٣ للجاحظ كتاب آخر سماه كتاب العثمانية يحتج فيه ضد خلافة على بن أبى طالب
٢٥٣ وله كتاب آخر سماه كتاب أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان
٢٥٣ ألف الشيعة نقضاً لكتب الجاحظ فى الإمامة
٢٥٤ مذهب متأخرى الراوندية فى الإمامة
٢٥٤ أمر أبى مسلم الخراسانى، ودعوته لآل العباس، والاختلاف فى شأنه
٢٥٥ كتاب من نصر بن يسار إلى مروان الجعدى يحذره أمر أبى مسلم ومن معه
٢٥٦ حروب مروان الجعدى مع الخوارج، وخبره مع الضحاك ابن قيس الحرورى

صفحة

٢٥٦ لام بعض خاصان مروان إياه على ترك التمتع بلذائذ الدنيا، فذكر له اشتغاله بالحروب
٢٥٧ نصر بن سيار يستمد يزيد بن عمر ابن هبيرة عامل العراق لمروان
٢٥٧ خوارج اليمن وعلى رأسهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى يدعون لطالب الحق
٢٥٧ مروان يجهز جيشاً لقتالهم بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى
٢٥٨ موت نصر بن سيار كمداً بساوة
٢٥٨ وقع لمروان كتاب من أبى مسلم كتب به إلى إبراهيم الإمام
٢٥٩ حبس إبراهيم الإمام وشيعته ومقتلهم
٢٦٠ حرب مروان مع شيعة العباسيين بالزاب
٢٦٠ صنيع أهل الموصل وحران مع مروان بعد أن رأوا تدهور حاله
٢٦١ مقتل مروان فى بوصير فى صعيد مصر
٢٦٢ آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتداولها الخلفاء
٢٦٢ بنات مروان بين يدى صالح بن على
٢٦٣ شأن عبد الحميد بن يحيى الكاتب
٢٦٤ استشار مروان بن محمد إسماعيل ابن عبد الله القشيرى، وقد رأى أمره مدبرا، فغشه
٢٦٦ ذكر خلافة أبى العباس عبد الله ابن محمد السفاح
٦٦ مجمل تاريخه

Marfat.com

صفحة	الموضوع
٢٦٧	ذكر جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه
٢٦٧	وصية إبراهيم الإمام حين علم أن لا نجاة له ، إلى أبى العباس السفاح
٢٦٧	مسير أبى العباس وأهل بيته إلى الكوفة
٢٦٨	نزل أبو العباس السفاح الكوفة سراً
٢٦٨	أبو سلمة يحاول أن يوجه الدعوة إلى إمامة العلويين فيكتب بذلك إلى أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق فيأبى ، ويكتب إلى عبد الله بن الحسن فيقبل
٢٦٩	شأن جعفر وعبد الله بن الحسن ، والحوار بينهما فى شأن كتابى أبى سلمة
٢٧٠	إعلان البيعة لأبى العباس السفاح
٢٧٠	خطبة أبى العباس بعد البيعة ، وخطبة داود بن على
٢٧١	نافع بن عبد الملك قاتل مروان بن محمد يجلس على فراشه ويهين كبرى بناته فيبلغ ذلك أبا العباس فيوبخه ويأمره بالتقرب إلى الله بصلاة وصيام
٢٧١	رأس مروان بن محمد عند أبى العباس السفاح ، وصنيعه حينذاك ، ومقالته
٢٧٢	وفاء أبى جعدة بن هبيرة لمروان ابن محمد أمام السفاح ، وتقدير السفاح له من أجل ذلك
٢٧٤	كان العباسيون يعتقدون أن انتقال الخلافة إليهم كائن بمقتضى كتاب عندهم ، وزعموا أن بنى مروان كانوا يعلمون ذلك ، ويعلمون أسماء الخلفاء وأحوالهم
٢٧٥	أم سلمة زوجة أبى العباس السفاح تتغلب عليه ويقوى سلطانها عنده
٢٧٦	خالد بن صفوان ينصح السفاح أن يتزوج أو يتسرى ليخلص من تغلب أم سلمة
٢٧٦	كلام خالد بن صفوان يبلغ أم سلمة فتكيد له
٢٧٨	كان أبو العباس السفاح يحب مسامرة الرجال ، ويحرض أصحابه عليها
٢٧٨	السفاح وأبو نخيلة الشاعر ، وكان قد مدح مسلمة بن عبد الملك
٢٧٨	كان أبو العباس السفاح أسمح الناس حين يحضر طعامه
٢٧٩	كان لا يقبل شهادة صديقين تعاديا وإن اصطلحا بعد ذلك
٢٧٩	بعض خصال أبى العباس السفاح
٢٧٩	حسن الاستماع إلى حديث الملوك وبعض حوادث فى أزمنة مختلفة
٢٨٣	بعض آداب الحديث ، وبعض ما ورد فى ذلك من الشعر
٢٨٤	أول من استوزر فى دولة العباسيين
٢٨٤	أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وكيد أبى سلمة الخراسانى له
٢٨٥	الرقاشى يحدث السفاح حديث الجارية العامرية التى ذكرت لرجل هجا عامرا شعرا فى هجاء قبائل العرب عامة

Marfat.com

ص	الموضوع
٢٩٤	ذكر خلافة أبى جعفر المنصور
٢٩٤	مجمل تاريخه
٢٩٥	ذكر جمل من أخباره ، ولمع مما كان فى أيامه
٢٩٥	رؤيا أم المنصور عند حملها به
٢٩٥	أبو جعفر المنصور وشاعر أعمى كان يمدح بنى مروان أيام خلافتهم
٢٩٦	تذاكر المنصور وأهل بيته فى شأن بنى أمية وأسباب زوال ملكهم عنهم وحديث عبدالله بن مروان مع ملك النوبة الذى أمره بالرحيل عن بلاده حين علم أنه من بنى أمية
٢٩٧	وفاة محمد بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب
٢٩٨	وزراء المنصور
٢٩٨	المنصور وقائد من قواد هشام بن عبدالملك ، وقد حضر بين يديه ، وأخذ يترحم على هشام
٢٩٩	المنصور ومعن بن زائدة
٣٠٠	المنصور ينعى إلى نفسه وهو جالس فى طاق خراسان من مبناه ، وترفع إليه شكاة فى سهم يقذف به عنده
٣٠٠	المنصور والشيخ الهمذانى المظلوم
٣٠١	كان المنصور يستشير فى كل أموره حتى مدحه إبراهيم بن هرمة بأنه لا يستشير
٣٠٢	خروج عبدالله بن على ، وخلافه على المنصور ، وما كان بينهما من الحروب
٣٠٣	أبو مسلم الخراسانى يزمع الخروج على المنصور ، فيحتال المنصور له حتى يقتله

ص	الموضوع
٣٠٤	مقتل أبى مسلم
٣٠٥	خطبة المنصور بعد قتله أبا مسلم
٣٠٥	اضطراب خراسان لقتل أبى مسلم
٣٠٥	الخرمية ، والباطنية ، وبعض فرقهما
٣٠٦	ظهور محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية
٣٠٨	أدارسة المغرب ومنشؤهم ، وتفرق العلويين فى البلاد
٣٠٩	كلام للمنصور فى شأن العلويين
٣٠٩	المنصور والمسيب بن زهير الضبى
٣٠٩	قبض على كثير من العلويين وحبسوا حتى ماتوا فى السجن
٣١٣	الربيع يطلب إلى المنصور أن يحب الفضل ابنه
٣١٣	عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة والمنصور وابنه المهدى
٣١٤	وفاة عمرو بن عبيد
٣١٤	وفاة هشام بن عروة ، وأبى حنيفة النعمان ، والأوزاعى ، وأبى عمرو بن العلاء
٣١٥	مقتل عبد الله بن على عم المنصور
٣١٦	حديث للمنصور مع جلسائه فى شأن الذين خرجوا على الأئمة وقتلوا
٣١٦	أمهات حوادث حياة المنصور حدثت فى شهر ذى الحجة
٣١٦	وفاة المنصور
٣١٧	حزم المنصور ، وتركته
٣١٧	أعمام المنصور ، وأولاده

Marfat.com

صفحة	الموضوع
٣١٩	ذكر خلافة محمد المهدى بن عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس
٣١٩	مجمل تاريخه
٣٢٠	المهدى وشريك القاضى
٣٢٠	المهدى وصاحب المبقلة الذى أطعمه البقل والكراث
٣٢١	المهدى والأعرابى الذى سقاه النبيذ
٣٢٢	وزراء المهدى
٣٢٢	كرم المهدى
٣٢٣	مزنة امرأة مروان بن محمد وشأنها مع الخيزران وزينب بنت سليمان بن على
٣٢٥	عبد الله بن عمرو بن عتبة يعزى المهدى فى المنصور
٣٢٥	تشبيب أبى العتاهية بجارية الخيزران
٣٢٦	أبو العتاهية يهدى المهدى فى يوم نيروز ثوبا ممسكا كتب عليه بيتين ضمنهما رجاءه أن يهبه عتبة، فهم المهدى أن يفعل فترجوه عتبة ألا يفعل
٣٢٧	كان أبو العتاهية حلو الألفاظ ، سهل الشعر ، حاضر البديهة
٣٢٨	ريطة بنت السفاح تبعث عتبة جارية الخيزران فى شراء رقيق فيحتال عليها أبو العتاهية حتى يقبل يدها
٣٣٠	الشرقى بن القطامى يحدث المهدى حديث الغريين
٣٣١	المهدى ومروان بن أبى حفصة
٣٣٢	المهدى وسفيان الثورى
٣٣٢	رؤيا المهدى قبل وفاته بعشرة أيام
٣٣٣	وفاة زفر بن الهذيل صاحب أبى حنيفة ،وسفيان بن سعيد الثورى ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب، وشعبة بن الحجاج، وعبد الرحمن ابن عبد الله المسعودى، وحماد بن سلمة
٣٣٤	ذكر خلافة موسى الهادى
٣٣٤	مجمل تاريخه
٣٣٥	أخلاقه
٣٣٥	رباطة جأش الهادى ، وشأنه مع رجل خارجى أراد أن يقتله
٣٣٥	منزلة عيسى بن دأب عند الهادى
٣٣٥	رجل من آل المهلب وغلام له سندى كان قد رباه فهوى امرأته
٣٣٦	وزراء المهدى
٣٣٦	خروج الحسين بن على بن الحسن ابن على بن أبى طالب على الهادى
٣٣٧	الخيزران تسأل الهادى قضاء حوائج الرعية ، فإذا كثر ذلك منها منعها التدخل
٣٣٨	أرق الهادى ليلة فتذكر فعل بنى أمية بالهاشميين ،فأرسل إلى ابن دأب فى جوف الليل
٣٣٩	حديث بين ابن دأب والهادى عن مصر والبصرة والكوفة والمفاضلة بينها
٣٤٠	المناظرة بين البصرة والكوفة
٣٤٢	حاول الهادى أن يخلع أخاه الرشيد فمنعه يحيى بن خالد البرمكى
٣٤٤	وفاة الهادى

Marfat.com

صفحة	الموضوع
٣٤٤	الهادى يعنف أخاه هرون الرشيد على أن نفسه تحدثه بالخلافة
٣٤٥	رؤيا المهدى لولديه الهادى والرشيد
٣٤٥	المهدى يهب ولده الهادى سيف عمرو ابن معديكرب الصمصامة، وشعر ابن يامين فى ذلك
٣٤٧	ذكر خلافة هرون الرشيد
٣٤٧	مجمل تاريخه
٣٤٨	ذكر جمل من أخباره وسيره
٣٤٨	وزارة يحيى بن خالد
٣٤٨	موت ريطة بنت السفاح، والخيزران أم الرشيد، ومحمد بن سليمان
٣٤٨	محمد بن سليمان وسوار القاضى وشأنهما مع مجنون يعرف برأس النعجة
٣٤٩	محمد بن سليمان يبنى بيتا فيصفه له عبد الصمد بن شبيب بن شبة
٣٤٩	وفاة الليث بن سعد الإمام المصرى
٣٤٩	وفاة شريك بن عبد الله بن سنان النخعى القاضى
٣٥٠	وفاة مالك بن أنس إمام أهل المدينة
٣٥٠	وفاة حماد بن زيد
٣٥٠	وفاة ابن المبارك
٣٥٠	وفاة أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفة
٣٥١	هدية أم جعفر إلى أبى يوسف
٣٥١	موسى بن عبد الله بن الحسن العلوى وقد حاول رجل من أبناء عبد الله ابن الزبير أن يوقع به عند الفضل ابن الربيع، فيحلفه، فيحلف له كاذبا
٣٥٢	عبد الله بن مصعب يموت عقيب حلفه بالله كاذبا
٣٥٣	يمين الله الذى يعاقب من حلف به كاذبا بغير إمهال
٣٥٣	يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى
٣٥٣	محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله العلوى
٣٥٣	آخر حجة حجها الرشيد
٣٥٤	وفاة الكسائى النحوى، ومحمد ابن الحسن صاحب أبى حنيفة، ويحيى بن خالد البرمكى
٣٥٤	سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح بن على العباسى
٣٥٥	احتجاج عبد الملك بن صالح للحقد
٣٥٥	جبريل بن بختيشوع الطبيب
٣٥٦	رؤيا الرشيد بشأن موسى بن جعفر وكان فى محبسه وإطلاق سراحه بعدها
٣٥٧	إبراهيم بن المهدى والعبد الذى كان مولعا بجارية من جوارى العلويين، وتزويج الرشيد العبد إياها
٣٥٨	ابن السماك يصف للرشيد حمامة، وينشده شعرا فى وصف حمامة
٣٦٠	معن بن زائدة والرشيد
٣٦٠	الأمين والمأمون بين يدى الرشيد وقد أمر الكسائى بامتحانهما
٣٦٢	الأحمر النحوى مؤدب الأمين، ووصية الرشيد له حين دفع إليه الأمين
٣٦٢	العمانى الشاعر يصف الأمين للرشيد
٣٦٢	الرشيد يعهد إلى ولديه الأمين والمأمون بالخلافة

Marfat.com

صفحة	الموضوع
٣٦٣	الرشيد وأم جعفر (زبيدة) يتحاوران في شأن الأمين والمأمون
٣٦٤	الرشيد يعلق بيعته لولديه في جوف الكعبة
٣٦٤	توكيد جعفر بن يحيى على الأمين ألا يغدر بأخيه المأمون
٣٦٤	بيعة الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون
٣٦٤	وفاة الفضيل بن عياض
٣٦٥	وفاة موسى بن جعفر العلوى
٣٦٥	أبيات لكلثوم العتابي في مدح الرشيد
٣٦٦	كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس ، ويعدد سرقاته الشعرية
٣٦٦	أبو العتاهية يسأل الرشيد أن يزوجه عتبة ، فيذهب الرشيد إليها فلا تقبل وتستحلف الرشيد أن يرحمها منه
٣٦٦	يأس أبي العتاهية من عتبة كان سبباً لتنسكه وعبادته
٣٦٨	مختار من أشعار أبي العتاهية
٣٧٠	غنى إسحاق الموصلي الرشيد ليلة حتى نام ، وفيما هو جالس جاءه شاب لا يعرفه فعلمه صوتا
٣٧٠	غنى المغنون الرشيد يوما فلم يطرب إلا لمسكين المدنى
٣٧١	مسكين المدنى يقص على الرشيد خبر الصوت الذى غناه له فأطربه
٣٧٢	الرشيد وسباق الخيل

صفحة	الموضوع
٣٧٣	إسراف إبراهيم بن المهدى ، وعتب الرشيد عليه ، وعقابه له
٣٧٣	الرشيد يسأل إبراهيم بن المهدى عن أحسن الأسماء وأسمجها
٣٧٤	أدب عبد الله بن صالح ، وظرفه ، واستملاح الرشيد له
٣٧٤	رجل عبشمى من بنى أمية يسأل الرشيد في شعر له
٣٧٥	عبد الملك بن صالح يهنىء الرشيد ويعزيه
٣٧٥	مرض الرشيد
٣٧٦	موت الرشيد
٣٧٧	جمل من أخبار البرامكة
٣٧٧	فضائل البرامكه
٣٧٧	الخلاف في سبب نكبتهم
٣٧٧	الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد فيكلف الرشيد يحيى بن خالد أن يكتب له ليردعه عن مثل هذا ، فيكتب
٣٧٨	وصف مجلس من مجالس البرامكة والرشيد
٣٧٩	سوء نظام الأصمعى ، وعدم قيامه بشكر نعم الله عليه
٣٧٩	يحيى بن خالد البرمكى ، وكان من أهل النظر والبحث
٣٧٩	جلساء يحيى بن خالد يتحدثون عن العشق وأسبابه

Marfat.com

ص الموضوع

٣٨١ بحث فى العشق ،واختلاف أهل النظر فى أسبابه
٣٨٤ الرشيد يزوج جعفر بن يحي أخته العباسة فيكون ذلك سبباً لنكبة البرامكة
٣٨٧ الإيقاع بالبرامكة
٣٨٧ الرشيد يأمر بقتل جعفر بن يحي البرمكى
٣٨٩ على بن معاذ الشاعر يرثى البرامكة
٣٩٠ سلم الخاسر يرثيهم
٣٩٠ سلم الخاسر يرثى البرامكة أيضاً
٣٩١ صالح الأعرابى يرثيهم
٣٩١ أبو حزرة الأعرابى يرثيهم
٣٩١ أشجع يرثيهم
٣٩١ دعبل يرثيهم
٣٩٢ أشجع يرثيهم أيضاً
٣٩٢ الفضل بن يحي وأبوه فى السجن
٣٩٢ عبادة أم جعفر بن يحي البرمكى، وحالها بعد زوال عز البرامكة
٣٩٢ نصيحة بعض أعمام الرشيد ليحي البرمكى وقد خاف الإيقاع بالبرامكة
٣٩٣ الرشيد يأمر بضرب يحي مائتى سوط لإخفائه أمواله عنه ، وما حدث ليحي بسبب ذلك
٣٩٦ ذكر خلافة محمد الأمين
٣٩٦ مجمل تاريخه
٣٩٧ رؤيا زبيدة حين حملت بالأمين، ورؤياها حين ولدته

ص الموضوع

٣٩٨ موت أبى بكر بن عياش
٣٩٨ الأمين يفكر فى الغدر بأخيه ويشاور فى ذلك قواده وبعض خلصانه
٣٩٩ الحرب بين فريقى الأمين والمأمون
٤٠٠ كانت أم جعفر لا تحمل، فلما تسرى الرشيد بأم المأمون غارت ثم ولدت
٤٠٠ الخلاف فى الذبيح من أبناء إبراهيم الخليل
٤٠١ وفاة عكرمة مولى ابن عباس ، وكثير عزة الشاعر ، والشعبى
٤٠١ جلس الأمين يوما مع إبراهيم بن المهدى وسليمان بن أبى جعفر ، ثم دعا جارية له تغنيه ، فتطير مما غنته به ،فطردها
٤٠٢ وفاة نظم أم ولد الأمين،وحزنه عليها، وتعزية زبيدة إياه
٤٠٢ الأمين فى آخر أيامه
٤٠٣ صفات الأمين
٤٠٣ شجاعه الأمين ، ومثل منها
٤٠٤ كان بنو هاشم يعلمون فساد دولتهم بمقتضى كتاب يقرؤونه
٤٠٤ العهد الذى علقه الرشيد فى الكعبة حين ولاية الأمين والمأمون عهده
٤٠٤ أم جعفر زبيدة وجزعها حين رأت أنه قد أحيط بولدها الأمين
٤٠٥ ليس فى الخلفاء من أمه وأبوه من بنى هاشم ، إلا على بن أبى طالب والأمين بن هارون الرشيد

Marfat.com

ص	الموضوع
٤٠٥	موت عبد الملك بن صالح
٤٠٥	الأمين يأخذ البيعة لابنه موسى الملقب بالناطق بالحق ، وشعر قيل فى ذلك
٤٠٦	هزيمة جيوش الأمين ، وأثرها
٤٠٧	آخر خطبة للأمين
٤٠٨	كتاب من الأمين إلى طاهر بن الحسين
٤٠٩	فرق الأمين على المحدثين من قواده خمسمائة ألف درهم ، وقارورة غالية ، فتألم الباقون القدماء
٤٠٩	طاهر يحاصر أهل بغـــداد ، فيلقون من ذلك جهدا عظيما ، وما قيل فى ذلك من الشعر
٤١٢	اشتداد أمر الحرب ، وما قيل فى ذلك من الشعر
٤١٥	انتهب أصحاب الأمين الأموال لضيق حالهم
٤١٧	أراد تجار بغـــداد أن يكتبوا لطاهر بن الحسين ، ثم امتنعوا خوفا من جند الأمين
٤١٧	معركة أخرى بين الفريقين ، وما قيل فيها من الشعر
٤٢٠	مقتل الأمين
٤٢٣	رأس الأمين بين يدى أخيه المأمون بخراسان ، بعد أن وضع بين يدى طاهر بن الحسين ببغداد
٤٢٣	أم جعفر زبيدة أم الأمين ترثى ولدها بعد مقتله
٤٢٣	لبابة زوج الأمين ترثيه
٤٢٤	زبيدة أم الأمين وقد رغب إليها بعض خدمها أن تطالب بثأره بعد مقتله

تمت فهرست الجزء الثالث من كتاب « مروج الذهب ، للمسعودى »
والحمد لله أولا وآخرا ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه

Marfat.com

Marfat.com